د. خالد بن سعود الحليبي

اصنعيني.. يا أماه

100 أم صنعت
100 عظيم

أيها المتصفح الكريم.. ربما.. أضمن لك ألا تمل.. لكني لا أضمن لك ألا تبكي!

الطبعة الثانية
دار الحضارة للنشر والتوزيع

إهداء

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

اصنعيني.. يا أماه

100 أم صنعت 100 عظيم

د.خالد بن سعود الحليبي

ⓗ دار الحضارة للنشر و التوزيع، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحليبي، خالد بن سعود بن عبدالعزيز
اصنعيني يا أماه ١٠٠ أم صنعت ١٠٠ عظيم./ خالد بن سعود بن عبدالعزيز الحليبي- ط٣- الرياض ١٤٤١هـ
ص ٤٣٤؛ ١٥×٢١سم
ردمك: ٧- ٥٠- ٨٢٩٠- ٦٠٣- ٩٧٨
١-الأمهات ٢- التربية الإسلامية أ- العنوان
ديوي ٢١٢,٢ ١٤٤١/٥٧٩٩

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثالثة
١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

رقم الإيداع: ١٤٤١/٥٧٩٩
ردمك: ٧- ٥٠- ٨٢٩٠- ٦٠٣- ٩٧٨

تصميم و إخراج مصطفى حسن
0500594538
Mustafa-h123 @hotmail.com

دار الحضارة للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض
daralhadarah@hotmail.com
الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 2702719 – 011
@daralhadarah 0551523173
زوروا متجر الحضارة: hadarah.store
متجر الحضارة
HADARAH • STORE

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ
أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾

إهداء

إلى حبيبتي .. أمي

منيرة بنت زيد الحليبي آل بن زيد

طفلك/ خالد

إقــــــلاع

نَظَرَت إليه..

طار صوبُها..

ركضت نحوه تعدو.. تعدو..

أمسكت به.. ضمته بشده.. وجعلت تشمه وتقبله.. وتقبله..

وبعد عناق حار.. دفعته بين يديها وهي تنظر إليه وقلبها العاشق يدندن:

يــا حبــذا ريــحُ الـــولـدْ
ريــحُ الـخُزامــى في البــلد

أهـكـــــذا كـــلُّ ولـــدْ
أم لـــم يـــلدْ مثـلي أحــد

بل وُلد لمثلك ملايين، والعجب أنهن كلهن يقلن ما تقولين..

ما أعظمَ الأمومة!!

(اصنعيني يا أماه) سلسلة من القصص والوقائع والنماذج العليا؛ تقربنا ممن نحب، وتضيف إلى أهدافنا في تربية أولادنا أهدافًا عليا أخرى، وتجعل ما كُنَّا نراه تاريخا، أو خيالا.. واقعا ملموسا.. يمكننا الوصول إليه بإذن الله تعالى؛ راجيا من الله العلي القدير أن يبارك في هذا العمل، وأن يجعله انطلاقة جديدة لعلاقة أكثر جدوى ونفعا وسعادة مع أولادنا.

ومنهجي في هذا الكتاب ليس أكاديميًا وإن كنت أكاديميًا، إنما أردته عفويًا.. يقوم على التقاط المواقف من داخل البيوتات النبيلة، تلك التي نبتت فيها طَلعةُ رجلٍ، أو مُحيًّا امرأة حقق الله بهما إرثًا حضاريًا، أو نجاحًا مميزًا.

وتركت استنباط الدروس المستفادة منها للقارئ الحاذق والقارئة النابهة؛ لتحقيق الهدف العظيم من هذا الكتاب، وهو نَصبُ النماذج العليا من المجتمع البشري عموما ، وإن كنت أعتزُّ بديني وهُويتي الإسلامية، ووطني المملكة العربية السعودية، ولكن النجاح لا وطنَ له، والإبداع لا يُؤطَّر، والتربية الإنسانية متشابهة، ويظل التميز في منهج حبيبي ﷺ التربوي، الذي وجدتُه منهجَ كثير من أمَّهات العالم الناجحات، علِمنَ ذلك أم لم يعلمن.

سعيت -ما استطعتُ إلى ذلك سبيلا- إلى توثيق ما رويت من المواقف، سواء أكان ذلك من الكتب، أم من الشبكة العالمية، أم ممن شافهتُهم مباشرة.

كما وثقتُ جميع النصوص التي استشهدتُ بها، من القرآن الكريم، والسنة المطهرة؛ والتزمت بالصحيح منها.

ليس هذا كل الكتاب.. بل هو الورقة الأولى منه..

وأما صفحاته، فستظل تكتبها كلُّ أم طموح في العالم، تعلق طرفُها بالسماء.. كلُّ أم تريد أولادَها أن يكونوا من أصفياء الله تعالى في أرضه، ومن أعلام عصرهم المؤثرين فيه.. لا تلك الأم القنوع التي لا ترجو سوى أدنى درجات النجاح لأولادها، ولا ترى السعادة لأولادها إلا

مجرد استمتاع بالحياة وملذاتها؛ وقد قيل: «إن الأبطال يصنعون ولا يولدون».

تلك التي التفتت إلى الخصوصية التي منحها الباري عز وجل لها حين قال:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان:١٤]. فإن ذلك ليس حثًّا للولد على بر الأم فحسب، وإنما يتضمن حثَّ الأم على أن تكون أهلا لهذا البر؛ بقيامها بواجبها العظيم تجاه أولادها.

تلك الأم العملاقة التي تعرف أنها ـ كما قال نابليون ـ «تهزُّ سريرَ ابنها بيمينها؛ لتهز العالم بيسارها، فإنه من القواعد المقررة أن عظماء الرجال يرثون عناصر عظمتهم من أمهاتهم».

و«العظماء الحقيقيون هم: الذين يحدثون في التاريخ تغيرات فكرية وأخلاقية وإنسانية عظيمة تليق بالإنسان، وتعزز قيم الحق والخير والعدل والفضيلة»(١).

لن أطيل مقدمتي.. بل سأترك القاريء يُقلع إلى حيث أجواءُ الأمومة المبهرة، تلك القوة الناعمة، والرحمة الحازمة، فإلى هناك..

د.خالد بن سعود الحليبي

الأحساء ١١/ ٥/ ١٤٤٠هـ (١٧/ ١/ ٢٠١٩م)

(١) حساب كرسي الأمير نايف لغرس القيم على تويتر.

﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ
كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ
أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ
عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي
ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ
ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحقاف:
الآية ١٥-١٦].

١

لماذا الأمهات.. وليس الآباء..

سؤال مشروع، لا تجيبه سيرُ معظم العظماء فحسب؛ حيث تختفي فيها أو تخفَّت بين أحداثها صورُ الآباء إلا قليلا، بينما تسطع شموس الأمهات، ولكن هناك أسباب أخرى أجملها في التالي:

أولها: عدم التفات بعض الآباء إلى تربية أولادهم؛ بسبب انشغالهم بطلب الرزق، أو لغير ذلك من أسباب، أو غيابهم بموتٍ أو غربةٍ دائمةٍ أو مرضٍ مزمنٍ أو سجنٍ أو نحو ذلك، فتتقمص الأم الناضجة دور الأب إلى جانب دور الأم، بدلا من أن تُضيعَ أولادَها، أو تدخل في مشاكسات لا تنتهي مع الأب ليعود إلى دوره، أو تستسلم للهم والحزن عند فقد الأب، فتضيع، وتُضيِّع ولدها. وإن كثيرا من العظماء في الأرض «فقدوا آباءهم، أو لم يعرفوهم، فأصبحوا بلاعائل، و تُركوا أمام الدنيا كجنديٍّ بلا سلاح، وكقُبطان بلا سفينة، تأخذهم المصاعب، وتتلاعب بهم المتاعب، إلا أنهم علموا أنهم ما خُلقوا لذلك، وأن الله تكفل برزقهم، وأمدهم بالحياة ليخوضوا غمارها بحثا عنه، فلم توقفهم العقبات، ولم تحل دون ما أرادوه المصاعب والأزمات، ولم يختبئوا خلف يُتْمهم، ولم ينتظروا رأفة الآخرين وإحسانهم، وعلموا أن الحياة مغامرة مثيرة أو لا شيء، وأن الوصول إلى القمة يتطلب السير في القاع.. وفي النهاية حققوا

ما لم يحققه غيرهم، وأنجزوا ما عجز عنه الآخرون؛ ليسجلوا أسماءهم على نجوم الإبداع، وصفحات التاريخ .. إنها العظمة بحق»[١].

ثانيها: عشرات الأعلام تربوا على أيدي أمهاتهم، وتواترت وتشابهت أقوالهم: «**أمي هي التي صنعتني**».

ثالثها: أن الأم ألصق بالولد من الأب؛ بحكم مكثها في المنزل لمدة أطول، ولقربها النفسي منه، وقربه هو منها أيضا. والعرب حين يرون من نجيبٍ من الأذكياء ما يعجبهم يقولون: لله دَرُّك، فيمدحون (الدَّرَّ) وهو الحليب الذي رضعه، لا الأبَ الذي أنفق عليه، و«**ليس في العالم وِسَادَةٌ أنعم من حضن الأم**»؛ **كما يقول شكسبير. ولكن لا بد أن نقرر بأن «الوالدين ليسا وجهين لعملة واحدة، بل هما كيانان مستقلان يُسهم وجودُهما في إشباع الحاجات الاجتماعية والنفسية للأبناء، ولذا من الصعب أن يتبادلا الأدوار بنجاح»**[٢]؛ ولذلك يقول بعضهم: «**الأم أقوى عاطفة نحو الصغير، والأب أقوى إدراكا لمصلحته، ومن رحمة الله به توفيرهما له معًا**»، ومما يشفع لهذه المقولة من الواقع، ما قاله الدكتور محمد السلومي عن أمه: «كانت الوالدة -رحمها الله- بتربيتها لنا تمثل

(١) أيتام غيروا مجرى التاريخ لعبد الله صالح العبيكان، الرياض، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م: ١٢-١٣.

(٢) مجلة جودي، العدد الأول، شوال ١٤٢٠هـ يناير ٢٠٠٠، وراء كل عظيم أم- اصنعي من طفلك إنسانًا. وصفة غنية ومتكاملة يقدمها: خالد الدحيان، ورائد الشي: ٢٤.

الجانب الناعم؛ لتتكامل مع تربية الوالد المتصف بالقوة والحزم، وكلاهما يمثلان منهجا تربويا متكاملا لا غنى لأسرة عنه، وكانت برقتها وعطفها وحنانها ويديها الحانيتين تمتص كل ما قد يعلق في نفسي ونفوس إخواني من شدة والدنا **مما** يوقعه من عقوبة **نراها تلك** الأيام بإحساسنا القاصر ـ منافية للتربية وأصولها، لكن هذا الاختلاف في الأسلوبين كانا حقا عنصرين تتكامل بهما التربية وتؤدي بهما التربية، وتؤدي دورها المنشود، وقد فعلت وأدت دورها بحمد الله»[١].

رابعها: أن الأم لها حق البر والصحبة أكثر من الأب كما في حديث البخاري المشهور عن رسولنا ﷺ: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «**يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمُّك، قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: ثم أمُّك، قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: ثمأمُّك. قال: ثم مَنْ؟ قال: ثمَّ أبوك**»[٢] لذلك على الأم أن تستشعر قدر الأجر الذي سوف تحصل عليه وهي تقوم بتربية أولادها، والسعادة الغامرة التي تكتنفها وهي ترى أثر ذلك في برهم لها، ونجاحهم في الدنيا، وصلاحهم وفلاحهم في الآخرة إن شاء الله.

(١) أمي مدرستي (نورة بنت عبد الله بن صالح العضيب الشارخ) ١٣٥٢- ١٤٣٠ هـ للدكتور محمد بن عبد الله السلومي، نشره مركز القطاع الثالث للأستشارات والدراسات الاجتماعية، الرسالة: ١، ط:٢٠١٣،٢م، ١٤٣٤ هـ، ص:٣٤.

(٢) رواه البخاري (٨/ ٢) ح (٥٩٧١) ومسلم (٤/ ١٩٧٤) خ (٢٥٤٨).

٢

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾

نبي الله موسى عليه السلام .. وأمه

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طـه: ٣٧-٤١].

المهمة العظيمة المحفوفة بالصعوبات، تحتاج إلى اصطفاء، ثم إلى تربية، ثم إلى تدريب خاص، وتهيئة نفسية، وإعداد حافز، وكل ذلك لن يكون كافيا إلا إذا كان في معية الله تعالى، فكيف بمن اصطفاه مولاه طفلا، وبدأت معه المشاق والأخطار والتهديدات رضيعا؛ قتلٌ بالسيف، يُقَاومُ بالقذف في البحر: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى﴾ قذف وليس وضعا برفق، وقذف -مرة أخرى- وليس إنزالا بهدوء، والخوفُ يضرب أطنابه من حول الأم الرؤوم الواجفة الراعفة عطفا وحنانا ومودة وحبا، على طفل بلا حول ولا قوة .. ولكن .. تحفه قوةُ ربِّ الكون كله لتقيَه من كل سوء مطلق، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾، هكذا ﴿مِّنِّى﴾، **(اللدُنِّية)** والهدف

الربَّاني يسطع، والقدر الغلاب يبرق: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾، إذن لابد من الصناعة بعد الولادة، فالقدرات الكامنة في النفوس العظيمة، لا تكفي؛ لتحقق واقعا مبدعا وعظيما، بل.. لابد من (**الصناعة**).

وإذا علمت ما قاله أبو عمران الجوني عن معنى ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ وأنه «تَرَبَّى بعين الله»[1]. وما نقله الإمام الطبري: «**ولتُغذَّى وتُربَّى على محبتي وإرادتي**»[2]، وأدق منهما ما فصَّله ابن عاشور صاحب التحرير والتنوير: «**جُعل الأمران إتماما لمنة واحدة؛ لأن إنجاءه من القتل لا يظهر أثره إلا إذا أنجاه من الموت بالذبول لترك الرضاعة، ومن الإهمال المفضي إلى الهلاك أو الوهن إذا ولِيَ تربيتَه من لا يشفقُ عليه الشفقة الجِبِلِّية. والتقدير: وإذ تمشي أختُك فتقول هل أدلكم على من يكفله لأجل أن تصنع على عيني. والصنع: مستعار للتربية والتنمية، تشبيها لذلك بصنع شيء مصنوع، ومنه يقال لمن أَنعم عليه أحدٌ نعمة عظيمة: هو صنيعة فلان**»[3].

تأمل معي كيف سيُصنع بشرٌ على عين الله تعالى ورعايته، جاء الظرف

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية الإسلامية، ١٤٢٤ هـ (٢٠٠٣م)، بالقاهرة: ١٠/ ١٨٧.

(٢) جامع البيان عن تأويل آيات القرآنللإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية الإسلامية، بالقاهرة: ١٤٢٢هـ (٢٠٠١م): ١٦/ ٥٩.

(٣) التحرير والتنوير: تحرير المعنى الشديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، دار سحنون، تونس: ص: ١٧/ ٢١٨.

(إذ) ليقول – و الله أعلم – إن هذه الصناعة المقصودة لهذا الإنسان العظيم، تتم أول ما تتم في حضن امرأة عظيمة، إنها (**أمه**)؛ قال تعالى: ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾، قال الألوسي في روح المعاني: «**وقتٌ وقعَ فيه مشي الأخت وما ترتب عليه من القول والرجع إلى أمها وتربيتها له بالحنو، وهو المصداق لقوله تعالى:** ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾؛ **إذ لا شفقة أعظم من شفقة الأم، وصنيعها على موجب مراعاته تعالى**»[1]، ثم بعد أن عدَّدَ مِنَنَهُ عليه رجع إلى ذكر الصناعة لشخصيته الفذة فقال: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾.

من هنا أنطلق من هذا العنوان الذي وضعته لهذا الكتاب: (اصنعيني يا أماه).

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للسيد محمود الألوسي، مكتبة دار التراث، بالقاهرة: ١٩/ ١٦.

٣

حكاية للأمهات فقط..

دخل الفصلَ مبادرا بإلقاء التحية على طلابه الذين يحبهم جميعا؛ كما يحب ابنَه محمدا الجالس معهم، واجه طلابه وبدأ يتحدث إليهم: سنتحدث اليوم عن أهم وأحب إنسانة في الوجود؟ من يقول لي من هي أهم وأحب إنسانة في الوجود؟

- لم يرد أحد..

استدار جهة السبورة ووضع خطين باللون الأحمر تحت كلمة (الأم) وأعاد السؤال مرة أخرى، وارتفعت أيادي الطلاب وأصواتهم:

- أنا يا أستاذ... أنا..
- تفضل يا أحمد.
- الأم.
- ممتاز. أحسنت يا أحمد. نعم الأم، لا يوجد في هذه الدنيا يا أبنائي من يحب إنسانا ويخاف عليه كما تحب الأم ابنها وتخاف عليه، ولعلكم لمستم ذلك بأنفسكم، فمن الذي يحبكم ويحنو عليكم ويرعاكم؟ ومن الذي يخاف عليكم إذا مرضتم؟ ويتمنى لو يفديكم بروحه ويبيت الليل كله مستيقظا؟ أليست الأم؟

وفكر في تحديثهم عن أمه هو، كم سهرت وكافحت وتعبت حتى

ربته بعد موت والده، وكم من القيم النبيلة غَرست في نفسه.

لكنه رأى أن يتحدث إليهم من خلالهم، لذلك قال لهم:

انظروا إلى أمهاتكم في البيوت، من التي تعدُّ الطعام، وتغسلُ الثيابَ وتطعمكم وتسقيكم وتنظفكم وتغطيكم في الليل إذا نمتم؟ من التي تخاف عليكم إذا مرضتم؟ وتفديكم بنفسها وتعطيكم الدواء في موعده؟ وتبيت الليل ساهرة. إنها الأم.

تحرك اتجاه حقيبته. أخرج منها ورقة صغيرة ومجموعة من ظروف الرسائل بعدد طلاب الفصل.

- كلُّ واحد منكم يخرج ورقة ويكتب عليها اسمه. سأملي عليكم رسالة، وبعد أن أصححها لكم سأعيدها إليكم لتكتبوها من جديد خالية من الأخطاء. ثم سأعطي كل واحد منكم ظَرفًا يضع فيها الرسالة ليوصلها.

- إلى من نوصلها يا أستاذ.

- سأقول لكم فيما بعد.

شدتهم الفكرة فبادروا بإخراج أوراقهم وكتابة أسمائهم، لمس الأستاذ تهيأهم، بدأ يملي عليهم: (إلى الإنسانة التي تحبني وترعاني، وتتعب وتسهر من أجلي، إلى الإنسانة التي تعتني بطعامي وتغسل ثيابي، وتحرص على نظافتي، وتسهر على راحتي، وتربيني أحسن تربية، وتحبني أكثر من أي إنسان في هذه الدنيا، وتقضي كل وقتها معي،

إلى......).

أكملوا الفراغ، وسلموا أوراقكم لأتأكد من سلامة كتابتكم، بعدها سأقول لكم إلى من توصلونها.

جمع المعلم الأوراق أوراق طلابه وبدأ يقرأ: وحين وصل إلى الفراغ الذي تركه لهم ليملؤوه، أذهله الاسم المكتوب (روكميني) انتقل بسرعة إلى الورقة التالية، فهالته (ماما شاندي) المتربعة في آخر الرسالة.

أخذ يقلب الأوراق باحثا بعينيه المذهولتين عن الأسماء التي في الفراغ. تدلى فكه الأسفل، وحزت الدهشة حلقه، وغرست الأسماء في عينيه الجاحظتين أصابعها الغريبة: سارتيما، هيرلينا، براندي، سقياري، جيجي، سابرتينا...

بدأ قلبه يدق بعنف وهو يبحث عن ورقة ابنه محمد.. صُعق حين رأى اسم خادمته الأندونوسية (**سوامي**) يملأ الفراغ بكل وضوح[1].

---

(١) تلك التفاصيل، ١٤٣٢هـ، (دار كنوز أشبيليا) للنشر والتوزيع بمدينة الرياض، ١٤٣٢ هـ، قصص قصيرة، د.حسن حجاب الحازمي، ص: ٩٣ - ٩٨.

٤

نعمة الأمومة.. وحسرات المقصرات

يقول ماري هوبكنز: «الأُمُومَة أعظمُ هِبَةٍ خَصَّ الله بها النساء»، وحتى تعلمي ـ أختي الكريمة ـ هذه النعمة التي أنت فيها، رغم التعب والنصب الذي تلقينه من تربية الأولاد، استمعي إلى هذه الأم التي لم تتذوق طعم الأمومة، ماذا تقول؟:

«أنا أم غير صالحة إذ إنني لا أهتم بشؤون أطفالي، والخادمة هي التي ترعاهم من جميع النواحي؛ فهي توقظهم صباحا وتجهزهم للانطلاق إلى مدارسهم، بينما أكون أنا في نوم عميق، وهي التي تعد لهم طعام الغداء وتضعه أمامهم عند عودتهم إلى المدرسة، كما أنها تجلس معهم عند أداء واجباتهم الدراسية، وترسم للأول الخريطة في دفتر الجغرافيا، وتسطر للثاني دفاتره، وترسم للثالث في كراسة الفنية، وبعد الانتهاء من الواجبات تشرف عليهم أثناء استحمامهم، ثم تجهز لهم طعام العشاء، وتُلبسهم ملابس النوم، وقد تتساءل أين أنا؟ وسأجيبك بأنني موجودة جسدا فقط دون إحساس؛ حيث أقضي وقتي بمشاهدة التلفاز أو قراءة المجلات أو الحديث بالهاتف أو النوم، أو الخروج مع الصديقات.. أنا أتعذب من داخلي وضميري يؤنبني، وقد حاولت تغيير نظامي فلم أتمكن، أما بالنسبة لزوجي فهو مشغول طوال الوقت في عمله، ثم في السهر مع أصدقائه إلى الفجر، ألست ترى أنني أم سيئة، ولا أستحق

نعمة الأمومة ساعدني لأحسن من نفسي»[1].

هذا البوح الحزين يوقظ في خاطري أبياتا للشاعر أحمد شوقي يقول فيها[2]:

لَيسَ اليَتيمُ مَنِ اِنتَهى أَبَواهُ مِـن
هَـمِّ الحَـياةِ وَخَلَّفـاهُ ذَليـلا

فَأَصـابَ بِالدُنيا الحَكيمَـةِ مِنـهُما
وَبِحُسـنِ تَربِيَـةِ الزَمـانِ بَديـلا

إِنَّ اليَتيـمَ هُـوَ الـذي تَلقـى لَـهُ
أُمّـًا تَخَلَّـت أَو أَبـًا مَشـغولا

وأم أخرى تشكو بشكوى أخرى؛ لتمثل لنا صورة أخرى لبعض الأمهات؛ تقول: «عندما أعود إلى البيت [من عملي] منهكة لا أسمع إلا أمي أريد كذا، وأمي حدث لي كذا وغيرها من الشكاوى والتعليقات التي تؤكد المثل الشعبي: إذا شفت أمي شفت همي، أشعر أنني مضغوطة وعاجزة عن فعل أي شيء، ولكني أحبهم، ومستعدة أن أقدم لهم حياتي».

هذا الشعور بالعجز لا ينبغي لأم تحب أولادها كل هذا الحب، وهي التي يقول فيها الشاعر اللبناني أحمد تقي الدين[3]:

---

(١) تحقيق عن الأمومة، جريدة اليوم: ١٤٢٥/٩/٥ هـ، العدد: ١٤٤٩.
(٢) الشوقيات، ديوان أحمد شوقي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان: ١/ ١٨٣.
(٣) من قصيدة: (العلم بعد محاسن الأخلاق).

الأم مدرسـةُ البـنينَ وحسبُهم
أن يغتـدوا مـن ثـديها المهـراق

هـي تُرضـعُ الأجسامَ والأرواحَ مـا
في صـدرها مـن صحـة وخَـلاق

فـإذا هي انحّطتْ فنشءٌ خامـلٌ
وإذا ارتقـتْ.. بشِّـرْ بنـشءٍ راقـي

الطفـلُ مثـلُ الشـمع لَـدْنٌ فاطبعي
يـا أَمُّ فيـه محاسـنَ الأَخـلاق

ربما تغبط (أمٌّ) أضنتها التربيةُ (أمًّا) تهمل أولادها؛ لأنها مرتاحة البدن، ولكني أظنُّ أنها رأتها هنا من الداخل؛ كيف أنها معذبة الروح، وإن أبدت أمام جليساتها راحتها وتنعمها؛ لأنها أحست بعدم قيمتها في نفسها.

ولكل أم أضع هذه الأحرف المضيئة لرجل عُرِفَ بأنه جعل حياته كلَّها في خدمة دينه ووطنه والعمل الخيري، وكل الأحدَ عشرَ رجلا وامرأة الذين ربَّتهم (نورة العضيب الشارخ) كذلك، يقول الدكتور محمد السلومي: «لقد كانت الوالدةُ مدرسةَ الحياة لي شخصيا، شعر الناس بهذا أم لم يشعروا، فأنا أولا وآخرا نتاج تربية نفسية واجتماعية حصرية للوالدين، لم تكن المؤثرات الخارجية من إعلام وتعليم ذاتَ أثر كبير فيه؛ مقارنة بمدرسة **(البيت)** **(مدرسة الحياة)** **(مدرسة الصبر والكفاح)**»[1].

(١) أمي مدرستي للدكتور محمد السلومي: ٣٤ .

٥

بوح البنوة المعذبة..

اسمعي أنين الأبناء وهم تحت ضغط الأم الغضوب، فربما استحى ابنُك منك فلم يَبُحْ لك بذلك، يقول أحدهم: «مللت من بيتي وأسرتي بسبب والدتي، فكثيرا ما تغضب مني بسبب أو بدون سبب، ليس مني فقط بل مع جميع العائلة، حتى مع الخدم، مللت وأنا أتحمل هذه المرأة لدرجة أصبحت أنظر أنها أم بالاسم فقط؛ لا يوجد لديها حنان ولا حب.. بل أوامر فقط. إن اتصلت بي نظرت شاشة جوالي بتشاؤم، ويأتيني الهم مباشرة، بل إني لأبكي أحيانا إذا ذكر لي أصحابي البيت، لا تكاد تُقَبِّلُني إلا في السنة مرة، ثم أحس في داخلي أن القبلة ستتحول إلى صراخ وغضب، وإنْ كلمتُها لا تنظر إلي، مللتُ من كثرة التحمل، وبعضٌ من إخوتي يشكون المصيبة نفسها، إنها تعطي إرشادات لصديقاتها في التعامل مع أبنائهن؛ وهي لا تتعامل بمثل هذي الإرشادات، حدث أن فكرتُ مرةً وأنا في صِغَري في الانتحار بسبب هذه المرأة، لا أدري ماذا أفعل»[(١)].

واسمعي أنين البنات؛ تقول إحداهن: «حكايتي في أمي التي تكره البنات وتعاملنا معاملة سيئة وتعامل الأولاد معاملة أحسن بكثير؛ فهي تكرهنا لدرجة أنها تتمنى لنا الموت دائما، وتدعو علينا أن ربنا

(١) موقع المستشار، التابع لجمعية التنمية الأسرية بالأحساء.

يأخذنا، أنا لم أر أما في أمهات صديقاتي تعاملهن مثل معاملة أمي لي ولأختي، نشرب مَرارا، وكأن لنا ذنبا فى أننا خلقنا بنات، أمي تكرهنا لدرجة لا توصف حتى إنها تعاملنا كأننا جاريتان، وليس لنا من يقف بجوارنا. ومع كل ذلك فإننا لا نغضب الله في أي شيء والحمد لله. فكرنا في الهروب من المنزل كثيرًا، ولكننا نعود نفكر ونقول: إننا بنات، سنذهب إلى من وأين؟ أنا أعلم جيدا أنكم تظنون أنى أبالغ في كلامي هذا، ولكن يعلم الله أنها كرَّهت فينا إخواننا الصبيان، فهم لا يحبوننا من كثرة ما أمي تشتمنا، نرفع إلى الله همومنا جل جلاله»[١].

الأمومة شيء عظيم يستحق كل هذه الأتعاب اللذيذة، وهي أبرز ما يميز المرأة؛ يقول روبرت براوننغ: «الأنوثة فقط تعني الأمومة، فكل حب يبدأ وينتهي هناك، يطوف ما فيه الكفاية، ولكن بعد أن ينهي طوافه يلازم البيت»[٢]. إنها كما يقول الأستاذ محمد المجـــذوب: «روحٌ من السماء ترطب بنفحاتها جفاف الأرض بغير مقابل، ولا سبيل للاستعاضة عنها بشيء كائنا ما كان، ومن هنا كان فاقد هذه النعمة يتيما ولو في العَقْد العاشر من عمره»[٣].

(١) موقع المستشار.
(٢) متعة الحديث لعبد الله بن محمد الداود، الرياض، ١٤٢٩هـ (٢٠٠٨) دار الرواد للنشر، ط: ٩: ٢/ ١١٥.
(٣) ديوان أمي لعمر بهاء الدين لأميري، دار الفتح، دمشق، ١٣٩٨ هـ، ط: ١: ٢٨١.

٦

كيف تجني الأم متعة التربية؟

قد تشعر الأم بعناء التربية ومسؤولياتها، وخاصة إذا لم يكن الزوج شريكا حقيقيا في تربية أولاده؛ لأي سبب، ولكنها ستتحول إلى عمل يومي لذيذ؛ حين تشعر بأنها:

أولا: مسؤولية شرعية، وعبادة تؤجر (الأم) عليها:

يقول الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. ووقاية الأهل والأولاد من النار تكون بتأديبهم وتعليمهم فلا يسلم الإنسان إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه وفيمن تحت ولايته وتصرفه. هذا ما يقوله بعض المفسرين.

ويقول النبي الكريم ﷺ: «**كلُّكم راعٍ ومَسؤولٌ عن رعيَّتِه، فالإمامُ راعٍ ومسؤولٌ عن رعيَّتِه، والرجلُ في أهلِه راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والمرأةُ في بيت زوجِها راعيةٌ وهي مسؤولةٌ عن رعيَّتِها...**». [رواه البخاري][1].

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفطرةِ، فأبواه**

(١) رواه البخاري (٣/ ١٣٠) ح (٢٤٠٩)، ومسلم (٣/ ١٤٥٩) ح (١٨٢٩).

يُهَوِّدانِه، أو يُنَصِّرانِه، أو يُمَجِّسانِه...»(١).

ثانيا: منفعة في الدنيا والآخرة:

كم ستمكث (الأم) مع أولادها في الدنيا؟ عشرين سنة.. خمسين.. مئة.. ثم ماذا؟ حتما سيأتي اليوم الذي تودعهم فيه أو يودعونها، ولكنها تستطيع أن تبقى معهم أزمانا خالدة لا نهاية لها إن شاء الله، بأمر واحد، هو أن تعيش معهم على الإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٥٢/ ٢١].

كل أسرة مهددة بالتفكك يوم القيامة، إلا تلك التي التقت على الإيمان، فما أجمل اللقاء في الجنة بين مروجها وأنهارها، على سرر متقابلين.

بل إن (الأم) تستطيع أن تمدَّ حياتها في هذه الدنيا بأولادها؛ حين تربيهم على الطاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسانُ انقطع عنه عملُه إلا من ثلاثةٍ: إلا من صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له»(٢).

وأما إذا كانت الأم ترعى الأولاد بعد وفاة الأب فهي أجورٌ متعاقبة؛ مادامت ترعاهم وتنفق عليهم، عن أم سلمة قالت: «**قلتُ: يا رسول**

(١) رواه البخاري (٢/ ١٠٠) ح (١٣٨٥) ومسلم (٤/ ٢٠٧٤) ح (٢٦٨٥).
(٢) رواه مسلم (٣/ ١٢٥٥)ح (١٦٣١).

الله هل لي من أجرٍ في بني أبي سلمةَ أن أنفق عليهم؟ ولست بتاركتهم هكذا وهكذا، إنما هم بنيَّ. قال: نعم لك أجر ما أنفقتِ عليهم» [رواه البخاري ومسلم][1].

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: **«أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ، دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ...»**[2].

والأجر ثابت لكل أب وأم ينفق على أولاده وأهله، إذا احتسب ذلك عند الله تعالى، **فإن مما يضيع على العبد إذا لم يحتسبْه: النفقة والكسب.**

ثالثا: أن تكوني سرا من أسرار العظمة:

أصدقك القول؟!..

إن كثيرا من طاقات الأمة قُتلت في مهدها بأيدي أمهات جاهلات بحقيقة الإبداع والعظمة المخبوءتين في نفوس أطفالهن، بل إن رؤية الأم للحياة تتحكم كثيرا في مستقبل الطفل بعد تقدير الله تعالى، **وهذا نابليون القائد التاريخي الذي مرت به ملايين الهامات يقول: «مستقبل الولد هو من صنع أمه»**.

وقد بهرني الكاتب المبدع **علي بن جابر الفيفي** حين قال في مطلع كتابه الشجي: (سوار أمِّي): «أما أمي فلم تكن صاحبة مال؛ حتى تحقق أحلامي! ولكنها كانت صاحبة قلب عظيم، لما عجزت عن

(١) رواه البخاري (٧/ ٦٦) ح(٥٣٦٩)، ومسلم (٢/ ٦٩٥) ح (١٠٠١).
(٢) رواه مسلم (٢/ ٦٩١) ح (٩٩٤).

تحقيق أحلامي.. جعلتني حُلمها، وسعت في تحقيقي»[1] !!

هذا **الإمام المبجل أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري** رحمه الله، صاحب أبي حنيفة رحمه الله، يحكي أمره مع أمه فيقول: «توفي أبي إبراهيم بن حبيب وخلفني صغيرًا في حجر أمي فأسلمتني إلى قصار [خياط] أخدمه، فكنت أدع القصار وأمر إلى حلقة أبي حنيفة فأجلس أستمع، فكانت أمي تجيء خلفي إلى الحلقة فتأخذ بيدي وتذهب بي إلى القصار، وكان أبو حنيفة يُعنى بي، لما يرى من حضوري وحرصي على التعلم، فلما كثر ذلك على أمي وطال هربي، قالت لأبي حنيفة: ما لهذا الصبي فسادٌ غيرك، هذا صبي يتيم لا مال له، وإنما أطعمه من مغزلي، وآمل أن يكسب دانقًا يعود به على نفسه، قال شوقي:

وَإِذا النِساءُ نَشَأنَ في أُمِّيَّةٍ
رَضَعَ الرِجالُ جَهالَةً وَخُمولا

فقال لها أبوحنيفة: هو ذا يتعلم أكل (الفالوذج) بدهن الفستق، فانصرفت عنه وقالت له: أنت شيخ قد خرفت وذهب عقلك. قال أبو يوسف: ثم لزمت أبا حنيفة، وكان يتعاهدني بماله فما ترك لي خلة، فنفعني الله بالعلم ورفعني حتى تقلدت القضاء، وكنتُ أجالسُ هارونَ الرشيد وآكلُ معه على مائدته، فلما كان في بعض الأيام قُدِّم إلى هارون الرشيد (فالوذج) فقال لي هارون: يا يعقوب، كلْ منه؛ فليس يعمل لنا مثله كل

---

(٢) سوار أمي، لعلي بن جابر الفيفي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ط: ٣، ١٤٣٨هـ (٢٠١٧م)، ص: ١١.

يوم. فقلت: وما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذا فالوذج بدهن الفستق. فضحكتُ فقال: مم ضحكتَ؟ فقلت خيرًا.. أبقى الله أميرَ المؤمنين. قال: تخبُرني، ألحَّ عليَّ. فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها، فعجب من ذلك، وقال: لعمري.. إن العلم ليرفع وينفع دينًا ودنيا، وترحَّمَ على أبي حنيفة، وقال: كان ينظر بعين عقله ما لا يراه بعين رأسه"(1).

أمامك مثال حي، وعليك أن تختاري.. أن تكوني أنت وراء عظمة ولدك، أو قد يحظى بهذا الشرف الرفيع غيرك.

(1) تاريخ بغداد لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٤/ ٢٤٤، ووفيات الأعيان: ٦/ ٣٨٠.

٧

وراء كل عظيم أم عظيمة

يقول بيتشر: «قلب الأم مدرسة الطفل». سنأخذ ـ معنا ـ هذه الحكمة الغربية ونرحل إلى المدينة؛ حيث نشأ إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله تعالى في بيت علم ودين، فكان أبوه من رواة الحديث، وكان جده لأبيه من كبار التابعين، كما أن جد أبيه صحابي جليل، وكانت أمه من خيار الأمهات، ولذا اجتهدت في حثه على تحصيل العلم الشرعي، وتوصيته بالتعبد والسمت الحسن. يقول مالك: «قلت لأمِّي أذهبُ فأكتبُ العلم؟ فقالت: تعال فالبس ثياب العلم، فألبستني ثيابا مشمِّرة وعمَّمتني، ثم قالت: اذهب فاكتب الآن، قال مالك: كانت أمي تُعممني وتقول لي: اذهب إلى ربيعةَ فتعلم من أدبه قبل علمه»[١].

لَيسَ الجَمالُ بِأَثوابٍ تُزَيِّنُنا
إِنَّ الجَمالَ جَمالُ العَقلِ وَالأَدَبِ

لَيسَ اليَتيمُ الذي قَد ماتَ والِدُهُ
إِنَّ اليَتيمَ يَتيمُ العِلمِ وَالأَدَبِ

نعم الأدب قبل العلم يا أماه، فبالأدب نحصل على العلم، وبدونه لا سبيل إليه. وهكذا فليكن وعي الأمهات، ورؤيتهن للمستقبل، لقد صبغت هذه الكلمة حياة هذا الفتى حقيقة لا قولا، وواقعا لا خيالا،

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضي عياض، وزارة الأوقاف بالمغرب، ١/ ١٣٠.

فغدا مدرسة في الأدب ينهل طلابه من هيئته وسمته، وتقتبس الأمة من سيرته، بل حملها رسالة في حياته لتلاميذه من بعده فقال يوما لفتى من قريش: «يا ابن أخي تعلم الأدب قبل أن تتعلم العلم»[1] . صدقت فلا خير في علم امرئ لم يكسبه أدبا ويُهذبه خلق. وإذا حدثت الجفوة بين العلم والأدب فإنها تفرز أعرافا مرضيّة، منها: التهجم على العلماء، والتطاول على الفضلاء، وسوء الأخلاق، وشذوذ السلوك، وعقوق الوالدين، والتقليد الأعمى، ونزع البركة من العلم ذاته، يقول العَلَّامَةُ الأَدِيبُ مُحَمَّدُ البَشِيرُ بنُ مُحَمَّدٍ الإبرَاهِيمِيُّ رحمه الله تَعَالَىٰ -: «العِلمُ الخَالِي مِنَ التَّربيَةِ ضَرَرُهُ أَكثَرُ مِن نَفعِهِ، وَمَا أُصِيبَ المُسلِمُونَ فِي عِزَّتِهِم إِلَّا يَومَ فَارَقَتِ التَّربِيَةُ الصَّالِحَةُ العِلمَ، وَكَم شَقِيَ أَصحَابُ العِلمِ المُجَرَّدِ بِالعِلمِ وَأَشقَوا أُمَمَهُم؟، وَالسَّعَادَةُ غَايَةٌ لَا يُسلَكُ إِلَيهَا طَرِيقُ العِلمِ وَحدَهُ مِن غَيرِ أَن تُصَاحِبَهُ التَّربِيَةُ، وَأَنَّ الجَمعَ بَينَ التَّربِيَةِ وَالتَّعلِيمِ هُوَ وَظِيفَةُ النُّبُوَّةِ الَّتِي بَيَّنَهَا الوَحيُ فِي آيَةِ: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]»[2] .

إنها أمٌّ لا كالأمهات، أم عرفت أن ابنها مشروع علمي، ومورد عذب، وذكاء نادر، فجعلته همها الأهم، فأحسنت تربيته، ووفقت في تنشأته، ملتفتة إلى أعظم علماء عصره، فكان ربيعة الرأي؛ علمت هذه الأم وهي: (**عالية بنت شريك الأزدية**) أن ابنها ليس أقل من هذا العالم العظيم ربيعة لو أنه وجد منها ومن مجتمعها العناية الكافية.

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصفهاني، دار الفكر: ٦/ ٣٣٠.
(٢) آثَارُ الإِمَامِ مُحَمَّد البَشِيرِ الإِبرَاهِيمِي، جمع وتقديم نجله أحمد طالب، ١٩٩٧ م، دار الغرب الإسلامي، بيروت: ٤/ ١٧٣.

إذا ما عُـدَّتِ العلماءُ يومـا
فـمالِكُ في العلـومِ هو الضيـاءُ

تبـــوّأ ذِروةَ العلـماءِ قـــومٌ
فهـم كالأرضِ وهـوَ لهـم سـماءُ

لقد صدقتَ يا شاعر النيل حين باهيت بالأم فقلت:

الأُمُّ مَدرَسَــــةٌ إِذا أَعــــدَدتَها
أَعـدَدتَ شَـعبًا طَـيِّبَ الأَعـراقِ

الأُمُّ رَوضٌ إِن تَعَهَّـــدَهُ الحَيـا
بِـــالرِيِّ أَورَقَ أَيَّـــما إيـــراقِ

الأُمُّ أُســـتاذُ الأَســـاتِـذَةِ الأُلى
شَـغَلَت مَآثِـرُهُم مَـدى الآفـاقِ

وهكذا تربية النساء الجليلات، فقد نشأ **الإمام العظيم أحمد بن حنبل** في حضن أمه (**صفية بنت ميمونة الشيبانية**) بعد وفاة أبيه؛ فأصبح إماما من أئمة الدنيا؛ يقول رحمه الله: «حفظتني أمي القرآن وكان عمري عشرا، وكانت توقظني قبل الفجر، فتدفئ لي الماء إذا كان الجو باردا، ثم نصلي أنا وهي ما شاء الله لنا أن نصلي، ثم **ننطلق إلى المسجد وهي مختمرة لتصلي معي في المسجد، فلما بلغت السادسة عشر، قالت: يا بني سافر لطلب الحديث؛ فإن طلبه هجرة في سبيل الله**».

فلَرُبَّما اشتاقت كلُّ أمٍّ تسمعني أن يكون ابنها عالمًا كبيرًا، أو طبيبًا حاذقًا، أو داعيةً محبوبًا، أو مخترعًا مبدعًا، ولكنها قد صنفت ابنَها أنه دون

ذلك، فليس من بادرة تدل على ذكائه وإبداعه، وإنما هو مشاغب متعب، ومزعج لعَّاب، لا يرتاح ولا يريح، فتظن أنه غبي قاصر، وربما كان عبقريا عظيما، ولكنها تقمعه وتكرهه على الهدوء والاستكانة، وبين جنبيه طاقة خلاقة متوثبة، تحتاج إلى توجيه لا إلى كبت، إلى تبصير لا إلى تجهيل، إلى عناية وتشجيع، لا إلى تثبيط وتهوين من العزيمة الناشئة الطموح.

إن «الأم الطموح تُلقي في لا وعي أطفالها بذرة الأمل والحلم» هكذا يقول الخبراء المجربون، وليس لذلك علاقة بالعصر والمصر، وإنما الأمر متعلق بالأم وحدها، وقد اعترف آباء كُثُر بأن سرَّ نجاح أولادهم كان بسبب أمهاتهم وليس بسببهم، مع أن بعضهم معدود من الأعلام الناجحين، وقد رصدت عددا من هؤلاء، منهم **الشاعر الحجازي الرقيق يحيى توفيق**، في حوار أجرته معه المجلة العربية، فكان مما سألته: قدمتَ أحدَ دواوينك بإهداءٍ رقيق هو (إلى أمِّ الدكاترة)، وهذا يدفعني إلى السؤال عن دور الأسرة في حياة الشاعر؟ فأجاب: «بالنسبة لزوجتي -شفاها الله- فقد كانت أمّاً صالحة، وقد ربَّت أبناءها وبناتها تربية صالحة، فأنا عندي ابنتان وابنان ثلاثة منهم دكاترة وواحد مهندس، وهذا طبعا يعود إلى فضل (الأم) بالدرجة الأولى، والطموح لدى الأبناء والبنات بالدرجة الثانية، ولولا طموحهم ولولا حرص أمهم لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه، فابني الكبير يوسف استشاري بالأمراض الجلدية، وابنتي الدكتورة حنان، وابنتي الدكتورة نادية، جميعهم ـ ولله الحمد ـ ناجحون في أعمالهم وتخصصاتهم، وابني المهندس محمد ـ تبارك الله ـ ناجح، ويسير في حياته كما ينبغي ولله الحمد والشكر». ثم أضاف يؤكد هذا الدور الفاعل: «**ولاشك أن للأم دورًا**

كبيرًا جدًّا في توجيه الأبناء وتربيتهم، ولها أيضًا دور مهم في تهيئة الجو المناسب للشاعر لكي يمارس إبداعه»[1] .

ولا أكاد أعثر على شهادة من الولد المبدع لأمه أكثر تكرارا فيما رأيت واطلعت وبحثت من أنها كانت امرأة صالحة، وما أجمل هذه الرسالة من أمّ الحسن البصري إلى كل امرأة: قال الحسن: «سألتني أمي: أتدري ياحسن لماذا أنت حسن؟ قلت: لماذا؟ قالت: والله، ما أرضعتك إلا وأنا متوضئة».

(الأم) هي الكلمة الوحيدة التي عبرت القارات، واتحدت فيها اللغات، ونبتت على الشفاه الغضة كما تنبت الزهرات البرية، بكل عفوية، كلمة تتورد بالطهر، وتتفجر بالحب، وتتدثر بالحنان، صدرها أوسع مما بين المشرقين والمغربين وهي تضمُّ إليه طفلها، فيبدو وقد أصبح قطعة من جسدها، تتلاشى كل المسافات، وتمحي كل المساحات.

لا تقدم الحليب إلا وروحها مغموسة فيه، فتحيا به تلك النَّسمة الطاهرة، وتورق فيها رياض العلوم النافعة، والأخلاق الرفيعة، حتى -لربما- اهتزت يوما بغيث هتان، فربت، وأنبتت من كل زوج بهيج.

الأم المربية: رائحتها تربي في طفلها الذوق، ونظراتها تزرع فيه الأمل، وقبلاتها شفاه باسمة ناطقة بلا صوت، تهتف بلغة لا يعرفها سوى ولدها: إني أحبك.

كل ذلك.. لا يقل أهمية عن المعلومة التي تقدمها له؛ ليكون بها عالمًا، مخترعًا، مبدعًا، خطيبًا، مهندسًا، إعلاميًا، معلمًا مربيًا، سياسيًا صادقًا، تاجرًا ناجحًا...

---

(١) المجلة العربية، العدد: ٢٩٤ ، رجب ١٤٢٢هـ (أكتوبر ٢٠٠١ م).

٨

عظماء العالم يقولون: أمي هي التي صنعتني

لا بد أنكِ سمعت **بالمخترع العالمي توماس أديسون**.. وإن لم تسمعي به فانظري إلى أي مصباح من حولك؛ ليذكرك بأنه هو الذي هُدي لاكتشاف سره، واختراعه فضلا من الله على البشر.

عندما كان أديسون صبيا، كان بالغَ الكسل في المدرسة، بل كان يطرد دائمًا عندما يفشل في دروسه كلها. فكانت أمه تُرجعه إلى المدرسة بتوسلات ووسائط حتى -أخيرًا- لم تعد المدرسة تقبله بأية حال من الأحوال، فأخذته أمه بيدها راجعة إلى البيت وحولها أولاد المدرسة يصيحون بها: (يا أم الكسلان.. يا أم الكسلان..)، ويكررون الصياح ضاحكين هازجين. ولكنها لم تيأس، بل تحدت النوائب والخطوب، بصلابة وقوة، جعلتها تقف شامخة أمام مصيبة ولدها في المدرسة وخسارته لمستقبله، فاشترت له ما يلزم من الكتب، وراحت تعلمه كل البرامج المدرسية بجد واجتهاد وصبر وإرادة، لا توجد إلا عند **(حواء)** العاطفية الذكية الخلاقة المبدعة؛ التي تذيب نفسها كالشمعة لتنير طريق من تحب.

وأمام هذا الجهد الجبار، كانت المصيبة تتراجع شهرًا بعد شهر، وسنة بعد سنة، حتى وجدت من ولدها ذلك العالم المفكر الجاد الراسخ في

مجال الاختراع وإنارة الطريق أمام الفكر الإنساني المتوثب الصاعد[١].

لو أن أمَّ (**توماس ألفا أديسون**) عدَّت ولدها مشروعا فاشلًا، لاستسلمت للفشل، ولأصبح ابنها رقما تافها في إحصاءات التائهين في شوارع أمريكا، لكنها أبت ذلك، فنهضت به، وصنعت منه مشروعًا إنسانيًّا عظيما، بلغت اختراعاته (**١٠٩٣**) اختراعا، نفع الله بها الإنسانية كلها، ولم ينس توماس أديسون فضل أمه، بل كان يقول بالحرف الواحد: «**إن أمي هي التي صنعتني، لأنها كانت تحترمني وتثق في، أشعرتني أنى أهم شخص في الوجود، فأصبح وجودي ضروريا من أجلها وعاهدت نفسي ألا أخذلها كما لم تخذلني قط**»[٢].

ومثله قال إبراهام لينكون أو إبراهيم لنكن الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية: «**إني مدينٌ بكل ما وصلت إليه وما أرجو أن أصل إليه من الرفعة إلى أمي الملاك**». وهو من عائلة الكنيسة المعمدانية التي كانت تتقيد بمعايير أخلاقية، وتعارض شرب الكحول والرقص والرق والعبودية.

ومثلهما: قال نابليون بونابرت القائد الفرنسي التاريخي: «**إنني مدين لأمي بكل ما حزتُه من الفخار، وما فزت به من العظمة، لأن نجاحي** كان ثمرة مبادئها القويمة وآدابها السامية». ومثله قال جون كوينسي آدامز، الرئيس السادس للولايات المتحدة الأمريكية بالفترة بين عامي

(١) وراء كل عظيم امرأة صدى الماضي أم الحاضر سلوى الحوماني موقع لحواء.
(٢) ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

١٨٢٥م إلى ١٨٢٩م: «كل ما في كياني من صنع أمي، ولأمي الفضل فيما أدركته»[١].

نعم حين تعرف الأم واجبها تصنع العجائب، وإذا كان مثل أديسون قد أظهر بلادة وفشلا ذريعا فيما يعد مؤشرا قويا على درجة انحطاط الذكاء في بداية أمره، فكيف حين يكون الابن قد بدت إمارات الذكاء والنجابة على ملامح وجهه، ونضحت على كل سلوكياته:

نعـم الإلـه على العبـاد كـثيرة

وأجلهــن نجابـــة الأبنـــاء

(١) متعة الحديث للداود: ٢/ ١١٧.

٩

من اليتم إلى العظمة

الشاعر الفذ عبد الرحمن بن صالح العشماوي، توفي والده وهو وأخوه طفلان صغيران، ومعهما أربع أخوات، فنهضت أمه بواجب الأبوة والأمومة في وقت واحد، وصنعت من هذا الطفل شاعر أمة، لا أريد أن أتحدث عنه شاعرا، فهو من أساتذتي في الشعر، ولكني أريد الحديث عنه ابنا لأم فريدة، طلبت منه أن يخصني بحديث عن أثر أمه عليه، فأرسل إليَّ بهذه الوردة النفَّاحة؛ يقول فيها: «هل يمكن أن تكون الأمومة إلا واحة غناء؟ وهل يمكن أن يكون حنانها إلا نبعا لا ينضب ولا يفارقه الصفاء؟ وهل يمكن أن يكون وجدانها إلا نبض المودة والوفاء؟

أمي الحبيبة تغمدها الله برحمته، وجزاها عنا خير الجزاء، فرشت لنا راحتيها الحانيتين؛ فما شعرنا بوخز الشوك ولا بقسوة الحجارة في طريق الحياة، وظللتنا بأهداب عينيها فما شكونا حرارة الشمس في القيظ ولا شدة الزمهرير في الشتاء، بدأت أنا وأخي وأخواتنا الأربع رحلة اليتم بعد وفاة والدنا الحبيب (الشيخ صالح العشماوي) ـ رحمه الله تعالى ـ فما شعرنا باليتم ولا عرفنا معناه، ولم يثقل على قلوبنا الغضة فراق الأب الغالي برغم شدة الوقعة؛ لأن عطف أمي الغالية وحنانها ورعايتها قد زحزحت عنا ثقل ذلك الفراق.

(سعدية بنت محمد علي سحاب الغامدي)، اسم جدير بالاحترام في عالم التضحية والبذل السخي والعطاء الصادق الذي لا يعرف المن

والأذى، ولا يقترب من التكلف المشين، وقَفَتْ صامدةً على أرض التضحية تدفع عنا صعوبات الحياة، وتداري عن وجوهنا ما تثيره أعاصير الفقر والحاجة من سفيها الكثيف، لقد رأيت في شخصية أمي -رحمها الله- قوة الإيمان بالله وشدة التعلق به وصدق اللجوء إليه؛ حتى أصبحت مثلا حيًّا أمام أعيننا للعمل الدؤوب والجد والاجتهاد، وصارت شمعة مضيئة لا يخبو نورها الصافي على مر الليالي والأيام. أما أحاديثها التي تحمل لنا أغلى المشاعر وأصدق النصائح فقد ملأت قلوبنا نحن الأولاد بعزيمة صادقة على المثابرة التي تحقق بإذن الله الأهداف، كانت تذكرنا بمكانة والدنا وعلمه وفقهه وقوة عزيمته، وكانت لا تتوانى عن شحذ عزائمنا؛ لنكون أعضاء صالحين في الأسرة والمجتمع والوطن والأمة بأكملها، وكانت لا تمل من تشجيعنا على العلم ومساعدتنا في طريق الوصول إلى التفوق؛ مؤكدة -بما لديها من معرفة لا بأس بها- بأن طريق العلا تحتاج إلى الجد والإخلاص.

وكانت تصور لي بريشة حبها الكبير ملامح مستقبل مزهر، ظلت ترسخه في الذهن؛ حتى أصبح جزءًا من تفكيري، أصبحتُ أرى من خلاله صورة مشرقة لحياة حرة كريمة، بعيدة عن شطحات الزلل، وثغرات الخلل، لقد حولت الحياة القاتمة بمتاعبها إلى حياة مشرقة بنتائج العمل المثمر فيها.

كان عطفها علينا كبيرا، ولكنه لم يتحول إلى المبالغة في التدليل، ولا إلى الغلو في الشفقة والخوف علينا من عوارض الحياة.

كم قالت لي في أكثر من موقف: «**لست يتيما يا ولدي، وإنما اليتيم الذي فقد الراعي والموجه فضاع في دروب الفساد**».

وحينما بدأت موهبة الشعر تطل بوجهها الصغير الجميل، فتحت -رحمها الله- أبواب الدعم المعنوي، ونوافذ التشجيع المتواصل لي؛ حتى وقر في نفسي وأنا في مراحل الدراسة الأولى أنني قد أصبحت شاعرا مصلحا، ذا أثر في حياة البشر، وكانت مع أبويها الكريمين جديَّ -رحمهم الله جميعا- تبذل كل ما في وسعها من المحفزات المادية والمعنوية؛ لإشعاري بقيمة وقوة ما أكتب وأقول، برغم من أنه رهينة ضعف البدايات الذي لا يسلم منه أحد.

كبرنا وكبر معنا إحساسها بنا وتشجيعها لنا، وحنانها وعطفها علينا، ولم تضعف عزيمتها -رحمها الله- ولم يتراجع حرصها واهتمامها بنا؛ حتى اختارها المولى عز وجل لجواره الكريم. لقد صنعت لنا جوا عائليا سويا، سليما من الخلافات، بريئا من الأعمال والأقوال التي قد تثير النفوس، وتملأ القلوب.

اللهم اجز أمي خير الجزاء، واغفر لها ولكل أبوين مسلمين يريدان لأبنائهما الخير والصلاح»[(١)].

هكذا تعيش الأم في نفوس أولادها؛ حبا دافئا عاطرا دائما؛ فـ«حب الأم لا يشيخ أبدا»؛ كما يقول دوريون[(٢)]. بل إن حديث هؤلاء العظماء عن أمهاتهم كثيرا ما يختم بالدعاء الحار لهن، وفاء وحبا.

(١) رسالة خاصة طلبتها من الدكتور عبدالرحمن العشماوي شخصيا.
(٢) متعة الحديث للداود: ٢/ ١١٥.

١٠

أمهات الناجحين لا يأخذن إجازة من التربية أبدًا

الأديب الكبير **فقيه الأدباء، وأديب الفقهاء الشيخ علي بن مصطفى الطنطاوي** رحمه الله، الذي نشأ في أسرة عُرف أبناؤها بالعلم، فقد كان أبوه، الشيخ مصطفى الطنطاوي، من العلماء المعدودين في الشام، وانتهت إليه أمانة الفتوى في دمشق. وأسرة أمه أيضًا (الخطيب) من الأسر العلمية في الشام، وكثير من أفرادها من العلماء المعدودين، وخاله: العلامة محب الدين الخطيب الذي استوطن مصر وأنشأ فيها صحيفتَي (الفتح) و(الزهراء)، وكان له أثر في الدعوة فيها في مطلع القرن العشرين. يقول عن أمه: (**رئيفة بنت أبي الفتح الخطيب**): «**عاشت أمي بعد أبي سبع سنوات ما استمتعت فيها يوما بمتعة، ولا وجدت تسلية ولا راحة، كانت تعيش لأولادها، تدير أمر البيت، وتدبر النفقات، وتخيط هي الثياب**»[1].

هكذا أمهات الناجحين؛ وكأنهن يعشن لأولادهن وحسب، وليس لشئ آخر.. ولكل (أم) أن تختار.. إما أن تعيش من أجلهم فيكونوا مثل هؤلاء.. أو...

وحين تكون الأم مضحية بكل شيء، فقد لا تحتاج إلى أكثر من أن

---

(١) مجلة جودي، العدد الأول، شوال ١٤٢٠ هـ، يناير ٢٠٠٠ م، ص: ٣٠. ذكريات الطنطاوي، دار المدار (٢/ ١٠٢).

تكون كذلك، لتكون مواقفها العميقة الحس وقودا هائل التوقد في نفس ولدها، وقد عجبت لتلك الأحاسيس كيف كانت تغلي في صدر **(لوكاكو)** لاعب (منتخب بلجيكا) الشهير، الذي يحكي قصته المكتظة بالدموع والعزيمة فيقول: «كنت في السادسة، حين عدت أتناول الغداء أثناء استراحة المدرسة، أمّي كانت تضع الطعام نفسه كل يوم؛ الخبز والحليب، الشيء الوحيد الذي بإمكاننا تحمل تكلفته يوم شاهدت أمي أمام الثلاجة وبيدها حليب كالعادة وبيدها شيء تخلطه معه، أحضَرَتْ لي وجبتي، كانت تبتسم، وكأن كلَّ شيء على ما يرام لكنني أدركت ما الذي يجري.. كانت تخلط الماء بالحليب، لم يكن الحليب يكفينا لآخر الأسبوع، كنّا معدومين، لسنا فقراء، بل معدومين..

والدي كان لاعبًا محترفا، لكنه كان في نهاية مسيرته والأموال نفدت، أول شيء قام ببيعه هو التلفاز، لا مزيد من كرة القدم.. بعد ذلك تطوّرت الأمور، أعود للبيت ولا أضواء، لا كهرباء لمدة أسبوعين أذهب للحمام، لا يوجد ماء ساخن، أمي تقوم بوضع الماء في غلاية وتسخنه لي، ثم تسكبه على رأسي.

لقد مرّت أيام، اضطرت أمي فيها لأن تقترض الخبز من المخبز، الفرّانون عرفوني أنا وأخي، كانوا يسمحون لها بأخذ رغيف من الخبز يوم الاثنين وتسدد ثمنه يوم الجمعة.

كنت أعرف أننا نعاني، لكن لدرجة أن نخلط الحليب بالماء؟ هنا كل شيء انتهى، تلك كانت حياتنا.. يومها، لم أقل لها كلمة واحدة، لم أرغب بأن أثقل كاهلها، فما تمر به يكفيها، أكلت وجبتي، ثم أقسمت

لله، وعدت إلى نفسي، كأن أحدهم غرس أصابعه بداخلي ليوقظني، هذه الحياة يجب أن تتغير.. لا يمكنني تحمّل رؤية والدتي بهذه الحالة، لا لا لا، لا يمكنني ذلك.

الناس في كرة القدم يتحدثون كثيرًا عن القوة الذهنية، حسنًا، أنا أقوى شاب قد تقابله في حياتك من هذه الناحية، لأنني كنت أجلس أنا وأمي وأخي الصغير في الظلام، ندعو الله، نصلي، نفكر، نؤمن، نعلم أن كل شيء سيتغير عاجلًا أم آجلًا[1].

احتفظت بوعودي لنفسي، لكني كنت أعود من المدرسة أحيانًا، أرى أمي تبكي، قلت لها: أخيرًا أمي، هذه الظروف ستتغير، سترين ذلك، سألعب في (أندرلخت)[2]، سنكون بخير، ليس عليكِ أن تقلقي بعد اليوم.

كل مباراة لعبتُها كانت أشبه بنهائي، حتى عندما ألعب في الحديقة أو في الشوارع، كنت أعدُّها نهائيات، كنت في السادسة من عمري في ذلك الوقت عندما بدأت أطول، المعلمون وآباء زملائي بدأوا بضغطي وإرباكي، لن أنسى المرة الأولى التي قال لي فيها أحد الكبار: مهلًا، كم عمرك؟

عندما أصبحت في الـ١١ من عمري، كنت ألعب في أحد فرق الشباب، ووالد أحد لاعبي الفريق الخصم حاول منعي من دخول

---

(١) حتى كتابة هذه السطور هذا اللاعب نصراني العقيدة.
(٢) أنجح أندية بلجيكا في المسابقات الأوروبية بعد حصوله على خمس بطولات، بالإضافة إلى ٣٣ بطولة دوري محلية.

الملعب، قال: كم عمر هذا الطفل؟ أين هويته؟ من أي بلد؟ والدي لم يكن هناك يومها، لم يكن يملك سيارة كي يقوم بإيصالي لمبارياتنا خارج الأرض، كنت وحيدا، وكان علي أن أدافع عن نفسي، أتيت ببطاقتي من الحقيبة وأظهرتها لجميع الآباء الحاضرين، ومرروها على أنفسهم.

أردت أن أصبح أفضل لاعب في تاريخ بلجيكا، كنت ألعب بغضب وشراسة، لأسباب عديدة، بسبب الفئران في منزلي، بسبب والدتي، بسبب عدم قدرتي على مشاهدة دوري الأبطال، بسبب نظرة الآباء الآخرين لي.. عندما كنت في سن الـ١٢، سجلت ٧٦ هدفا في ٣٤ مباراة.. سجلت جميع تلك الأهداف وأنا أرتدي حذاء والدي، أرتدي حذاءه وأنا في سن الـ١٢، حسنًا، كنّا نتشارك الأحذية.

في أحد الأيام هاتفت جدّي والد أمي، من الكونغو، أخبرته أني أجتهد جيدًا، سجلت ٧٦ هدفا والأندية الكبيرة تنظر إليَّ، كان يحب سماع أحاديثي عن كرة القدم وماذا أفعل.. قاطعني جدي فجأة وقال:

- هل يمكنك أن تسدي لي معروفا؟ قلت له: بالطبع، ما هو؟ هل يمكنك أن تعتني بابنتي.

- هل تقصد أمي؟ نعم بالطبع، نحن بخير..

- لا، عِدني أنك ستعتني بها، عِدني بذلك لأجلي..

- حسنًا، أعدُك..

بعدها بـأيام، توفيّ جدي، وقتها عرفتُ لماذا أخبرني بأن أعتني

بأمي.. أشعر بالحزن كلّما فكرت بذلك، أتمنى لو أنه عاش أربعَ سنوات أخرى، كي يراني ألعب لأندرلخت، ليرى أني أفي بوعدي، هل تعلم؟ كل شيء سيكون بخير يا جدي.

على أيّة حال، هل تعلم ما المضحك؟ أضعت ١٠ سنوات من عمري دون أن أشاهد دوري الأبطال، لم يكن بإمكاننا تحمل نفقات التلفاز في ٢٠٠٢م، في المدرسة، الطلاب يتحدثون عن نهائي دوري الأبطال، تلك التسديدة من (زيدان)[١]، أي تسديدة؟ لا أعلم، لكن كان علي أن أتظاهر بأني شاهدت اللقاء كما هم شاهدوه.

في صغري لم يكن بإمكاني مشاهدة (تيري هنري)[٢] حتى على التلفاز، الآن أنا بجانبه في كأس العالم وأتعلم منه كل يوم.

في ٢٠٠٢، حذائي كان مليئًا بالثقوب، بعد ١٢ سنة شاركت في كأس العالم، والآن سأشارك مرةً أخرى ... حقًا، أنا فقط أتمنى لو أن جدّي لا زال على قيد الحياة، لا دوري أبطال، لا مانشستر يونايتد، لا كأس عالم، لا أريد أن أريه شيئًا من هذا، أريد فقط أن أريه الحياة التي نحظى بها الآن، أتمنى لو أن بإمكاني أن أحظى بمكالمة أخرى معه، ليرى فقط ما نحن به.

---

(١) لاعب كرة فرنسي من أصل جزائري، مسلم، حصل على أفضل لاعب كرة قدم في العالم ثلاث مرات، وله أمجاد كروية أخرى.

(٢) يلقب بتيتي أو الغزال الأسمر، لاعب كرة قدم فرنسي معتزل، كان يلعب في خط الهجوم مع أرسنال الإنجليزي، ونادي برشلونة الإسباني، وفي نادي نيويورك ريد بولز الأمريكي، والمنتخب الفرنسي، كما عمل مساعد مدرب لمنتخب بلجيكا لكرة القدم.

«هل ترى يا جدي؟ أخبرتك أن ابنتك ستكون بخير، لا مزيد من الفئران بالبيت، لا مزيد من النوم بجانب الشباك، لا مزيد من التوتر، نحن بخير الآن، بخير. .. جدي، هم الآن ليسوا بحاجة لأن يتفحصوا بطاقتي، هم يعرفون اسمي بمجرد النظر إلي.» "لوكاكو"

وصدق، فأنت لا تحتاج أكثر من أن تضع اسمه بأية لغة لتظهر لك ملايين المواد عنه في محركات البحث العالمية.

(روميلو مناما لوكاكو بولينجولي) من مواليد ١٩٩٣م، لاعب كرة قدم بلجيكي يلعب في مركز الهجوم مع نادي مانشستر يونايتد والمنتخب البلجيكي.

واحد من خمسة لاعبين فقط سجلوا ٥٠ هدفا في الدوري الإنجليزي الممتاز قبل بلوغهم ٢٣ سنة، وخامس أصغر لاعب يسجل ١٠٠ هدف في الدوري الإنجليزي. على المستوى الدولي، هو الهداف التاريخي لمنتخب بلجيكا بتسجيله لـ٤٠ هدفا.

عند الوصول إلى قمة المجد في أي فن، يتذكر الأوفياء من كانت تضع الطعام في أفواههم قبل أن تضعه في فمها، ولذلك أهدى اللاعب المغربي (حكيم زياش) نجم (أياكس أمستردام) جائزة أفضل لاعب فى الدورى الهولندي عن موسم ٢٠١٧/ ٢٠١٨ إلى والدته التى حضرت الحفل برفقته فى العاصمة الهولندية.

١١

ليس مهما أن تكون أم العظيم متعلمة؟!

«**إذا علمت ولدا فقد علمت فردا، وإذا علمت بنتا فقد علمت أمة**» **قالها الكاتب الملهم (عبدالحميد بن باديس)** رحمه الله تعالى، وقد أجمل وأحسن، وقد رأينا بأم أعيننا كيف تترك الأم التي تجمع بين الفهم والحزم وبعد النظر أثرا عظيما في نفوس أولادها، وليس شرطا دائما أن تكون عالمة في فنون وعلوم، بل يكفي أن تعلم ما يخصها من شأن دينها وحياتها، وأن تكون بارعة في أمومتها، مبدعة في التعامل مع تلك الجواهر التي تتفتح كالأكمام بين أحشائها، و(الحقيقة) هداية من الله تعالى، قد يهديها لمن هو أقل علما، وأكثر بصيرة.

في حديث يَرشَحُ جمالا وعذوبة، ويستفز الدمع في المآقي، **تدفق الكاتب الناقد الأستاذ الدكتور عبد الله الغذامي** وهو يتحدث عن **(الجهنية)** أمِّه رحمها الله تعالى، وكيف كانت شخصيتها (البانورامية) تتحرك بكل أبعادها المشعة أمام العيون المحبة المشفقة المكبرة، ليس في بيتها فقط، ولكن في الحي كله، «حتى صاروا كلهم يسمونها أمهم الجهنية وإن تعددت ألقابها بين أمي فاطمة وأم عبد الرحمن، لكن الجهنية ظل هو اللقب المحبب لها ولكل من انضوى تحت خيمة حبها المبذول»وحين توفيت، شهد الولد منزلة أمه في الوجوه المفجوعة، قال: «ورأيت نساء الحي يأتين إلى بيتنا باكيات ومودعات -وكأنهن في مأتم- بسبب رحيل الجهنية، كانت أما للجميع وهم يودعون أمهم، ولقد رأيتهم كلهم في

العزاء في العاشر من صفر ١٤٢٤هـ، حيث جاء كل جيراننا على مدى ستين عامًا من كل حارة من حارات عنيزة، وكانت دموعهم أكثر من دموعنا، وصرنا نعزيهم وقد كانوا جاءوا ليعزونا، وكل يتحدث عن أمه، ولم أكن أغار من هذه المشاركة في حقي بأمي.

لم أكن أتصورها إلا وهي حاملة بيدها شيئًا، ترتبه وتقسمه الى أقسام ثم تستدعي حازمًا وأسامة ابني صالح، وتعطيهما التعليمات، حيث توزع الحِزَمَ على الجيران والأقارب والجيران القدامى في الحارات السابقة، وهذه أكياس من تمر، وتلك أواني لبن، وتلك حِزم خضار وفاكهة أتت بها من المزرعة، وكل صباح كانت تأخذ الهاتف وتسأل عامل المزرعة عن الناضج من التمر والخضار بكل التفاصيل الضرورية، وتعطيه تعليماتها كيف يقطف المستويَ منها ويحضره إلى البيت، واذا جاءت المحاصيل للبيت لا تُبقي سوى ما يحتاجه توزيعها من وقت لكي تتحرك متجهة إلى وجهات تعرفها أم عبد الرحمن، وكم عجبت لها وهي تعتني بالحليب حينما يأتي من المزرعة في حلة كبيرة، فتقوم في ترويبه ثم خضه ثم توزيعه، ولا يرتاح لها خاطر؛ حتى تراه قد استقر في بيوت تحددها وتبرمج التوزيع فيها يوميًا، وكم ترجيناها أن تترك ذلك للخادمات أو تريح نفسها ولو حينما يعركها المرض، غير أنها كانت تقوم من فراش مرضها لتعمل واجبها اليومي ثم تعود للمرض ثانية بعد أن أخذت مهلة تعاهدت مع مرضها عليها وكأن الألم يتسامح معها حتى تؤدي هذا الواجب.

كان أخواتي وإخواني يتألمون من أجلها وهي تلزم نفسها بكل هذا، ولكنني لم أكن أعجب، وأعود لنفسي وأتذكر الخمسة الذين كانوا

يرضعون من صدرها على مدى عامين، ولم تكلّ، ولم تضجر، ولم تبخل، وكانت تتلقى الدعاء بابتسامة وفرح.

لم أشاهد أحدا يخرج من بيتنا قط دون أن يكون في يده شيء، حزمة جزر أو ربطة تمر أو حتى لفة جرجير، ومهما كان شأن الآتي وعمره ومقامه فإن الجهنية لن تتركه يخرج خالي اليدين، وكنا أحيانًا نخجل من بعض الزوار الذين لا نرى حاجتهم لما تعطيهم ولكنها لا تأبه بخجلنا، ولا ترتاح حتى تعطي مما في البيت مهما كبر أو صغر».

هذا العطاء الذي يحكيه الولد عن أمه، أكثر أثرًا من ألف خطبة، وأعمق حكمة من كتب الفلسفة، وأجمل قصيدة في ديوان الإنسانية، فالقدوة هي أساس التربية، وهي التي تبقى كالكهرباء تتحرك بكل ذرات الجهاز في الاتجاه الذي صُنع من أجله، دون أن تُرى، ولذلك يفشل الأمهات اللاتي يحاضرن كل يوم أمام أولادهن، وهنَّ في غاية الكسل والأنانية والدَّعة.

إن (العظمة) ليست لمن يستهدفها في اتجاه واحد، وهو خاوي الوفاض من كل روافدها، كَلِيلُ الأجنحةِ التي كان من الممكن أن تحلق به في أجوائها، (العظمة) أن يكون الإنسان معطاء بلا حدود قبل أن يكون خطيبا مفوها، ودودا بلا شروط قبل أن يكون قائدا محنكا، متواضعا بلا تذلل قبل أن يكون وجيها مجاب الشفاعة، بشوشا بلا تبذل قبل أن يكون عالما نحريرا.

ومن يكن ذا طبع حسن عفوي فطري، فسوف تواتيه أخلاقه الرطبة دون طلب أو استكراه.

يكمل الغذامي حديثه عن أمه فيقول: «فوجئت مرة بأمي وهي تتكلم كلمات إنجليزية وكان ذلك وهي ترقد مريضة في أحد مستشفيات الرياض الكبيرة، والتقَطَتْ عددًا من الكلمات من الممرضات وأضافتها الى كلمات تعلمتها من شغالة قديمة كانت تعمل في بيتنا، وصارت تستعمل هذه الكلمات لمساعدة المريضات الأخريات في الترجمة، ونشأ بين أمّي والممرضات علاقة عجيبة، وكلما زرت المستشفى وجدت ترحيبًا خاصًا بي لأنني ابن فاطمة، حتى جئت يوماً ولم أجد أمي في غرفتها ولم أعثر عليها في أي موقع قريب، وبدأ القلق يساورني حتى جاءتني ممرضة وقالت لي: إن فاطمة تقوم في جولة على المريضات، ولم أتمالك نفسي من الدخول في مزاح مع الممرضة عن أمي نتيجة لفرحي بسلامتها أولًا، ولم أعلم أن الممرضة ستزيد من عجبي إذ قالت لي فاطمة توزع بركاتها على المريضات، واكتشفت أن أمي كانت تدور على السرر وتقرأ على المريضات آيات من القرآن، وكانت المريضات يستدعين أمي من غرفة الى غرفة لتقرأ عليهن، وشاع اسم فاطمة بينهن في وقت قصير، وحينما خرجت من المستشفى كان منظر توديعها والدعاء لها من النساء في العنابر لا يجد مني سوى دموع تشبه دموعي حينما حدثتني أمي عن خالتي موضي [التي دعت لي دعوة لا أبوح بها]، ولقد اقترحت رئيسة الممرضات تعيين أمي في علاقات المرضى لتأهيل المريضات للعمليات وبعد العمليات».

ونحن -أيضا- بعد أن سكبنا دموعنا مع دموع الغذامي، فلنتوقف قبل أن ننسى لماذا كل هذه الرواية الطويلة هنا، إنه قول الولد: «ولقد تمنيت عندها أن يهبني ربي جزءا من هذا العطاء الذي تملكه فاطمة الجهنية».

هكذا دون إطالة، يلخص الكاتب الذي وصلت أطروحاته وكتبه مشارق العروبة ومغاربها، وشغل الناس بآرائه وتجديداته في الأدب والثقافة، بين موافق ومحارب، حتى بلغ السبعين من عمره، وهو لا يزال ينتج ويعطي، بل ويعود بعد التقاعد ليدرِّس في الجامعة بلا مقابل، كما كانت أمه تفعل من قبل في جامعة الحياة.

حتى كفنُها أعدَّته ثلاث مرات، وكلما مات لها حبيب أعطته إياه، حتى رحلت بالرابع، «وكانت آخرَ حركة عملتها في حياتها هي أن تهاوى جسدها بجانب السرير، وقد همَّت بالقيام متحاملة على نفسها؛ لأنها تريد أن تنظر في الثلاجة؛ لأن فيها بعض خضار جاءت للتو من المزرعة، وكانت أمي قد أمرت الخادمة بتقسيم بعض ربطات التمر لتوزيعها على الجيران، وقررت أن تضع مع التمر خضارا، ولكن جسمها هذه المرة لم يتمكن من مساعدتها وتهاوى على جانب السرير لتمضي بعده إلى المستشفى وتقيم هناك ستة أسابيع قبل أن تعود النفس المطمئنة الى ربها راضية مرضية،... تقول البنات وقد غسَّلْنَها إنهن رأين نورًا يُشع في جسمها كله، وكلما خنقتني الدموع تهدئني فوزية وتقول: إن وجهها كان مبتسما وهن يغسلنها وكأنما كانت تتحدث إلى البنات، أو أنها تبدي امتنانها لهن إذ كانت أمنيتها ألا يغسِّلها سوى بناتها».

وفي درس آخر يتلقاه الغذامي من أمه فيقول: «تلك أمي الجهنية، (فاطمة الصالح الجهني)، حبي وقلبي ومفخرتي، تلك التي علمتني أن الحب عطاء وعلمتني ألا أغار من المحبين، وتلك هي أمنا الجهنية.

لك الرحمة يا أماه، ويارب اجعلني مثلها في القلب المحب والمعطاء»[1].

وهو ما رأيناه في حياة الكاتب **عبد الرحمن السدحان**، الذي سألتْه صحفية: لماذا تتجه البوصلة في كتاباتك نحو السيدة الوالدة غالبا؟ فأجاب: لم ولا تكون سيدتي الوالدة (بوصلة) الحب في مشواري العاصف مع الحياة، وهي التي حملتني وهنا على وهن، وتحملت في سبيلي كل أنواع الضيم، ما أعرف منه وما لم أعرف!! إما بسبب أوجاع الصغر التي كادت تودي بحياتي، أو بسبب حالة الشتات التي حاصرتني من كل جانب بعد افتراق الوالدين، رحمهما الله، **كانت أمي هي الفنار الذي يضيء شطآن حياتي، سواء كنت حاضرا بين يديها، أو كنت بعيدا عنها، كان دعاؤها الحنون ـ رحمها الله وأرضاها ـ يصلني في كل مكان آوي إليه.. أتعجبون ـ بعد هذا كله ـ كيف تستأثر سيدتي الوالدة بالكثير من ملامحي الكتابية؟»[2].**

هذا ما تذكره رجل مبدع في كتابته، أصبح أمينا عاما لمجلس الوزراء في المملكة العربية السعودية، وهكذا تصنع الأمُّ الرجل العظيم.

(١) الجهنية في لغة النساء وحكاياتهن، د.عبدالله الغذامي، مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠١٢ م: ١٣-١٩.

(٢) مقابلة مع عبد الرحمن السدحان أمين. مجلة أهلا وسهلا، محرم ١٤٣٠ هـ يناير ٢٠٠٩ م. ص ٢٣-٢٤.

١٢

التربية العظيمة تنتج العظماء

من هذا الطفل الذي شاخ فجأة؟ سؤال أصبح هاجسا في نفس كل من سمع هذه العبارة أو قرأها.. والجواب: إنه كلُّ رجل يمتعه الله بأمه؛ فيعيش معها سنين متعاقبة من البر والإحسان، وتغمره بالحب والحنان، وتكلؤه بالدعاء مسافرا وحاضرا، وإذا صح أو مرض:

إذا مسَّني سُقْمٌ ثوتْ عندَ مرقدي
لِزامًا فلم تبرحْه إلا معَ السقم

على أنَّها والسقمُ يَبري عظامَها
تحاولُ أن تخفيه عنِّي من الكَتْمِ

ولو أنَّها اسطاعتْ لدى الموتِ خفيةً
لأخفتْهُ إشفاقًا عليَّ من الغَمِّ

من له أمٌ كأمي.. هكذا قال **البروفسور الأستاذ الدكتور صالح بن حسين العايد**، لقد أحس بأنه شاخ فجأة كما تقول الحكمة العالمية: «يظل الرجل طفلا حتى تموت أمه، فإذا ماتت شاخ فجأة»، قال عن نفسه: «فلقد كادت نفسُه توهمُه أنه حقا ما زال طفلا؛ فقد استمرأت روحُه الحنان، وألفته، واستعذبت الرعاية الخاصة».. ثم قال: «وها أنذا لا أستطيع أن ألتفتَ ورائي لألقي نظرة عابرة على بقية أمي؛ لئلا يروعها منظري بعد أن شِبتُ فجأة؛ فمن كان يضفي علي حنانا ودلالا

ها هو ذا جسدا معي في السيارة»[1] .

لماذا كل هذا الفقد لأمه؟ هل كلُّ أم ـ بالفعل ـ تُفقدُ كهذا الفقد؟ أجزم بأن: لا، فبعض الأمهات ليس لها من الأمومة إلا ما ليس لها منه بد، وهو الحمل، وهو لا شك عظيم، ولكنها تبدأ رحلة البعد عن وليدها بعد هنيهة من ولادته، فتفوض الرضَّاعة عن ثديها لإطعامه، والخدَّامة عن كفيها الحانيتين؛ لتنظيفه وتلبيسه، بل وضمه وتقبيله، حتى المنام، لا ينام معها، فإذا بها تتباعد جسدا وروحا عنه، وتحرمه من غذائه الذي خصه الله به، وهو الغذاء الذي لا بديل عنه أبدا، وتحرمه من صدرها الحنون، وقد جعل الله غذاءه فيه؛ ليرضع الحب والحليب معا؛ لأنه يحتاجهما بقدر واحد، فمماسة الجسد تغذي الروح، وتلبي النداء الحسي والنفسي لدى الطفل؛ وإلا فلا تنتظر طفلا سويا، مستقر النفس، مكتمل النضج.

ولكن الدكتور العايد كان يقول: ألا من ذا له أم كأمي؛ فماذا يميز أمه عن بقية الأمهات إذن؟ يجيب فيقول: «مات الأب وترك بنين وبنات صغارا (زغب الحواصل لا ماء ولا شجر)، أكبرهم لم يبلغ الحلم، وأصغرهم لم يبلغ الفطام، في زمن فقر مدقع، أذاب الشحم، وأكل اللحم، وبرى العظم، فمن كان لهؤلاء الصبية الصغار بعد الله تعالى، حين رحل كاسبهم ومربيهم، لقد قيض الله لهم أمًّا رؤوما، كانت لهم نعم الأم، ونعم الأب، فكانت لهم سماءً ظليلة، وأرضا ذليلة، ولقد صبرت

(١) دمعة على قبر أمي للدكتور صالح بن حسين العايد، دار كنوز إشبيليا، ط: ١٢،١٤٣٢هـ: ٥٦ - ٥٨.

على محن الزمان، وعلى نوائب الدهر، أملا في أن ينبتهم الله نباتا حسنا.

عُصاميةً كانت على حين أنَّها
لها نسبٌ فوقَ النقيصةِ والذَّمِ

وأميةً كانت ولكنَّ رأيها لدى
معضلاتِ المرِّ فوقَ ذوي العلمِ

أفنت عمرها صياما في النهار لحر يوم النشور، وقياما في الليل لوحشة القبور، كانت تصوم في الهواجر حتى نشفق عليها، فإذا رجوناها أن ترحم ضعفها، قالت: «وما يدريكم ربما لا أصوم غيره».

وأما المال فمن أين لمثلها مال؟ نالت منه القليل من أبنائها وبناتها، فو الله ما كانت تدخره حذرا من روعة الزمان، ولا لتكاثر به العشيرة ولا الجيران؛ لأن الله زهدها بالفاني، ورغبها في الباقي؛ ولذلك كانت تتقاسم ما يأتيها مع الأرامل والأيتام والمساكين والفقراء، ولسان حالها يقول:

يجود علينا الخيرون بمالهم
ونحن بمال الخيرين نجود

فهل تعرفون أحدا خرج من الدنيا وقد اتفق على حبه الأبناء والبنات، والأحفاد والأسباط، وزوجات الأبناء وأزواج البنات، وسائر الأقارب والجيران والمعارف. إنها أمي.. فهل كل له أم كأمي؟»[1].

حقا -يا صالح- إنها الأم القدوة في عبادتها وفي معاملاتها، التي

---

(١) دمعة على قبر أمي للدكتور صالح العايد: ٧٥.

تربي بالفعل قبل القول، وبالتقوى وليس بالكذب والخيانة واستمراء المعاصي. ولذلك وصل ابنها إلى أرقى سلم العلم الأكاديمي، ونال الأستاذية في فنه اللغوي، وعرف بالخلق الفاضل الكريم والسمت الطيب. ولكنه لم ينس أمه وفضلها عليه؛ يقول: «**وإني لأعترف اليوم وكل يوم بأنني مدين بكل ما وصلت إليه، وما قد أصل إليه في المستقبل، مدين لله تعالى، ثم لأمي رحمها الله**»[١].

إن (الأم) بين خيارين: إما أن تضحي من أجل النجاح في أكبر مشروع في حياتها، بل هو أعظم من ذلك؛ لأنه يمتد بعد حياتها، وهو: (تربية أولادها)، تربية فائقة الجودة، مما يضطرها إلى تناسي حظوظ كثيرة تخصها، وإما أن تكون أمًّا أنانية، لا يعنيها إلا راحتها وحسب، بل أعظم من ذلك أن تضع أبناءها بين خيارين: «إما تحقيق رغباتها، أو حرمانهم من رضاها، هي أم أنانية لا تحب إلا نفسها، وما أنجبتهم إلا لخدمة غرورها» هكذا قست نيرفانا[٢]، وهي تصرخ من أعماق أنوثتها، ولو قالها رجل؛ لاتهمناه بأنه يتجنى على المرأة، ولكني أرجو ألا يفهم من ذلك التجاوز على مقام الأم، وقداسة حقها الشرعي في طلب رضاها، ولكني أعلم يقينا بوجود بعض الأمهات اللاتي كنَّ سببا في تعاسة أبنائهن وبناتهن، حين تدخلن في تفاصيل حياتهم الزوجية، وأقلقنهم بآرائهن العاطفية غير المدروسة، حتى أصبح ذلك سببا في حدوث الطلاق والتفريق بينهم وبين أزواجهم.

وهناك أمهات كنَّ سببا في تخذيل أولادهنَّ عن الاستمرار في طلب

---

(١) دمعة على قبر أمي للدكتور صالح العايد: ٩٥.
(٢) حسابها على تويتر.

العلم، أو انتقاء الأصدقاء الصالحين، لقصورهن في الوعي بأثر ذلك في بناء مستقبلهم.

وفي المقابل فقد اعترف كثير من أولي الفضل، أو أولي الإبداع من المسلمين ومن غيرهم بفضل أمهاتهم عليهم، وسجلوا ندمهم على بعدهم عنهن، أو التقصير في حقوقهن، حتى قال **الروائي العالمي الشهير: (دان براون)** في بطاقة شكر سجلها في صدر روايته: (شيفرة دافنشي): «**إنني في رواية ترتكز بعمق على الأنثى المقدسة، قد أكون مهملا ومقصرا إذا لم أذكر المرأتين اللتين كان لهما الأثر الأكبر في حياتي، أولا: والدتي: (كوني براون)، وهي مؤلفة زميلة، ومربية عظيمة،...، وفوق كل ذلك مثلي الأعلى**»[1] . ثم ذكر زوجته **(بلايث)**.

تأملي كيف لم يستطع تجاوز (أمَّه) حتى بعد أن أنهى عمله الفني الذي ربما لم يكن يتوقع أنه سينجح بهذا القدر، فلما حقق كل هذا النجاح، أعاد الفضل لمن له الفضل عليه، وقدمها على زوجته، وبدأ بوصفها زميلة؛ لأنها تشاركه في مهنة الكتابة، وهي إشارة رائعة ربما لم يقصدها براون، بل شهادة لأمه على نجاحها في انتقالها من كونها أما كأي أم، إلى أم صديقة، تعيش مع ابنها في داخله، يتمثلها قدوةً تقدَّمتْه، وأصبح لزاما عليه أن يركض خلفها، ولذلك وصف تربيتها بالعظمة، وهو بهذا يصف نفسه بالعظمة كذلك.

التربية العظيمة تنتج العظماء.

---

(١) شيفرة دافنشي: دان براون، ترجمة سمة محمد عبد ربه، الدار العربية للعلوم، بيروت، ١٤٢٥هـ (٢٠٠٤ م)، المقدمة.

١٣

شجرة (البامبو) ودرس لأمهات العظماء

أُصارح كل (أم) بأنه ليس من حقها أبدا أن تحكم على أحد أبنائها أو بناتها أنه لن يكون ناجحا في دراسته، أو في حياته، فإن الدراسات والواقع يثبتان أن النبوغ قد لا يظهر في البدء، وقد تكون غمامة الخمول التي تغطي جمال العظمة الكامنة فيه هي من نسيجها هي دون أن تقصد، أو بسبب التعامل السيء من قبل الأب، أو المدرسة، أو بسبب نظرة المجتمع له؛ لكونه لا يتمتع بما يلفت الأنظار إليه من شكل خارجي، أو بسبب الوضع الاجتماعي الذي تعيشه الأسرة كلها؛ مالا أو جاها، أو نحو ذلك.

شجرة (البامبو/ الخيزران) العملاق، تظل مطمورة البذور، لا تبدو لها براعم كما في كل النباتات الأخرى في المرحلة الأولى من إيداعها في رحم الأرض، لكنها تتمدد بجذورها في الأرض عدة كيلات، وفجأة تنمو بسرعة هائلة، (فجأة) هذه تأتي بعد زراعتها بأربع سنوات متواصلة، المزارع لا يفتر عن السقي، والأمل لا يجفُّ في أفقه، بل يظل يتلهب شوقا.. حتى إذا انقضت السنة الرابعة تبدأ الشجرة، ليس في النمو فحسب، ولكن في الانطلاق لارتفاعات شاهقة، ونمو سريع مبهر، لتُستثمر -بعد ذلك- استثمارا عالي الأرباح، في صناعة التحف والأدوات والديكورات، لمرونتها وقوتها، حتى إن بعض الشعوب في آسيا يصنعون بها بيوتا قوية، تتحمل الأمطار والرطوبة، دون أن تتأثر،

ولها فوائد عديدة، ولذلك كله صبر المزارع على بطئها، وسقيها أربع سنوات وهو لا يرى ولا يترقب أثرا آنيا، لكنه متيقن بالأثر الرائع بعد ذلك، بإذن الله تعالى وتوفيقه.

هكذا (الأم) المثالية، فقد ينشأ الابن نشأة متعِبة مُرهِقة له ولها، حتى يسول له الشيطان بأنه لا خير فيه، وفجأة ينفض عنه شرنقته؛ لينسج المستقبل الحريري المبهر.

ربما سمعتِ بـ (**بن كارسون**)، أو **بنجامين سولومون كارسون** وهو من مواليد (دترويت) التابعة لولاية (ميتشيجان) الأمريكية، ولد في عام ١٩٥١م، وقد تركت والدته المدرسة عندما كانت في الصف الثالث، وتزوجت وعمرها ثلاثة عشر عاما.

عندما كان (بن كارسون) في الثامنة من عمره انفصل والداه، وبقي هو وأخوه الأكبر تحت رعايه والدته. عانت والدته كثيرا من أجل تربية ولديها، بسبب قلة ذات يدها، فراحت تزاول عملين أو ثلاثة في اليوم الواحد؛ لتُنَشِّأهما نشأةً حسنة، لكنها صدمت بأن ابنها (بن كارسون) كان أسوأ الطلبة في الصف الخامس؛ حتى إنه كان يلقب بالغبي من قبل زملائه؛ مما جعله ذا مِزاجٍ عصبي متوحش، فهل استسلمت؟!

لا.. بل راحت تسبر الواقع الذي من حولها، وتتساءل ما الذي جعل الطلاب الآخرين يتفوقون؟

لقد حمد كارسون ربه؛ لأن والدته كانت شديدة الملاحظة. فقد كانت تلاحظ خلال عملها في منازل البيض الأثرياء أن أولادهم كانوا يقضون ساعات ما بعد المدرسة في المطالعة والمذاكرة، بينما كان ولداها

يلعبان في الخارج، أو يشاهدان البرامج التلفزيونية.

فقررت أم لم تكن تملك شهاداتٍ علمية، لكنها تمتلك الحب لولديها، والوعيَ بقيمتهما الإنسانية، قررت أن تتبع خطة جديدة مع ولديها، وهي أن تحدد وقتَ مشاهدة التلفاز واللعب بأوقات قصيرة جدا كل يوم، وأن تستثمر الأوقات المتبقية في حثِّ ولديها على القراءة من المكتبة العامة للمدينة.

لم تجبر الأم ولديها على قراءة شيء معين، ولكنها طلبت منهما أن يُنهيا كتابين من أي نوع في الأسبوع الواحد من أي مجال يحبانه. بشرط أن يقدما تقريرا في نهاية الأسبوع ملخِّصا لما قرأ كل منهما، وكانت الأم لا تعرف القراءة في تلك الكتب، ولكنها كانت توهمهم بذلك، وتقوم بوضع خطوط على التلخيص!

احتج الجيران والأصدقاء على أسلوبها القاسي في التعامل مع ولديها، وحرمانهما من حقهما الطبيعي باللعب كسائر الأولاد، و لكن هذا الأمر لم يُثنِ الأمَّ عن قرارها أبدا.

اتجهَ (بن كارسون) إلى (علم الحيوان) برغبة وحب، فقرأ كثيرا عن هذا العلم، وعلم الصخور، فكان يقرأ في المكتبة، ويطبق هذا العلم بشكل عملي على البيئة الفقيرة التي كان يعيش فيها بين السكك الحديدية.

وذات يوم دخل مدرس الجيولوجيا وبيده صخرة، وسأل من يعرف اسم هذه الصخرة ؟ انتظر الأستاذ الطلبة الأذكياء في نظره؛ ليقوموا بالإجابة وانتظر، ولكن لم يجب أحدٌ منهم سؤاله، التفت إلى بقية الطلبة، ولكنَّ أحدا لم يجب سؤاله، وفجأة رفع أغبى طالب في

الصف يده، فانفجر الطلبة بضحك ممزوج بالاستغراب من تصرفه الغبي، وهو الذي رسب في جميع المواد!! لكن (بن كارسون) أجاب السؤال بشكل كامل مع وصف كامل للصخرة البركانية التي كانت بيد المعلم، وطريقة تشكلها من تصادم الحمم المنصهرة مع الماء البارد... إلى آخر ما قال!!

انتظر الطلبة بفارغ الصبر ردَّ المدرس الذي كان يستفزُّ ضحكهم على بن كارسون، لكن المعلم صاح مندهشا: «أحسنت يا بن كارسون، الإجابة صحيحة».

هنا أدرك بن كارسون بأن السبب وراء رقيه من أدنى طالب إلى مرتبة الطلبة الذين يثيرون انبهار الآخرين هو طريقةُ أمه، التي كانت غائبة عن زملائه ومعلميه، ولا يعلمون عنها شيئا.

بعدها قرر بن كارسون أن يوسع مجال القراءة لديه، ويبدأ بقراءة المناهج الدراسية، حتى إنه أصبح لا يضيع دقيقة من وقته بدون دراسة. فراح مستواه الدراسي يرتفع شيئا فشيئا حتى أصبح من أوائل الطلبة، بل إن أوائل الطلبة ليأتون إليه لاستشارته في بعض المسائل!

يقول كارسون: «وصلت إلى نقطة بحيث إنه إذا توفرت لي خمس دقائق كنت أطالع كتابًا، لا يهم المكان الذي أكون فيه، أنتظر الحافلة، أو خلال ركوبي فيها، أو حول مائدة العشاء. **والدتي التي كانت دائمًا تحثنا على المطالعة كانت تزجرني: «بنيامين، ضع الكتاب جانبًا وتناول طعامك».**

لكل (أم) فاضلة:

كل إنسان لديه هبة من نوع ما، يجب عليه أن يكتشفها، ويقوم بتطويرها بنفسه، أو يستعين بمن حوله، وأما أطفالنا وفتياننا وفتياتنا فهم في حاجة لنأخذ على أيديهم لينهضوا، ونضع أقدامهم الطرية على أول الطريق، ليسلكوه وحدهم بإذن الله تعالى.

أنهى بن كارسون دراسته الثانوية والتحق بالجامعة، وحصل على درجة البكالوريوس في علم النفس، ثم التحق بجامعة الطب بميتشيجان لينتقل من علم النفس إلى جراحة الأعصاب.

ولم يصل عمره إلى الثانية والثلاثين إلا وهو مدير مستشفى بالتيمور لجراحة الأعصاب للأطفال.

(بن كارسون) هو أول شخص يقوم ـ بنجاح ـ بفصل التوأم السيامي الملتصق بالرأس، بل هو أحد أبرز الجراحين في العالم، ومدير شعبة طب الأطفال في جراحات الأعصاب في مستشفى جون هوبكنز، حيث يقوم بمئات العمليات في كل سنة على الأكثر حساسية وتعقيدا من مناطق الجسم البشري: المخ، والعمود الفقري، والجهاز العصبي.

لم يكن كارسون يرجع كل هذه المهارات إلى نفسه، بل كان يقول -وهو من فرقة نصرانية يقال لها: (السبتية)، تصلي يوم السبت بدلا من الأحد-: «بصورة مطلقة، وبدون أي شك، لقد رأيت حصول العجائب مرات عديدة للغاية. لدي إيمان عميق بالله... إنني أعرف نفسي، وأنظر إلى أنواع الحالات المرضية التي كنت منخرطًا فيها-

إنك تعرف، إنني ماهر، ولكنني لست على تلك الدرجة من المهارة. ولذلك أعرف أن هناك شيئًا ما خلفي يسندني. أحصل في كثير من المرات على هذه الانطباعات بشأن عمل الأشياء، ومن أين تأتي تلك الانطباعات؟، إنني أعرف تمامًا أن هناك شيئا أكثر مما تشاهده العين».

صدق، هو توفيق الله لمن شاء، وإرادة الله الشفاء لمن شاء.

إذا علمتِ أيتها الأم الواعية كل ذلك، وأن الدكتور بن كارسون الذي كتب عشرات الأبحاث والكتب الطبية الأكثر مبيعًا في العالم، اليوم هو نفسه الذي كان يُكنَّى في (ديترويت) بـ(الغبي)[1].

كل ما كان يحتاجه هو إثارة كوامن الإبداع في داخله، وتحريك أجنحة الطموح التي خلقت لتسبح في الفضاء الطلق، لا لتبقى سجينة في دهاليز نفسه المكبوتة.

(١) مجموعة من المواقع على النت.

١٤

سرُّ السنوات الخمس الأولى

إذا كان علماء النفس قد أكدوا على الأثر العظيم الذي تتركه التربية والتعامل مع الطفل في السنوات الخمس الأولى من حياته، وأنه يمكن برمجة ما يقارب ٨٠٪ من سمات شخصيته خلال هذه الفترة، فإن هذه السنوات جميعها في يدي الأم، وتستطيع ـ بعون الله لها ـ أن تسيطر على المدخلات الأخرى، والمؤثرات الخارجية التي قد تتداخل مع تربيتها له إلى حدٍّ كبير؛ حين تفتح أمامه آفاق الحياة الجميلة بلا حدود، وتستهدف جميعَ حواسه ومنافذ بصيرته؛ فلا يسمع إلا حسنا، ولا يرى إلا جميلا، ولا يتذوق إلا مباحا، ولا يشم إلا طيبا، ولا تقع يده على ما يضره نفسا وجسدا، حينها تكون قد حصنته ووقته مما يشوهُ فطرته التي فطره الله عليها، وليس هذا فحسب، بل تكون قد ارتفعت بذائقته، حتى يصبح لا يقبل إلا حسنا جميلا مباحا طيبا نافعا غير ضار.

تلك هي التربية في مهادها، ولا نتوقع من طفل يعيش تلك الطفولة الكريمة المنبت إلا أن يكون نقيا تقيا طموحا مهذبا، وحين تتهاوى تلك الدعائم، فإن من الطبيعي جدا أن تأتي النتائج عكس ما ترجوه كل (أم) عظيمة، في ولد من أولادها.

لقد ولد الطفل عبد العزيز في الرياض عام ١٣٣٠هـ لأسرة يغلب على بعضها العناية بالزراعة، وعلى بعضها الآخر العمل في التجارة، وعلى بعض فضلائها طلب العلم حتى أصبحوا قضاة، ودعاة في عدد

من المدن، وتلك بيئة محفزة بلا شك، وتحتوي على قدوات من الطبيعي جدا أن يكون لهم أثر في توجه أفرادها، وبخاصة الشباب.

ولكن المؤثر الأكبر كان في البيت، فبعد أن توفي والد هذا الطفل وعمره ثلاث سنوات، ربته تلك الأم العظيمة: (**هيا بنت عثمان بن عبد الله بن حُزَيم**)، التي لم تكن ذات منصب ولا إمامة في العلم، لكنها كانت ذات قلب رحيم، وبصيرة نافذة، فقد حدَّث الشيخ الـمُعمَّر محمد بن أحمد بن سعيد رحمه الله أن الأولاد الصغار كانوا يبتعدون عنه في صغره ولا يخالطونه، فكانت أمُّه الصالحة ترحمُه، وتغسِّله في طست، وتعتني به، وتُكثر الدعاء له جدًّا. وكأنها كانت ترى في ولدها عبد العزيز غير ما يراه الناسُ فيه، ترى فيه مستقبلا عزيزا، ومجدا مؤثلا، يعوضه عن كل ما أصابه من اليتم والضعف، وما ألم به بعد ذلك من ذهاب نعمة البصر في التاسعة عشرة من عمره، وقد حدث الشيخ المعمَّر سعد بن عبد المحسن بن باز، قال: كان لوالدة الشيخ عبد العزيز جارة صالحة، ولما أُصيبت عيناه شَقَّ ذلك على والدته، فقالت هذه الجارة الصالحة: «**لا تحزني، ولكن ادعي الله له بعد كفِّ بصره أن يعوِّضه البصيرة، فدعت له، وأخذت تلحُّ في الدعاء له**».

وحدث بتفصيل أكثر **الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن جابر** رحمه الله، أن جارة بيت سماحة **الشيخ عبدالعزيز بن باز** بحي دُخنة - واسمها **نورة بنت عبد العزيز آل مبدّل** وهي زوجة **الأمير عبد العزيز بن تركي آل سعود** - دخلت على أم الشيخ وهي تبكي على ابنها، وهو جالس إلى جوارها، فسألتها: لماذا تبكين؟ فأجابتها أن عبد العزيز فقد بصره، فمَن يقوم بشؤونه؟ فقالت لها: «**البكاء ما يرد شيئا، ولكن استعيني بالله**

وتوضئي وصلِّي، واسألي الله كما أخذ بصره أن يعطيه علمًا ينفعه وينفع المسلمين»، فراحت تشجعه، وتسانده، وتصبره في دروب العلم، وتدعو له وتقول: «جعلك الله إماما للناس»، وهو دعاء يحدد الهدف الذي هو رأس الخطة، ودليل الوصول إلى الغايات، وبدون هدف تضيع الحياة، وتتبدد الأيام دون إنجاز، ولم تضع الهدف أمنيَّة فقط، كما تتمنى كثير من الأمهات، ثم لا تصنع شيئا، بل تحركت بمجموعة من الإجراءات الفاعلة، فدفعت به منذ العاشرة من عمره بين أروقة الدرس في المساجد والحلق؛ حتى حفظ القرآن الكريم في سن البلوغ، ثم بدأ في تلقي العلوم الشرعية والعربية على أيدي كثير من علماء الرياض، من آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب وغيرهم، وبذل جهدا مضاعفا؛ سائلا ربه تعالى أن يعوضه بالجنة وبنور البصيرة بعد أن ذهب عنه نور البصر، فكان الشيخ الإمام الذي أجمع عليه علماء عصره، ووضع له قبول قلَّ أن يقع لأحد في عصره: إنه سماحة الشيخ الوالد **عبدالعزيز ابن باز** رحمه الله هكذا أحسبه والله حسيبه ولا نزكي على الله أحدا.

إن الاستسلام للمأساة لا ينتج غير الضعف والضعة وضياع الفرص، بل ضياع الحياة، ولقد وضع الرسول الأعظم ﷺ منهجا للنجاح حين قال: «**المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللهَّ منَ المؤمنِ الضَّعيفِ، وفي كلٍّ خيرٌ، احرِص على ما ينفعُكَ، واستعِنَ باللهَّ ولا تعجزْ، وإن أصابَكَ شيءٌ، فلا تقُل: لو أنِّي فعلتُ كان كذا وَكَذاَ، ولَكِن قل: قدَّرَ الله، وما شاءَ فعلَ، فإنَّ لو تَفتحُ عملَ الشَّيطانِ**» [رواه مسلم][1].

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٥٢) ح (٢٦٦٤).

تجاوز المحنة، والقفز على العقبات، واستهال الصعاب، والنظر إلى الأفق الوضيء المضيء هو الطريق إلى النبوغ، النبوغ في التربية، والنبوغ في الإبداع الشخصي.

ولقد ذكر سماحته في محاضرته النافعة رحلتي مع الكتاب: أن لوالدته -رحمها الله- أثرا بالغا، ودورا بارزا في اتجاهه للعلم الشرعي وطلبه والمثابرة عليه، فكانت تحثه وتشد من أزره، وتحضه على الاستمرار في طلب العلم والسعي وراءه بكل جد واجتهاد[1]. وهكذا تقف الأم العظيمة التي يجهل الناس حتى اسمها وراء عظمة الكبار الذين يبنون التاريخ بلبنات عقولهم، ورحيق أرواحهم.

هذا ما تحتاجينه أيتها الأم الكريمة، ولابد أنك سمعت عن قصة ربما زاد الناس فيها ما زادوا لكني أخذتها من مصدرها، قصة أثر (أم) إمام الحرم المكي ورئيس شؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي معالي الشيخ الدكتور **عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس**، فقد نُقل لي عنه شخصيا أن أمَّه كانت تحثه على حفظ القرآن الكريم، وتتابعه وتشجعه على ذلك رحمها الله تعالى، ولا شك بأنها وضعت في يده المفتاح لبوابة المجد الذي وصل إليه بفضل الله عليها وعليه، نعم، لا يذكر الشيخ أنها دعت له أن يكون إماما للحرم كما يتناقل الناس، ولكنها بحثِّها له على حفظ كتاب الله عز وجل فقد وضعت قدمه على الطريق إلى منبر الحرم المكي، وفي يديه جواز السفر إلى عزِّ الدنيا والآخرة ـ إن شاء الله ـ وهو ما نرجوه لشيخنا الكريم.

---

(١) موقع نداء الإيمان: عظماء في الإسلام الإمام عبد العزيز بن باز.

إن علاقة الأم بالولد لا مثيل لها بين بشرين أبدًا، فلقد أثبتت تجارب علمية أجريت في (معهد هيوستن) للأبحاث الطبية ان ابتسامة الطفل تثير في دماغ والدته المراكز ذاتها التي تثيرها بعض المواد المؤثرة في الوعي، وأفاد العلماء الذين أشرفوا على التجارب وراقبوا تأثير ابتسامة الطفل على والدته بواسطة المسح التوموغرافي الذي رصد ردود فعل الأمهات، أنهن يواجهن حالات نفسية مختلفة عند مشاهدتهن لصور أطفالهن وأطفال غرباء. وأشار أحد الباحثين في المعهد إلى التأثير الحيوي للعلاقة بين الطفل ووالدته على نموّه، معتبرًا أن هذه العلاقة هي التي تحدد مستوى النمو، وأنه لسبب من الأسباب تكون هناك عوائق تحول دون أن تنمو هذه العلاقة بشكل طبيعي.

وأضاف أن إهمال (الأم) لطفلها ومعاملتها السيئة له تؤثر سلبا على نموّه، الأمر الذي قد ينتج عنه أثر مدمر على نمو الطفل وتطوره اللاحق.

وقد توصل العلماء إلى أن مراكز معينة في الدماغ تنشط مادة الدوبامين المسؤولة عن نقل النبض من عصب إلى آخر، وتحديدًا في محيط الجبين، حين تنظر أم إلى صورة طفلها، وذلك استنادًا إلى تجارب أجراها العلماء على أمهات من سن ٢٨ عامًا وعلى أطفالهن في سن ٥ إلى ١٠ أشهر، مما يجعل ابتسامة الطفل تؤثر على والدته تأثيرًا بالغًا.

ويؤكد الباحثون أن مستوى التفاوت يكمن في مستوى تأثير وجه الطفل على والدته بحسب التعبير الذي يرسمه على وجهه، ففي حين ثبت أن وجه الطفل المبتسم يتمتع بالتأثير الأقوى على والدته، فقد ثبت أيضًا أن التأثير الأقل يرتبط بتعبير الوجه الحزين أو المحايد لدى الطفل.

ويقول العلماء أن التوصل إلى الرابط بين ابتسامة الطفل وتأثيرها على والدته قد يمهد للتوصل إلى جذور سر الارتباط العاطفي بين الأم وطفلها، وكذلك التوصل إلى الأسباب التي قد تؤدي إلى الخلل الذي قد يشوب التواصل بينهما.

ربما هذه الإضاءة الطبية تكشف لنا عمق هذه الصلة بين الأم وولدها، والتأثير الذي تبلغه في بنائه أو هدمه، مما يجعل الأم بالفعل تنمي كل قواها ومهاراتها؛ لتصل إلى الأهلية الكاملة لتنمية هذا الإنسان بطريقة سوية ومبدعة.

١٥

الأم نقطة قوة .. أو نقطة ضعف في حياة العظيم

يقول الدكتور عبد العظيم الصادق: «تمضي السنين، وتبقى (الأم) متربعة على عرش القلب، ترنو إليها الأبصار، وتتغنى باسمها الألسن، وتهفو إلى عشقها الأفئدة والخواطر، تغفو على صدرها الحنون المفعم بالحب والعطاء هامات الجبابرة والأبطال، وتتعلم منها اللغات أبجديات الحب والتفاني والتضحية».

وصدق، فالأم هي أصل الشيء الذي تضاف إليه، فأم كل شيء منجبته ومصدره، وأعظم شيء فيه، ولذلك فهي الركن الضعيف القوي، الضعيف بحكم خِلقة الأنثى، والقوي بحكم الشعور القوي الذي يمتلك قلب الرجل حين يضعف، فلا يجد أقوى من ذلك القلب الضعيف ليهوي تحت قدميه منكسرا أسيفا.

إن الرجل العظيم لابد أنه سيكون مشحون الزمن، مملوء الوقت، يلاحق الأوقات، بل يكون لديه ـ كما قال أحد الغربيين ـ: «نوع من الشباك يلتقط به نحاتات وقراضات الزمان، ونعني بها فضلات الأيام والأجزاء الصغيرة من الساعات، مما يكنسه معظم الناس ويلقونه في مهملات الحياة، وإن الرجل الذي يدخر كل الدقائق المفردة وأنصاف الساعات، والمناسبات غير المنتظرة، والفسحات التي بين وقت وآخر،

والفترات التي تنقضي في انتظار أشخاص يتأخرون عن مواعيد مضروبة لهم، ويستعمل كل هذه الأوقات، ويستفيد منها؛ لَيَأتي بنتائج باهرة، يُدهش لها الذين لم يفطنوا لهذا السر العظيم».

وقد حفظ لنا التاريخ العلمي قصصا تشير إلى أمثلة لهؤلاء العظماء، الذين قد لا يجدون الوقت الكافي للقاء بأمهاتهم بعد مرحلة التكوين، وهم يجدون حاجتهم إلى ذلك للمساندة، ومن ذلك: مراسلات دارت بين شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني وأمه رحمهما الله تعالى، تشير إلى التجربة الإنسانية المتكررة بين الرجل العظيم وأمه، حيث يشعر بالتقصير الشديد معها، وهو لا يستطيع أن يكون إلى جوارها دائما، ومشاغل الهم الذي يحمله تُلوِّحُ به يمينا وشمالا، وتنتهبُ معظم أيامه، فيشعر بالذنب، فيعتذر إليها اعتذار المذنب، الذي لا يستطيع أن يقلع عن ذنبه، وإن كان عمره كله في علم ودعوة وعمل نافع.

ومن يقرأ سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ويطلع على حجم كتبه ورسائله وجهاده وسجنه ورحلاته، وانكباب الناس عليه، ليتساءل بالفعل: متى يجد الوقت الذي يقترب فيه من أمه؟

ربما كان هذا الكِتَابُ الذي أرسله الشَّيْخِ إِلَى وَالِدَتِهِ، مجيبا عما طرحته من إشكاليات، حيث: يَقُولُ فِيهِ[1]:

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية؛ جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، ط: ١، ١٣٩٨هـ، ٢٨/٤٨-٥٠.

«بسم الله الرحمن الرحيم»

مِنْ أَحْمَد بْنِ تيمية إِلَى الْوَالِدَةِ السَّعِيدَةِ أَقَرَّ الله عَيْنَيْهَا بِنِعَمِهِ وَأَسْبَغَ عَلَيْهَا جَزِيلَ كَرَمِهِ وَجَعَلَهَا مِنْ خِيَارِ إِمَائِهِ وَخَدَمِهِ.

سَلَامُ اللهَّ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهَّ وَبَرَكَاتُهُ.

فَإِنَّا نَحْمَدُ إِلَيْكُمْ اللهَّ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَهُوَ لِلْحَمْدِ أَهْلٌ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

كِتَابِي إِلَيْكُمْ عَنْ نِعَمٍ مِنْ اللهَّ عَظِيمَةٍ وَمِنَنٍ كَرِيمَةٍ وَآلَاءَ جَسِيمَةٍ نَشْكُرُ اللهَّ عَلَيْهَا وَنَسْأَلُهُ الْمَزِيدَ مِنْ فَضْلِهِ. وَنِعَمُ اللهَّ كُلَّمَا جَاءَتْ فِي نُمُوٍّ وَازْدِيَادٍ وَأَيَادِيهِ جَلَّتْ عَنْ التَّعْدَادِ.

تَعْلَمُونَ أَنَّ مُقَامَنَا السَّاعَةَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ إنَّمَا هُوَ لِأُمُورٍ ضَرُورِيَّةٍ مَتَى أَهْمَلْنَاهَا فَسَدَ عَلَيْنَا أَمْرُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا. وَلَسْنَا وَاَللهَّ مُخْتَارِينَ لِلْبُعْدِ عَنْكُمْ، وَلَوْ حَمَلَتْنَا الطُّيُورُ لَسِرْنَا إلَيْكُمْ وَلَكِنَّ الْغَائِبَ عُذْرُهُ مَعَهُ، وَأَنْتُمْ لَوْ اطَّلَعْتُمْ عَلَى بَاطِنِ الْأُمُورِ فَإِنَّكُمْ -وَللهَّ الْحَمْدُ- مَا تَخْتَارُونَ السَّاعَةَ إلَّا ذَلِكَ، وَلَمْ نَعْزِمْ عَلَى الْمُقَامِ وَالِاسْتِيطَانِ شَهْرًا وَاحِدًا، بَلْ كُلَّ يَوْمٍ نَسْتَخِيرُ اللهَّ لَنَا وَلَكُمْ، وَادْعُوا لَنَا بِالْخِيَرَةِ. فَنَسْأَلُ اللهَّ الْعَظِيمَ أَنْ يَخِيرَ لَنَا وَلَكُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ مَا فِيهِ الْخِيَرَةُ فِي خَيْرٍ وَعَافِيَةٍ. وَمَعَ هَذَا فَقَدْ فَتَحَ الله مِنْ أَبْوَابِ الْخَيْرِ وَالرَّحْمَةِ وَالْهِدَايَةِ وَالْبَرَكَةِ مَا لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ بِالْبَالِ، وَلَا يَدُورُ فِي الْخَيَالِ، وَنَحْنُ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَهْمُومُونَ بِالسَّفَرِ، مُسْتَخِيرُونَ اللهَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فَلَا يَظُنُّ الظَّانُّ أَنَا نُؤْثِرُ عَلَى قُرْبِكُمْ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا

قَطُّ. بَلْ وَلَا نُؤْثِرُ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ مَا يَكُونُ قُرْبُكُمْ أَرْجَحَ مِنْهُ. وَلَكِنْ ثَمَّ أُمُورٌ كِبَارٌ نَخَافُ الضَّرَرَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ مِنْ إِهْمَالِهَا. وَالشَّاهِدُ يَرَى مَا لَا يَرَى الْغَائِبُ. وَالْمَطْلُوبُ كَثْرَةُ الدُّعَاءِ بِالْخِيَرَةِ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَلَا نَعْلَمُ وَيَقْدِرُ وَلَا نَقْدِرُ وَهُوَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «{مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ: اسْتِخَارَتُهُ اللهَ وَرِضَاهُ بِمَا يَقْسِمُ اللهُ لَهُ، وَمِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ: تَرْكُ اسْتِخَارَتِهِ اللهَ وَسُخْطُهُ بِمَا يَقْسِمُ اللهُ لَهُ}، وَالتَّاجِرُ يَكُونُ مُسَافِرًا فَيَخَافُ ضَيَاعَ بَعْضِ مَالِهِ فَيَحْتَاجُ أَنْ يُقِيمَ حَتَّى يَسْتَوْفِيَهُ وَمَا نَحْنُ فِيهِ أَمْرٌ يُجَلُّ عَنِ الْوَصْفِ. وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ كَثِيرًا وَعَلَى سَائِرِ مَنْ فِي الْبَيْتِ مِنَ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ وَسَائِرِ الْجِيرَانِ وَالْأَهْلِ وَالْأَصْحَابِ وَاحِدًا وَاحِدًا.

وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.ا.هـ.

فردّت عليه والدته رحمها الله تعالى بالجواب التالي: «ولدي الحبيب الرضيّ أحمد بن تيمية، وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه، فإنه والله لمثل هذا ربيتُك، ولخدمة الإسلام والمسلمين نذرتُك، وعلى شرائع الدين علمتُك، ولا تظننَّ يا ولدي أن قربك مني أحب إلي من قربك من دينك، وخدمتك للإسلام والمسلمين في شتّى الأمصار، بل يا ولدي إنَّ غاية رضائي عليك لا يكون إلا بقدر ما تقدمه لدينك وللمسلمين، وإني يا ولدي لن أسألك غدًا أمام الله عن بعدك عني، لأني أعلم أين وفيم أنت!! ولكن يا أحمد سأسألك أمام الله وأحاسبك إن قصّرت في خدمة دين الله وخدمة أتباعه من إخوانك المسلمين. رضي الله

عنك وأنار بالخير دربك وسدد خطاك وجمعني الله وإياك تحت ظل عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حين نقرأ هذا الكلام، تقشعر الجلود، وتنتفض القلوب، وتتساءل العقول: كيف صيغت هذه الأمُّ حتى أصبحت بوتقة تُصهر فيها المعادن الكريمة، وتتشكل فيها أجمل العقود، وأكثرها بريقا وإبهارا!!

حين نقرأ هذا، نعرف سرَّ تميز شيخ الإسلام في علمه وتعليمه، وجهده وجهاده، وصبره ومصابرته، فإن الأم - في بعض الأحيان - هي التي تكون نقطة ضعف البطل، يخاف على أن تحزن على فقده فلا يُقدِم، ونقطة ضعف طالب العلم يخشى أن يكدرها ببعده فيتراجع، ولكن هذه الأم كانت نقطة قوة إقدام هذا العالم الخالد، وسر نجاحه وإصراره على بلوغ أهدافه.

يؤكد المختصون بأن ضعف الشخصية لا يولد مع الطفل، ولكن هناك عوامل كثيرة تؤدي إلى ضعفه، كالتربية بالسيطرة والقمع والتحدي الشخصي والإذلال، أو بالتفريق بين الأولاد، والإلحاح على السمات الرديئة، ويمكن تحاشي كل ذلك بتربيته على الاستقلالية وحرية الاختيار فيما يخصه، مع البقاء بقربه لتقديم المساعدة له إذا احتاج إليها، كأن يتعلم شراء أشياءه اليسيرة بنفسه والتعامل مع النقود، والتعرف على أصدقائه بنفسه، بالإضافة إلى ضرورة إعطاء الطفل الفرصة للتعبير عن رأيه في بعض المواضيع العائلية اليسيرة، مثل اختيار مكان للذهاب إليه يوم العطلة، أو اختيار وجبة الغداء التي سيتناولونها في ذلك اليوم.

وكل هذه الأمور بيد الأم، كما أن بمقدورها أن تعوده على مهارات

تأكيد الذات، وأساليب التعامل مع الآخرين، والتعرف عليهم، وطرق حل المشكلات، ومهارات اتخاذ القرار، ولكل تلك المهارات وسائل وأساليب، يمكن أخذها عن طريق المختصين في البرامج السلوكية.

أما الأم المسيطرة، التي لا تعرف غير رفع الصوت والسوط، فلا تحلم بغير أولاد فاشلين، إلا أن يشاء الله لهم غير ذلك.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

١٦

العظماء أبناء لأمهاتهم..

«العلاقة بين الرئيس وأمه لها أهمية خاصة»؛ بحسب الكاتب الأمريكي دويج وياد المؤرخ الرئاسي ومؤلف كتاب (أمهات الرؤساء) الذى حقق مبيعات كبيرة عام ٢٠٠٨م، والذي قال فى مقابلة له على قناة «فوكس نيوز» الأمريكية إن جميع الرؤساء هم (أبناء لأمهاتهم)؛ موضحا أن الأمهات تعطي إرشادات الزعامة وحب السلطة لأبنائهن، وهذا ما يساعدهم على التحول إلى زعماء سياسيين.

حقيقة أكدتها كل النقولات عن العظماء الذين مررنا بهم من قبل، وكل القصص التي جعلتنا نوقن أن أسرار العظمة يقتبسها الرجل الشديد من المرأة الضعيفة جسدا، القوية شكيمة وشخصية.

وإذا كانت السيدة **صفية بنت عبد المطلب** عمة رسول الله ﷺ ربت الزبير بن العوام رضي الله عنه فأحسنت تربيته؛ وأدبته فأحسنت تأديبه، حتى إنها في بعض الأحيان كانت تضربه ضربا شديدا؛ كما ذكر ذلك مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء في ترجمته للزبير[١]، أقول: [وكان ذلك قبل الإسلام دين الرحمة بالصغار] حيث قال:

(١) سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: ١١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، ١/ ٤٥-٦٧.

«وكانت أمه صفية تضربه ضربا شديدا، وهو يتيم. فقيل لها: قتلتِه، أهلكتِه. قالت:

إنـــما أضربُـــهُ لـــكي يَـــدِبْ
ويجـــــرَّ الجيــــشَ ذا الجَلَـــــبْ

وفعلا صار الزبير بعد ذلك من القادة الكبار الذين يشار إليهم بالبنان، بل هو أول من سل سيفه في سبيل الله، وقد شهد بدرا واليرموك، وغيرها، وليس ذلك لأنها ضربتْه؛ ولكن لأنها وضعت أمامه هدفا عظيما ساميا، واضحا، فوصلت إليه بفضل الله عليهما بهذا الدين العظيم. قال عروة: «كان في الزبير ثلاث ضربات بالسيف: إحداهن في عاتقه، إن كنتُ لأُدخل إصبعي فيها، ضُرب اثنتين يوم بدر، وواحدة يوم اليرموك»(1).

حتى إن حسان بن ثابت رضي الله عنه مدحه بذلك، فقال:

أقـامَ عـلى عهـدِ النَّبـيِّ وهديِــه
حـــواريُّه والقـولُ بـالفعلِ يُـعدلُ

أقـــامَ عـــلى منهـــاجِهِ وطـريقِــهِ
يـوالي ولـيَّ الحـقِّ والـحقُّ أعـدلُ

هـو الفـارسُ المشـهورُ والبطـلُ الـذي
يصـولُ إذا مــا كــانَ يــومٌ محجَّــلُ

إذا كشفت عن ساقها الحربُ حشَّـها
بـأبيـضَ سبَّــاقٍ إلى المــوتِ يــرقُلُ

وإنَّ امــرءا كانــت صــفيةُ أمّــه
ومـــن أســـدٍ في بيـــتها لمؤثَّـــلُ

لـــه مـن رســولِ الله قربــى قريبــةٌ
ومـن نصـرةِ الإســلامِ مـجدٌ مؤثَّـلُ

فكـــم كربـــةٍ ذبَّ الزبــيرُ بســـيفه
عن المصطفى، واللهُ يعطــي فــيجزلُ

ثنـــاؤكَ خـيرٌ مـــن فِعـــالِ معاشـــرٍ
وفعـلُك يا ابـــنَ الهاشــميةِ أفضـــلُ

فارمقي معي إشادة حسان بأمه مرتين، وإلحاحه على أنها من تركت في نفسه هذا الأثر العظيم.

والزبير -كما هو معلوم- أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أهلِ الشورى، وقد روى جابر بن عبد الله ﷺ قال: نَدَبَ النبي ﷺ الناسَ يومَ الخَنْدَقِ، فانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، ثم نَدَبَهُم فانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، ثم نَدَبَهُم فانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، قال النبيُّ ﷺ: «**إن لِكُلِّ نبيٍّ حَوارِيًّا، وحَوارِيَّ الزُّبَيْرُ**». (قال سُفْيَانُ: الحَوارِيُّ النَّاصِرُ)[1].

(١) رواه البخاري(٤/ ٥٧) ح (٢٩٩٧).

١٧

سيدة الجزيرة العربية في العصر الحديث

الأميرة الفاضلة العابدة **سارة بنت أحمد (الكبير) بن محمد بن تركي بن سليمان السديري**، وُلِدت في العَقْد السابع من القرن الثالث عشر الهجري في الأحساء، عندما كان والدها الأمير أحمد (الكبير) بن محمد السديري أميرًا هناك من قِبل الإمام فيصل بن تركي بن عبد الله، ووالدتها هي حصة بنت مهنا بن صالح النويران، وكانت الأميرة سارة قد تزوجت من عبد الله بن حمد بن عبد الجبار الذي توفي عنها، ولم تُنجب منه، ثم تزوجها الإمام عبدالرحمن بن فيصل بن تركي فأنجبت فيصلا ثم نورة، ثم أنجبت **صقر الجزيرة وبانيَ مجدها الحديث وجامع شملها -بتوفيق الله تعالى ونصره- الملك عبدالعزيز مؤسس الدولة السعودية الثالثة**، ثم أنجبت بزة، وهيا وسعدا، رحمهم الله جميعا.

وهي من بيت إمارة وزعامة وكرم ونبل وسماحة وفضل؛ إذ تُعدّ أسرة السديري من أشهر الأُسَر التي أدت دورًا سياسيًّا مؤثرًا في الجزيرة العربية، وقد تضمن تاريخ هذه الأسرة الكريمة كثيرًا من المواقف البطولية والقيادية والإدارية المشرفة والمخلصة، وتولى كثير من أفرادها مناصب إدارية مهمة في الدولة السعودية عبر أطوارها التاريخية المتعاقبة، خاصة الفرع الذي ينحدر منه الأمير أحمد بن محمد السديري (الأول) جد الملك عبد العزيز لأمه.

وتُعدّ الأميرة سارة بنت أحمد السديري من أوائل نساء السدارا

الفضليات اللاتي لعبن دورًا بارزًا ومؤثرًا في المواقف التي عصفت بأسرتها بعد موقعة المليداء سنة ١٣٠٨هـ - ١٨٩١م، حيث يتضح ذلك من خط سير الإمام عبد الرحمن الفيصل رحمه الله تعالى ورحلته الطويلة التي بدأت من خروجه من الرياض حتى استقراره بالكويت؛ إذ تبين عظم موقف سارة وقوة صبرها وجَلَدها واحتمالها، بل ومؤازرتها لزوجها الإمام، وتحملها الصعاب معه؛ إذ تبين ذلك الفترة التي قضتها في الصحراء مع أسرتها في منازل آل مرة والعجمان بين يبرين والأحساء.

وعندما شعر الإمام عبدالرحمن بصعوبة حياة الصحراء على نساء أسرته ومدى الصعاب والمشاق التي عانين منها بعث بهن إلى البحرين، ثم انتقلت معهن إلى قطر، ومنها إلى الكويت.

كما أن للأميرة سارة دورًا في إمضاء ابنها عبدالعزيز وشحذ همته وتقوية عزيمته، عندما عزم عبد العزيز على استعادة ملك آبائه وأجداده، وطلبت والدته من والده الإمام عبدالرحمن أن يسمح له بتكرار المحاولة لما لمست منه من إصرار وعزيمة، وهي بين عاملين: حب الابن والإشفاق عليه من تلك المغامرة، أو النزول على طلبه.

وُصفت الأميرة سارة بالجمال وطول القامة؛ حيث كانت امرأة فارعة الطول، ويُقال إن الملك عبد العزيز ورث قامتَه المديدةَ وبنيتَه الكبيرة عن أُمِّه. توفيت في مدينة الرياض في آخر عام ١٣٢٧هـ - ١٩١٠م، وأُدِّيت عليها الصلاة في الجامع الكبير في مدينة الرياض (جامع الإمام تركي بن عبدالله) بعد صلاة الظهر، وصلَّى عليها جمع غفير، ودُفِنت في مقبرة العود - رحمها الله رحمة واسعة-[(١)].

(١) صحيفة الجزيرة، وراق الجزيرة، فهد عبد العزيز الكليب، الأحد ٢٧ جمادى الأول ١٤٣٢ العدد ١٤٠٩ هـ.

١٨

الأم الحازمة والهمة المقلقة ..

قد تحتاج الأم إلى الحزم والإلزام والعزيمة والصرامة والتصميم وهي تربي ولدها؛ لتبلغ به آفاق النجاح الذي ترجوه، وربما تكون بيئتها تداخلت مع نسيج طبيعتها، وهنا ستنتقل تلك الصفات إلى الولد، ممتزجة بثقافته وعلومه والمؤثرات التي تعرض لها، وهو ما أجده في شخصية أم **الأستاذ الدكتور طارق بن علي الحبيب** وولدها الذي أصبح من أبرز مشاهير العالم في الطب النفسي.

فقد قال في توطئة سفره الصغير حجما، الكبير قدرا (أمي علمتني)[1]: «أمي (**فاطمة بنت حمد السحيم**) حنونة ككل الأمهات، لكن عقلها الكبير يمنعك أن تحس حنانها بيسر وسهولة. إعجابي بعقلها وحكمتها جعلني منذ كنت صغيرا أعشق حوار ذلك العقل والاستقاء من تلك الحكمة، لحظات الحنان لم نكن نحياها سوية إلا في فترات المرض، أما سوى ذلك فكان العقل على أرض من التناغم الدافئ».

أظن أن هذه العقلانية التي لا تتكرر كثيرا في حياة الأمهات، هي التي تركت أثرا واضحا في شخصية الأستاذ الدكتور طارق الحبيب، الذي لا تستطيع أن تستشف عاطفته فيما يلقي من محاضرات، أو يتدفق به من برامج على الشاشة الفضية، إنك لا تسمع غير العلم يتردد في

---

(١) أمي علمتني، أ.د.طارق الحبيب، مركز مدار المسلم، الرياض، ١٤٢٩(٢٠٠٨)، ولم أحدد الصفحات فيما نقلت لسرعة الوصول إلى المعلومة؛ لصغر الكتاب.

ردهات عقل كبير، قادر على التحليل، مبهر في استشفاف ما وراء الكلمات والتصرفات بل ولغة الجسد، ونبرات الصوت وتموجاته، وهدوئه العميق الآسر، وحين يكون الحديث له علاقة بالعاطفة تأتي الكلمات المعبرة عنها مشدودة، كدمعة عصية، تحدّرت من عيني رجل ذي شمم، أمام محفل من النُظَّار.

لكن أمه - كما يقول - «متدينة جدا، تصوم يوما وتفطر يوما، لكنها في الوقت نفسه منعتقة أيما انعتاق من التبعية التقليدية للطرح الاجتماعي، أحيانا تبدو لي لبرالية بالمعنى المحافظ».

وكأنما (الطبيب الحبيب) يتحدث عن نفسه، ويصف توجهه وأنت تقرأ كتبه وأطروحاته الإعلامية الكثيرة، وبخاصة في كتابه: (التربية الدينية في المجتمع السعودي، رؤية اجتماعية نفسية).

ثم يدلف إلى شربة (السر) التي تسقيها أمهات العظماء أولادهن، لكنها هنا جُرعة مكثفة وقوية، ربما كانت خطرة في عرف الأطباء، فيقول: «**زرعت في نفسي الهمة بشكل أقلقني في بداية عمري؛ لأن جرعته كانت أكبر مني، لكني تدريجيا اقتربت من مرحلة التوازن**».

والتوازن الذي يحكي عنه الطبيب المدرب المعالج المحاضر الإعلامي المؤلف الأستاذ الدكتور طارق الحبيب ليس هو التخفف من تلك الجرعات الزائدة، ولكن الارتقاء إلى استحقاقها؛ حتى أصبحت نفسه في مستواها، وهو ما يشهد به كل من يتابعه من ملايين المنتفعين بعطائه المتخصص.

حتى أصبح يقول -كما يقول كثيرون منا حين يتذكرون صلابة التربية في الصغر-: «كنت أشعر في طفولتي أحيانا أنها جافة، لكني لما كبرت وتأملتها أكثر وجدت ذلك إنما كان انشغالا بذاتها عن سواها،

وطُمأنينة بربها عن خلقه. كانت مليئة بالعاطفة لدرجة أنها في الشتاء لا تلبس الملابس الدافئة؛ حتى تظل باستمرار تراقب درجة البرد بجسدها؛ حتى تحمي أطفالها؛ مخافة نسيان إحساسهم بالبرد. أحبها بعقلي وبقلبي، ولذا خفت على نفسي من الاندماج في شخصيتها العظيمة فتضيع هويتي».

بالطبع لن يندمج الرجل العظيم في شخصية أمه العظيمة، لاختلاف الجنس والتخصص والعمر وشُعَبِ الحياة التي تجعل كلا منهما في واد من أوديتها، ولذلك قال بعد ذلك: «فرضت علي طبيعة دراستي ثم عملي أن أسكن في بلد غير البلد الذي تحيا فيه، فأعطاني استقلالية أكبر في شخصيتي، لكنه في الوقت نفسه زاد اقتناعي بتلك الإنسانة، فعدت ثانية إلى ظل جناحها لكن بشيء من التفرد».

وهو تحليل راقٍ لا يستغرب على طبيب نفسي قدير مثل (أ.د.الحبيب)، ولكن الموعظة هي تلك التي ختم بها كتابه: (أمي علمتني)، حين قال: **«ما أوقن به أنني حتى اليوم لا أرتاح ويطمئن خاطري في أمر مهما كان، حتى أستنير بعقلها، وقد يأتيني رأيها أحيانا بغير ما في خاطري، فأستجيب لرأيها برًّا بها من جهة، ومن جهة أخرى قناعة بعقلها، فإذا مرَّت الأيام وجدت أن ما قالت كان هو الصواب»**.

ويكفيني من أكثر من مئة وعشرين حكمة جبلها الحبيب من مكونات حياة أمه معه قوله من قولها: «**علمتني أن الريادة أمر ممكن لا استحالة فيه، لكنه يحتاج إلى أمرين: المداومة في العطاء، والاستمرار في تذكر الهدف المنشود**».

وهكذا تصنع الأم العظيمة الرجل العظيم.

١٩

وصية من خباء أم بدوية:

أيتها الأم العظيمة.. يا أم العظماء.. اسمعي بكل وعيك هذه الحادثة من خباء بدوية من عصور خلت، كيف ربت ابنها، وكيف تتعامل معه.

قال الفضل بن يزيد: «نزل علينا بنو ثعلبة في بعض السنين، وكنت مشغوفا بأخبار العرب، أحب أن أسمعها وأجمعها، بينما أنا أدور في بعض أحيائهم، إذا بامرأة واقفة في فناء خبائها، وهي آخذة بيد **الغلام**، فما رأيت مثله في حسنه وجماله، وهي تعاتبه بلسان رطب، وكلام عذب تحنُّ إليه الأسماع، وترتاح إليه القلوب، وأكثر ما أسمع منها: (أي بني)، وهو يبتسم في وجهها، قد غلب عليه الحياء والخجل، لا يرد جوابا، فاستحسنتُ ما رأيت، واستحليتُ ما سمعت، ثم دنوتُ منه وسلمت عليه، فردَّ علي السلام، فوقفت أنظر إليهما:

فقالت: يا حضري، ما حاجتك؟

فقلت: الاستكثار مما أسمع، والسرور بما أرى من هذا الغلام.

فقالت: يا حضري، إن شئت سُقتُ إليك من خبري ما هو أحسن مما شاهدت من خبره، وأحسن مما شاهدت من أدبه.

فقلت: قد شئت، يرحمك الله.

فقالت: حملته والرزق عَسِر، والعيش نَكِد، حملا خفيفا، حتى إذا

مضت له تسعة أشهر ولدته، فوربك، ما هو إلا أن صار ثالثَ أبويه، حتى أفضل الله عز وجل وأعطى، وإني من الرزق بما كفى وأغنى، ثم أرضعته حولين كاملين، فلما استتم الرضاع نقلته من خِرَق المهد إلى فراش أبيه، فنشأ كأنه شبلُ أسد، أقيه برد الشتاء، وحر الهجير، حتى إذا مضت له خمس سنين، أسلمته إلى المؤدب، فحفظه القرآن فتلاه، وعلمه الشعر فرواه، ورغب في مفاخرة قومه وآبائه وأجداده، فلما أن بلغ الحلم، واشتد عظمه، وكمل خلقه، حملته في عتاق الخيل، فتفرس وتمرس، ولبس السلاح، ومشى بين بويتات الحي الخيلاء، فأخذ في قِرى الضيف، وإطعام الطعام، وأنا عليه وَجِلة، أشفق عليه من العيون أن تصيبه»[1] . فكان فارس قومه المغوار، الذي تحمى به الذمار.

أختاه.. قدري ابنك أو بنتك كثيرا وأنت ترسمين له لوحة المستقبل الجميل، بل احلمي بقدر الحب الذي تكنينه له، ووسعي حلمك كثيرا؛ فهو جدير بذلك، ولربما تقر عينك به قريبا وقد أصبح من عداد طلبة العلم الذين يشار إليهم بالبنان؛ قال الإمام سفيان بن عيينة: «لو رأيتني ولي عشر سنين، طولي خمسةُ أشبار، ووجهي كالدينار، وأنا كشعلة نار، ثيابي صغار، وأكمامي قصار، وذيلي بمقدار، ونعلي كآذان الفار، اختلفت إلى علماء الأمصار، مثل الزهري وعمرو بن دينار، أجلس بينهم كالمسمار، محبرتي كالجوزة، ومقلمتي كالموزة، وقلمي كاللوزة، فإذا دخلت المجلس قالوا: أوسعوا للشيخ الصغير. ثم تبسم ابن عيينة وضحك»[2] .

فانظر كيف كانوا يحثونهم على طلب العلم وهم في مثل هذه السن

---

(١) أطفال أذكياء جدا لمنصور بن ناصر العواجي، دار طويق للنشر والتوزيع بالرياض: ٤٩ - ٥٠.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي: ٨/ ٤٥٩ .

الصغيرة، وكيف كانوا يدفعونهم إلى حضور مجالس العلماء الكبار. فأين نحن اليوم من هؤلاء، وأين يقضي أطفالنا أوقاتهم، وكم نصيب الكتاب من حياتهم، وكم نصيب البلاي ستيشن وألعاب الفيديو وشاشات التلفاز من حياتهم؟!!

إن ميول الإنسان ومعالم شخصيته ربما تتضح في وقت مبكر من حياته، وهذه الميول تتنامى لتكوّن القالب الذي يميّز الفرد عن غيره، ولنضرب مثلا بشخصية الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فمعاوية نشأ في بيت زعامة سياسية، فأبوه هو أبو سفيان زعيم قريش، وقد ظهرت فيه سمات النفس القيادية باكرا، لذلك قالت أمه هند بنت عتبة عنه في صغره حين قيل لها: «إن عاش معاوية ساد قومه»: «ثكلته إن لم يسد إلا قومه». وكانت تنشد في صغره معددة صفات القائد الذي ترجو أن يتمثله في مستقبله وكأنها وقعت[1]:

إنَّ بُنَـــيَّ مُعْـــرِقٌ كريـــمُ
محـــبَّبٌ فـي أهـــله حليـــمُ

ليس بفـــحَّاشٍ ولا لئـــيمُ
ولا ضجـــورٌ ولا ســـؤومُ

صـخرُ بني فهرٍ بـه زعيـمُ
لا يُخلـفُ الظـنَّ ولا يخيـم[2]

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، تحقيق الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية، الجيزة، ١٤١٨هـ (١٩٩٨ م)، ١١/٣٩٨.

(٢) خيم عليه الشئ: غشاه وغطاه.

وحينما بلغها نعي أخيه يزيد، قال لها بعض المعزين: «إنا لنرجو أن يكون معاوية خلف يزيد». فقالت: «مثل معاوية لا يكون خلفا لأحد، فو الله لو جُمعت العرب من أقطارها ثم رمي به فيها لخرج من أي أعراضها شاء»[1]. مما يوحي بعزة نفسها وإبائها، حيث دعت بالموت على ابنها إن ساد قومه فقط، فقد كانت تأمل أن تراه ذا مكانه عالية بين قومه.

امرأة لا ترضى سوى بتربية القادة.. لله درك يا هند..

ولله در ابن هند (**معاوية بن أبي سفيان**)، يشتد حمى وطيس المعـــارك فيبحث عن عبارات القوة والحماسة لينتخي بها، فيرتفع صوته مجلجلا أنا ابن هند، أنا ابن هند!

والله لو لم تكن ذكرياته مع أمه تشحنه بوقود القوة والعزة والفتوة لما استحضرها في هذا الموقف الرهيب، الذي تسقط فيه الرؤوس، وتفلق فيه الهامات. وفرق بين أم إذا تذكرها المجاهد أقدم، وبين أم إذا تذكرها جبن وأحجم.

«**وهذا أمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر**: الذي ولي الأندلس، وهي ولاية تميد بالفتن، وتَشْرَقُ بالدماء، فما لبث أن قَرَّتْ له، وسكنت لهيبته، ثم خرج في طليعة من جنده، فافتتح سبعين حصناً في غزوة واحدة، ثم أمعن بعد ذلك في قلب فرنسا، وتغلغل في أحشاء سويسرا، وضم أطراف إيطاليا حتى ريَّض كل أولئك له. وبعد أن كانت قرطبة دار إمارة يذكر فيها الخليفة العباسي على منابرها، وتمضي باسمه أحكامها،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ١١/ ٤١٥.

أصبحت مقر خلافته، يحتكم إليها عواهل أوربا وملوكها، ويختلف إلى معاهدها علماء الأمم وفلاسفتها. أتدري ما سر هذه العظمة؟ وما مهبط وحيها؟ إنها المرأة/ الأم، فقد نشأ عبدالرحمن يتيمًا قتل عَمُّه أباه، فتفردت أمه بتربيته، وإيداع سر الكمال وروح السمو في نفسه، فكان من أمره ما علمت»[1].

وصدق الشاعر جميل الزهاوي حين قال:

لَيْسَ يَرْقَى الأَبْنَاءُ فِي أُمَّةٍ مَا
لَمْ تَكُنْ قَدْ تَرَقَّتْ الأُمَّهَاتُ

وإذا كان الرجال قد عبروا عن قَدر الأم في حياتهم، فإن فيليسيا هيمانز تقول: «ليس هناك شيء في هذا العالم البارد، الأجوف، ولا ينبوع من الحب العميق القوي الأزلي.. إلا ذلك الينبوع في داخل قلب الأم..». ولذلك فإن «**الأنشودة الكامنة في صمت قلب الأم تتردد على شفتي طفلها..**» كما قال جبران خليل جبران.

الأمومة ليست مجرد عواطف، الأمومة عطاء بلا مقابل، وعمل لا يعرف الراحة ولا الإجازات..

الأمومة دعاء حار، ليس بينه وبين الله حجاب، يسمعه الابن والبنت، فتتفتح له أكمام روحه، ويعيش به قلبه في روضات من النعيم والطمأنينة.

(١) صور مشرقة لتربية السلف لأولادهم، مقالة، محمد بن إبراهيم الحمد، موقع الألوكة.

الأمومة لا يمكن ممارستها عن بعد، بل هي: سهر، وبذل، ومساندة، وقرب، وملامسة، وتربيت على الأكتاف المرتجفة، ومسحة هانئة على الوجوه المرتبكة.

سيتذكر أولادنا لحظات حياتهم معنا جيدا وسيسجلونها في خواطرهم وفي سيرهم الذاتية، عندها سيقيسون مدى دورنا في بنائهم الروحي والعلمي، أكثر من دورنا في بنائهم الجسدي.

٢٠

لن يعثر (قوقل) على اسم أمي .. ولكن

أيتها الأم العظيمة، قد لا تتصورين مقدار ما تصبينه في روح ابنك من قوة على الحق، وصبر على مُلمات الحياة ومصائبها، التي لا بد منها، وهو الذي يرى أنك سنده الذي بدونه يهوي طريحا أسيفا، نعم قد يكون اسمك (نورة) مثل اسم أم **الشاعر صلاح بن هندي**، في رسمه أو كنهه، فقد قال عنه بعد وفاة صاحبته: «لو وضعت (عزيزي القارئ) هذا الاسم في لوحة (قوقل) فلن يعطيك عنه أية معلومة!! لأن (نورة) لم تكن مناضلة سياسية، ولا روائية كبيرة، ولا سيدة أعمال تجارية. لكنها كانت تملك كنزًا عظيما اسمه (الحب)!! نعم الحب هذه الكلمة التي جنى عليها المدعون فشوهوها.

كانت والدتي رحمها الله تحب الحياة والناس وتحب الفرح. لذلك لن أحزنكم في هذه السطور!! كانت محبوبة لدى كل من عرفها أو حتى سمع بها. العجيب أنه حتى الأمراض أحبتها وظلت ملازمة لها إلى أن فارقت الحياة!! حتى الأمراض بأنواعها وجدت في أمي دفء الحنان وسلامة القلب وطيبته!!

كانت امرأة عظيمة لا تستجيب لنداء الحقد والحسد والانتقام. فقلبها كان لا يكره وإذا كره ازداد حبا!! كانت تحب أبناءها وزوجاتهم وأبناءهم. كلٌ كان متعلقا بها؛ لأنها كانت تمتلك ابتسامة صادقة ساحرة. وقلبًا يفيض بالحب والحنان. رغم الأمراض!! كانت صابرة محتسبة،

متوكلة على الله لا تشكو ولا تتسخط.

وحين صرت أكتب الشعر كانت تشجعني وتسمع بعض قصائدي، وكنت أهديها نسخة من كل كتاب يصدر لي، أكتب الإهداء لها. ورغم أنها كانت لا تقرأ ولا تكتب، إلا أنها كانت تأخذ الكتاب وتتصفحه وهي تبتسم!! ثم تقلبه على صفحة الغلاف الخلفية فتقبل صورتي وتدعو لي!!

رحمك الله يا أمي ماذا عساي أن أقول عنك؟ وهل يستطيع الغصن أن يصف الشجرة؟!! أو هل يستطيع النجم أن يعي حجم السماء؟!! لا أقول إلا رحمك الله وأسكنك فسيح جناته»، ثم أعقب مقالته قصيدة قال فيها:

رحلـــتِ وكـــنتِ ليَ العافيـــة
فكـيف أعيـشُ أيــا غاليـــة!!

وكـــيف أنـــام وأنـت هنـــا
ك، تنامـين في الحفـرة النائيــة!!

رحلـــتِ وكـــنتِ لنـــا نــخلةً
وكـــنتُ عـــذوقًا وإخوانيـــه!!

فكـيف يؤمــل عـــذقٌ صغـــير
وقـد جـُزَّتِ النخلة الراسـية؟!!

وطيفُـــــكِ مـــازالَ في مقلتـــيَّ
تكـــرره اللـــحظةُ القاسـيـة!!

تـمُدينَ نحويَ يـدَيْ مستغيثٍ
تريـــدينَ منـــي يــدًا حانيـــة!!

لأنقـذَ روحَـكِ مـن حتفِهـا
ولــكنَّ موتَــك نحَّانيَــه !!
فصــرتُ غــريقًا ببحرِ الذُّهــو
لِ، وشُلَّـتْ يـداي وأعضـائيه!!

وهــا أنـا أبكي كطفـلٍ رضيع
وعــزميَ أضــعفُ مـن أمنية!!

وداعُــك مثـلُ وداعِ الرَّبيــع
فَعــاثَ الخـريـفُ بـأوراقيـه!!

أيـا شمسَ حبٍّ طواها الغروب
فـأظلــم كــونٌ بـأعماقيـه!!

وداعــا وداعــا فــإن اللقــا
ءَ، بجنَّــاتِ ربي وذي كافيــة!!

لقد كان الشاعر صلاح بن هندي يقول لي في عزائها، لم أعرف عن نفسي إلا تجلدا، ولم أهتزَّ لموت أحد، ولكني أحسست بأن سندي سقط، فكدت أسقط وراءه!!"[(١)].

ولا أجد منفذا لألومه؛ بغية التخفيف من حزنه.. فتلك أمه ..

كيف لو عشتم ـ كما عشت ـ حكاية قصةٍ قُدَّت من كبدِ أمٍّ

(١) مقابلة معه في الأحساء، في عزاء أمه رحمها الله تعالى التي وافاها الأجل صباح يوم الخميس ١٤٣٦/ ١/ ٢٧ هـ.

لم أجد لهذه القصة مثيلا، وقد تماثلت عدد من المواقف لأمهات العظماء بين يدي وأنا أنظم هذا العقد الإنساني الفريد..

«زارتني سيدتي الأولى في بيتي ذات فقر ومسغبة، فرأيت في عينيها ما تمنيت أن تندكَّ جبال الدنيا ولا أراه، رأيت رغبة بحجم (مجرة درب التبانة)، في أن تساعد ابنها .. أن تمد يد العون له في حقبة كان فيها لا يملك ثمن وقود لسيارته!

كانت أمي طيبة جدا، كل شيء فيها حنون، تنقصها أشياء كثيرة حتى تكون امرأة غنية، ولكن لا ينقصها شيء حتى تكون أمًّا..

كانت تملك ثلاثة أشياء.. قلبا جيِّدًا، ودعوات صادقة، وسوارا من ذهب..

ولما حانت لحظة الوداع.. نزعت سوارها الذهبي وأودعته جيبي، ومزجته بشيء من قلبها، وذلك الشيء كان أغلى من الذهب.

بقيت ثلاثة أعوام تقريبا تُطَوِّحُ بي الظروف ذات اليمين وذات الشمال، وذلك السوار يهمس في أذني: «أنا بين يديك، متى ما شئت أن تبيعني بعني»، وتشتدُّ الظروف ويتحول الهمس إلى صراخ، ولكني كنت متمسِّكا بالسوار العجيب، وكأنه يدُ أم، تعبرُ بطفلها شارع الحياة المزدحم..

كنت أنظر إليه على أنه أم في هيئة شيء، قلب في صورة سوار، دعوات ستستجاب بعد قليل..

وكلما رضَّتني المواقف، وحاصرني الخُواء، وأمرتني الفاقة أن أبيع ذاك السوار، قالت لي الحكمة والحنين أيضا: احتفظ به، ليكون دفئا

تشعر به وأمانا تتلمسه..

إن وجود هذا السوار، هو وجود لأشياء تشبه حضن أمي، وقلب أمي، ودعوات أمي، وأمي..

كنت إذا أحاطت بي الظروف تذكرت السوار فابتسمت، وإذا شعرت أن جيبي ليست به إلا ثلاثة ريالات، تذكرت أن السوار موجود في بيتي فتفاءلت..

لم يعد السوار في نفسي قطعة ستتحول إلى مال إن بعتها، بل صار أنسا وثباتا ودفئا وحبا وأشياء أخرى..

وبعد ثلاث سنوات، فتح الله عليَّ فوقفت أمام سيدتي وبيدي شيء ظنَّنت أني بعته منذ زمن.. فإذا أنا أقدمه لها، وأعيده إلى يدها، وكان ما كان»[(١)] ..

قصة .. أقدمها بلا أغلفة من يد بطلها: **علي بن جابر الفيفي** .. لكلِّ أمٍّ صدَّقت مزاعم من أراد أن يخرجها عن جمال أمومتها، ويحولها إلى مربية مستأجرة، تهتم بصحتها أكثر من صحة فلذات أكبادها، وترى أن تضحيتها من أجلهم كان خطأً تاريخيًا وانتهى العمل به، فالمهم ليس نجاح الأولاد ولا تفوقهم ولا تصدرهم في المجتمع، بل ولا حسن تربيتهم وأدبهم مع ربهم ودينهم، فكل ذلك ليس من مسؤولية الأمّ، بل هو من مسؤوليات الأب فقط، أو حتى ليس من مسؤولياته، بل من مسؤولياتهم هم فقط، والحياة كفيلة بتأهيلهم ليعيشوها كما يتناسب مع تقلباتها ومتطلباتها، بل أصبح المهم بعد تبدل الأوليّات هو هواياتها،

(١) سوار أمي لعلي بن جابر الفيفي: ١٨ - ٢٠.

وأحلامها، وطموحاتها، فقط!! حتى ولو كانت على حساب مستقبل الأولاد بل وصحتهم الجسدية والنفسية!!

نعم يجب أن تهتم الأم بصحتها، ولها أن تحقق طموحاتها الكريمة، وأن تنميَ مواهبها، ولكن ليس لها أن تتنصل من عظمة الأمومة، وكمال الحب، وذروة التضحية الإنسانية فتقدم راحتها على راحة أولادها، أو طموحاتها على طموحاتهم، وإذا وجب عليهم ذلك حين يكونون قادرين عليه، فلا ينبغي لها هي أن تحرم قلبها من لذائذ التربية التي لا تعادل عوائدها عند دنيا وأخرى كل عوائد الدنيا!!

اللذة التربوية هنا، في هذا الموقف الذي روته عائشة رضي الله عنها للرسول ﷺ: «جاءتني مسكينةٌ تحمل ابنتَين لها، فأطعمتُها ثلاثَ تمراتٍ، فأعطتْ كلَّ واحدةٍ منهما تمرةً، ورفعت إلى فيها تمرةً لتأكلَها، فاستطعمَتها ابنتاها، فشقَّتِ التَّمرةَ التي كانت تريد أن تأكلَها بينهما. فأعجبني شأنُها، فذكرتُ الذي صنعتْ لرسولِ الله ﷺ فقال «إنَّ اللهَ قد أوجب لها بها الجنةَ، أو أعتقَها بها من النَّارِ»[1].

فكم -بالله عليك- من مثل هذه التمرة حرمت أمهاتنا أنفسهن من أجلنا.. طعاما ونوما وراحة ومالا.. بل كم أمٍّ حرمت نفسها من الزواج بعد وفاة زوجها من أجل أن تتفرغ لأولادها، حين رأت أن ذلك أصلح لهم!!

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٢٧) ح (٢٦٣٠).

٢١

الأمُّ الثابتة المُثبِّتة ..

ذات النطاقين (أسماء بنت أبي بكر الصديق) رضي الله عنها وعن والدها؛ حينما لقيت ولدها ـ عبد الله بن الزبير ـ قبل أن يقتل بقليل؛ وقد بُويع له بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية، ودانت له الحجاز ومصر والعراق وخراسان، وأكثر بلاد الشام، لكن بني أمية بادروه بجيشٍ مسلح بالمنجنيق، بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي، فدارت بينهما وقائعُ متتابعة، ثبت أمامها ابن الزبير ثباتا يليق بمن يرى أنه على الحقِّ، غير أن أنصاره جعلوا ينفضُّون عنه شيئًا فشيئًا، حتى بعض ولده طلبوا الأمان فأمِّنوا، فزاد ذلك من عزيمة الحجاج وجنده، حتى ملأوا ما بين الحجون إلى الأبواء، «فدخل ابن الزبير على أمه فقال : يا أماه ، قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، ولم يبق معي إلا اليسير، ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطوني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟

فماذا نتوقع مِن أمٍّ يأتيها ابنها بين خيارَيْن صعبَيْن:

الأول أن يموت.

والثاني أن يبقى حيًّا، ويصبح غنيًّا، ويدع هذا الأمر ..

فقالت: أنت أعلم بنفسك، إن كنتَ تعلمُ أنك على حق وإليه تدعو، فامضِ له، فقد قُتل عليه أصحابك، ولا تمكِّن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا، فبئس العبد أنت، أهلكتَ

نفسَك ومن قتل معك، وإن قلت: كنتُ على حق، فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعلَ الأحرار ولا أهل الدين، كم خلودُك في الدنيا! القتل أحسن! فقال: يا أماه، أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني . قالت: يا بني، إن الشاة إذا ذُبحت لا تتألم بالسلخ، فامض على بصيرتك واستعن بالله.

فقبل رأسها وقال: هذا رأيي والذي (قمتُ به داعيا) إلى يومي هذا، ما ركنتُ إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله، وأن تُستحلَّ حرماته، ولكني أحببت أن أعلم رأيك، فقد زدتني بصيرة، فانظري يا أماه، فإني مقتول في يومي هذا، فلا يشتدُّ حزنك، وسلمي الأمر إلى الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عملا بفاحشة، ولم يجرِ في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم أو معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به، بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي، اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسي ، ولكني أقوله تعزية لأمي حتى تسلو عني!

فقالت أمه: إني لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلا، إن تقدمتني احتسبتُك، وإن ظفرتَ سررتُ بظفرِك، اخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك. فقال: جزاك الله خيرا، فلا تَدَعي الدعاءَ لي. قالت: لا أدعُه لك أبدا، فمن قُتل على باطل فقد قتلتَ على حق. ثم قالت: اللهم ارحم طول ذاك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر مكة والمدينة، وبرَّه بأبيه وبي! اللهم قد سلمتُه لأمرك فيه، ورضيتُ بما قضيت، فأثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين.

فتناول يديها ليقبلهما فقالت: هذا وداع فلا تبعد. فقال لها: جئت

مودعا; لأني أرى هذا آخر أيامي من الدنيا. قالت: امض على بصيرتك، وادنُ مني حتى أودعك. فدنا منها فعانقها وقبلها، فوقعت يدها على الدرع فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد. فقال: ما لبستُه إلا لأشدَّ منك. قالت: فإنه لا يشد مني. فنزعها ثم درج كميه، وشد أسفل قميصه وجبة خز تحت أثناء السراويل، وأدخل أسفلها تحت المنطقة، وأمه تقول له: البس ثيابك مشمرة. فخرج وهو يقول: إني إذا أعرف يومي أصبر وإنما يعرف يومه الحر إذ بعضهم يعرف ثم ينكر

فسمعته فقالت: تصبر إن شاء الله، أبواك أبو بكر والزبير، وأمك صفية بنت عبدالمطلب فحمل على أهل الشام حملة منكرة فقتل منهم، ثم انكشف هو وأصحابه، وقال له بعض أصحابه: لو لحقت بموضع كذا. قال: بئس الشيخ أنا إذن في الإسلام لئن أوقعت قوما فقتلوا ثم فررت عن مثل مصارعهم. ودنا أهل الشام حتى امتلأت منهم الأبواب، وكانوا يصيحون به : يا ابن ذات النطاقين، فيقول: «تلك شكاة ظاهر عنك عارها»، وجعل أهل الشام على أبواب المسجد رجلا من أهل كل بلد، فكان لأهل حمص الباب الذي يواجه باب الكعبة، ولأهل دمشق باب بني شيبة، ولأهل الأردن باب الصفا، ولأهل فلسطين باب بني جمح ، ولأهل قنسرين باب بني تميم، وكان الحجاج وطارق من ناحية الأبطح إلى المروة ، فمرة يحمل ابن الزبير في هذه الناحية ومرة في هذه الناحية، فكأنه أسد في أجمة ما يقدم عليه الرجال، يعدو في أثر القوم حتى يخرجهم، واستمر في تثبيت أصحابه، حتى تعاور عليه أعداؤه فقتلوه يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة وله ثلاثٌ وسبعون سنة.

وسار الحجاج وطارق حتى وقفا عليه، فقال طارق: «ما ولدت النساء أذكر من هذا» . فقال الحجاج: أتمدح مُخالفَ أمير المؤمنين؟ قال: نعم هو أعذرُ لنا، ولولا هذا لما كان لنا عذر، إنَّا محاصروه منذ سبعة أشهر وهو في غير جند ولا حصن ولا منعة، فينتصف منا، بل يفضل علينا. فبلغ كلامُهما عبدَ الملك ، فصوَّب طارقا[1] .

أهذه أم؟ نعم أم.. ولكنها من طراز نَبْتٍ نَبَتَ في بيت أبي بكر الصديق، تربية النبي الكريم ﷺ. لقد كانت تعلم أنه يمشي إلى الموت برجليه، ووقفت شامخة بعد موته وهو مصلوب وتقول: أما لهذا الفارس أن يترجل؟! فهو في نظرها المكفوف أمام الناس الممدود في دنيا الخلود لا يزال فارسا!!

وكأن الشاعر أبا الحسن الأنباري قد عناه بقصيدته الخالدة:

عُلُـــوٌّ في الحَيَـــاةِ وفــــي المَـمَـاتِ
لَــحَقًّا أَنْـتَ إِحْــدَى المُعْجِــزَاتِ

كَــأَنَّ النَّـاسَ حَـوْلَكَ حِـيْنَ قَــامُــوا
وُفُـــوْدَ نَـــدَاكَ أَيَّـــامَ الصِّـــلاتِ

كَأَنَّـــــكَ قَائِـــمٌ فِيْهِـمْ خَطِـــيْـبًا
وَكُلُّهُــــــــمُ قِيَـــــامٌ للـــــصَّلاةِ

(١) انظر القصة كاملة في كتاب الكامل في التاريخ لعز الدين أبي الحسن علي المعروف بابن الأثير، دار الكتاب العربي، سنة النشر: ١٤١٧هـ/ ١٩١٧م، ٣٩٨- ٤٠٥.

مَــدَدْتَ يَدَيْــكَ نَحْوَهُـمُ احْــتِــفَاءً
كَمَــدِّهِمَــا إِلَيْهِــمْ بِـالهِبَـــــاتِ
وَلَمَّا ضَــاقَ بَطْـــنُ الأَرْضِ عَــــنْ أَنْ
يَضُـــمَّ عُــلاكَ مِـنْ بَــعْدِ الـــمَمَاتِ
أَصَـــارُوا الجـــوَّ قَــبْرَكَ واســـتَنَابُوا
عَـــنِ الأَكْـــفَانِ ثَـــوْبَ السَّـــافِيَاتِ
وَمَـــا لَكَ تُرْبَــةٌ فَأَقُــوْلُ تُـــــسْقَى
لأَنَّــكَ نُــصْبُ هَطْـــلِ الهَاطِـــلاتِ
عَلَـــيْكَ تَحِيَّـــةُ الرَّحْمَـــنِ تَــتْرَى
بِرَحْمَـــاتٍ غَـــــوادٍ رَائِـــــحَاتِ

ومن الأمثلة المثيلة في تاريخنا المجيد، ما حدث للصحابي الجليل (حبيب بن زيد) رضي الله عنه، فإنه لما قوي ساعد مسيلمة الكذاب وغلظ أمره كتب إلى رسولنا صلى الله عليه وسلم كتابًا جاء فيه: «من مسيلمة رسول الله، إلى محمد رسول الله، سلام عليك، أما بعد؛ فإني قد أُشركتُ في الأمر معك، وإنا لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قوم يعتدون».

فرد عليها الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم: «**من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين**»، وبعث بالرسالة إليه، فازداد غَيُّهُ وبطره واستشرى فساده، فرأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليه برسالة

يزجره فيها عن غيه، وندب لحمل الرسالة شابًّا ناضر الشباب، مكتمل الفتوة، مؤمنًا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

مضى حبيب بين زيد إلى ما أمره الرسول ﷺ حتى بلغ ديار بني حنيفة، ودفع الرسالة إلى مسيلمة. فما كاد مسيلمة الكذاب يقف على ما جاء فيها، حتى انتفخ صدره غيضًا وحقدًا، وأمر بحبيب بن زيد أن يُقيّد، وأن يؤتى به إليه ضحى اليوم التالي، فلما كان الغد، تصدّر مسيلمة مجلسه، وجلس حوله أتباعه وأذن للعامة بالدخول عليه، ثم أمر بحبيب فجيء به وهو يرسف في قيوده، وقف حبيب بن زيد في وسط هذه الجموع الحاشدة الحاقدة مشدود القامة، مرفوع الهامة، شامخ الأنف، وانتصب بينها كالرمح الرديني، فالتفت إليه مسيلمة وقال:

أتشهد أن محمدًا رسول الله؟

فقال: نعم أشهد أن محمدًا رسول الله.

فتميز مسيلمة غيظًا، وقال: وتشهد أني رسول الله؟

فقال حبيب في سخرية لاذعة: إنَّ في أذني صممًا عن سماع ما تقول.

فامتقع وجه مسيلمة، وقال لجلاده: اقطع قطعة من جسده.

فأهوى الجلاد على حبيب بسيفه، وبتر قطعة من جسده، ثم أعاد مسيلمة عليه السؤال، فأعاد حبيب الجواب، فأمر مسيلمة بأن تقطع من جسده قطعة أخرى، وهكذا مضى مسيلمة يسأل، وحبيب يغيظه بأجوبته الثابتة، والجلاد يقطع.. حتى صار نحو من نصفه قطعًا منثورة على الأرض، ونصفه الآخر كتلة تردد شهادة أن محمدًا رسول الله.

ثم فاضت روحه، وعلى شفتيه الطاهرتين اسم النبي الذي بايعه ليلة العقبة: محمد رسول الله، ﷺ.

نعى الناعي حبيب بن زيد إلى أمه نسيبة المازنية فما زادت على أن قالت:

من أجل مثل هذا الموقف أعددته، وعند الله احتسبته، لقد بايع الرسول ﷺ ليلة العقبة صغيرًا، ووفى له اليوم كبيرًا، ولئن أمكنني الله من مسيلمة لأجعلنَّ بناته يلطمن الخدود عليه[(١)] .

وحقق الله أمنية هذه الأم العملاقة، فجاء يوم اليمامة الأغر، وشوهدت نسيبة تشق الصفوف كاللبؤة الثائرة، وهي تنادي أين عدوُّ الله، دلوني على عدو الله.

فلما انتهت إليه، وجدته مجدَّلًا، على الأرض وسيوف المسلمين تنهل من دمائه، لقد مضى حبيب شهيدَ شهادة التوحيد، صابرًا مصابرًا، وكأنه يعيد مصرع خبيب بن عدي الذي قال عند مصرعه المشابه بمصرع حبيب بن زيد:

ولستُ أبالي حين أُقتلُ مسلما
على أي جنبٍ كان في الله مصرعي
وذلك في ذاتِ الإلهِ وإن يشأ
يباركْ على أجزاءِ شلوٍ مُمَزَّعِ

هكذا تصنع العقيدة، وهكذا يعيش أهل التوحيد شهادة ألا إله إلا الله محمد رسول الله، ثبات حتى الممات، فالعقيدة حياة وليس مجرد علم أو ثقافة، والعلم عمل وليس مجرد حفظ ومدارسة.

---

(١) صور من حياة الصحابيات، عبدالرحمن رأفت الباشا، / ٦٤، ١/ ٥٥) انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصفهاني، دار الفكر (٣٥٥)، دار الأدب الإسلامي (٧٣).

٢٢

عاملة النفس الأمية

«الإنسان عظيم بحد ذاته؛ بما تميز به عن سائر المخلوقات بالعقل، كثير من البشر يُهملون نماء عقولهم، وهناك قلة ممن يسعونَ لنمائها ويلتمسون المنهاج أو الاقتداء بمن سلك الطريق لذلك»[1] هكذا قدَّم الدكتور عادل الرشيدي لكتاب الأستاذ **الدكتور بشير بن صالح الرشيدي**، الموسوم باسم والدته -رحمها الله- (لعيون نورة) الذي رصد فيه مجموعة من القصص والحوارات معها، بل عده الدكتور عادل منهاجا لكل مرب يسعى لبناء أي شخص تحت مسئوليته، يرى فيه كيف لامرأة لم تتخرج في جامعات، ولم تدرس في مدارس نظامية، كيف غرست في ابنها الثقة في النفس بالاتكال على الله، ثم على نفسه، على الرغم من أعوامه التي لم تتجاوز العشرة ولم تنقص عن الخمسة، كيف كانت ترشده إلى استعمال عقله وعدم اتباع غيره، بل كيف كانت تعلمه بالإيحاء غير المباشر، وكذلك كيف كانت تخبره بأنه سيصبح عَلَمًا يشار إليه بالبنان، إن الكتاب يرسم طريقة لكل مربية تريد أن ترى من أبنائها أعلاما في شتى الميادين، ليس هذا الكتاب كالكتب الذي تملي على قرائها طرق التربية للأبناء بخطوات علمية، بل هو قصة أم مع ابنها وكيف أنشأته ليصبح مربيا ناجحا للأجيال وهو ثمرة جهدها عليه.

---

(١) لعيون نورة للدكتور بشير الرشيدي، إنجاز للنشر والتوزيع، الكويت، ط: ١، ٢٠١٣م، ص: ٤٤٣.

وحين نتصفح سيرة البروفسور الرشيدي سنجد أننا أمام علم من أعلام علم النفس والتربية في العالم، وقد افتتح تخصصه بـ(العلوم) في البكالوريوس، ثم قفز إلى (علم النفس التربوي) في الماجستير والدكتوراه، وأضاف إليهما التخصص في (القيادة والإدارة في المنظمات) بدرجة دكتوراه أيضا، ثم عاد من أمريكا؛ ليشغل سلسلة من المناصب القيادية في المؤسسات الإرشادية وغيرها، ويصدر عشرات الأبحاث والكتب، ويسهم في بناء عشرات البرامج.

يقول الدكتور عادل الرشيدي: «كنت أتساءل كيف غُرس العلم في شخصه؟ سمعت أنه كان يقول: إن ذلك كان بفضل بره بوالدته»[(١)].

وحين نستمع مباشرة إلى بشير الرشيدي الابن، فماذا سيقول؟

«(**نورة ظويهر الرشيدي**) امرأة ساعدت على تشكيل عقلي، وتكوين شخصيتي، وكانت بحري الذي سبحت به في أمواج الحياة»، لكن الرشيدي ينتقل فجأة من لفظ: (ساعدت) إلى تعبير أكثر إغراقا في الحقيقة التي شكلته، فيقول لابنته: «ليس أبوك إلا نتاج جهود تربوية جبارة من امرأة سبقت عصرها، وتركت أثرها.. لها مني الدعاء بالرحمة، ولك مني الدعاء بالتوفيق في الدنيا والآخرة»[(٢)].

أيتها الأم الكريمة، ألا تحبين أن تسمعي.. أو حتى تقرئي حديثا لولدك يقول فيه: «**كان فضل الله عظيما في أن وهبني أما كانت (نورا) في حياتي، وسراجا استنار به وجودي في هذه الدنيا، ومسيرتي في دروبها وخطوبها...**». أظن أنك تودين ذلك الذي قاله بشير لأمه نورة، ولكن

---

(١) لعيون نورة للدكتور بشير الرشيدي، ص: ٤٤١.
(٢) لعيون نورة للدكتور بشير الرشيدي: ٥.

دعيني أستل من أكثر من أربعمئة صفحة سطَّرها وفاؤه في أَثَر أمه عليه، جملةً من الحقائق التربوية التي جعلت منها أما عظيمة، وجعلت منه عالما من أكبر علماء النفس في وطننا العربي.

كثيرا ما كنت أقول: **إن هناك من هُدي الحقيقة دون تعلم،** حتى صغته شعرا[1]:

ولـربما هُـديَ الحقيقــةَ يــافعٌ
وتنكبَ الدربَ الســويَّ معمَّمُ

وهو ما سجله الرشيدي في قوله عن أمه: «إن وعيي بذاتي، ومنذ بواكير حياتي؛ ليقدِّر كم كان أثرها في تشكيل شخصيتي، ونجاحها في تحقيق هدفها في بناء الذات بمعطيات ومقومات الصحة النفسية وعلم النفس الإيجابي، وهو ما لم يكن لها به علم أو دراية مما نعرفه أو نستخدمه غالبا من علومنا؛ تدريسا وبحثا.. بناء ابنها (بشير) بفطرتها وفطنتها. وفي صدق الأمومة الحقة. إنها -بحق- عالم نفس صادق، وعلم نفس مُعاش بكل معايير ومحكات صدق الواقع»[2].

أما عناصر العظمة في تلك المرأة الصناع فهي:

أولا: أنها كانت متدينة، ملتزمة بكتاب ربها، تتلوه كل يوم تحت نظر أولادها، وتختمه كل أسبوع، وربما بكت وخاصة عندما تتلو سورة يوسف عليه السلام، عبادة لله تعالى.

---

(١) ديوان قلبي بين يديك للدكتور خالد بن سعود الحليبي، نادي المنطقة الشرقية الأدبي، ١٤١٣هـ ص: ٣٨.
(٢) لعيون نورة للدكتور بشير الرشيدي: ١٥.

ثانيا: درَّبت ولدها على التحرر من الفِقدان، وترك الماضي، والتطلع إلى المستقبل، وشعارها: «اغنم زمانك، واترك الخلق للخالق، وتمتع بالحياة»[1].

ثالثا: **فقد** الولد أباه وعمره ثلاث سنوات، فقامت أمه بوظيفة الوالدية بشقيها الأبوي والأمومي، وتردد له: «اترك الحديث عن الأموات، وتفكر فيما هو آت، فلن يعود الماضي، ولكن المستقبل قادم»[2]. وتلك الرؤية الناضجة للأم التي ترملت، فإن بقاءها في سلة الأحزان، سيجعل منها مطعما للأمراض، ولن تحصل على أي مكسب أبدا، بينما تساميها على مصابها، وانطلاقها في تحقيق النجاح من خلال تربيتها لولدها، هو الذي جعل كثيرا من أمهات العظماء من الأرامل.

رابعا: يقول الأستاذ الدكتور بشير الرشيدي: «وجدت أن سر نجاح أمي هو التخلص من الخوف بكل أشكاله، لم تكن رجلا، وإنما كانت امرأة في مجتمع قبلي له تقاليده الصارمة، ومع ذلك انطلقت وتركت كل ما يعيقها، ولم تبال بمن حولها، فأصرت على تعليمي رغم المعارضة ممن حولها. هذا هو الدرس الذي ينطبع من سيرة أم»[3].

خامسا: يزيدها التغير قناعة في ممارسة ما تظنه صوابا، فهي تتغير مع الزمن في إطاره الخارجي، ومواكبة التطورات، ولكن قيمها الأصيلة ثابتة، لم يغيرها الزمن.

---

(١) لعيون نورة للدكتور الرشيدي: ١٧.
(٢) لعيون نورة للدكتور الرشيدي: ٢٤.
(٣) لعيون نورة للدكتور الرشيدي: ٢٦.

سادسا: تمتعت بمواصفات ما سماه علماء النفس: الشخصية التوكيدية ومقوماتها، من الشجاعة مع الكياسة، والقوة مع الذوق، والجرأة في قول الحق مع احترام الآخرين، والقدرة على المعارضة والاحتجاج مع آداب التعامل، وأدارت أسرتها بنجاح تشهد له النتائج التي حصلت عليها: برًّا من أولادها، وتوفيقًا في حياتهم، والتحامًا في ترابطهم، وحبَّ بعضهم بعضا.

سابعا: كانت تلك الأم تشكل لأولادها سياجا أمنيا يطلق الطاقات ولا يعيقها، سياجا يجعل الذات حرة منطلقة في سعيها إلى توكيد ذاتها، فلا يخاف عند عودته إلى أمه من العالم الخارجي، بل هي عودة الظافر المنتصر أحيانا، والقادر على تحمل الإحباط في أحيان أخرى[1].

ثامنا: كانت تغضُّ الطرف عن الأخطاء، ولا تركز على السلبيات، وفي المقابل تساند، وتلفت النظر بكل حب دون تعنيف، فقد كان ولدها يدخل معارك لا ترتضيها، ولكنها ترتضي ولدها، فتقف إلى جواره حتى يعود منها، وهي تقول له: «أنت أدرى بما تفعله في مواجهة المشاكل»، بل كانت تقول له بكل شجاعة: «عقلك دليلك، دعه يفكر لك، وافعل ما يمليه عليك. الخوف مذلة، اترك عنك الخوف، الموت محدد، لن تموت دون يومك، الإقدام شجاعة، والإحجام جبن، والاختيار لك»[2].

تاسعا: كانت ترشده بأن أحدًا لن يسانده مثل عقله، بل إنه لن يحتاج إلى من يسانده، فعرف منها أنك: «إن لم تقدِّر ذاتك فلن يقدرك

(١) لعيون نورة للدكتور الرشيدي: ٣٣.
(٢) لعيون نورة للدكتور الرشيدي: ٣٥.

من حولك، وإن لم ترفع شأنك فلن يرفعك نسبك أو حسبُك، أنت المسؤول، افعل ما تراه مناسبا لك حسب زمانك وتقديراتك».

عاشرا: علمته بأن «كل خطأ يمكن أن يُصلح، وكل ذنب يمكن أن يتوب منه الإنسان، فلا تخف» ثم تضيف تلك الأم الملهِمة بنوع من التشجيع: «الإقدام أولى لك من الإحجام»(١).

نعم ـ كما قال الرشيدي عن نفسه ـ: «هو عبارة عن صنيعة تلك المرأة غير المعروفة، لكنه يعرفها هو ويجهلها الآخرون»(٢).

الأستاذ الدكتور بشير الرشيدي، أتاح لنا بكتابه الضخم عن أمه: (لعيون نورة) فرصة موسعة للاطلاع على تجربة بشرية فريدة، ربما زادها فرادة عرضها من عالم نفس سردها ـ كما يقول ـ: «تعبيرا عن مشاهد كنت عليها شاهدا في تجسيد تلك المعاني وتحقيقها إجرائيا، وكيف كانت (أمي) هي المساند والمعزز لي في كل مواقف الحياة»(٣).

حادي عشر: عرف الابن من أمه أن لكل مشكلة حلا، والمشكلة التي ليس لها حل تترك للزمن ليحلها أو يحللها؛ لأن دوام الحال من المحال، ولكن لا ينشغل بها، بل عرف أيضا: «قدرة هذا الإنسان على تجاوز مصائبه مهما كانت كبيرة، كانت ـ رحمها الله ـ لا تقف أمام الحدث، وإنما تتجاوزه إلى الحل، ولم يكن من طبعها أن تنفعل خلال وقوع المشكلة»(٤).

---

(١) لعيون نورة للدكتور الرشيدي: ٣٦.
(٢) لعيون نورة للدكتور الرشيدي: ١٧.
(٣) لعيون نورة للدكتور الرشيدي: ٣٧.
(٤) لعيون نورة للدكتور الرشيدي: ٥٥.

ثاني عشر: لم تكن تعامل ولدها على أنه صغير، وإنما كان يشعر بأنه ذات معتبرة ومقدرة وكبيرة في حضورها، مما شجعه على أن يدلي برأيه الواضح، الذي لا تقبله أحيانا، لكنها لا تنتقده رغم سذاجته عندها. وعندما كبر ونال درجة الدكتوراه أشعرته أنه لا يزال في حاجة أن يتعلم، وأن هناك من المعلومات ما لا يعرفه.

ثالث عشر: كل ما يمرُّ من مواقف الأمهات أمام أولادهن، قد يتكرر لهم، وهناك سيستدعي الابن موقف أمه من جديد، ويكرره بشعور أو بغير شعور، ولذلك حين سأل بشير أمه عن إخوانه وأخواته الذين فقدتهم أمه، أجابته بابتسامة الرضا: «لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بمقدار. ما يموت أحد إلا بيومه، هذه أقدار الله نتقبلها كي نؤجر عليها»، يقول: «عندما فقدتُ ولدي سعدا رحمه الله أدركت أن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بمقدار، هكذا علمتني **نورة بنت ظويهر الرشيدي** منذ زمن طويل»[1].

رابع عشر: من خلال مئات الأسئلة التي أطرحها على الطلاب والمتدربين حول القراءة، أجد أن أبرز سبب للتعلق بها هو أن يقرأ الوالدان أمام الأولاد، وهكذا قال الرشيدي عن أمه: «ليس من قبيل المصادفة أن تكون الثقافة في بيتنا موضع اهتمام ورعاية وقدوة من (أمي) التي كنت أستشعر معها الألفة بالكتاب والمتعة بالثقافة، وحيث وقر في ذهني اتجاهٌ تنامى في حياتي نحو الثقافة والتثقيف، واستقر في وجداني أن الكتاب خير جليس، لقد تعلمت بالمجالسة والمشاركة (وتلك أساليب

(١) لعيون نورة للدكتور الرشيدي: ٤٦.

للتعلم الاجتماعي) كيف يكون للكتاب واعتياد القراءة نصيب في حياتنا اليومية حتى ولو لفترات قصيرة في بعض الأحيان، وكم أجد بهجة في أن تروي لي أمي بعضًا مما تقرأه، أو تتوقف عنده، أو تتأمل في فكرة، أو فيما وراءها من مقاصد ودلالات»[1].

خامس عشر: أيتها الأمُّ الكبيرة نفسا وروحًا ، إنكِ أنتِ التي تقدمين (المرأة) لابنك (الرجل)، وصورتك هي التي ستجعله يحدد موقفه من الجنس الآخر بالنسبة له، ولذلك قال الرشيدي: «أصبحت المرأة في عقلي عظيمة مهما كان سلوكها؛ لأن أول امرأة عرفتها وتعاملت معها كانت عظيمة؛ وهي: أمي. لم تكن العظمة عندها تقف عند حد معين، لكنها كانت عظمة في كل نواحي الحياة كما عرفتها»[2].

سادس عشر: لاحظت في دراستي للجهنية أم د.عبدالله الغذامي أنها كانت تُعنى بأولاد غيرها كما تعتني بأولادها، وهنا أجد الأمر نفسه مع أم د.الرشيدي، التي «كانت رعايتها تتعدى إلى الآخرين الذين يلجأون إليها، وتتحمل تكاليف معيشتهم، وليسوا بقليل، ولكنني أمسك قلمي عن ذكر ذلك؛ لرغبتها التي أبدتها مرارا وتكرارا»[3]. إنها التربية المزدوجة؛ حيث تكون الأم أنموذجا للعطاء، وأنموذجا للتقوى والإخلاص أيضا، هكذا أحسبهما -من خلال جملة ما روى ولداهما- ولا أزكي على الله أحدا.

---

(١) لعيون نورة للدكتور الرشيدي: ٤٩.
(٢) لعيون نورة للدكتور الرشيدي: ٥١.
(٣) لعيون نورة للدكتور الرشيدي: ٥٤.

سابع عشر: لابد أن تكون الأم قادرة على الإقلاع بولدها من سفوح الأرض إلى فضاءات المجد، وكواكب المستقبل الزاهر منذ وقت مبكر جدا، والكلمة التي تلقيها بين يديه، وتطرق بها سمعه، تزلزل بها كيانه، تغرسها في عقله وقلبه معا، تسقيها بأنهار الدعاء والصبر والمثابرة على التنشئة القوية المتينة، هكذا شعر الطفل بشير الرشيدي حين باح بأمنيته العفوية، أن تكون له (بقالة) مثل بقالة فلان الذي يمتلك كثيرا من الحلويات!! فإذا بالأم الواعية تضحك وتقول: «هذه ليست شيئا، لكنك يا بشير ستكون شيئا»، يقول الدكتور بشير: «لم أكن أعرف ما هو هذا الشيء؟! الذي سأكون عليه، لكن أمي قالت، وتؤكد ـ وأنا أصدق أمي ـ أن مستقبلي سيكون شيئا عظيما، لكن يحتاج إلى صبر ومجاهدة وعزم على تحقيق أمنياتي، تعلمت منها كلمات انطبعت في عقلي: (من جدَّ وجد، ومن سار على الدرب وصل)، كنت أسألها أحيانا: فإذا لم يكن الدرب الصحيح، هل يصل؟ وكان جوابها واضحا في معانيه، وفي صدق رسالة المساندة، ومسؤولية الاختيار، وبناء الثقة، وغرس الأمل والتفاؤل: يعدل طريقه بعد اكتشافه، ويواصل السير على الطريق الصحيح؛ فيصل إلى مبتغاه»[(١)] وهو ما قرره (كارل روجرز) بشأن: (الاعتبار الإيجابي غير المشروط).

ثامن عشر: الشجاعة ـ يا أختاه ـ شتلة نادرة، تحتاج إلى نقل من قلب شجاع إلى قلب يافع، وهذا ما صنعته أمهات الأبطال، وقد يكون ذلك في الطفولة بما يتناسب معها، وهو ما لاحظته في حادثة تسجيل بشير نفسه في المدرسة في آخر يوم من أيام التسجيل، وهو يتيم لا عم

---

(١) لعيون نوره للدكتور الرشيدي: ٦٠-٦١.

له ولا خال، وأخواه الكبيران في أعمالهم، وأمه تأبى أن تدخل مدرسة فيها رجال، فطلب التسجيل بشغف وحب للمدرسة، فطلبت منه أمه أن يسجل نفسه، وألا يخرج من المدرسة إلا وقد دخل الفصل، فدخل المدرسة بإصرار لا يتناسب مع طفل في السادسة من عمره، وهو أصغر طالب فيها، ولقي من جهل بعض الأساتذة آنذاك ما لقي من ضرب وإهانة واحتقار؛ بسبب مظهره الفقير، وعدم وجود ولي أمر معه، وعدم التزامه بالزي المدرسي من أول يوم، ولكنه لم يرجع إلا بعد أن سجل ودخل الفصل، مؤتمرا بأوامر أمه التي قالت له: «لا تطلع من المدرسة إلا وأنت مقبول، إذا لم يقبلك الرجل الأول اذهب إلى الثاني والثالث حتى تجد من يقبلك، لكن اسمع: لا تطلع من المدرسة غير مقبول.. خذ حقك بيدك، والدنيا تؤخذ غلابا». فلم يعد إلى البيت إلا وقد حقق هدفه بالرغم من كل المحاولات التي عزمت على إثنائه، ولذلك حين لقيتْه أمه وقص عليها القصص، وذكر لها أن الضرب آلمه، ضمته وقبلته وقالت له: «سوف تنسى الألم، وتتذكر أنك شجاع».

هذا المشهد الذي يبدو عاديا عند بعض من يسمعه، هو في نظري ليس عاديا أبدا، إنها التربية العظيمة الشامخة في أسمى مواقفها، ولك أن تتذكر معي كيف ربَّت أم الزبير ولدها، ولم تسمع أحدا في أسلوبها الشديد معه، وهي تستهدف بناء الشجاعة في نفسه؛ ليكون قائدا لا يشق له غبار، ومن صور ما كان منها في معركة أحد، عندما صُرع حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في أُحُد ومُثِّل بجسده، فلما وقف به رسول الله ﷺ اشتد حزنه لما أصاب عمَّه البطل الكريمَ، ووقف بنجوة منه، ثم أبصر فوجد عمَّتَه صفيةَ بنتَ عبد المطلب مقبلة، لتنظر ما فعل القوم بأخيها،

فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام: «**دونك أمك فامنعها**» فوقف ابنها يعترضها قالت: «دونك لا أرض لك، لا أمَّ لك»، وهنالك ارتجفت أحناء بطل قريش، وزلزلت قدماه، واعتقل لسانه، وكر راجعًا إلى رسول الله ﷺ فحدثه حديث أمِّه فقال:«**خلِّ سبيلها**»، ثم ارتجفت صفوف الناس لعمة رسول الله ﷺ فسارت حتى أتت أخاها، فنظرت إليه، فصلَّت واسترجعت، واستغفرت له، وقالت لابنها: «قل لرسول الله ما أرضانا بما كان في سبيل الله، لأحتسبن، ولأصبرن إن شاء الله».

التربية ليست قصة نتسلى بها، التربية مستقبل البشرية كله، نرسمه على ملامح أطفالنا، ونتعهده على قسمات شبابنا، والأم هي اليد الصناع، التي لا ينبغي أبدا أن تكل أو تميل؛ حتى لا تميل الدروب بالجيل كله.

٢٣

ماذا تصنع وشوشات الأمهات؟

كلمة من أجمل ما سمعت في لطف التأثير الأمومي في التربية الوالدية، نبست عنها شفتا الخبير التربوي الدكتور إبراهيم الخليفي المختص في التربية الوالدية: «**إن وشوشات الأمهات في آذان الأطفال في غرف النوم، هي التي تصنع العظماء**». تخيلي أيتها الأم.. (وشوشات).. مجرد وشوشات، فهل تعجز الأم العظيمة عن أن تتفوه بمجرد وشوشات منتقاة من قاموس الإيجابية؟

صدق الدكتور الخليفي؛ فإن البيئة التي تكتنف الإنسان في طفولته، هي كالقالب الذي يشكل العجينة التي تُصبُّ فيه، وحين يقول الله جل جلاله: «﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، فما يسمعه الطفل بأذنيه، وما يراه بعينيه، هو ما يعقله بفؤاده، وهو الذي يمثل رؤيته للحياة والكون والناس، بل هو الذي يدله على الربِّ الخالق المنعم المتفضل، وبهذا ينعم الطفل بحياة هانئة هادئة مستقرة واعية، حيث تتوافق فطرته مع معطيات بيئته.

في مدينة الكوفة، ولد الطفل **سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري** سنة ٩٧هـ، وتفتحت عيناه، فوجد كتب الحديث والفقه تحيط به من كل جانب، فقد كان والده من العلماء الكبار الذين يحفظون حديث رسول الله ﷺ، وكانت أمه صالحة يتأجج الطموح بين جنبيها. ولكن أسرته

كانت فقيرة، فلم يمنع أمه أن تتولى شأن جلب المعيشة بمغزلها الواهن، وكأن حالها يقول ما قاله الشاعر محمد حسين الرمضان:

واجهــت معركـة الحيـــاة بإبــرة
فـــإذا هزمـــت فـــإنني معـــذور

كانت أم سفيان تنظر إليه وهو مازال طفلًا وتقول له: «اطلب العلم وأنا أعولك بمغزلي، وإذا كتبتَ عشرة أحرف، فانظر هل ترى في نفسك زيادةً في الخير، فإن لم تَرَ ذلك فلا تتعبن نفسك».

كان يمكن أن توجهه لطلب المعيشة، لو كانت تريد الحياة الدنيا وزينتها، ولكنها لا تفكر في الجاه ولا الثراء، بل كان كل ما كانت ترجوه لولدها أن يتعلم علمًا نافعًا يبتغي به وجه الله تعالى.

علميــه الحديـثَ كــي يتسامـى
وامنحيـه الإحســاسَ والإلهـــاما

وانثـري في طريقـه الـــوردَ هـزي
بيديـــك الكـريمتـين الغـــماما

رفـــرفي فوقـــه حمامـــةَ أمـــن
تمنـــحُ الأمـــن قلبـــه والســلاما

وامسـحـي وجهــه براحـة حــب
تجعــل الوجــه مشــرقًا بســامـا

أنـــت أرضعـتِـه الحـنـان صغيـرًا
فـــاجعلي حبّـك الكبيــر الـفطامـا

وبدأ سفيان يتعلم ويجعل من والده قدوة صالحة له، ويستجيب لرغبة والدته التي أحبها من قلبه. ومرت الأيام، وأصبح سفيان شابًّا فتيًّا، وفي إحدى الليالي أخذ يفكر ويسأل نفسه: هل أترك أمي تنفق علي؟ لابد من الكسب والعمل! لأن أخلف عشرة آلاف درهم أحاسب عليها، أحب إليَّ من أن أحتاج إلى الناس؛ ومن أجل ذلك عمل سفيان بالتجارة، ولم يكن المال هدفه في الحياة، بل وهب سفيان نفسه للعلم، فكان يقول: «الرجل إلى العلم أحوج منه إلى الخبز واللحم»[1].

أليس هو هذا الدرس الذي تعلمه من أمه؟

أم سفيانَ يا حديثةَ صبرٍ
جعل اليتم همةً واحتراما

مغزلُ العزمِ في يديكِ أرانا
كيف ترعى المغازلُ الأيتاما

مغزلٌ ينسجُ الرجولةَ ثوبًا
بيدِ الأمِّ كي تصونَ الغلاما

اغزلي الثوبَ ثم بيعيه حتى
ترفعي لابنك الحبيبِ المقاما

امنحيه المالَ الحلالَ فإني
لا أرى مثلَه يُسيغُ الحراما

---

(١) انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصفهاني، دار الفكر (٧/ ٦٥).

وابعثـي المغـزلَ الجميـلَ إليـنـا
كـي نـداوي بنسجـه الأسـقامـا

كي ترى الأمهاتُ فيه شـموخـًا
صـار رمـزًا بــه وصـارَ وِسـاما

ابعثـي المـغزلَ الجميـلَ وِسـامـا
لنسـاءٍ لا يـرتـضينَ انهزامـــا

قد عمرنَ البيوتَ حُبـًّا وعطفًـا
وحنـانـــا ورحـــمةً وابتسـامـا

وبنـيـنَ الأجيـالَ قـلبًا وروحًـــا
وعـــقولًا تـحــارب الأوهــاما

لقد نما ذلك الزرعُ وزها في وقت مبكر، حتى رآه أبو إسحاق السبيعي مقبلا فقال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾، قال أبو المثنى: سمعتهم بـ(مرو) يقولون قد جاء الثوري قد جاء الثوري، وخرجت أنظر إليه فإذا هو غلام قد بقل وجهه، أي (خرج شعر وجهه).

أمَّ ســفيانَ وجـــهُ طفـلِكِ أمســى
قـمـرًا لا يطـــيــق إلا الـتّـمـامـا

أنـتِ أرضعتِـه مـع الـحـبِّ نـــورًا
مـن يقيـنٍ فلـمْ يخـــافُ الظلامـا

أنـتِ أركضـتِ خيـلَهُ دونَ خـوفٍ
بعـدَ أن أمسـكتْ يـــداه الزِّمامـا

أنتِ أرشـــدتِه إلـى الـــكنـزِ حتـى
صـــار كـــنزًا وحـــقَّقَ الأحلامـــا

ونما ذلك الزرع وزها حتى قال عنه الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء[1]: «هو شيخ الإسلام، إمام الحفاظ، سيد العلماء العاملين في زمانه أبو عبد الله الثوري الكوفي المجتهد مصنف كتاب الجامع. قال شعبة وابن عيينة وأبو عاصم ويحيى بن معين وغيرهم: سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث. وقال عبد الله بن المبارك: «ما أعلم على الأرض أعلم من سفيان». وقال بشر الحافي: «كان الثوري عندنا إمام الناس». وعنه قال: «سفيان في زمانه كأبي بكر وعمر في زمانهما».

أم ســـفيان يـــا كريـمة نفـــس
مـلئت صفحـــة الحـــياة التزامـا

حدثتنـــا الأمجـاد عـــنك فقالـــت
هكـذا يصـــنع الكريـم الكرامـــا

هكـذا صـاغت الأمــومة طفـــلا
فغـــدا ســـيدًا وصـــار إمامـــا

ولله درُّ الشاعر الدكتور عبد الرحمن العشماوي لما صور -وأحسن- دور الأم في تنشئة ولدها في تلكم القصيدة الجميلة.

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي، (٧/ ٢٢٩).

٢٤

(أم) الخير والحكمة

كل (أم) لها خصوصية عن غيرها من الأمهات، مع التشابه معهن في بعض الصفات، وأكثر ما ينتقل من صفاتها إلى أولادها ما تميزت به، وليس ما تشابهت فيه مع باقي الأمهات، وقد قيل: «**صوت شخصيتك أقوى من صوت كلماتك**».

قالت إحدى الفتيات: «تعلمت الدين من أمي أكثر مما تعلمته من أي عالم دين».

وحين تحدث **الدكتور ناصر بن عبد الله السلومي** عن أمه: (**نورة بنت عبد الله بن صالح العضيب الشارخ**) التي ربت عددا من الفضلاء الكرماء المرموقين؛ أربعة منهم أعضاء هيئة التدريس في أرقى الجامعات والبقية بشهادات جامعية وربات بيوت ناجحات، قال بكل عفوية: «**أمي ـ وإن كانت أمية لا تقرأ ولا تكتب ـ لكنها بممارستها التربوية معنا ومع غيرنا رسمت لنا (بنين وبنات) قواعد تربوية ينادي بها كثير من العلماء والمربين، ويفتقدها كثير من المتعلمين والمثقفين، وهي بهذا الاعتبار مدرسة مباركة لنا وللأجيال من الأحفاد والأسباط، ولقد فهمت جيدا من الواقع العملي لوالدتي معنى قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾**»[1].

(١) أمي مدرستي للدكتور محمد السلومي، ص: ١٣.

وهنا أتذاكر معك -أخي القارئ- أُمًّا عُرفت في المجتمع الأحسائي في شرق المملكة العربية السعودية بـ(أم الخير والحكمة)، وأترك لولدها الأكبر، رجل الأعمال الناجح: **عبد العزيز بن سليمان العفالق** رئيس مجلس إدارة الغرفة التجارية الصناعية بالأحساء لثلاث دورات على التوالي، وصاحب مجموعة شركات، وصاحب أكبر فندق في الأحساء، نال الدرجة الأولى على فنادق الشرق الأوسط في إحدى السنوات، قال في حديثه لجريدة (اليوم) السعودية: «**هيا بنت عبدالرحمن بن عبد العزيز الراشد العمران -رحمها الله- أنموذج في الأمومة وحب الخير، واحدة من السيدات الفاضلات اللائي صنعن العمل التطوعي الخيري**، لمع اسمها في مجال دعم العمل الخيري والتطوعي منذ عقود في الأحساء، واستمر وهجه وعطاؤه رغم انتقالها إلى الرفيق الأعلى؛ لأنها زرعت حبَّ الخير في نفوس أولادها وأحفادها الذكور والإناث، وكانت محورا عائليا مهما لأسر عديدة، أقارب وأرحام وأصهار، ومن يعرفها ويقترب منها يعدها أنموذجا في الأمومة، والتربية، والوفاء، والصبر، والحكمة، والحب، والإيثار، وحب الخير، وكثير من السمات والمناقب التي يصعب حصرها».

ويواصل الابن البار **عبد العزيز بن سليمان العفالق** أحد أكبر تجار المملكة العربية السعودية حديثه فيقول: «والدتي -رحمها الله- إنسانة عظيمة، فقد كانت لي ولإخوتي الأم والأب، والأخت والصديقة، والمعلمة والموجهة، ورائدة في العمل الخيري والتطوعي، لا أستطيع حصر محاسنها وسماتها ومناقبها ومآثرها، كما أننا بحق لا نستطيع الوفاء بحقها، فقد ربَّت، وأدبت، ونصحت، وضحَّت كثيرا، وضربت أروع الأمثلة في الصبر والتضحية والإيثار، حيث توفي والدي وأنا في

الثالثة من العمر، وأختي نورة والدة الأستاذ وليد بن حسن العفالق (أحد رجال الأعمال الناجحين كذلك) لم يتعدَّ عمرُها الشهور الستة، وعشنا دون أن نشعر باليتم الأبوي؛ لأنها -رحمها الله وأدخلها فسيح جناته- لم تبخل علينا بالرعاية والحنان والتربية والتوجيه والدلال، تعاملني كيتيم في ضعفي، وكأب ومربٍّ في شقاوتي الطفولية».

ونلاحظ هنا أن ما يذكره ابنها لفتاتٌ في غاية الأهمية مع عفويتها، فإن المربين ثلاثة أنواع: متسلطون، ومتساهلون، وحازمون:

- فالمتسلطون: ينتجون أولادا عدوانيين، أو منطفئي الشخصية، تابعين لا يعرفون للقيادة معنى.
- والمتساهلون: ينتجون أولادا ضائعين، يعيشون بلا أهداف ولا قيم، ويتعرضون لكثير من المواقف التي تكشف الفراغ الذي تركه آباؤهم وأمهاتهم في تربيتهم.
- وأما الحازمون، فهم الذين يحبون ويعبرون عن حبهم، ويحنون ويجد الأولاد برد حنانهم، ولكنهم يعدِّلون السلوك الخاطئ بطريقة إيجابية، أولئك الذين يحققون النجاح في حياتهم بإذن الله تعالى.

والأم التقية، تعلم يقينا بأن الحياة الدنيا أقل شأنا من أن تجعل تربيتها لأولادها من أجلها فقط، وتؤمن بأن الآخرة خيرٌ وأبقى؛ ولذلك تربي أولادها للآخرة، يقول الأستاذ عبد العزيز العفالق: «ربتني أمي على مخافة الله، والصدق، وحب الخير، والوفاء بالوعود والعهود، وعداوة البخل، ونذرَت نفسها -رحمها الله- للخير وأهله ومجالاته، متجاهلة نفسها، تدعو لنا دوما بالبركة، وكان كل واحد من إخوتي وأقاربي يسمع منها: «رح.. الله يجعل لك في كل وادٍ صديقا، ويرزقك الذرية الصالحة»،

دائما تدعو لنا بالرزق الحسن والحلال، ولله الحمد بلَّغها اللهُ ما أرادت، ورأت فينا إجابة ربنا الكريم، حيث سعةُ الرزق والمعارف والأصدقاء».

ولك أيتها الأم الكريمة أن تسمعي عبدالعزيز العفالق يقول: «وحقيقة لا أستطيع أن أُجازي والدتي -رحمها الله- مهما عملت فبرها صعب المنال». مُؤكدٌ أنك تتمنين أن تشاهدي أولادك يتبارون في برِّك، ولكن لتعلمي بأن برَّ الأولاد يأتي ثمرة طبيعية لإحسان الأم لأولادها.

فقد تذكر الابن أبو سليمان مثالا رائعا للتضحية من أمه، حين باعت حليها وذهبها لستر حالها وأولادها وبناتها، وعوَّضها الله بذرية صالحة من البنين والبنات الملتفين حولها أولا، والأثرياء ثانيا، ويزيد: «ونصبحها ونمسيها يوميا، عدا من هم خارج الأحساء فيكون لقاءً هاتفيا يوميا، ونلتقي في منزلها كل يوم أربعاء، مع أبنائنا وزوجاتنا، وأزواج الأخوات، وذاك يوم سعادة غامرة لديها، فهي تحب اللقاءات الأسرية، وتوصي بها، كما أنها أنفقت جميع ما ورثته من والديها وزوجها -رحمهم الله- في عمل الخير وتربية الأبناء».

ولعل بعض الأمهات الأرامل ترى أن الأفضل أن تبقى بلا زواج؛ من أجل التفرغ لتربية أولادها، وقد يكون ذلك حسنا بالفعل، إذا وجدت أنها في سن لا تحتاج فيه إلى رجل، وفي وضع مادي مناسب لا تحتاج معه إلى من يعينها على الإنفاق عليها وعلى أولادها، وقد مرّت بنا صورٌ ناجحة من ذلك، وقد يكون الزواج أفضل، إذا كان الأمر بعكس هذه الحال، كما في هذه الحالة، فقد رأى الأستاذ عبد العزيز أن من حكمة أمه أنها تزوجت بعد وفاة والده - رحمه الله - حيث كان عمرها ٢٢ عاما، ورأت أن في الزواج سترا للحال، واختارت الزواج من أحد رجال الأسرة، فقد تقدم لها عمه عبدالله -رحمه الله- الذي كان

لها خير قرين ومعين على تربية أطفالها، وعاملهم مثل أولاده.

وإذا كان عبد العزيز العفالق قد ذكر عنصرين من عناصر التربية، وهما: الخلق الفاضل، والتقوى، فقد ذكر هنا العنصر الثالث، فقال: «وراحت والدتي -رحمها الله- تزرع فينا العلم؛ من خلال إلحاقي بالمطوع، والمدرسة النظامية، ومدرسة تحفيظ القرآن الكريم في الإجازات الصيفية، رغم أنها أمية، لكن ثقافتها واسعة، وكانت ذات نظرة ثاقبة ومستقبلية».

ثم ذكر العنصر الرابع في التربية المتكاملة، وهو اختيار التوجه الذي يناسب المتربي، يقول الأستاذ العفالق: «وعندما بلغتُ الثانية عشرة بدأَتْ تغرس فينا حب التجارة؛ فهي من منزل الراشد العمران، وهو بيت تجارة ومال، وشجعتني ودعمتني في شراء بعض السلع وبيعها على الجيران، وفي الإجازات أذهب للعمل مع خالي راشد بن عبدالرحمن الراشد - رحمه الله - ومنها وصلت إلى قناعة: أني لا أصلح لأية وظيفة سوى العمل الحر، وبعد أن نجحتُ وحققتُ ما حققتُ، صرَّحتْ لي بأنها بكت في السر مرتين بسببي، الأولى: عندما بِعتُ جزءا من الأملاك التي ورثتُها لسداد ديوني؛ حزنا على ضعفي في بداية رحلتي، والمرة الأخرى بكت عندما اشتريتُ مزرعتي في طرف الحليلة وهي من أكبر النخيل بالأحساء».

وهكذا قلب الأم كما قال أحدهم:

أصحو عليه وأغفو وهو يلثمني
قلب ضعيف، ويغزو الصحو والحلما
فإن رآني على خير بكى فرحًا
وإن رآني على سوء بكى ألما

ولعل من الجميل أن أدع الختام لهذا الابن الواعي لمحاور تربية والدته له ولإخوته وأخواته، وما لمسه بنفسه من آثار واضحة، يقول: «ورغم رحيل والدتي -رحمها الله- الذي أصاب فينا من الحزن أنا وإخوتي ما أصاب إلا أن ما قدمتْه من خير وإنفاق واستثمار حقيقي لا خسارة فيه، هوَّن علينا الأمرَ كثيرا، وهاهم أولاء أبناؤها وأحفادها يسيرون على نهجها، من خلال العمل التطوعي أو العمل الخيري الخفيّ، ونسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يلهمَنا الصبر والسلوان، وأن يسكنها فسيح جناته، وأن يجمعنا بها في مستقر رحمته، سبحانه وتعالى. آمين، وجميع أمهات المسلمين.

وقصص عدد من رجال الأعمال بدأت هكذا، فقر ويتم وأم عظيمة..

بدأ **أحمد الغامدي** حياته ـ في الباحة ـ فقيرا يتيما، فأصبح رجل أعمال مليونيرا، يمتلك عدة شركات، وبين الحالين قصة طويلة، تعثر فيها دراسيا عدة مرات، وكان يسعى للحصول على أية فرصة عمل من أجل أن يسد حاجة أمه وأخواته الأربع، وصارع العقبات والنكبات والفشل عدة مرات.

وكانت نقطة البدء ذات يوم، حين قررت والدته شراء سيارة (هاي لكس ٧٩ بقيمة ١٩٠٠ ريال) قدَّت قيمتها من قوت يومهم، وعقدٍ وحيدٍ كانت تملكه، حتى يتكسب بها ليطعمهم، وبعد فترة قصيرة من هذا العمل، سافر إلى جدة حيث المدينة الكبيرة والفرص الوفيرة، وخلال شهور مرَّ فيها بمحاولات فاشلة، وحالات بائسة من الجوع والتشرد، وقع -أخيرًا- على فرصة عمل مناسبة وجدية، استطاع من خلالها أن يكسب من المال ما دفعه للذهاب إلى سوق الذهب ليشتري

لأمه عقد ذهب بدل الذي باعته من أجله، ولبقية أهله، يقول: «لم أكلم أمي ولا أخواتي، وكان قلبي يكاد أن يطير من صدري ويسبقني إليهم، وصلت، ووجدت أمي كعادتها لديها بعض الدجاج تعتني به، بينما كانت أختي في المدرسة، احتضنتني أمي أكثر من ربع ساعة، وكان البكاء والأشواق والقبلات القاسم المشترك بيننا ـ رحمها الله، كانت مثل أمهاتكم أما عظيمة، مكافحة، صبورا، حنونا، كم اشتقت إليها».

ويكمل بعد أحداث مليئة بالفرح والاحتفاءات بعودته فيقول: «وفي المساء قبلتُ يدَ أمِّي وأعطيتها ألف ريال، هنا أمسكت أمي بيدي، وقالت: (**أحمد أنا لن أعيش كثيرًا، فكما ترى فقد اكتسى رأسي بالشيب، ورغم فقري ومسئوليتي لم أطعمْك أنتَ وأخواتك إلا من الحلال، رغم قلته، واليوم أصبحتَ رجلا، فاتق الله فيَّ وفي أخواتِك، ولا تطعمنا من مال حرام**)، لم أستطع أن أردَّ عليها، ولكني بدون شعور أخذتُ في البكاء ثم البكاء!! لدرجة أن أختي استيقظت من نومها، وأخذت تشاركني في بكائي دون أن تعلم بما حدث، عندما رأتنا أمي على هذا الحال، أخذت تُهديء من روعي، وتقول: (إنني أخشى عليك يا ولدي، فأنت في مدة قصيرة جدًا صرفتَ ما نصرفه في سنة)، فحكيت لها قصتي كاملة، وقلت: بفضل الله ثم بفضل دعائك سارت الأمور كما قصصتها لك، وأقسمُ لك لا أمد يدي لقرشٍ حرام»[(١)].

---

(١) موقع كيف تصبح تاجرا ناجحا.

٢٥

إبداع الأم في الصناعة الوالدية

في ضيافة الأستاذة (**ميمونة**) من الأردن، التي تفاجأت وفاجأت الناس بابنتها الكاتبة المجيدة؛ وهي لا تزال في مرحلة الطفولة، سألتها في حلقة من حلقات برنامجي الفضائي (بوح البنات)[(١)]: ماذا صنعتِ حتى وصلتِ إلى هذه النتيجة المبهرة؟ ما المنهجية التي قمتِ بها لتصنعي من (سدينة) الطفلة كاتبة مبدعة تحصد الجوائز، وتلفت أنظار الإعلام، وبهذه المقدرة اللغوية التي يعجز عنها بعض الكبار، وهذا الإلقاء الذي أدتْه بطريقة احترافية؟

فأجابتني أم (سدينة) بما أشار إلى نوع البيئة التي تكتنف هذه الأسرة السعيدة بذكر الله تعالى، فقد بسملت وحمدلت، ثم قالت: «(سدينة) هي طفلتي التي رعرعتُها على حب الله تعالى في البداية، وعلى حب رسوله ﷺ، ثم رعرعتُها على حب القراءة وحب مطالعة الكتب، وقد كنت أقرأ لها القصص المصورة باللغة العربية الفصيحة، حتى بدأت ترفض الأكل والنوم إذا لم أقرأ لها، هذه هي المنهجية في البداية».

إذن كان البدء بغرس الحب الأعظم في نفسٍ طرية لا تزال تتشكل، وفي ذلك ربط مباشر بخالق الكون جل في علاه، وبرسوله ﷺ، لتأسيسها التربية الإيمانية القويمة، ثم التفتت إلى العقل فغرست فيه

(١) برنامج بوح البنات على قنوات المجد الفضائية، حساب البرنامج على تويتر(#بوح_البنات @ 11 bohy) موقع البرنامج ،.com 11bohy (الحلقة أو الربط)

حب القراءة بل عشقها؛ حتى أصبحت إدمانا، تقول الأم (ميمونة): «كان هذا هو المنطلق في البدء، لم أدر أن هذه الموهبة ستنطلق بهذه الطريقة، دربناها أنا وأبوها على قراءة بالكتب، حتى بدأت تقرأ وهي في الصف الأول بشكل ممتاز، ثم جعلتُ منها تقرأ، وتقرأ، وتقرأ، باللغة العربية الصحيحة الفصيحة، حتى غدت تحب الإلقاء، علمتها مخارج الحروف، والنطق الصحيح، وكيف تقف عند مواضع التعجب تتعجب، وعند مواضع الاستفهام تستفهم، وترقَّينا خطوات، حتى كتبت في الصف الأول قصة، لم تكن متكاملة العناصر، لكنها كانت رائعة من حيث اللغة، فبدأت أعلمها كيف تكتب قصة بعناصرها المتكاملة، فإذا بمعلمتها تفاجئني بأن (سدينة) كتبت قصة متكاملة العناصر والأركان، بعنوان: (الأرنب والسنجاب)، وذلك في الفصل الدراسي بمرأى من المعلمة.. وشجعتني المعلمة على متابعتها.

وهكذا، فإن من دلائل الإبداع أن يكون للمبدع منتج خاص به، يتناسب مع مستواه العمري والدراسي، وهذه الفتاة قدمت ما هو أعلى منهما، ولذلك استحقت مزيدا من التضحية من تلك الأم المبدعة في تربيتها لها، فقد رأت ضرورة البحث عن مركز مختص في الإبداع، فوجدته، تقول: «في هذه المرحلة خطوت الخطوة الثانية، وهي أن نشترك في: (مركز الأميرة سلمى) في قصر الثقافة بالأردن، وكان هذا المركز يعطي دورات في كتابة القصة، للمبتدئين والمحترفين، فاصطحبت الطفلة إلى هذا المركز بعد تغيير أربع حافلات كل يوم صيفا وشتاء على مدار العام، أخذَتْ هذه الدورات وتألقت، وتعرَّفَتْ إلى عدد كبير من الشعراء والأدباء، وكونت شخصيتها من خلال هذا المركز».

وأحسنت، حين قادت هذه الفتاة إلى بيئة تتوافر فيها مهارات لا

تستطيع هي أن تقدمها لها، تقول: «بعد هذه الخطوة أقيمت لها أمسية ثقافية في نادي الكتاب، بعد أن تعرف عليها أحد الشعراء الكبار، فأعجب الجمهور بها، وبعد هذه الخطوة الجريئة قمنا بتعليمها الإلقاء أكثر فأكثر، أصبحت تحاول بعض الجهات الاتصال بها كالإذاعة والصحافة والتلفاز، وقدمناها في بعض الإذاعات، وقدمتها إذاعة حياة الآن، في هذه الإذاعة تقوم بتقديم برنامج مباشر للأطفال، وسلسلة رسائل من صديق إلى صديق».

ولا تكاد تجد مبدعا في الإلقاء في العصر الحديث إلا وتكون للإذاعة المدرسية بصمة في مسيرته، وكذلك كانت (سدينة)، تقول الأم: «أود هنا أن أشير إلى أن الإذاعة المدرسية كان لها أيضًا دور في صقل شخصية سدينة». فهل من الصواب ما تصنعه بعض الأمهات حين تمنع أولادها من النشاط غير الصفي؛ بحجة الاهتمام بالدراسة وعدم الانشغال عنها؟!

تجاوزت أم (سدينة) السماح لها بالمشاركة في الإذاعة المدرسية، إلى أن طلبت من المديرة أن تقوم بتكثيف جهودها فيها، بل كانت تقوم بإعداد برنامج متكامل وتدربها على الإلقاء، في الساحة العامة، فتعودت على الجمهور، وتدربت على الإعداد، والإلقاء.

لقد عقَّبت (سدينة) على حديثي مع أمها عنها بقولها: «طموحاتي أن تكثر كتاباتي وتثمر، وأن أصبح كاتبة مشهورة عالمية، وأن تُترجم كتاباتي وقصصي إلى سائر اللغات في العالم، وأطمح ـ بشدة ـ أن أقدم برامج كثيرة على كل وسائل الإعلام، كالمذياع والتلفاز، وذلك بالطبع بهدف نبيل ألا وهو وضع بذور الأخلاق الحميدة في قلوب الأطفال؛ وذلك لأن مصير عالمنا الكبير سيكون بأيديهم بما أنهم جيل المستقبل».

حديث كبير جدا، لولا أنني سمعته مباشرة من الأم والفتاة، لشككت في الصياغة على الأقل، إني لأهنئ الأخت ميمونة وزوجها على هذه التربية الممزوجة بين الإيمانيات والإبداع.

إن هذه المقتطفات التي أنقلها من هذا اللقاء لا تكفي لتعطي كل الصورة عن سدينة وأمها القديرة، ولكنها تكفي ـ إن شاء الله تعالى ـ أن تكون شرارة لانطلاق عدد كبير من مثل: (سدينة)، كم أتمنى من كل أم أن تحذو حذوها، وكل أم تستطيع أن تصنع مثل هذه الزهرة الفوَّاحة، وليس هذا أمرًا معجزًا، متى ما سلكت منهجًا متميزًا في تربية أبنائها.

إن العلم ضرورة في قضية التربية، وهو ما لمسته في حديث الأم عن ابنتها، فهي تربيها بدراية، وخطوات مدروسة بعناية، وها هي ذي تقول: «قرأتُ أن الأطفال الذين هم أقل من ست سنوات، ٦٠٪ منهم عندهم تفوق وتميز في مجالٍ ما، ثم تبدأ هذه النسبة في التدني كلما كبر بهم العمر؛ نتيجة للإهمال، لذا أقول لك أيتها الأم الفاضلة: إنه يوجد في ثنايا طفلك موهبة، حاولي اكتشافها مبكرا ثم تنميتها، حببي إليه القراءة، لأنها ستفتح مغاليق عقله وتنير فكره، ويجب أن نعزز ثقته بنفسه، وأن نجعله يسير في طريق الإبداع».

أحسنت أم (سدينة)، على أن من العلماء من رفع تلك النسبة إلى ٩٨٪ من الأطفال، يولدون موهوبين فوق العادة، والبيت يشجع أو يقمع، والمدرسة تصقل أو تثبط، والنتيجة ستكون: الحفاظ على تلك الجواهر، أو فقدانها.

٢٦

حين تعانقك أمك.. فماذا يحدث؟

الحديث مع (الأم) له تأثير يتطابق مع تأثير العناق، وقد يساعد في خفض مستويات التوتر بشكل كبير! بل أشارت دراسة ألمانية إلى أن تحدث الشخص مع أمه يعد من أفضل الطرق للتخلص من التوتر والاكتئاب والحصول على الاطمئنان والراحة النفسية.

فما هو تأثير العناق إذن؟

في دراسة سويدية: «يكمن السر في شبكة خاصة عن الأعصاب؛ تحفز مشاعر السرور في الدماغ، فالدماغ يستجيب للمس العادي من خلال شبكة من الأعصاب سريعة التوصيل التي تنقل الإشارات بمعدل ستين مترا في الثانية، ولكنه يستجيب للعناق وعمليات اللمس من خلال شبكة ثانوية من الأعصاب بطيئة التوصيل التي تحمل الإشارات بمعدل متر واحد في الثانية فقط، وما تزال وظيفتها محيرة». وفي العناق أيضا فوائد أخرى، فهو يؤدي إلى ازدياد مستويات هرمون (الأكسيتوسين) الذي يسمى (هرمون الارتباط) الذي له تأثيراته الجيدة على القلب والأوعية الدموية لدى النساء.

كل ذلك يحدث للولد حين يتحدث مع أمه، التي -بفطرتها- تحب كل هذه المنافع الصحية لولدها، وكل أم -بطبيعتها- تتمنى أن تستمع إلى ولدها وابنتها، وفي هذا صحة لها أيضا، ولذلك عليها أن تتحدث

إليهما كثيرا، وأن تستمع إليهما كثيرا، وليكن هذا الحديث بينهما مملوءا حبًّا وعاطفة، ومكتظا علما ونفعًا وتوجيها، بكل رقة وحزم في وقت واحد.

هذا **معاوية بن جاهمة** رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: «يا رسولَ اللهَّ إنِّي كنتُ أردتُ الجِهادَ معَكَ أبتغي بذلِكَ وجْهَ اللهَّ والدَّارَ الآخرةَ، قالَ: ويحَكَ! أحيَّةٌ أمُّكَ؟ قُلتُ: نعَم، قالَ: ارجَع فبرَّهَا. ثمَّ أتيتُهُ منَ الجانبِ الآخَرِ فقلتُ: يا رسولَ اللهَّ، إنِّي كنتُ أردتُ الجِهادَ معَكَ أبتغي بذلِكَ وجهَ اللهَّ والدَّارَ الآخرَةَ، قَالَ: وَيحَكَ! أحيَّةٌ أمُّكَ؟ قلتُ: نعَم، يا رسولَ اللهَّ. قالَ: فارجِع إليْها فبرَّها، ثمَّ أتيتُهُ من أمامِهِ فقُلتُ: يا رسولَ اللهَّ، إنِّي كنتُ أردتُ الجِهادَ معَكَ أبتغي بذلِكَ وجْهَ اللهَّ والدَّارَ الآخرةَ، قالَ: ويحَكَ! أحيَّةٌ أمُّكَ؟ قُلتُ: نعَم، يا رَسولَ اللهَّ، قَالَ: **ويحَكَ الزَم رِجلَها فثَمَّ الجنَّةُ**»[1].

هذه الملازمة والصحبة الطويلة الممتدة التي حثَّ الرسول ﷺ في أكثر من حديث، ليست ملازمة فارغة من المضمون، بل هي خدمة وبر وتقدير وأخذ واقتداء وتشاور، والتربية بالمصاحبة أصل عظيم من أصول التربية قديما وحديثا، حتى قال الرئيس الأميركي ريتشارد ميلهاوس نيكسون، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابع والثلاثون (١٩٦٩-١٩٧٤) : «**يمكنك أن تنسيني كل شيء... إلا ما تعلمته من أمي**».

بل في القرب من الأم أمر آخر، لخصه الفيلسوف اليوناني في كلمات يسيرة فقال: «**لم أطمئن إلا في حجر أمي**». الأمن النفسي الذي يجعل

(١) رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ٩٢٩) ح (٢٧٨١).

قواد الحروب والفاتحين الأبطال يجدون أنفسهم في لحظة من لحظات الضعف والخور، ينكبون على أحضان أمهاتهم، ليجدوا فيه السكينة التي لا يمكن أن يحسوا بها وهم وراء الأسوار العالية من البناء والرجال والسلاح.

أحِـنّ إلى الكأسِ التـي شـرِبَتْ بها
وأهـوى لَمثـواها التّرابَ ومـا ضـمّا

بَكَـيْتُ عَلَيـها خِيفَـــةً في حَيــاتِها
وذاقَ كِـــلانا ثُـكْلَ صاحِبِـهِ قِـدْمَا

أتـــاها كِتابي بَعـدَ يــأسٍ وتَرْحَــةٍ
فَـماتَتْ سُـرُورًا بـي فَمُـتُّ بـها غَمّا

حَــرامٌ عـلى قَلبي السّــرُورُ فإنّني
أعُـدّ الذي ماتَتْ بهِ بَعْــدَها سُــمّا

تَعَجَّبُ مِـنْ لَـفْظي وخَطّي كـأنّما
تَرَى بحُرُوفِ السّطرِ أغرِبةً عُصْـما

وتَلْثِـــمُهُ حتـى أصـارَ مِـــدادُهُ
مَحاجِـرَ عَـيْنَيْها وأنْيـابَها سُـــحْما

رَقَـا دَمْعُها الجاري وجَفّتْ جفونها
وفـارَقَ حُبّـي قَلبَـها بَـعدمَا أدمَـى

ولم يُسْــلِهـا إلاّ المَنَايــا وإنّـــما
أشَدُّ منَ السُّقمِ الذي أذهَبَ السُّقْما

هَـبيني أخذتُ الثأرَ فيكِ مـنَ العِدَا
فكـيفَ بأخذِ الثّـأرِ فيكِ من الحُمّى

وما انسَـدّتِ الـدّنْيا عــليّ لضِيقِهَـا
ولكــنَّ طَـرْفًا لا أراكِ بـهِ أعمَـى

فَـوَا أسَـفا ألاّ أُكِـبَّ مُقَبِّـلا
لرَأسِكِ والصّدْرِ اللّذَيْ مُلِئا حزْمَا

وألاّ أُلاقي روحَـكِ الطّـيّبَ الـذي
كأنّ ذكـيّ المِسـكِ كـانَ لـه جسـما

ليست قوة هذه القصيدة التي رثى بها المتنبي جدته كونها لشاعر العربية الأعلى كعبا في مضمار الإبداع الشعري فقط، ولكن هكذا غالب مراثي الأمهات، عذبة، راقية، صادقة، محرقة، محتقنة، مشرقة، تفيض بالحزن والوفاء، وتعدد من الفضل ما لا يمكن أن يؤخذ من غيرها.

ونظرة إلى كل أمثال الأمم وحكمها، سنجد إجماعا على هذا المعنى، فالألمان يقولون: «**يدُ الأم حلوة ولو ضربت**»، وقد ثبت علما أن بعض الأولاد المحرومين من لمسات أمهاتهم قد يُبدون بعض الشغب من أجل أن تقوم الأم بضربهم، فيتلذذون بهذه اللمسات، وإن كانت غير تربوية، ولا مقبولة في عرف التربية الإيجابية.

على أن الضرب فوق العشر ودون الخامسة عشرة من قبل الوالدين أو المعلم يمكن أن يكون له أثر إيجابي إذا كان قليلا، لا يضر بصحة الطفل نفسا ولا جسدا، بعد أن يكونوا قد استنفدوا كل الوسائل

التربوية اللازمة، ولم يتخذوه منهجا تربويا دائما، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى -سمعت شيخنا رحمه الله يقول: «تنازع أبوان صبيًّا عند بعض الحُكَّام، فخَيَّرَهُ بينهما، فاختار أباه، فقالت له أمه: سَلْهُ لأيِّ شيء يختار أباه، فسأله فقال: أمي تبعثني كلّ يوم إلى الكُتَّاب، ويضربني الفقيه، وأبي يتركني ألعب مع الصبيان، فقضى به للأم، وقال : أنتِ أَحَقُّ به»[1].
ومع ذلك فإني أُذكِّر بأن بدائل الضرب كثيرة، وكم فرَّ من تلكم الحلق والكتَّاب من صبيٍّ حاذق، كان يمكن أن يكون عالما، لولا سطوةُ العصا والسوط.

والهنود يقولون: «**في أيام اليُسر ليس لك غير الأب، وفي أيام العُسر ليس لك غير الأم**»، وهي كلمة لا تخلو من مبالغة، فإن الحاجة إلى الأب قائمة في اليسر والعسر، ولكن الحاجة إلى حنان يد الأم، وسخاء يد الأب. وهي إشارة إلى سخاء الأم الذي قليل فيه أن يسمى سخاء، فهو في العادة يكون إيثارا، والروس يقولون: «**مهما كانت الأم فقيرة، فإنها لا تحرم ابنها الثياب الدافئة**»، والروس يتماهون مع الإيطاليين في مثلهم الذي يقول: «**أهون على الإنسان لو يفقد أبا غنيا من أن يفقد أما فقيرة**». والمغاربة يقولون: «**إذا مات أبوك فحضن الأم هو وسادتك، وإذا ماتت أمك فستنام على عتبة الدار**».

أيتها الأم، ثقي بأن ابنك ثمرة من ثمار شجرتك، فما تغذيت به فسوف يظهر في لونه وطعمه ورائحته، وما تسقينه به فسوف ترينه في شخصيته وسلوكه، وما ترسمينه له فسوف يتبلور في مستقبله بإذن الله تعالى.

---

(١) زاد المعاد للإمام ابن القيم الجوزية، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ، ص: ٨٤٤ .

الشيخ **محمد الخضر حسين** (الأخضر)، عالم تونسي، من مواليد مدينة نفطة بتونس عام ١٢٩٣هـ، ١٨٧٦م، وأصل أسرته من الجزائر، من عائلة العمري، وأصل أمه من (وادي سوف) بـ(الجزائر) أيضًا، وأبوها هو الشيخ مصطفى بن عزوز وخاله الشيخ محمد المكي بن عزوز.

أي أن أمه من أسرةٍ مشيخة وعلم وفضل، وأبوه كذلك، وكانت بلدة (نفطة) التي ولد فيها موطن العلم والعلماء، حتى إنها كانت تلقب بالكوفة الصغرى، وبها جوامع كثيرة، وهي واحة بها زرع وفيها فلاحون.

الشيخ **محمد الخضر حسين** يعدُّ العالم الوحيد الذي تولى مشيخة الأزهر من خارج مصر، فقد اختير شيخا للأزهر في آخر شهر ذي الحجة عام ١٣٧١هـ (سبتمبر ١٩٥٢م)، واستقال بسبب ضم القضاء الشرعي إلى القضاء المدني ودمجه فيه، وذلك في جمادى الأولى ١٣٧٣هـ (يناير ١٩٥٤م)، فهل كانت هذه المشيخة محض موافقة، أم أنها هدفٌ تأصل في نفسه منذ أن كان يسمى الأخضر في حجر والدته ـ رحمها الله ـ وهي تهدهده وتقول له: «**يا الأخضر يا الأخضر..يا بكره لما تكبر..و تصير شيخ الأزهر**».

نعم كانت أمنية أمه، أمنية جعلتها تعمل على تنشئته طالبا للعلم، فحفظ القرآن، ودرس العلوم الدينية واللغوية على يد عدد من العلماء منهم خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز الذي كان يرعاه ويهتم به، بل حاول منذ سن الثانية عشرة أن يقرض الشعر، ثم برع فيه بعد ذلك، ولما بلغ سن الثالثة عشرة انتقل إلى تونس مع أسرته ودرس في جامع الزيتونة، وهناك درس على أيدي مشايخ آخرين أبرزهم الشيخ سالم أبو حاجب

الذي كان من أعمدة الإصلاح في تونس، ثم صار أحد علمائه، وصار يلقي دروسًا في الجامع في فنون مختلفة متطوعًا، وبقي كذلك مع حضور مجالس العلم والأدب المختلفة، بل طاف مصر وسوريا وتركيا والجزائر طالبا للعلم، ومجاهدا بالكلمة الطيبة والمواقف التي خلدها التاريخ.

أمَّاه.. لا تتصوري أن عالما ما أصبح عالما بمجرد أمنية تطلقها أم، وإنما الأمنية هي قدح الزناد لضياء لا حدود له بإذن الله تعالى.

حتى أنت تستطيعين أن تصنعي عالما، طبيبا، إعلاميا، أستاذا، هيا تمني، واعملي، وسوف تجدين زرعك قد نما بإذن الله تعالى.

٢٧

قصة شجرة التفاح/الأم

كان يا مكان في قديم الزمان، كان هناك شجرة تفاح ضخمة وكان هناك طفل صغير يلعب حولها كُلَّ يوم، ويتسلق أغصانها، ويأكل من ثمارها، ثم يغفو قليلا؛ لينام في ظلها، كان يحب الشجرة وكانت الشجرة تحب أن تلعب معه.

مرَّ الزمان وكبُر الطفل وأصبح لا يلعب حولها كلَّ يوم، وفي يوم من الأيام رجع الصبيُّ وكان حزينا!! فقالت له الشجرة: تعال والعب معي؟

فأجابها الولد: لم أعد صغيرًا؛ لألعب حولك، أنا أريد بعض اللُّعب وأحتاج بعض النقود لشرائها.

فأجابته الشجرة: أنا لا يوجد معي نقود!!! ولكن يمكنك أن تأخذ كل التفاح الذي لدي؛ لتبيعه ثم تحصل على النقود التي تريدها.

سَعُد الولد كثيرًا بهذا، فتسلق الشجرة، وجمع كلَّ ثمار التفاح التي عليها، وغادر سعيدا، ولم يعد الولد بعدها فأصبحت الشجرة حزينة.

وذات يوم عاد الولد ولكنه أصبح رجلا!!! كانت الشجرة في منتهى السعادة لعودته وقالت له: تعال والعب معي.

ولكنه أجابها: لا يوجدُ وقتٌ لدي للعب، فقد أصبحت رجلا مسئولا عن عائلة، ونحتاج لبيت يؤوينا، هل يمكنك مساعدتي؟

قالت الشجرة: آسفة!!! فأنا ليس عندي بيت، ولكن يمكنك أن تأخذ جميع أغصاني؛ لتبني بها بيتا لك.

أخذ الرجل كل الأغصان وغادر وهو سعيد، كانت الشجرة مسرورة لرؤيته سعيدا ولكن الرجل لم يعد إليها فأصبحت الشجرة وحيدة وحزينة مرة أخرى.

وفي يوم حار من أيام الصيف عاد الرجل وكانت الشجرة في منتهى السعادة، فقالت له الشجرة: تعال والعب معي.

فقال لها الرجل: لقد تقدمتُ في السن، وأريد أن أُبحرَ لأي مكان لأرتاح هل يمكنك إعطائي مركبا؟

فأجابته: خذ جِذعي لبناء مركب، وبعدها يمكنك أن تبحر به بعيدًا وتكون سعيدًا، فقطع الرجل جذع الشجرة وصنع مركبًا وسافر مبحرًا ولم يعد لمدة طويلة.

أخيرا عاد الرجل بعد غياب طويل، ولكن الشجرة قالت له: آسفة يا بني لم يعد عندي أيُّ شئ أعطيه لك.. لا يوجد تفاح!!

قال لها: لا عليك، لم يعد عندي أي أسنان لأقضمها بها.

قالت الشجرة: لم يعد عندي جذع لتتسلقه.

فأجابها الرجل: لقد أصبحتُ عجوزا ولا أستطيع القيام بذلك.

قالت الشجرة: أنا فعلا لا يوجد لدي ما أعطيه لك، وهي تبكي قالت: كل ما تبقى لدي جذور ميتة.

فأجابها: كل ما أحتاجه الآن هو مكان لأستريح فيه، فأنا متعب بعد كل هذه السنين.

فأجابته: جذور الشجرة العجوز هي أنسب مكان لك للراحة، تعال واجلس معي لتستريح.

جلس الرجل إليها كانت الشجرة سعيدة، تبسمت والدموع تملأ عينيها.

قصة من أشهر القصص العالمية، هي هكذا الأم.. تعطي بلا حدود، وسعادتها في عطائها، وهو سرُّ فوزها بما لم يفز به غيرها: ثناء الله عليها، ووصيته بها، وكون الجنة تحت قدميها.

إذا كانت قصة الشجرة والطفل التي سبقت، تدل على ذلك العطاء الذي تقدمه الشجرة/ الأم للطفل/ الولد حتى تتلاشى الأم تماما، بينما يستغل الطفل كل جزء منها في فترات حياته كلها؛ ولم يردَّ إليها شيئا من الجميل، فإن د.ابتسام الكحيلي ـ في مقالة عميقة لها حول عطاء الأم ـ ترى رأيا آخر تماما ـ أيتها الأم المعطاء ـ فقد قارنت فيها بين الشجرة والشمعة، فـ «النَّخلة تعطي، وتُنوِّع في عطائها؛ بلحًا، رُطَبًا، تمرًا، في أزمنة وطرق مختلفة حسب الوضع المنظور، وعطاؤها مرتَهنٌ بما يُقدَّم لها؛ ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم: ٢٥]؛ فاشتراط الهزِّ لحدوث العطاء هو تقنين لفنِّ العطاء والبذل؛ لذا فالنَّخلة لا تموت إلا وهي واقفة، أمَّا الشمعة فتُعطي وتحترق، تنير وتذبل، حتَّى تموت محترقة بعطائها..»، ثم تتساءل: «فأين الأمُّ؟ بين أن تكون شجرة، أو أن تكون تلك الشمعة المحترقة!» وتتدارك ما قد يتبادر للأذهان من تعجُّبٍ من هذا الطرح المحرض فتقول: «هذا ليس

مقالًا تحريضيًّا للأمهات للكفِّ عن البذل والعطاء، بل دعوة لفهم نظريَّته؛ فالخطاب الدِّيني (قرآنًا وسُنَّة) كان كريمًا في بيان حقِّ الأم بالذَّات والتأكيد عليه، وأتى بالتفصيل؛ لما ميَّز به الأم عن الأب في كون عطائها مرتبطًا بنشأة الطِّفل؛ من حمله وهنًا على وهن، وإرضاعه حولين. ولِمَ الأمُّ معنيَّةٌ بحديثي؟ لأنَّها مناط الإستراتيجيَّة، والعاملة الأقوى على تقويضها، بما آتاها الله من جدول نهر متدفِّق من البذل والعطاء للأبناء، بمعزل عن مفهوماتها؛ (لماذا أُعطي؟ وماذا أعطي؟ وكيف؟ ومتى؟).

ولا بأس أن أترك بطل قصة مخذول يوردها عليكم، فقد يكون فيها عبرة لمن يعتبر، يقول:

أمي كانت بعين واحدة، لقد كرهتها، كانت تسبب لي كثيرًا من الإحراج، كانت تطبخ للطلاب والمعلمين لكي تساند العائلة، ذات يوم بينما كنت بالمدرسة المتوسطة قَدِمَت أمي لتلقيَ عليَّ التحية، لقد كنت محرجًا جدًّا.. كيف استطاعت أن تفعل هذا بي لقد تجاهلتها، احتقرتها.. رمقتها بنظرات حقد.. و هربت بعيدًا. في اليوم الثاني أحد طلاب فصلي وجَّه كلامه لي ساخرًا: إي، أمك تملك عينًا واحدة!!».

أردت أن أدفنَ نفسي وقتها، و تمنيتُ أن تختفي أمِّي للأبد، فواجهتها ذلك اليوم قائلًا: إن كنتِ -فقط- تريدين أن تجعلي منِّي مهزلة، فلِمَ لا تموتين؟»

مكثتْ أمي صامتة.. ولم تتفوه بكلمة واحدة، لم أفكر للحظة فيما قلته؛ لأني كنتُ سأنفجر من الغضب! كنت غافلًا عن مشاعرها،

أردتُ الخروج من ذلك المنزل، فلم يكن لديَّ شيء لأعمله معها!!

لذا أخذتُ أدرس بجد حقيقي، حتى حصلت فرصةٌ للسفر خارج البلاد، بعد ذلك تزوجتُ.. وامتلكت منزلي الخاص، كان لي أطفال.. وكوَّنتُ أسرتي، كنتُ سعيدًا بحياتي الجديدة، كنتُ سعيدًا بأطفالي، وكنتُ في قمة الارتياح..

في أحد الأيام.. جاءت أُمي لتزورني بمنزلي، هي لم ترني منذ أعوام، ولم تر أحفادها ولو لمرةٍ واحدة، عندما وقفتْ على باب منزلي، أطفالي أخذوا يضحكون منها، لقد صرختُ عليها بسبب قدومها بدون موعد! كيف تجرأتِ وقدمتِ لمنزلي وأرعبتِ أطفالي!؟ اخرجي من هنا حالًا!!

جاوبت بصوت رقيق: عذرا، آسفة جدًا، لربما تبعت العنوان الخطأ..!

منذ ذلك الحين.. اختفت أمي..

في أحد الأيام، وصلتني رسالة من المدرسة بخصوص لمِّ الشمل بمنزلي، لذا كذبتُ على زوجتي وأخبرتها بأني مسافر في رحلة عمل..

بعد الانتهاء من لمِّ الشمل.. توجهت لكوخي العتيق حيث نشأتُ، كان فضولي يرشدني لذلك الكوخ، أحد جيراني أخبرني: «لقد توفيت والدتك»! لم تذرف عيناي بقطرة دمع واحدة!!

كان لديها رسالة أرادت مني أن أعرفها قبل وفاتها:

ابني العزيز! لم أبرح أفكر فيك طوال الوقت، أنا آسفة لقدومي لبيتك وإرعابي لأطفالك! لقد كنت مسرورة عندما عرفت أنك قادم

بيوم لمِّ الشمل بالمدرسة، لكني لم أكن قادرة على النهوض من السرير لرؤيتك. أنا آسفة.. فقد كنتُ مصدرَ إحراجٍ لك في فترة صباك،

سأخبرك: عندما كنتَ طفلًا صغيرًا تعرضتَ لحادث، وفقدتَ إحدى عينيك، لكني كأم، لم أستطع الوقوف عاجزة وأنا أشاهدك تنمو بعين واحدة فقط!! لذا فقد أعطيتكَ عيني.. كنتُ فخورة جدًا بابني الذي كان يريني العالم بعيني تلك، مع حبي لك.. أُمُّك. انتهت.

هذه الأمُّ وهبَتْ عينها لابنها، فكانت هِبتُها سببًا في نفوره منها حتَّى وفاتها؛ إذْ أصبحت أمًّا بعين واحدة، وكان لا يعلم أنَّ الأخرى هي التي يَنظر بها إلى متع الحياة، ذاك أنَّها أعطته، ولكنها لم تُعلِّمه احترامَ ذاك العطاء.

والمشهد الإعلاميُّ -على تنوُّعه- حافلٌ بتلك القصص والروايات التي تغص بمشاهد الجحود والنكران، والتي بلغت حدَّ الاعتداء الجسدي، فضلًا عن الاعتداء المعنوي، والمشهد الاجتماعي زاخر بفِتْية وفتيات، بل رجالٍ ونساء تجاوز سوءُ الفهم لديهم الاعتقادَ بأنَّ من حقوقهم أخْذَ مال الأمِّ والأب بدون حساب، فقد تبيع الأم مجوهراتها وهي منتشية، من أجل أن تدفع ثمنها مَهرًا لزواج ابنها، ويبيع الأب أو يستدين؛ لكي يؤثِّث له المنزل، وما أن يكتفي ذاك الابن من هذه الزوجة حتى يتلمَّس عيوبها، ويبدأ في تقويض الصَّرح الذي بناه الوالدان، ويهدم البناء الأُسَري دونما أدنى تحمُّل وتقديرٍ للمسؤولية، والخسائرِ المكبَّدة على كاهل المـُعطِيَيْن بسذاجة، بل قد يكون بوقاحة أكبر، ويطلب عروسًا جديدة.

وقد نتساءل: أين هؤلاء الأبناء من الخطابات الدِّينية والمحذرة من

عقوق الأمَّهات؟ نقول: هي أمورٌ أغفلت الأمهاتُ المِعْطاءات -بلا تنظيم- ترسيخَها في نفوسهم، بل هي لم تتشرَّبْها أوَّلًا في نفسها، فغدَتْ لا تُبالي بكلمة (أفّ) تُقال لها، حتَّى تَمادى بعض الأبناء إلى أكثر من ذلك».

وتفاجئنا د.ابتسام الكحيلي بنداء حازم «لكل أم: (كوني نخلة ولا تكوني شمعة): هذا قانون أو نظرية مفادها: أعطي بِقدَر؛ فالعطاء تربية، وليست رعاية. والقضية كلُّها ليست تنظيرًا، بل تفكيرًا ووعيًا بفلسفة العطاء والأخذ، فالتدليل ما هو إلاَّ عطاء، بل ضوابط. نعم، فُطِرتِ على العطاء، ولكن لم تُفطَري على السَّذاجة وعدم تقدير الذَّات؛ فزَرْع اليوم هو غَرْسُك أمس، وبِرُّ اليوم هو ثَمرة عطائكَ بتربية أمس».

وبهذا الطرح الجريء يمكن إيقاف قصص العقوق عند حدّها، إذ على الولد أن يعلم -يقينا- بأن جزءًا مما يأخذه، سوف يردُّه، وأن ما يقدمه لأمه يُنتظر أيضا من أولاده له، فهو ـ إذن ـ آخذ من الجانبين، ومعطٍ من الجانبين، والدنيا كلها أخذ وعطاء، وحقوق وواجبات.. أيتها الأمهات الكريمات.

٢٨

أيتها الأم .. يقول الله لك: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾

حين نتأمل كتاب الله تعالى، وتعامله اللفظي مع (الأم) مصنع الحياة، نجد بأن الله -تبارك وتعالى- تفضل عليها بألا تحزن؛ لأنه جل في علاه يعلم أن لحزنها أثرا سيئا على جنينها وهو في بطنها؛ فقد يؤدي ذلك إلى تشوهه، وأن له أثرا سيئا في رضاعته؛ ولذلك تجد الطفل يمجُّ الحليب الذي يرضعه خلال انفعال الأم السلبي، وكان عجب العلماء كبيرا حين اكتشفوا أن بعض التشوهات في الجنين خلال فترة الحمل هي بسبب الحزن، الذي يؤثر بشكل كبير على تطور الجنين وتشكله في بطن أمه! فقد قال باحثون: إن الضغوط العاطفية والنفسية الشديدة التي تتعرض لها المرأة خلال فترة الحمل وحتى قبلها يمكن أن تكون عاملًا في ظهور إصابة الجنين بتشوهات متنوعة.

لقد تبين للباحثين أن معدل الإصابة بالتشوهات الخلقية لمواليد ممن تعرضن من النساء للضغوط يبلغ ضعف المعدل عند النساء الأخريات، ووجدوا أن فرص تعرض الجنين لتشوهات خلقية تزداد عندما تحزن الأم لفقدان أحد أطفالها خلال الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل، وتزداد نسبة الخطورة إذا كان الموت غير متوقع، ويقدر العلماء أن يكون الضغط النفسي سببًا في ارتفاع هرمون الكورتيزون الذي يؤدي إلى ارتفاع نسبة السكر في الدم، وتقلص نسبة الأوكسجين في الأنسجة، وهما عاملان يتسببان في تشوهات خلقية عند الجنين.

لذلك تُنصح كل أم حامل أن تكثر من الاستماع إلى القرآن؛ (تسمع جنينها صوت القرآن كل يوم)، فهذا العمل سيجعل الجنين أكثر استقرارًا؛ لا سيما أن الدراسات الحديثة تؤكد أن الجنين يسمع الأصوات من حوله ويتأثر بها. كما أن الاستماع إلى القرآن يؤدي إلى استقرار عمل قلب الأم واطمئنانها؛ مما يؤثر على الجنين إيجابًا، فينمو بشكل جيد.

إن المعلومات التي رأيناها في هذا الخبر العلمي يقدمها الأطباء على أنها جديدة وتُعرض للمرة الأولى؛ في الوقت الذي عرضت فيه بالطبع، ولكن عند تدبر القرآن الكريم نلاحظ أنه أشار إلى العلاقة بين الحزن والحمل في قصة مريم عليها السلام. إشارة واضحة،؛ يقول الله تبارك وتعالى عنها: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٢-٢٦]. فقد أشار البيان الإلهي إلى ضرورة أن تكون المرأة الحامل فرحة وقريرة العين، وألا تحزن؛ لأن ذلك سيؤذي جنينها.

ولو تدبرنا آيات القرآن نلاحظ أن كلمة ﴿تَحْزَنِي﴾ وردت مرة أخرى مع أم موسى عندما أمرها ربها ألا تحزن، يقول تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. لأن الله تعالى يعلم بأن الحزن مضرّ بها وبطفلها، لأنها سترضعه وسوف يتأثر لبنها بالحزن والاكتئاب، ولذلك أرجع الله إليها طفلها لكيلا تحزن وتقر عينها،

يقول تعالى بعد ذلك: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣].

ولك أن تلاحظي -أيتها الأم الكريمة- كيف يتكرر الأمر الإلهي ثلاث مرات في هاتين القصتين: (أَلَّا تَحْزَنِي - وَلَا تَحْزَنِي - وَلَا تَحْزَنَ)، وهذا يدل على أن الله يريد لها ألا نحزن، مع العلم أن الحزن صفة بشرية لا يمكن التخلص منها، فنبينا ﷺ حزِن على فراق ابنه إبراهيم، ونبي الله يعقوب عليه السلام حزن على فراق ابنه يوسف، ولذلك فقد كانت هذه القصص القرآنية تواسي حبيبنا محمدًا وتمنحه مزيدًا من الصبر ليفرح برحمة ربه، يقول تعالى مخاطبا نبيه ومصطفاه ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨]، ويقول تعالى مخاطبًا المؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩][١].

من أجل ولدك.. لا تحزني.. هذا ما يريده منك خالقك جلَّ وعلا.

ولقد تساءل كثيرون عن تلك العاطفة الجارفة من الأم تجاه ولدها، ومن يستطيع أن يسبر أغوارها، ويتفهم أسبابها، ويعلم مآلاتها، حاول الشيخ أحمد بن علي آل الشيخ مبارك أن يجيب فقال مشيرا إلى تلك: «المحبة التي لا يبلغ أحد إلى درجة فهمها فهما كاملا إلا الأم نفسها، وهذا الحب العظيم طبيعي حصوله من الأم للولد؛ لأن حب المرأة

(١) مقالة: بقلم/ عبد الدائم الكحيل، www kaheel7.com، مصدر المعلومة: http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/news/.newsid_915000/915505.stm

لابنها حب مضاعف؛ فهي تحب الرجولة من حيث هي رجولة، وتعجب بها، وتحبها في ابنها مرة ثانية؛ لأنها تعتز بأن هذه الرجولة المتجسمة في ابنها قد نتجت منها، ونزلت من بطنها، ودرجت في عشها، وتربت في حجرها»[1].

ولذلك نجد أمهات العظماء كنَّ عظيمات في عطائهن، فهذه **دلال بنت عبد الرحمن السعدون**، تنزع عنها أقنعة الحزن الكؤود بعد وفاة زوجها عبد العزيز بن حمد آل الشيخ مبارك، لتلتفت ـ بكل وعي وإدراك ـ إلى نبتة جديدة تترعرع بين يديها، لا يزيد عمرها عن ثماني سنوات، وهي تعلم يقينا بأن الانصراف إلى الحي؛ بكل احتياجاته التي تصنع منه إنسانا كريما، معطيا، مبدعا، خير من الارتباط بالميت حزنا وقلقا واكتئابا وألما، مهما كان غاليا ومحبوبا، فمزجت دنياها بدنيا ابنها راشد، الذي أصبح فيما بعد الدكتور راشد بن عبد العزيز آل الشيخ مبارك، عالم الكيمياء الذرية، والأديب الكبير، نعم، لقد فقد حنان أبيه وتربيته، ولكنه ترعرع فى كنف والدة صنعت منه ابنًا بارًا بدينه ووطنه وأمته ليصبح واحدًا من رموز العلم والأدب فى بلادنا الكبيرة، وكان قد نشأ فى الأحساء، فى بيت علم ودين وأدب وشرف، وبدأ حياته بدراسة القرآن الكريم والعلوم الشرعية واللغوية على أيدي أعمامه وفقهاء أسرته، ولكنه تطلع إلى مزيد من العلم والتخصص الذي لم يكن قد سبقه إليه أحد من أسرته، وربما من بلدته، وكانت أمه معه في كل خطواته، حتى إنها -رحمها الله- كانت معه في رحلاته العلمية، يدرس المراحل الجامعية البكالوريوس والماجستير والدكتوراه، متنقلة معه إلى

(١) سوانح الفكر، للأستاذ الشيخ أحمد بن علي آل الشيخ مبارك، ١٤٢٧ هـ، ط: ١، ص: ٨.

الرياض ومصر وبريطانيا، ولم تدعه حتى بعد زواجه، بل رافقته في كل رحلاته؛ تسانده، وتدعو له، وتصبره على هذه الطريق الطويلة الشاقة؛ حتى عاد عالما في الكيمياء، كما أنه كان أديبا ذاع صيته فى الأدباء، بل كان منزله قبلة للأدباء والمفكرين على امتداد الوطن العربى الكبير؛ في ندوته الأحدية الشهيرة، وشارك بزخم في العديد من البحوث الجادة في أوسع المجلات العلمية انتشارا؛ ليجمع بين فضيلتي العلم والأدب بجدارة، وترك خلفه عددا من الكتب والأطروحات المتميزة حتى لقي الله تعالى في مدينة الرياض يوم الخميس : ٣٠/ ٤/ ١٤٣٦هـ، رحمه الله.

لقد تركت دلال السعدون في نفس ابنها راشد سماتٍ أخرى غيرَ حب العلم والأدب، الذي تأثر فيه بأسرته، وهو ما يميز الأم، فقد عُرفت بكرمها، وتواضعها، واستقطابها لمحبة الناس لها، بما كانت تقدمه للآخرين من مساعدة ومساندة، تلتفت فتجد هذه السمات نفسها لدى ولدها، الذي كان بيته ملاذا للمحتاجين، وطالبي الشفاعة، مفتوحا للأصدقاء والكبراء والأمراء، يتدفق فيه الكرم الغامر، والجود والسخاء، وتزينه مواقف النفع العام للناس، والسعي في تيسير أمورهم، تعلم منها أن الحب فوق الكراهية، فألَّف في فلسفة الكراهية، وكره التعصب للرأي الخاص، وكرَّس ثقافة احترام الرأي الآخر، وكان يسعد بخدمة الناس، ومعالجة مشكلاتهم[(١)].

(١) مهاتفة صوتية مع د.سعدون السعدون عضو مجلس الشورى يوم السبت ١٤٣٦/٦/٢هـ، ومقالة في جريدة اليوم، بعنوان: ذاكرة وطنية، أ.معاذ المبارك، الخميس٣٠ ربيع الثاني١٤٣٦هـ الموافق: ١٩ فبراير ٢٠١٥م، العدد: ١٥٢٢٤، ومعرفة شخصية بنيت على زيارات ولقاءات.

٢٩

نجيب الزامل وأمه .. قصة حب

قال ابن بطال رحمه الله: «رحمة الولد الصغير ومعانقته وتقبيله والرفق به من الأعمال التى يرضاها الله ويجازى عليها، ألا ترى قوله عليه السلام للأقرع بن حابس حين ذكر عند النبى أن له عشرة من الولد ما قبل منهم أحدًا: «من لا يرحم لا يرحم»[(١)]، فدل على أن تقبيل الولد الصغير وحمله والتحفي به ممايستحق به رحمة الله، ألا ترى حمل النبي عليه السلام أُمَامَة ابنة أبي العاص على عنقه فى الصلاة، والصلاة أفضل الأعمال عند الله، وقد أمر عليه السلام بلزوم الخشوع فيها والإقبال عليها، ولم يكن حمله لها مما يضاد الخشوع المأمور به فيها، وكره أن يشق عليها لو تركها ولم يحملها فى الصلاة وفي فعله عليه السلام ذلك أعظم الأسوة لنا، فينبغى الاقتداء به فى رحمته صغار الولد وكبارهم والرفق بهم»[(٢)].

ولنأخذ تلك الوصايا من العالم الفقيه ابن بطال القرطبي المالكي، المتوفى سنة ٤٤٩هـ، إلى زماننا هذا حيث الأستاذ الكاتب المعروف **نجيب الزامل**، الذي كان له موقف مع أمه: (**نورة بنت صالح السحيمي**)، ظل يشكرها عليه حين كبر، موقف أخفقت فيه كثير

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٧) ح (٥٩٩٧).

(١) شرح صحيح البخارى لابن بطال أبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، ت: ٤٤٩هـ، تحقيق: أبي تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد، الرياض الطبعة :٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، ص: ٩/ ٢١٢.

من الأمهات حين تعرضن له، فقد قال باختزال شديد: «أشكر أمي ـ يحفظها الله. لما كدتُ أتخلف في الرياضيات في المرحلة المتوسطة، عَكَفَت على كتابي وحفظته؛ لتدرِّسني، ونجحت، ثم تولعتُ بهذا العلم».

موقف واحد أنقذَ الله به مستقبل رجل سجل من النجاحات ما جعل كلماتِه كالقناديل المضيئة، يتداولها الشباب والفتيات فيما بينهم، بل أصبح من أكبر قراءِ العصر، ومن أجود كتَّاب المملكة العربية السعودية نبلا في المعنى، وشرفا في المغزى، وجمالا في المبنى. إن حديثه عن تجربة أمه؛ حين أهَّلت نفسَها لتكون معلمة في هذه المادة التي لم تكن محبوبة لديه، وليست مختصة فيها، ثم مباشرتها لتعليمه بكل حماسة ورغبة وإصرار، جعلته يتحول من حال الإعراض التام، إلى حال الإقبال الشديد، بل إلى حال التولع بها، ولم يكن ذلك الأمر سيحدث لولا تلك (الأمومة) الدافعة الواثقة المحبة.

بل ظلت علاقة الأم بالابن ممتدة حتى لما بلغ الابن مبلغ الشاب والكهولة ودلف إلى الشيخوخة، والعلاقة لا تزال شابة لم يدب إليها من الشيخوخة شعرة شيب، يقول في تغريدة له في ١٤/ ١٢/ ٢٠١٨، ١٠:٠٩ م: «أقرب ما إلي هي أمي؛ فهي صخرتي لما تكون حياتي أمواجًا عاتية، وهي مظلتي الثابتة، وملاذي المريح. وهي ليست فقط وقفت وضحت من أجلي بأوقات الحزن والفرح، بل كانت مشعلي لما فقدت الأملَ في ظلام الضعف. وإيمانها العميق بي هو الذي يدفعني للثبات، والمِضي بمتابعة الحياة.»

وأعرف أمًّا تعثر ابنُها في مادة اللغة الإنجليزية، وهو في المرحلة المتوسطة، فحدَّدت مكانا في المنزل، وقالت لابنها: لن نبرح هذا المكان

أنا وأنت إلا وقد أنهينا المقرر، ولم تكن متقنة للمقرر، بل لم تكن سوى خريجة المرحلة المتوسطة فقط، ولكن حبّها له، وحرصها عليه، جعلها تستنفر كلَّ طاقاتها ومعلوماتها المحدودة، وكل ذلك ممزوجا بذلك الحب الكبير الذي لا يمكن أن يشاركها فيه أحد؛ لتعبر بولدها ليس للنجاح في المادة، ولكن ليأخذ الدرجة الكاملة، بل ليرشح للقضاء حين كَبُرَ!!

فلا ضرب، ولا إهانات، ولا تقليل من قدره؛ كما تفعل الأم الجاهلة بأصول التربية وتعديل السلوك، بل دفع للأمام، وتحفيز، وصل بأمٍّ أخرى تقول لي: إن ابنها رسب في مادة الرياضيات، وهو ممن يتفوق عادة، ونجح أخوه الذي كان يصغره، وهو معه في المدرسة، فأعطت الناجح خمسين ريالا، وأعطت الراسب مئة ريال، فقال لها: كيف ذلك؟! فأجابته: إن أخاك نجح وانتهى الأمر، أما أنت فلديك فرصة أخرى للنجاح، وسوف تبذل جهدا جديدا؛ لتحققه بإذن الله تعالى، ولذلك تستحق أكثر، ثم اشترت سبورة وطباشير، وبدأت معه رحلة التعليم بالحب، وهي لم تحصل على شهادة قط، كل ما لديها فترة قصيرة في دروس محو الأمية، (برامج تعليم الكبار)، رفعت بها عنها (أمية الحرف)، وتقمصت دور المعلمة المربية، ودرسته، حتى تجاوز هذا المقرر، بل كبر وكبرت آمالها وآماله؛ حتى أصبح هو وأخوه حافظين لكتاب الله تعالى، وأستاذين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بدرجة الدكتوراه في علوم اللغة العربية، وقد ربتهما من يتم، ومشقة، وعناء، وهما ابنا خالتي **لطيفة بنت زيد الحليبي ابن زيد الدكتور عمر، والدكتور سعيد ابنا عثمان الملا**، الأسرة المعروفة بالعلم والفضل في الأحساء.

وما أجمل ما قال الشاعر الدكتور محمد بن عبد الرحمن المقرن:

فــداكِ روحــي إذا لم تـفَـْـدِ أشــعار
بــحرٌ هــواك وقلبــي فيــه بــحّار

فداكِ روحي وأحشائي وفيضُ دمـي
فــداك قلــبٌ بنبضِ الحــبِّ مــوّارُ

أمــاهُ.. أمــاهُ يــا لحـن الهوى بفمي
يــا عـذبةَ الـروحِ فيـكِ الشـعرُ يحتارُ

أيتها الأم العظيمة.. تتبعي معي كلمة (الأم) في القرآن الكريم، ستجدينها مشحونة بالشجن والدفء، محفوفة بالتضحيات والعطاء بلا مقابل، فالله تعالى يقول: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وهل يستطيع غير الله جل جلاله أن يصف لنا ما يحدث لقلب والدة الطفل المقذوف في بحر متلاطم، لا تدري إلى أين يقذف به، جاء بهذا الوصف الشجي: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١١]. وعندما أراد وصف سعادتها وفرحها بعودته قال الله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٤٠].

ولهذا كله، حفظ الله لك حقها العظيم، وجعلها مقدمة على مقام (الأب)، فعندما «جاء رجلٌ إلى رسولِ الله ﷺ فقال: مَن أَحَقُّ الناسِ بحُسنِ صحابتي؟ قال: «أمُّك»، قال: ثم مَن؟ قال «ثم أمُّكَ»، قال: ثم من؟ قال: «ثم أمُّكَ» قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك»»(١).

(١) رواه البخاري(٨/ ٢) ح (٥٩٧١) ومسلم (٤/ ١٩٧٤) ح (٢٥٤٨).

لأُمِّـكَ حَـقٌّ لَـوْ عَلِمْـتَ كَثِـيرُ
كَثِيرُكَ يَـا هَــذَا لَدَيْــهِ يَسِـيرُ

والعلاقة بين الأم والبنت بالذات تجمع بين أنثيين، فإذا كان الحزن خطيرا على فراق الأم أولادها، فإن الحزن خطير أيضا على فراق البنت أمها المتعلقة بها، المتشبثة بها تشبث الجسد بالروح، والشجرة بالنسغ الذي يجري بين أغصانها وخلايا أوراقها.

لقد ولدت أجاثا كريستي Agatha Christie في (Torquay، Devon) عام ١٨٩٠م، من أب أمريكي وأم إنجليزية، وعاشت في بلدة (ساوباولو) البرازيلية معظم طفولتها وهي «سعيدة جدا» كما تصفها هي، كانت تحس بأنها مستقلة منذ سن مبكرة، وتكاد حياتها تخلو من أعباء الدروس الخصوصية، بل قيل إنها لم تذهب قط إلى المدرسة، بل تلقت تعليمها في البيت على يد أمها التي دفعتها للكتابة وشجعتها عليها في وقت مبكر من حياتها كما تخبرنا هي عن نفسها، تقول: «فكان لي متسع من الوقت لكي أتجول في حديقة الأزهار الواسعة، وأسيح مع الأسماك ما شاء لي الهوى..!!

ثم تأتي اللحظة التي غيرت وجه تاريخها، فتقول عنها: «وإلى والدتي يرجع الفضل في اتجاهي إلى التأليف، فقد كانت سيدة ذات شخصية ساحرة، ذات تأثير قوي وكانت تعتقد اعتقادًا راسخًا أن أطفالها قادرون على فعلِ كلِ شيء، وذات يوم وقد أُصبتُ ببرد شديد ألزمني الفراش، قالت لي: «خير لكِ أن تقطعي الوقت بكتابة قصة قصيرة وأنت في فراشك.«فقلت لها: ولكني لا أعرف..!! فأجابت: لا تقولي لا أعرف».

وهنا فقط تتحول القدرات الكامنة إلى طاقات فاعلة، إيمان الأم بأن في مقدور الأولاد أن يفعلوا كل شيء يفعله غيرهم، يجعل منها محفزا لا

يتوقف، ووقودا لا ينفد، ويجعل الفرص كلها متاحة أمام براعمها أن تتفتح فتصبح حدائق من الشجر الظليل.

(لا تقولي لا أعرف) كلمتان وحرفان، يمكن أن تغير مسارات الغافين على مطارف الترف الكسول، إلى صف المواجهة مع النفس المتباطئة، والحياة الوادعة؛ لبلوغ المجد الذي لا ينتظر سوى الـمُقدمين.

تقول كريستي: «وحاولت ووجدت متعة في المحاولة، فقضيت السنوات القليلة التالية أكتب قصصًا قابضة للصدر.!! يموت معظم أبطالها.!! كما كتبت مقطوعات من الشعر، ورواية طويلة احتشد فيها عدد هائل من الشخصيات بحيث كانوا يختلطون ويختفون لشدة الزحام، ثمَّ خطر لي أن أكتب رواية بوليسية، ففعلت واشتد بي الفرح حينما قُبلت الرواية ونشرت، وكنت حين كتبتها متطوعة في مستشفى... إبان الحرب العالمية الأولى».

لم تكن الرواية الأولى سوى خطوة نحو الانطلاقة، فقد كتبت أجاثا أول رواية لها بعنوان ثلوج على الصحراء ولم يقبلها كل الناشرين، ثم ألفت رواية أخرى وهي: (القضية الغامضة في ستايلز) التي أدخلتها عالم الكتابة الرحيب، وذلك عندما نشرت أخيرا بعدما رفضها ستة من الناشرين، بعدها أصبحت أجاثا كريستي أكثر روائية في العالم طبع نتاجها، حتى تجاوزت ملياري نسخة.

عاشت (أجاثا) طفولة سعدية؛ إذ كانت صغرى ثلاثة أولاد لأب مرح محب للحياة وأم ذكية طموح، وظلت حتى آخر حياتها تذكر بيتها الذي ولدت ونشأت فيه بكثير من الشوق والحنين.

ومع كل هذا المجد لم تنس أمها، التي ارتبطت بها ارتباطا نفسيا شديدًا حتى إنها في عام ١٩٢٦م اختفت أجاثا كريستي لمدة عشرة أيام، وكان أن اشترك الشعب البريطاني في البحث عنها..!! سواء مباشرة أو بمتابعة أخبارها، ولم يعرف أحد سبب ذلك الاختفاء المتعمد، حتى تبين بأنه خوفها من فقدان والدتها أو تأثرها بفقدانها.

وهو ما تتبعه المختصون بأن المبدعين يخافون كثيرا على والديهم من الموت؛ ربما لأنه يبتُّ صلتهم بمن يساندونهم أو بمن صنعوهم.. ربما.. لكنها صُدمت بموت أمها التي نقلتها بكلمتين وحرفين من الاستسلام للكسل المَرَضِي، إلى المجد المؤثل.

٣٠

فتاة تشكو من أمها!!

تعرضت ـ كثيرا ـ لحالات تردني في مقرِّ الإرشاد الأسري، تؤذي إنسانيتي، تُربكني، تجعلني أتألم كثيرًا.. كثيرًا.. كيف لا؟! والشكوى من بنتٍ نبتت في أحشاء من تشكو منها؟! نعم.. حتى بِتُّ أتساءل: هل تحولت هذه الحالات إلى ظاهرة؟ أرجو أن يكون الجواب: لا.

ولكون الحالة التي بين يديَّ قد حظيت بقلم متميز في التعبير والصدق، فسأدع هذه الفتاة تحكي بنفسها حكايتها مع أمها، تقول:

«في هذه المرة سيكون حديث قلمي مختلفًا جدًا.. يحكي واقعًا أعيشه، يحكي فراقا للنصف الآخر من الجسد.. للنصف الآخر من القمر.. أحببت أن يشاركني قلمي البوح والألم كما عودني على ذلك، فقلمي هو خير صديق لي.. يشاطرني الألم.. يقاسمني الفرح في قليل من الأحيان، فأفراحي نادرة جدًا لا يكاد قلمي يتذكرها..

ألمي ألم يختلف عن كل ألم.. إنه ألم أعشقه.. وكيف للألم أن يعشق؟؟!!

نعم..قد يقول القارئ إني متخلفة التفكير.. مطلقًا.. فأنا بكامل قواي العقلية.. ولكن الأيام علمتنا العجب.. وستصدقونني عندما تعرفون ما هو أو بالأحرى من هي ألمي؟؟

إنها وبكل أسى ومع كل زفرة حسرة.. (أمي)!! نعم.. هي أمي..

(أمي).. كلمة تترنم بها كل فتاة إلا أنا..

كلمة تتعلق بها كل بنت إلا أنا..

كلمة تحبها كل فتاة إلا أنا..

ومن المؤلم أن تعيش هذا الشعور فتاة في عمر العشرين.. في عمر الفرح والزهور..

(أمي) بالنسبة لي مصدر خوف ورعب وألم وحرمان وقسوة ودمعة..

أسأل الله ألا أكون عققتها بكلماتي هذه، فأنا ـ والله ـ لم أقصد العقوق بل هو بوح بواقع أعيشه، فإن لم ينطق به لساني، أو لم يدوِّنْه قلمي فهو ألم يملأ قلبي..

نعم.. أمي شيء لا أعرفه.. إحساس لم أتذوقه.. حضن لم أشعر بدفئه..

فأنا لا أعرف وجه أمي بقدر ما أعرف ظهرها.. لا أعرف إقبالها بقدر ما أعرف إدبارها.. نعم.. نسيت الإحساس بدفء يدها.. نسيت مذاق طعم حضنها..

كل شيء أحبه وأحظى به اليوم أعرف وأتأكد أني غدا سأحرم منه، ومن الذي يحرمني؟؟ إنها أمي..

أعاني كثيرا في المناسبات، فأنا لا أريدها أن تراني أضع المكياج.. لا أريدها أن تراني أصفف شعري؛ لأنها بذلك تغضب كثيرا.. لا أدري لماذا؟؟ فكل الأمهات هن اللواتي يفعلن ذلك لبناتهن ويساعدنهن في اختيار ما يلبسن..

أتمنى أشياء وأشياء ولكن بوجود أمي كل شيء مستحيل وصعب المنال.. أصبحت أعشق الصمت؛ لأنها لم تدع لي أحدا أصله وأتحدث

إليه.. أصبحت أعشق الصمت لأني لا أجد من أبوح إليه.. يستحيل أن أبوح لأمي بشيء حتى وإن انجرفتُ في المهالك..

أنا يتيمة ولكن يُتْمٌ من نوع آخر.. إنه يتم على يتم..

نعم أنا يتيمة وأمي على قيد الحياة.. وما أشده من يتم عندما تموت أمك وهي على قيد الحياة..

أصبحت أرسم أمي في الخيال وأحتضنها.. أصبحت أرسم أمي في السماء وأتحدث إليها.. أصبحت أرسم أمي على الماء فتختفي.. أصبحت أرسمها في الخيال وأبثها شكواي..

أنا وهي كالليل والنهار لا يجتمعان.. كالماء والنار لا يقترنان.. وإن اجتمعنا يستحيل أن نتفق.. فعْلا، والله، لم أتذوق القسوة والألم إلا من ذلك الشخص الذي هو للآخرين مصدر حنان وعطف..

أهاب صوتها.. أهاب وجودها.. أهاب حتى ظلها.. لا أشعر بالحرية والارتياح إلا في حال مفارقتها المنزل.. فهي بحق أغلقت علي كل الأبواب، وضيقت علي الخناق، فأصبحت كالذي يتنفس من خرم إبرة كما يقال... إلخ»[1].

إذا لم تنصت الأم لابنتها فمن ينصت، وإذا شعرت البنت أن أمها سر رعبها، فمن يحنُّ عليها؟ أعرف أن بعض الفتيات المراهقات قد يحدثُ منهن ما لا يحسن، وما قد يثير أعصاب الأمهات الفاضلات، ولكن إذا لم تحتويها أمٌّ ماهرة مربية حليمة، فمن سيحتويها.

(١) رسالة خاصة على الهاتف، سمحت الفتاة بنشرها.

إن كلمة الفتاة: «يستحيل أن أبوح لأمي بشيء حتى وإن انجرفتُ في المهالك..!!» تكفي لتدقَّ جرس الإنذار، فلا الفتاة معذورة حين تنحرف وإن كان بسبب إهمال الأم، ولا الأم معذورة بإهمالها، وتتحمل جزءا من مسؤولية انحراف ابنتها.

ولأني قد أكون جرحت بعض الأمهات بهذه الرسالة الغاضبة العاتبة، فسأهديهن هذه الباقة الفواحة عن الأمومة الحقة التي تنتظرها كل ابنة رقيقة من أمها، لكاتبها بدر الحسين، يقول:

«كم تساءلت عن ماهيَّة أحاسيس الأم، وعن سِرِّ جوهر قلبها الرَّفيع، وعن دفء شمسها التي لا تغيب، وروعة أَيْكِها الزَّاهي الذي لا يذبل، وصِدق مشاعرها التي لا تفتُر ولا تَمَل؛ إذ تُفيضُ الحُبَّ من جنباتها ومن باطنها كعين ماءٍ ثَجَّاجة، وكمشكاةِ نورٍ وهَّاجة.

ولكنني لم أحصل على مُبتغاي، لأنَّ المادَّة التي أبحث عنها تَجِلُّ عن الوصف، وتسمو عن الرؤية، فَهيَ بِنظري عُصارة المبادئ والقيم والمثل مجتمعة، وخلاصة رحيق الزُّهور، ورِقَّةُ تغريد العصافير وشدو البلابل.

أراها في البخور الذي يحترق لِيَنشر الطيب، وفي الشمعة التي تذوب لِتبدد الظلام، وفي الجسد الذي يتألَّم لِيَهَبَ السَّعادة للآخرين وفي السَّحابة التي تُمزِّق نفسها وتُبدِّدُ عِهنَها لتروي الأقاحي العطشى. إنها البدر المكتمل الذي تفتَلِذُ الليالي والأيام من كبده القطعة تلو القطعة حتى إذا ما تلاشى عادَ لِيَنسُجَ خيوطَ نوره من جديد لِينير دروب المسافرين في أحضان الدفء والمدلجين في رحاب الفضيلة.

إنَّ الأمومةَ عطاءٌ مع العناء، وسخاءٌ مع الابتلاء، وتضحية مع الرجاء.

الأمومة فيها بَصمة من النُّبوة تتجسَّد في الرِّضا الداخلي عن الولد العاق، وفيها أثرٌ عظيم من آثار رحمة الخالق عزَّ وجل في حُنُوِّها على وليدها، تلكم الصورة النبيلة التي تمثِّل أنقى صُور التَّضحية وأعلى مراتب الحب. وإذا ما اكْتَنَهْتَ باطنَ الأمومة التي يَلِجُّ بها الشوق إلى الحنان والبنوة لوجدت أن ثغرها يَفترُّ عن الأنوار افترار الرحيق عن الزَّهر الذي كأنما يَنْفَحُ من الجنَّة، وافترار النَّدى عن نسيم الصَّبا الذي يُفعِمُ كل ماحوله عِطرًا، ولوجدت أنَّها سَيلٌ عاشقٌ يعتلي صهوة الأرض فيَقَبِّلَ التراب وأكمام الزَّهر وخدود الثَّمر وأغصان الأشجار.

الأمومة ألوانٌ جميلة متعددة تفوق عدد تلك التي في الرياض والخمائل؛ فهي كالشاعر الذي يَتَنقَّل بين أفنان اللغة تنقَّل العصفور مابين الورود فَيَقطِفُ من هنا زهرة ومن هناك يتأمَّل صورة ويستوحي فكرة. فللأمومة في كل يوم طعم جديد، ولون جذاب مختلف؛ فَهي ماءُ نهرٍ جارٍ، ونبعُ ماء لا يُكرر ولا يسترجع القطرات التي يَهَبُها للأرض العطشى.

الأمومة أصلٌ والأبوة صورة عنها لأن الأمومة مهامسةٌ للمحبوب وملامسَةٌ له؛ إذ تَختَلطُ الأم وتمتزج مع جنينها مخالطة الشذا للورد، فَتدخل في نِقْي عظامه[1] وفي بؤبؤ عينيه وتسكن شغافَ قلبه، وتحوكُ أنسجةَ جلده وكريات دمه بقدرة الله ومشيئته. هذا في العالم الجُوَّاني، أما إذا ما انفصلت العروة، وانسَلَّ السنا من حضن الشمس، والضياء من وجه القمر، وتفتَّق الزهر عن الغصن، وانبجس الماء من الرابية، وتفجَّر الينبوع من الخميلة، فَإنَّ ربيع الحُبِّ سَيُنشِدُ أنشودة العشق

(١) نِقي العظم: مُخُّه.

ويملأ أديمَ البشارة بأنواع الزهر أبيضه وأصفره وأحمره. فالأبوَّة أشبه بمن يقرأ مقالةً عن الرَّبيع بينما الأمومة هي الربيع ذاته، والأبوة أشبه بمن يقرأ قصيدة عاشقٍ مُدنَف ولهان، ولكن الأمومة هي نقاط القصيدة وحروفها ورويها وقافيتها وهي أيضًا بحرها وشاطئها.

الأمومةُ عِقدُ الفرح والأمن الذي ينتظم قلوب الأبناء والمدرسة الأولى التي ينهلون من معينها معاني العطاء والحب والمودة والتضحية والإيثار فهي معلم لا يَكلُّ ولا يمَلُّ؛ ففي النَّهار تُروي الظمأى، وترضع الجوعى، وتُصلح بين المتخاصمين، وتجبرُ خاطر المَحزونين، ولا يشغلها ذلك عن طاعة ربِّها وتسبيحه، ولا تنسى مع ذلك أن تهذِب الزهور والنباتات البيتية. وإذا ما جنَّ الليل وحَطَّ الكرى على الأهداب البريئة بدأ درسٌ جديد يتمثل بتعديل الرؤوس التي غادرت الوسائد، وتغطيةِ الجسوم التي هربت من ثقل الأغطية، وإرواء ظمأ الأكباد العطشى التي غلبها النوم عن شرب الماء"[1].

هكذا يريدك -أيتها الأم- ولدك، وتريدك ابنتك، وقد كانت لك أمُّك كذلك..

(١) الأمومة، مقالة، بدر الحسين، موقع الألوكة.

٣١

اليتيم الذي غدا كالشمس للدنيا والعافية للأبدان

تجولنا فيما سبق في أروقة التاريخ القديم والحديث بل والمعاصر، ورأينا ما ملأ الأبصار والأسماع من تلك الصور الجميلة الرائعة، التي صنعت ريادة الولد، من خلال الأم العظيمة[1]:

هــــي الإنســـــان في أبهــــى
معـــاني الطهـــــر والقـــدسِ

وإذا تَرَكتْ هذه الجولةُ المكُّوكيةُ من تركت من الأعلام الذين صنعتهم أمهاتهم، فلن تترك إماما عظيما، لا يزال ملايين المسلمين يتبعون مذهبه الفقهي عبر القرون وإلى ما شاء الله. أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي الهاشمي. وكان أبوه قد هاجر من مكة إلى غزة بفلسطين بحثا عن الرزق لكنه مات بعد ولادة محمد بمدة قصيرة فنشأ محمد يتيما فقيرا.

عادت أم الشافعي، واسمها فاطمة بنت عبد الله الأزدية اليمنية، عادت به إلى مكة، ودفعت به إلى حلق القرآن الكريم؛ فحفظه وهو ابن سبع سنين، وعُرف الشافعي بشجو صوته في القراءة، قال ابن نصر: كنا إذا أردنا أن

(١) البيت منسوب لأبي حمزة؟ في كتاب: الأم في عيون الأدباء، عماد آل عبدالله، ١٤٣٦ هـ، ص: ٢٠.

نبكي قال بعضنا لبعض: قوموا إلى هذا الفتى المطلبي يقرأ القران، فإذا أتيناه (يصلي في الحرم) استفتح القرآن حتى يتساقط الناس ويكثر عجيجهم بالبكاء من حسن صوته فإذا رأى ذلك أمسك عن القراءة.

ولم تكتف هذه الأم العظيمة بذلك، بل تناست وجع البعد، وآلام الفراق، وأرسلت ابنها إلى الصحراء.. حيث قبيلةُ هذيل العربية ليتعلم اللغة والفصاحة من مصادرها. وكانت هذيل أفصح العرب، وهي لفتة عجيبة من هذه الأم النادرة، وكأنَّها وضعت خطة تربوية محكمة، بدأت بالقرآن الكريم، وثنَّت بأخذ اللغة التي هي أساس العلوم، وأداة المعرفة، ووعاء العلم، فتركت هذه الملازمة أثرا عجيبا في فصاحته وبلاغة ما يكتب، بل أصبح من أفصح فصحاء عصره بعد أن شبَّ وكبر، حتى إن الأصمعي وهو من أئمة اللغة المعدودين يقول: «صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس»، بل أصبح شاعرا، يتداول الناس شعره، ثم دفعت به إلى حلق العلم؛ إلى أن بلغ من اجتهاده في طلب العلم أن أجازه شيخه مسلم بن خالد الزنجي بالفتيا وهو لا يزال صغيرًا. وكان قد حفظ الموطأ وهو ابن عشر سنين، ثم أخذ يطلب العلم في مكة حتى أُذن له بالفتيا وهو ابن دون عشرين سنة.

ولما انتشر اسم إمام المدينة مالك بن أنس في الآفاق، وتناقلته الركبان، وبلغ مبلغًا عظيمًا في العلم والحديث، سمت همة الشافعي إلى الهجرة إلى المدينة المنورة في طلب العلم، ومما روي عن الشافعي في هذا المقام أنه قال: «فارقت مكة وأنا ابن أربع عشرة سنة، لا نبات بعارضي من الأبطح إلى ذي طوى، فرأيت ركبًا فحملني شيخ منهم إلى المدينة، فختمت من مكة إلى المدينة ست عشرة ختمة، ودخلت المدينة يوم الثامن بعد صلاة العصر، فصليت العصر في مسجد رسول الله ﷺ، [وزرت قبره]، فرأيت

مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ متزرًا ببردة متشحا بأخرى، يقول: «حدثني نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر»، يضرب بيده قبر رسول الله ﷺ، فلما رأيت ذلك هبتُه الهيبة العظيمة».

وذهب الشافعي إلى الإمام مالك، فلما رآه الإمامُ مالكٌ قال له: «يا محمدٌ اتق الله، واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن، إن الله قد ألقى على قلبك نورًا، فلا تطفئه بالمعصية».

ثم قال له: «إذا ما جاء الغد تجيء ويجيء ما يقرأ لك». يقول الشافعي: «فغدوت عليه وابتدأت أن أقرأ ظاهرًا، والكتاب في يدي، فكلما تهيبت مالكًا وأردت أن أقطع، أعجبه حسن قراءتي وإعرابي، فيقول: «يا فتى زد»، حتى قرأته عليه في أيام يسيرة».

وكان -خلال تتلمذه على يد الإمام مالك في المدينة- يذهب إلى مكة يزور أمه ويستنصح بنصائحها.

لقد استطاعت أمه أن توصله إلى حلقة الإمام مالك بالشفاعات لأنه صغير؛ ولازمه ست عشرة سنة حتى توفي الإمام مالك سنة (١٧٩ هجرية)، ثم تتلمذ على كبار علماء عصره.

لقد ألهمه الله حفظ الحديث إلهاما، مذ بلغ العاشرة من عمره، وكان يصحح لمشايخه أخطاءهم وهو في الحادية عشرة، بل إنه حفظ كتب العلماء وهو ابن ست عشرة، وجاور بمكة بعد أن حج مع والدته، وبدأ التصنيف وهو ابن ثماني عشرة.

وكان «يختلف إلى مشايخ البصرة وهو غلام، فلا يكتب، فقال له بعض أقرانه: إنك تختلف معنا ولا تكتب، فما تصنع؟ فقال لهما بعد ستة

عشر يوما: إنكما قد أكثرتما علي وألححتما، فاعرضا علي ما كتبتما. فأخرجا إليه ما كان عندهما، فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر قلب، حتى جعلا يُحكِمان كتبهما من حفظه، ثم قال لهما: أترون أني أختلف هدرًا، وأضيع أيامي؟ قالا: فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد»[1].

يقول الإمام الشافعي رحمه الله: «لا يطلب أحدٌ هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذُلِّ النفس، وضيقِ العيش، وخدمة العلماء أفلح».

لقد وصف ما حدث له رحمه الله فقد نشأ الشافعي من أسرة فقيرة، وانتقلت أمُّه به من فلسطين إلى مكة -بعد وفاة والده- خشية أن يضيعَ نسبه الشريف، وكان عمرُه سنتين؛ وذلك ليقيمَ بين ذويه، ويتثقفَ بثقافتهم، ويعيشَ بينهم، ويكونَ منهم.

وروي عنه أيضًا أنه قال: «كنت يتيمًا في حجر أمي، ولم يكن معها ما تعطي المعلم، وكان المعلم قد رضي من أمي أن أَخْلفَه إذا قام، فلما ختمت القرآن دخلت المسجد، وكنت أجالس العلماء، فأحفظ الحديث أو المسألة، وكان منزلنا بمكة في شِعب الخَيْف، فكنت أنظر إلى العظم فأكتب فيه الحديث أو المسألة، وكانت لنا جرة عظيمة، إذا امتلأ العظم طرحته في الجرة»[2].

صوت حسن يخلع القلوب، وموهبة شعرية لم تدع عربيا إلا أجبرته على حفظ شيء من نتاجها، وقدرة نادرة في الحفظ والاستيعاب، وابتكارية

(١) ورويت هذه الحادثة عن الإمام البخاري رحمه الله في تذكرة الحفاظ: ٢ / ٥٥٦.
(٢) طبقات الشافعية، لعماد الدين إسماعيل بن عمر ابن كثير، ت: ٧٧٦ ، تحقيق عبدالحفيظ منصور، دار المداد الإسلامي، بنغازي، ليبيا، ٢٠٠٤ م، ص: ٢٠.

تشهد بها كتبُ أصول الفقه الذي يعد من مبتدعيه، وقدرة على التحليل والاستنباط جعلته أحد الأئمة الأربعة في الفقه، وقدرة لغوية جعلته مرجعا للغة في فترة داخلت العربية اللغات الأخرى، وهكذا يقدم لنا الإمام الشافعي أنموذجا للموهوب؛ حيث لاحظت الدراسات الحديثة في المبدعين، أن كل واحد منهم يجمع مجموعة من المواهب المتميزة، ويكون له فيها إنتاج، ويعرف بها، ويسعى لينميها ويبرزها.

وكما فعلت أم الشافعي -رحمهما الله تعالى- فعلت أم **الشيخ مبارك بن علي التميمي** المولود عام ١١٥٦هـ؛ الذي تنتسب له جميع أسرة آل الشيخ مبارك المعروفة في الأحساء بالعلم والأدب على مدى أكثر من قرنين، حيث تيتم الشيخ مبارك وعمره اثنتا عشرة سنة، فاحتضنته أمه (**فاطمة بنت زيد الدوسري**) نفسًا وعلمًا؛ حيث اكتشفت قدرته على الاستيعاب، وأنه ـ كما يقول علماؤنا ـ ماعون علم، فأخذته إلى شيخ من شيوخ الشريعة واللغة في المبرز[1] حيث كان يعيش مع أمه، وهو العالم الجليل والفقيه المالكي محمد بن كثير، فلازمه وأخذ عنه علوم الشريعة واللغة، وأمضى في حلق العلم أكثر من اثنتي عشرة سنة، فصنعت منه عالما كبيرا، بني وأسس مجدا علميا وأدبيا مرموقا من خلال أسرته، امتد إلى الآن وإلى ما شاء الله بعشرات العلماء والشعراء والمبدعين في تخصصات متعددة[2]، إنها أجور لا حد لها إذا صحت النية والعمل.

فانظري -أيتها الأم العظيمة- كيف تكون بركة التربية العظيمة، حتى تتيقني أنها تستحق كل هذا الجهد والتعب الذي تبذلينه.

---

(١) مدينة من مدن الأحساء في المملكة العربية السعودية.

(٢) مقابلة شخصية مع الشيخ أحمد بن علي آل الشيخ مبارك في الأحساء.

٣٢

أخذته لأبرك محضن .. فماذا حدث؟

بطلنا هذا يختلف عن كل أبطالنا السابقين، بأن الذي رباه هو إمام الأولين والآخرين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، وحظي بأن كان مرافقا وخادما وتلميذا لمعلم الناس أجمعين، وقد نال هذا الشرف العظيم بسبب أمه العظيمة: **أم سليم بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب الأنصارية، قيل: اسمها سهلة، وقيل رُميثة، وتلقب بالغميصاء أو الرميصاء.**

روى مسلم في صحيحه بسنده عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: «جاءت بي أمي، أم أنسٍ إلى رسولِ الله ﷺ. وقد أزرتني بنصفِ خِمارها وردَّتْني بنصفِه. فقالت: يا رسولَ اللهَ! هذا أنيسٌ، ابني. أتيتُكَ بِهِ يخدُمَكَ. فادعُ اللهَ لهُ. فقال: «اللهم أكثِرْ مالَه وولدَه». قال أنسٌ: فوالله، إنَّ مالي لكثيرٌ. وإنَّ ولدي وولدَ ولدي ليتعادُّونَ على نحوِ المائةِ، اليومَ»[1].

لم تبدأ قصة أم سليم مع ابنها أنس من هنا، بل بدأت حين اختارت الإسلام، فاعترض عليها زوجها، وقال: أصبوتِ؟ فقالت: ما صبوت، ولكني آمنت، وجَعَلَتْ تلقن أنسا، قل: لا إله إلا الله، قل: أشهد أن محمدا رسول الله، ففعل، فيقول لها أبوه: لا تفسدي علي ابني، فتقول:

---

(١) رواه مسلم (٤/ ١٩٢٩) ح (٢٤٨١).

إني لا أفسده»[1]. نعم صَدقتْ وربي بل تغرس في نفسه بذور الصلاح والاستقامة وعز الدنيا والآخرة.

أمٌّ عظيمة، أول ما أخذت معها إلى النور أحب الناس إلى قلبها، ابنها، ثم علمت كيف تُدني ثمرة قلبها من المنبع الذي يسقي كل القلوب، ويحيي به الله كل النفوس؛ فماذا تتوقع أن يكون؟! إنها ترسم لأمهات المسلمين سبيلا واضحة في التربية، فليس كل التربية في المنزل، بل هناك مصادر أخرى، قد تكون أفضل وأهم في بعض الحالات، وفي مثل حال أنس مع المصطفى ﷺ فلا مراء بأن لحظة يقضيها أنس معه -بأبي هو وأمي- تعدل حياته مع أمه ومع غيرها.

وقد يحدث أن تجد الأم نفسها أمام فرصة نادرة؛ بتقريب ابنها من عالم رباني، أو إمام متقن في علم من العلوم؛ فعليها ألا تتأخر لحظة واحدة، وإن ضحت ببعده عنها، فهي تصنعه لمستقبل ممتد من الدنيا إلى الآخرة، وإذا لم تجد الفرصة سانحة، فعليها أن تصنع هي الفرصة كما فعلت أم أنس فهي التي بادرت، وجاءت بحبيبها إلى الحبيب الأعظم ﷺ فما عذر الأم التي تمنع ابنها من حِلق القرآن الكريم، أو من السفر لنيل علم من العلوم، أو الدراسة خارج قريته أو مدينته إلى مدينة أخرى، وإن كانت بعيدة!!

وليس النبت ينبت في جنانٍ
كمثل النبت ينبت في الفلاة

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢/ ٣٠٥.

ثم كان الإحسان من هذه الأم لهذا الولد مضاعفا، حين طلبت من النبي الكريم ﷺ أن يدعو له، فكان الدعاء، وكانت الإجابة، وهو إحسان من الأم لابنها، يعدل كل ما قدمته له طوال عمرها، بل يزيد، بل يزيد.

بل روى البخاري رحمه الله أن أنسا قال: «دخَل النبيُّ ﷺ على أمِّ سُلَيم، فأتَتْه بتمرٍ وسمنٍ، قال: أعيدوا سمنكم في سقائِه، وتمرَكم في وعائِه، فإني صائمٌ. ثم قام إلى ناحيةٍ من البيتِ فصلَّى غيرَ المكتوبةِ، فدعا لأمِّ سُلَيمٍ وأهلِ بيتِها، فقالتْ أمُّ سُلَيم: يا رسولَ الله إنَّ لي خُوَيصَةً، قال: ما هي. قالتْ: خادمُك أنسٌ، فما ترَك خيرَ آخرةٍ ولا دنيا إلا دعا لي به، قال: اللهم ارزُقْه مالًا، وولدًا، وبارِكْ له. فإني لمِن أكثرِ الأنصارِ مالًا. وحدثتْني ابنتي أمينةُ: أنه دُفِن لصُلبي مَقدَمَ حجّاجٍ البصرةَ بضعٌ وعشرون ومائةٌ»(١).

البحث هنا عن فرص الاستزادة لتوفيق الابن خاصة، هو دليل وجود (الهم) في التربية، والانشغال بالمستقبل، وترتيب سُلَّم الأوليات في حياتها، فليس هناك أعظم في دنيا الأمومة من ابنها، ولذلك كانت هذه الخويصة في طلب الدعاء النبوي الكريم.

ولم تنته مهمة أم أنس رضي الله عنها عند حدِّ البدء في المشروع التربوي العظيم؛ بتسليم التلميذ للمربي، بل استمرّ حثها على التفاني في القرب منه وخدمته، فقد روى الإمام البخاري رحمه الله بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، «أنه كان ابنَ عشرِ سنين، مَقْدَمَ رسولِ الله ﷺ المدينةَ، فكان أمهاتي

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٤١) ح (١٩٨٢).

يُواظِبْنَنِي على خدمةِ النبيِّ ﷺ، فخدَمْتُه عشْرَ سنين، وتُوفِّيَ النبيُّ ﷺوأنا ابنُ عشرين سنةً»[1]. وفي رواية الإمام مسلم رحمه الله: «وكنَّ أمهاتي يَحْثُثْنَني على خدمتِه»[2].

وكانت النتيجة أن أصبحت حياة أنس ملونة بصبغة الله تعالى ورسوله ﷺ ومن أحسن من الله ورسوله صبغة!! حتى قال ثابت البناني رحمه الله: قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أحدا أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من ابن أم سليم -يعني أنسا»[3].

وهو ما فعله صاحب رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق، حين زوج ابنته عائشة رضي الله عنها وأرضاها منه وهو طفلة، وكان دور الأم في اللحظة التاريخية في حياة ابنتها، فقد روت عائشة رضي الله عنها موقف أمها: **أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية، قيل اسمها (زينب) وقيل (دعد)**، قالت: «تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة، فنزلنا في بني الحارث بن خزرج، فوعكت فتمزق شعري فَوفَى جُمَيمَةً، فأتتني أمي أم رومان، وإني لفي أرجوحة، ومعي صواحب لي، فصرخت بي فأتيتها، لا أدري ما تريد بي فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار، وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي، ثم أخذت شيئا من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت،

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٢٣) ح (٥١٦٦).

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٦٠٣) ح (٢٠٢٩).

(٣) رواه ابن جعد في مسنده (١/ ٢٠٨) ح (١٣٦٦)، والطبراني في المعجم الأوسط (٧/ ٣٦٧) ح (٧٧٤٥).

فقُلْن: على الخير والبركة، وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى، فأسلمتني إليه، وأنا يومَئذ بنت تسع سنين»[١].

التهدئة من روع الفتاة، ومسح وجهها ورأسها، بل والأخذ بيدها في لحظات تحتاج فيها إلى القرب النفسي، وسكب الطُّمأنينة في روحها، هو من المهمات التي تنتظرها البنات وحتى الأبناء من أمهاتهم خصوصا.

فيا صدر الفتاة رحبت صـدرا
فأنت مقـرُّ أسـنى العاطفـات

إذا استند الوليد عليـك لاحت
تصـاويرُ الحنـانِ مُصَـوَّراتِ

لأخـلاق الصبي بك انعكـاسٌ
كما انعكـس الخيـالُ على المِـراةِ

والأخذ باليد مع الصغار واليافعين، هو ما كثر في فعل الرسول ﷺ مع أصحابه، وبخاصة الصغار والشباب، فقد صح «أنَّ رسولَ الله ﷺ أخذ بيدِه يومًا ثمَّ قال: يا معاذُ والله إنِّي لأحبُّك، فقال له معاذٌ: «بأبي أنت وأمِّي يا رسولَ الله، وأنا والله أحبُّك»، قال: «أوصيك يا معاذُ، لا تدَعنَّ في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ أن تقولَ: «اللَّهمَّ أعِنِّي على ذكرِك وشكرِك وحسنِ عبادتِك»[٢].

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٥٥) ح (٣٨٩٤).
(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٦/ ٤٣٠) ح (٢٢١١٩)،وأبو داود(٢/ ٨٦) ح (١٥٢٢)، والنسائي (٩/ ٤٧) ح (٩٨٥٧) وإسناده صحيح.

إن الأم الواعية لا يمكن أن تفرط في فرص بناء الأولاد، ولا في شيء يبنيهم مثل اقترابهم من مواطن العلم والتربية المثلى، والتأسي بالقدوات، ولا تزال المساجد والمحاضن التربوية الموثوقة تنتشر في بلادنا ولله الحمد والمنة، وعلينا أن ننتقي جيدا مَنْ يستحقون أن نسلم بين أيديهم قلوبنا النابضة، وأرواحنا الطرية، أولادنا، بكل مسؤولية واهتمام بالغ، فإن ما يغرسه المربي في نفس الصغير واليافع لا يمَّحي أبدا إلا أن يشاء الله تعالى.

ورحم الله الشاعر الرصافي حين قال:

ولم أرَ للخلائقِ من محلٍّ
يهذبها كحضنِ الأمهات

وليس ربيبُ عاليةِ المزايا
كمثلِ ربيبِ سافلةِ الصفات

فكيف نظنُّ بالأبناءِ خيرًا
إذا نشأوا بحضنِ الجاهلات

وهل يُرجى لأطفالٍ كمالٌ
إذا ارتضعوا ثُديَّ الجاهلات

٣٣

هداها الله على يد ابنها..

عشت مع الشاعر الإسلامي الكبير **عمر بهاء الدين الأميري** رحمه الله أعواما أربعة، أدرس شخصيته العجيبة، وشعره الرائق في مرحلة الدكتوراه في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ولفت نظري من بين عناصر التأثير الكثيرة في حياته ارتباطه الشديد بأمه -رحمها الله- وارتباطها به، فقد توفي والده وهو في باكورة شبابه، فحفت به والدته (**سامية الجندلية بنت حسن رضا**) رئيس محكمة الاستئناف بـحلب، ابن المفتي عبدي الجندلي. لم تكن هذه الأم في محافظتها على الصلوات والعبادات كمحافظتها على العادات الاجتماعية السائدة عند الأسر الكريمة في حلب، حتى هداها الله لذلك على يد ولدها عمر وهو في مطلع شبابه، فكانت مدينة له في ذلك، حتى أضحت قوية الإيمان بالله، كثيرة العبادة والدعاء. كما كانت عظيمة الحنان، واسعة العناية والدراية بتربية الأولاد وشؤون الأسرة[1]. ولها إلى ذلك ثقافة واسعة، ووعي بالواقع. «وكانت تتكلم أربع لغات»[2]. وكان بين الأم وابنها (عمر) علاقة حميمة، لم يحظ بمثلها بقية أولادها، وكانت تقول: «لقد خجلت من ربي من كثرة ما دعوت لعمر»؛ حيث كانت تقضي الساعات الطوال وهي تتضرع أمام بارئها من أجله[3]. لقد حيكت حول

---

(١) ديوان أمي: ٢٧٢.
(٢) ديوان أمي: ٢٧٢.
(٣) مقابلة شفهية مع ابن الشاعر الدكتور أحمد البراء الأميري في منزله بالرياض، يوم الإثنين ١٤١٥/ ٢/ ٢٤هـ (١٩٩٤/ ٨/ ١م).

ابنها مؤامرات، ووقع في مآزق، فكان يخرج منها بإذن ربه، ويقول: هذا من دعاء أمي لي.

وكان لأمه هذه أثر جليل في تنشئته وبناء ثقافته، واستمرار رعايته؛ فقد عاش معها بعد أبيه ربع قرن كامل[1]، كابدت معه غربته الدائمة، ونَصَبَهُ المزمن، وهناءته النادرة، في عمر مكدود. تارة يعيش معها مع الزوجة والأولاد والأضياف، وتارة معها وحدهما فقط. وكم نعم منها بسكينة ورضا، بقي يجد حلاوتها في قلبه دائماً[2]. حجت معه[3]، وصحبته في غربته في (العراق)[4]، ورافقته وهو سفير في السعودية[5].

كانت لماحة رؤوما، رحيمة النفس، رهيفة الحس، وكان يواري عنها همومه ويداريها[6]، ولكنها كانت تعرف بحس الأم ما يكتنف حبيبها من لأواء وقلق، يقول الأميري: «كانت تدور بيننا أحاديث جمة، ومساجلات حول ما أمضي به من مكابدات الحياة، وكانت تلمس عمق اغترابي وأنا في أهلي ووطني وشبابي، فتحاورني في بعض وجهات نظري، وتحاول أن تقنعني بأن أبواب الغد السعيد مفتوحة لي تنتظر انطلاقي نحوها»[7]. وإذا تذكرنا -إلى ذلك- أنها كانت معلمة منذ وقت مبكر من حياتها، وأنها عالية الثقافة، واسعة المدارك، وأن

---

(١) انظر: ديوان أمي: ١٤.
(٢) انظر المصدر السابق: ١٦-١٧.
(٣) انظر المصدر السابق: ٢٧٢.
(٤) انظر المصدر السابق: ١١٨-١٢٢.
(٥) انظر المصدر السابق: ٢٧٢.
(٦) انظر المصدر السابق: ٨٦ و ١٤٧.
(٧) أوراق مخطوطة متناثرة في مكتبة الشاعر بحلب.

أمهات المبتكرين -كما يقول علماء النفس- يتميزن «بأنهن أكثر رقيا في سلم التعليم [و] أكثر صقلا وتدريبا، [و] يرجح وجود نشاطات ناجحة لديهن خارج منازلهن»[1]، وأن أم شاعرنا كانت كذلك. إذا تذكرنا ذلك، عرفنا: لماذا -كما يقول بعض أصدقاء الشاعر- «يدين لها بالشيء الكثير، ويتحدث في مجالسه الخاصة عن رجاحة عقلها، وعمق إيمانها، وعن تأثيرها في تكوين شخصيته واتجاهاته»[2].

وإن لها موقفا عاطفيا تربويا له أثره البالغ في شخصيته، وإيحاءات تكشف الخلفية التربوية في العلاقة بين الشاعر وأمه:

سافر إلى (القدس) عام ١٣٦٨هـ (١٩٤٨م) للمشاركة في الجهاد ضد اليهود، من (دمشق)، دون أن يمر بـ(حلب) لوداعها ووداع أسرته. فلما بلغها الخبر كتبت إليه: «إنني أقدر رقة العاطفة التي حملتك على السفر دون إعلامنا ووداعنا، ولكن ثق يابني أنني أكثر بك فخرا، وأنت تؤدي واجبك في (فلسطين) مني وأنت بجواري، ترعى شيخوختي. وإنني لأعلم أن الله القادر على حفظك في (حلب) و(دمشق)، هو الله القادر على حفظك في (القدس) وسواها... وكل ما أضرع إليه به، أن يكرمني بك، فيعيدك إليَّ سالما غانما..»[3].

(١) سيكولوجية المراهقة للدكتور إبراهيم قشقوش، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٩م، ص: ٢١١.
(٢) (الأميري) كما عرفته، مقالة. الدكتور عبد القدوس أبو صالح. المسلمون، ١٤١٢/١٢/٤هـ (١٩٩٢/٦/٥م).
(٣) ديوان أمي: ٢٩- ٣٠.

يقول فيها[1]:

أمـــاه يـــا هبـــة الـــــقدر
يـا كـــنز روحـــي المـــدخر

يـــا كـــل معنـــى مـــن معـــا
ني الخـــير في نفســـي وقــــر

يـــا عـــــزة الإيمـــان تشـــ
ـــرق في البصـــيرة والبـــصر

يــــــا عنفـــــوان الــــحق
يصمــــد للمـــكاره والخطـــر

يـــا نـــفرة الطـــبع الأبـــي
مــــن المـذلـــة والـوضـــر

يـــا غضـــبة العـــزم الرحيـــ

ـــم عـــلى المظـــالم والـــغرر

يـــا هاتـــف العليـــاء يـــد
عـــوني: تقـــدم يـــا عمـــر

(١) ديوان أمي: ١٢٦ – ١٢٧.

٣٤

في حضنها يصبح الطفل المتخلف.. من أكبر العلماء

في هذه الجولة.. أترك الحديث للعالم الرباني، أبي الحسن الندوي، مؤسس عدد كبير من المؤسسات العلمية والدعوية في القارة الهندية، ومؤلف أكثر من مئة وسبعين كتابا في شتى المعارف، وصاحب ألسنة ولغات متعددة، كيف كان في طفولته؛ وما دور أمه -التي كانت تحفظ القرآن الكريم، وتقول الشعر- في تربيته: يقول: «كانت والدتي -لعدم وجود الرجال في البيت- هي المسؤولة الأولى عن مراقبتي، وتقدمي، وتربيني الدينية، وقد حفَّظتني بعض السور الكبيرة من القرآن الكريم في تلك الفترة، ورغم أنها كانت معروفة في الأسرة، يضرب بها المثل في الشفقة والحنان، وكانت لوفاة الوالد تداريني، وتلاطفني، وتحنُّ عليَّ أكثر من عامة الأمهات. إلا أنها كانت ذات صرامة وشدة في أمرين: كانت لا تتحمل أبدا التساهل والكسل في الصلاة، فإذا نمت قبل العشاء مثلا، فلا بد أن توقظني وتأمرني بالصلاة، ولو كنت في نوم ثقيل، كذلك كانت تصحيني في الفجر وترسلني إلى المسجد، ثم تأمرني بتلاوة القرآن.

والأمر الثاني الذي لم ترع فيه شيئا، ولم يكن يحول دونه أي حب وشفقة: هو أنه إذا تعديت مثلا على أبناء الخادم أو الخادمة، أو أي طفل من أطفال الفقراء والمساكين، أو عاملته بالعجب والكبر أو احتقرته، عاقبتني على ذلك وأمرتني بأن أطلب منه العفو، أو التصاغر أمامه، مهما

شعرت في ذلك بالإهانة، وجرح الكرامة، وقد انتفعت بذلك كثيرا، واستولى عليَّ الخوف من العجب والكبر والظلم والعدوان، وبدأت أشعر بأن إيذاء شخص وكسر قلبه واحتقاره كبيرة من الكبائر؛ ولذلك سهل علي دائما الاعتراف بالخطأ، والإقرار بالغلط.

ولا بأس أن أصارح هنا بأن طفولتي لم تكن مرجوة تعلق عليها في ظاهر الأمر الآمال الكبار، بل كانت طفولتي يائسة، لا تبعث على الآمال ولا تبشر بمستقبل زاهر، وكان أترابي من أطفال الأسرة يفضلونني بصفة عامة في الذكاء والشعور، وكانت والدتي بطبيعة الحال تحزن لذلك، وكان كثير من نساء الأسرة ورجالها يعلقون على هذا الوضع بما يهيج حزنها، ويزيد من شعورها المرير، ولكن ذلك جاء بفائدة كبيرة فقد أفرغت والدتي ما في كنانتها من أدعية وابتهالات؛ لتربيتي وصلاحي وتحصيلي للعلم، وقبولي عند الله، وعند الناس، ونجاحي في جميع الأمور. وأصبحت هذه الأدعية الحارة الخالصة، وورودها الدائمة، وصَدَرَ من قلمها ولسانها منثورا ومنظوما في هذا الصدد، ما يقل نظيره في أدعية الأمهات وابتهالاتهن في هذا العهد.

وكانت تحكي لي أنها في هذه الحالة من الاضطراب والقلق، رأت والدها المرحوم في المنام، يذكرها بمنامها القديم الذي رأت فيه أن شخصا يبشرها بقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، وقال: لماذا تخافين؟

والواقع -كما أعتقد- أن ما قدر الله لي من خير، وما آتاني به من الفضل والزلفى لدى عباد الله الصالحين، وما منحني من عطفهم وأدعيتهم، كل

ذلك يرجع إلى تلك الأدعية المضطرة التي كانت تدعو بها والدتي، وصدق الله العظيم: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢].

ولما بدأت أشدو وأكتب، نصحتني والدتي، وأكدت الأمر بأن أبدأ كل ما أكتب بـ«بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم آتني بفضلك أفضل ما تؤتي عبادك الصالحين»، وقد بقي ذلك عادتي وديدني مدة من الزمن، ولازال أذكر في مناسبات كثيرة هذه الكلمات الصالحة.

لقد تذكر التاريخ -أيتها الأمهات- أبا الحسن الندوي رغم يأس طفولته، ونسي كل الذين عابوه وعيروا أمه به. ألا فلتصنعي أبناءك صناعة، مهما كانت حدود طاقاتهم باسم الله العظيم، متخذة من الدعاء والمثابرة والجدية في تربيتهم سلما للوصول إلى المجد الذي تؤملينه منهم، فإن الله يبارك في دعاء الوالدين بركة عظيمة.

إن كل طفل وطفلة وشاب وشابة ينادون كل أم: كم أنا في حاجة إلى دعائك يا أماه.. فهو من أكبر أسباب توفيقي في هذه الحياة، وإني لأشكر الله تعالى ثم أشكرك، أن تجنبتِ الدعاء عليَّ فإنني لا أزال أسمع تأوهات بعض الذين أصيبوا بدعوات أمهاتهم عليهم، ولكني لا أسمع منك إلا الدعاء لي فجزاك الله عني كل خير. قال رسول الله ﷺ: «ثلاثُ دعواتٍ مستجاباتٍ لا شكَّ فيهنَّ: دعوةُ الوالدِ، ودعوةُ المظلومِ، ودعوةُ المُسافرِ»(١).

وهنا أتذكر مجموعة من الحكايات التي مرت بي مباشرة، وكنت

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٨٩) ح (١٥٣٦)، وإسناده حسنٌ.

راويها، فقد صلى معي شاب في المسجد، ثم أقبل عليَّ بوجهٍ رأيت فيه أثرا لهداية قريبة، فقلت له: كأنك قريب عهد بالهداية، فقال: نعم، فقلت له: وما قصة هدايتك؟ فأجاب: دعوةٌ من أمي، إنني ـ يا شيخ ـ لم أُبق من خطيئة إلا اقتحمتها، وكانت أمي تراني داخلا خارجا، فتدعو لي بقلب محترق: اذهب.. ردك الله إليه ردًّا جميلا، اللهم اهده وأصلحه، وهكذا كان ديدنها؛ حتى فتح الله لي أبواب رحمته وتوفيقه.

وتذكرني هذه القصة بدعوة أم في يوم الجمعة، بل في عصرها، (ربما كانت ساعة إجابة)، طلبت من ولدها الوحيد على مجموعة من البنات، أن يقضي لها حاجة، فأجل ذلك معتذرا بأصحابه، ووعدها بأن يقضي ما أرادت بعد أن يعود، فأعجَلَتْهُ بدعوة: (اذهب لا ردك الله)، فإذا بالدعوة تبلغ أبواب الإجابة، (والله تعالى أعلم)، فيحدث له حادث، فيموت، واتصلت الأم بي؛ لتسألني كيف تخرج من الاكتئاب الذي أصابها بعد هذه المصيبة العظيمة؟!

وفتاة أرسلت إليَّ بحكم الدم الذي تمجه من كبدها، هل يبطل الوضوء؟ فسألتها عن خبره، فقالت: إنها أصيبت بالسرطان، وكان أبواها كلما اختلفا معها دعوا عليه به!!

ولا أريد أن أختم هذه الوقفة بمثل هذه القصة المحذرة من الاندفاع والتهاون بالدعاء على الأولاد، بل أختم بهذه الحكاية التي أرويها -أيضا- عن صاحبتها مباشرة، فقد كتبت لي إحدى السيدات بعد محاضرة في الدمام في شهر جمادى الآخرة ١٤٣٤هـ، تقول: «أنا امرأة لرجل له امرأة قبلي، أنجبت طفلي الثاني؛ فأهداني ذهبا، ولم يُهدِ

للأخرى، فقلت له: أنا خائفة من العقوبة، [هكذا ظنت ورعا منها]، فقال لها: أنا المحاسَب، ومن تلد فسأهديها ذهبا، فخفت، وأخذت الذهب وتصدقت به كله عن الجميع، وكتبت لمن أعطيته إياه: «ادعوا لي بصلاح الذرية، وأن يجعل ابني هذا حافظا لكتاب الله تعالى»، وبفضل الله عز وجل، بعد خمس عشرة سنة حفظ ابني القرآن الكريم، وزوجي لم يعلم حتى الآن، ولكني أرى بركات هذا التصرف علي وعلى أولادي».

٣٥

دعوة ..تصبح حلما .. يغدو حقيقة

منذ أن كانت فتاة في خدرها في بيت أبيها، وهي تدعو بدعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم:٤٠]، فلما تزوجت، وأنجبت، ورُزقت بالبنين والبنات، رأت استجابة الله لدعائها كأنه رأيُ العين.

هدفٌ سامٍ وعالٍ، وضعته أمام عينيها الكريمتين، فلم يغب عنها لحظة، ولعل الله تعالى قد علم صدقها فأكرمها، كيف وقد تأسَّت بالأنبياء في دعائهم لأولادهم، والأم الفطنة هي التي تعلم أن قيمة ولدها ليس في جماله، ولا في شكله الخارجي، وإنما هو فيما يتقنه من علم وأدب ومهارة، وهذا الحسن رحمه الله يقول: «طلب الحديث في الصِّغر كالنقش في الحجر»[1].

ومن أعاجيب الأمهات ما رواه أبو إسحاق رحمه الله أنه «كان **محمد بن عبد الرحمن الأوقصُ** عنقُه داخلًا في بدنه وكان منكباه خارجين كأنهما زُجَّان (والزُّجُّ هو طرف الحديدة في أسفل الرمح)، فقالت له أمه: «يا بني لا تكون في قوم إلا كنت المضحوك منه المسخور به، فعليك بطلب العلم؛ فإنّه يرفعك»، قال: فطلب العلم، قال: «فوُلِّي قضاء مكة عشرين

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر، دار ابن الجوزي، الدمام، ١٤١٤هـ (١٩٩٤م)، (١/ ٣٥٧).

سنة , قال: فكان الخصم إذا جلس بين يديه يَرعُد حتى يقوم»[١].

لم يردَّ هذه الأم العظيمة أن ولدها به عاهة أو إعاقة أن تصنع منه رجلا مُهابا، بدلا من أن يتندر به، بل صنعت منه فقيها عالما، بدلا من أن تجعل من هذا النقص الخَلقي عذرا تستسلم له تماما، وتعده عيبا لا يستطيع معه أن يكون شيئا ذا شأن.

إنه من قال عنه يعقوب بن سفيان: «وسمعت شيوخ مكة يقولون: لم يك في مكة مثل الأوقص»[٢].

إنها الأم العظيمة التي فطنت للأمر الذي يجب أن تكون فيه صريحة مع نفسها ومعه فقالت له: «عليك بالدِّين فإنه يتم النقيصة ويرفع الخسيسة»[٣].

إنها صناعة العظماء، القصدُ في التربية، ووضوح الهدف، والعمل على الوصول إليه، وهي تعلم بالمعنى الذي كان الحسن يقوله: «قدِّموا إلينا أحداثَكم فإنهم أفرغُ قلوبًا وأحفظُ لما سمعوا»[٤].

وهذا سعيدُ بن رحمة الأصبحي يقول: «كنت أسبق إلى مجلس عبد

---

(١) تاريخ دمشق لأبي القاسم علي بن الحسن، المعروف بابن عساكر ت: ٥٧١ ه، دار الفكر للطباعة والنشر: ١٠٦/ ٥٤، الفقيه والمتفقه لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي.ت/ ٤٦٤هـ، دار ابن الجوزي، السعودية، ط: ٢، ١٤٢١هـ، ص: ١٤٠ - ١٤١.

(٢) أخبار مكة لمحمد بن عبدالله الأزرق الغساني ت: ٢٤٤ هـ، دار الأندلس للطباعة والنشر، ١٩٩٦ م، ص: ٢/ ١٦٥.

(٣) الفقه والمتفقة:١٤١.

(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع لأحمد بن علي الخطيب البغدادي، مكتبة المعارف، الرياض، تحقيق الدكتور محمود الطحان، ص: ١/ ٣١١.

الله بن المبارك بليل معي أقراني لا يسبقني أحد، ويجيء هو مع الأشياخ، فقيل له: قد غلبنا عليك هؤلاء عسى الله أن يبلغ بهم».

همَّة تُغرس في منابتها الأصيلة، وتخرج ثمراتها لأنظار الناس من وراء أسوار مغارسها زاهية دانية.

وقد كان السلف يرون أن القرآن هو أول ما ينبغي أن يعتني به المربون، حتى قال الحافظ السيوطي: «تعليم الصبيان القرآن أصل من أصول الإسلام، فينشأون على الفطرة، وتسبق إلى قلوبهم أنوار الحكمة، قبل تمكن الأهواء منها، وسوادها بأكدار المعصية والضلال»

وصدق من قال: «علم ولدك القرآن، والقرآن سيعلمه كل شيء». وقال الإمام الشافعي رحمة الله: «من تعلّم القرآن عظمت قيمته، ومن تكلم في الفقه نما قدره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر في اللغة رقّ طبعه، ومن نظر في الحساب جزل رأيه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه».

وهو كلام رصين يحمل معه خطة جليلة القدر، لو التفتت إليها أمٌّ من الأمهات، وحولتها إلى جدول حازم، لصنعت عالما ربانيا قديرا.

أيتها الأم الكريمة، إن هذه النماذج التي أتابعها عليك، تتابع الغيث على الزرع، جاءت لتقول لك: إن القوم قد سبقوا، وإن الأمثلة لما يُنتظر منك كثيرة، قديمة وحديثة، وقد كان الإمام أبو حنيفة رحمه الله عليه يقول: «الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إلّي من كثير من الفقه؛ لأنها آداب القوم». ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ولعلك وأنت تربين ولدك أن تذكري ما كان من طفولة الإمام **أبي الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي التيمي البكري ابن الجوزي** رحمه الله وطلبه للعلم، فقد حدث عن الشدائد التي نالته في بدء طلبه للعلم، وعن محامد صبره على تلك الشدائد، فقال: «ولقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو أحلى من العسل لأجل ما أطلب وأرجو , كنت في زمن الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى في بغداد، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلتُ لقمةً شربت عليها، وعين همَّتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم»[1].

أنشد أَبُو عَبْدِ اللهَّ نَفْطَوَيْهِ، لِنَفْسِهِ:

أَرَانِي أَنْسَى مَا تَعَلَّمْتُ فِي الْكِبَرِ
وَلَسْتُ بِنَاسٍ مَا تَعَلَّمْتُ فِي الصِّغَرْ

وَمَا الْعِلْمُ إِلا بِالتَّعَلُّمِ فِي الصِّبَا
وَمَا الْحِلْمُ إِلا بِالتَّحَلُّمِ فِي الْكِبَرْ

وَلَوْ فَلَقَ الْقَلْبَ الْمُعَلِّمُ فِي الصِّبَا
لأُلْفِيَ فِيهِ الْعِلْمُ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرْ

وَمَا الْعِلْمُ بَعْدَ الشَّيْبِ إِلا تَعَسُّفٌ
إِذَا كَلَّ قَلْبُ الْمَرْءِ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرْ

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي، دار القلم سوريا، ١٤٣٣هـ (٢٠١٢م)، ص: ١/ ٣١١.

وَمَـا الْـمَرْءُ إِلا اثْنَـانِ عَقْـلٌ وَمَنْطِـقٌ
فَمَـنْ فَـاتَهُ هَـذَا وَهَـذَا فَقَـدْ دَمُـرْ

عناصر التعلم، وأوعيته، وأدواته، تدور في هذه الأبيات كما تدور الأقمار في الفلك، فعناصر التعلم: مُتعلِّم ومُعلم وأمرٌ مُتَعَلَّم، وأوعية العلم: عمرٌ يكون فيه المرء أوعى لما يتعلم، وقلبٌ شابٌ حاضر، وعقل فتيٌّ واعٍ، وأدوات التعلم: منطقٌ سليمٌ تمَّ تقويمه وشحذه وهو في طراوته، ومعلم حريص على التعليم، وأمٌّ تختفي وراء حجابها حتى في أبيات هذا الشاعر، ولكن أثرها تلمسه السماء والأرض، وتخلده الأسفار بالأنوار، ويبقى ما بقي الليل والنهار.

وإن الواجب نحو الصغير يزداد قيمة ووجوبا، حين يكون الصبي ذكيَّ الفؤاد، هناك يجب على الأم والأب أن يعلما بأن الفرصة أعظم، وقد تفوت، يقول الشاعر:

إِنَّ الْحَدَاثَةَ لا تُقَصِّرُ بِالْفَتَى الْمَرْزُوقِ ذِهْنًا
لَـكِنْ تُذَكِّي عَقْلَهُ فَـيَفُوقُ أَكْبَرَ مِنْهُ سِـنًّا

فليس الكبير بأهم من الصغير؛ لأنه أكبر سنا؛ لأن السن يزيد من فرص الخبرة بشرط القدرة على تحصيلها، فهناك من مرت بهم عقود وعقود ولم يضيفوا إلى خبراتهم شيئا، بل عاشوا يكررون أيامهم كما هي، كما أن العمر لا يضيف إلى درجة الذكاء شيئا؛ ما دام الإنسان لا ينمي ذلك الذكاء.

إِذَا مَـا الْـمَرْءُ لَـمْ يُـولَدْ لَـبِيبًا
فَلَيْـسَ بِنَـافِعٍ قِـدَمُ الْـوِلادَةِ

إن الصغير -في التشكل لما يراد له- أهمُّ من الكبير؛ لقرار ذلك في خلده، وتطبعه به إذا رُبِّيَ عليه؛ فبادري، فالزمن يمرُّ بسرعة، وإذا انتهى الموسم، فإن المطر لا ينبت ما كنتِ ترجينَ من الزرع، بل ستجدين نبتات أخرى بريةً تتطفل على مشروعك العظيم، قد يكون من بينها ما هو مرٌّ، أو حتى ما هو سامٌّ.

٣٦

كل فتاة بأبيها معجبة ..

يبدو بأنني سأكون معكن ـ أيتها الأمهات الفاضلات ـ صريحا جدا، وأنا أتلمس مدى واقعية قول العرب: (**كل فتاة بأبيها معجبة**)، والعلاقة بين البنت والأب لها قصة تبدأ -مهما سبقها من أمثلة- من حكاية علاقة الرسول الأب محمد رسول الله ﷺ بابنته فاطمة الزهراء، عليها السلام رضي الله عنها وأرضاها، بل كانت عَائِشَةُ رضي الله عنها تقول: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشْبَهَ سَمْتًا وَهَدْيًا وَدَلًّا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ فَاطِمَةَ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهَا، كَانَتْ إِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ قَامَ إِلَيْهَا فَأَخَذَ بِيَدِهَا، وَقَبَّلَهَا، وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ، وَكَانَ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا قَامَتْ إِلَيْهِ، فَأَخَذَتْ بِيَدِهِ فَقَبَّلَتْهُ، وَأَجْلَسَتْهُ فِي مَجْلِسِهَا»[(١)] .

وبقيت هذه العلاقة تنمو وتزداد جمالا وتماسكا وتعلقا؛ حتى آخر أنفاس النبي ﷺ، فقد روى الشيخان عن عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها وأرضاها- قَالَتْ: « إِنَّا كُنَّا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَهُ جَمِيعًا، لَمْ تُغَادَرْ مِنَّا وَاحِدَةٌ، فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ رضي الله عنها تَمْشِي، لاَ وَاللهِ مَا تَخْفَى مِشْيَتُهَا مِنْ مِشْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَمَّا رَآهَا رَحَّبَ قَالَ: (مَرْحَبًا بِابْنَتِي) ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ سَارَّهَا، فَبَكَتْ بُكَاءً شَدِيدًا، فَلَمَّا رَأَى حُزْنَهَا سَارَّهَا الثَّانِيَةَ، فَإِذَا هِيَ تَضْحَكُ، فَقُلْتُ لَهَا أَنَا مِنْ بَيْنِ نِسَائِهِ: خَصَّكِ

(١) رواه أبو داود (٤/ ٣٥٥) ح (٥٢١٧)، وصححه الألباني.

رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالسِّرِّ مِنْ بَيْنِنَا، ثُمَّ أَنْتِ تَبْكِينَ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَأَلْتُهَا: عَمَّا سَارَّكِ؟ قَالَتْ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سِرَّهُ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ، قُلْتُ لَهَا: عَزَمْتُ عَلَيْكِ بِمَا لِي عَلَيْكِ مِنَ الحَقِّ لَمَّا أَخْبَرْتِنِي، قَالَتْ: أَمَّا الآنَ فَنَعَمْ، فَأَخْبَرَتْنِي، قَالَتْ: أَمَّا حِينَ سَارَّنِي فِي الأَمْرِ الأَوَّلِ، فَإِنَّهُ أَخْبَرَنِي: «أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ بِالقُرْآنِ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ قَدْ عَارَضَنِي بِهِ العَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلاَ أَرَى الأَجَلَ إِلَّا قَدِ اقْتَرَبَ، فَاتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي، فَإِنِّي نِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ» قَالَتْ: فَبَكَيْتُ بُكَائِي الَّذِي رَأَيْتِ، فَلَمَّا رَأَى جَزَعِي سَارَّنِي الثَّانِيَةَ، قَالَ: «يَا فَاطِمَةُ، أَلاَ تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ المُؤْمِنِينَ، أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ»(1).

وقد قامت مجلة (أهلا وسهلا) باستطلاع طريف(2)، كشفت فيه النقاب عن أن علاقة الأب بالبنت أشد من علاقة الأم بابنتها، حتى قال أحد المشاركين: إن «علاقة البنت بأبيها -بعد تجربتي الخاصة- تفوق علاقتها بأمها، وهذا في حد ذاته يدعو للغرابة، بالنسبة لي فإن كل بناتي يفتحن قلوبهن لي، ابنتي الكبرى عندما أرادت أن تتراجع بعد أن تقدم أحد الشبان للزواج منها، بعد أن لاحظت في سلوكه أمرًا لم يعجبها لم تستطع أن تصارح أمها لكنها صارحتني، ووافقتُها في الحال، وعندما علِمتْ أمها بهذا (الاتفاق والوفاق) غضبت أشد الغضب، واعتبرتها مؤامرة من خلفها، وحاولت (تفكيك) العلاقة بأكثر من وسيلة، لكن الرابط بيني وبين ابنتي كان متينًا، أشعر فعلًا أن بناتي أكثر

(١) رواه البخاري (٨/ ٦٤) ح (٦٢٨٥)، ومسلم (٤/ ١٩٠٤) ح (٢٤٥٠).
(٢) مجلة أهلا وسهلا، السنة: ٣٠ ، العدد: ٩، سبتمبر ٢٠٠٦ م (شعبان ١٤٢٧ هـ)، ص: ٥٢ – ٥٤.

قربًا من الأولاد بالنسبة لي».

يمكن تفسير هذا الميول بالميل الفطري من كل من الجنسين للآخر، ولكنه لن يكون مفيدا جدا في الواقع التربوي، لأنه كما يقول مشارك آخر في الاستطلاع ذاته: «إن الفتيات يصارحن الأمهات أكثر خصوصًا في الأمور الخاصة، ويشعرن بالحياء من الأب باعتباره غريبًا عن عالمهن الخاص، وقد لا يتفهم مشاعرهن مثل الأم، ولا ننسى أن حاجز الهيبة في جانب الأم أقل بكثير، وهذا يتأكد في الآباء التقليديين الأكثر صرامة، وعلى أية حال فيمكن القول إن هذه العلاقة مقيدة وليست مطلقة، تتوقف على مدى سهولة الأب وحنانه وورعه الديني، علينا ألا ننسى أن بعض الآباء يتعاملون مع الأبناء بجفاء يباعد المسافة، أعرف أُسرًا يصمت أفرادها جميعًا عن الكلام عندما يدخل عليهم الأب فجأة، وكأن على رؤوسهم الطير بعد أن كانوا يضحكون في مرح، وبعض الأبناء يفرحون لغياب الأب باعتبارها فرصة سانحة للحرية الشخصية، ولا نغفل أن بعض الآباء ـ وإن كانوا قلة ـ يمارسون دور الشرطي، مثل هؤلاء لا تقوم بينهم وبين البنات رابطة صداقة، لأن البنت مشاعرها رقيقة، وتحتاج إلى أن تُعامل بحنان خصوصًا في مرحلة عمرية معينة».

ومعنى هذا كله أن الأمر يعود إلى مدى الحنان الذي يعطيه كلٌّ من الأبوين للبنت، فالذي يحسن أكثر، ويستطيع أن يتداخل مع عالمها سيكون هو الأقرب، وما دام هناك من هو قريب من البنت، فالأمر لا يزال في بر الأمان، ولكن المشكلة الكبرى هو ألا تجد منهما معا أُذُنا تسمع، أو قلبا يحن، وهناك يحدث البلاء.

أيتها الأم الكريمة، إذا وجدت ابنتك تميل إلى والدها، وتستودعه أسرارها فافرحي بذلك، ولا تقلقي، فضلا عن أن تغاري، كما تقول أم سلمى: «أعترف بأنني أغار من ابنتي الوحيدة، تعلقها الزائدة بوالدها يغيظني، فهي تكتم عني كل أسرارها وتُطلع والدها عليها، شرحت لها أنني أمها ويجب أن أعرف عنها الصغيرة قبل الكبيرة، لكنها تبتسم في هدوء وتؤكد أن والدها واسع الصدر ويفضل الحوار، أما أنا (أمها) فشديدة العصبية ولا أحتمل الرأي الآخر (على حسب تصنيفها)، البنت على أيامنا كانت تخجل من أبيها، لا تستطيع أن تحدق في وجهه ولكن بنات هذا الزمن لهن شأن آخر، والد (غادة) يضحك عندما يلاحظ تلون وجهي للعلاقة الحانية بينه وبين ابنتنا ويقول: لأول مرة أرى أُمًّا تغار من ابنتها، وهذا يؤكد أن المرأة تشعر بالغيرة على زوجها من أية امرأة أخرى.. حتى لو كانت هذه المرأة هي فلذة كبدها.. هذا اكتشاف أهديه مجانًا لعلماء النفس والاجتماع».

وتفسر أزهار تعلق ابنتها بأبيها بأنه: «يتزايد وفقًا لتعامل الأب، والملاحظ أن والدها يتعامل معها بطريقة أكثر رقة، مع مراعاة شعور الأبناء الذكور، ربما لأنها بنت أو لأنها البنت الوحيدة وسط الأولاد».

وحين نستمع إلى البنات مباشرة فهذه فادية تقول: «هذا المثل حقيقة جلية، فأنا شديدة الإعجاب بوالدي، فهو حبيبي الذي ترتاح عيناي لرؤية طلعته البهية، فهو-بحمد اللهّ- صورة ناصعة للصلاح والتقوى، سعادتي لا تتناهى عندما أجلس في ركن قريب يمكنني من مراقبته، فحديثه عذب منتقى من أطايب الكلم، وصوته ينساب في

هدوء، وهو يملك المنطق المتكامل مع الجميع وتوجيهاته لنا صائبة».

والفتاة هند تؤكد ما قلتُه سابقا فتقول: إن مقولة: (كل فتاة بأبيها معجبة)، حقيقة تعيشها هي مع والدها، لأن والدتها لا تملك صبرًا للحوار، ونحن جيل يحب الحوار، ولكن بعض الأمهات لا يعجبهن هذا المسلك».

ولست معنيا بالآباء في هذه الأطروحة أبدا، فهمِّي كله أنتن أيتها الأمهات، فماذا عليك أن تفعلي إذا رأيت هذا الميل من ابنتك إلى أبيها؟

أطرح عليك أربع نقاط:

الأولى: أن تحمدي الله تعالى أن علاقة ابنتك برجل هو أبوها، المحب لها، المحافظ على شرفها وعفافها، المحفز لها؛ لتبلغ أسمى المراتب، وفي هذا وقاية وصيانة عن أية علاقة مريبة قد تنشأ بسبب الفجوة النفسية أو الحرمان العاطفي.

الثانية: يجب أن تُراقب هذه العلاقة عن كثب، إذا يجب ألا تتعدى الحب الوالدي الطاهر، الذي يتمثل في الحنان والاهتمام والرعاية والتوجيه من قبل الأب، والتقدير والاحترام والاقتداء والاستشارة من قبل البنت، وجميل أن يترك المجال مفتوحا لهدية معبرة، وكلمة طيبة، وسر مصون.

الثالثة: لا داعي للغيرة؛ فإن علاقة الزوج بالزوجة تختلف ـ تماما ـ عن علاقة الأب بالبنت، حتى وإن أهدى، وإن أبدى إعجابه بلبس

أو جمال أو إبداع.

الرابعة: راجعي علاقتك بابنتك؛ فربما خلطتِ بين المراحل، فأنت تتعاملين مع الفتاة المراهقة مثلما تتعامين مع الطفلة المميزة، وفرق كبير في الخصائص والاحتياجات!!

ولعلك لاحظت حديث البنات وهن يفرقن من أبٍ يمتلك ناصية الحوار، وأمٍ تفتقد أصوله، في زمنٍ أصبحت فيه الفتاة تترقى في درجات العلم والأدب.

ليست القضية تنافسا بين الأم وابنتها على الأب، ولا تنافسا من الأبوين على البنت، أبدا، إنما القضية: كيف يمكن أن يعيش الثلاثة في أجمل نسق أسري سعيد؟!

٣٧

من الذي ربى عليًّا؟

سجل التاريخ أسماء كالشموس للكون، بل هم -والله- الذين صنعوا التاريخ، ولو سألت من صنعهم على عين الله لوجدت كفين مغضنتين، مرة تدعوان، ومرة تربتان، ومرة تطبخان، ومرة تعلمان، (الأم) تلك الأيقونة السحرية، التي تلمسها فتنسكب بكل ما تحتاجه النفوس لبلوغ أهدافها بإذن الله تعالى.

هذا أمير المؤمنين **أبو الحسن علي بن أبي طالب** رضي الله عنه، الذي تناول جسده الطاهر وروحه النقية أُمَّان ملئتا إيمانا وحكمة وأناة وحلما وصبرا، وعرفتا بأكرم السمات وأجمل الخصال، فقد ولد من أمه **فاطمة بنت أسد**؛ التي أسلمت بعد عشرة من المسلمين فكانت الحاديةَ عشرة منهم، والثانيةَ من النساء، وأمه الأخرى أم المؤمنين **خديجة بنت خويلد** رضي الله عنها تعالى وأرضاها التي عاش في بيتها، وتغذى من خصالها، وتربى على يد حبيبها صلى الله عليه وسلم.

وفي المدينة في عهد بني أمية، نستشرف شخصية **عمر بن عبد العزيز** رحمه الله الذي أعاد للخلافة وجهها الراشدي، ونتذاكر نشأته في المدينة حيث شبَّ الفتى النابهُ بين أخواله من أبناء وأحفاد الفاروق (عمر)، واختلف إلى حلقات علماء المدينة، ونهل من علمهم، وتأدَّب بأدبهم، وكانت المدينة حاضرة العلم ومأوى أئمته من التابعين، ومَن طال عمره من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين؛ فمن كانت أمه؟

أمه **أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب** رضي الله عنه، الفقيه، الشريف، ولد في أيام النبوة، وأما جدته لأمه فقد كان لها موقف مع الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فعن أسلم قال: بينما أنا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يَعُسُّ، بالمدينة، إذ أعيا، فاتكأ على جانب جدار في جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابنتها: يا بنتاه قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء فقالت لها: يا أمتاه أوَ ما علمت ما كان من أمير المؤمنين اليوم؟ قال: وما كان من عزمته يا بنية؟ قالت: إنه أمر مناديًا، فنادى ألا يشاب اللبن بالماء، فقالت: لها يا بنتاه قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر، فقالت الصبية لأمها: يا أمتاه والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء، وعمر يسمع كل ذلك، فقال: يا أسلم عَلِّم الباب واعرف الموضع، ثم مضى في عسه، فلما أصبحا قال: يا أسلم امض إلى الموضع فانظر من القائلة؟ ومن المقول لها؟ وهل لهم من بعل؟ فأتيت الموضع فنظرت فإذا الجارية أَيِّم لا بعل لها وإذا تيك أمها، وإذا ليس بها رجل، فأتيت عمر أخبرته، فدعا عمر ولده، فجمعهم، فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوجه.. فقال عاصم: يا أبتاه لا زوجة لي فزوجني، فبعث إلى الجارية، فزوجها من عاصم فولدت لعاصم بنتًا، وولدت البنت عمر بن عبد العزيز رحمه الله[1].

ويذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى ذات ليلة رؤيا، فأصبح يقول: «ليت شعري من ذو الشَّيْن من ولدي الذي يملؤها عدلًا، كما ملئت جورًا»، وكان عبد الله بن عمر يقول إن آل الخطاب يرون أن بلال بن

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر، دار الفكر (٧٠/ ٢٥٣).

عبد الله بوجهه شامة فحسبوه المبشر الموعود حتى جاء الله بعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

«وهذا **عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز**، ذلك الفتى الذي كَمُلَت مروءته، وتناهى سؤدده فكان مضرب المثل في العلم والشجاعة والزهد والعبادة، بالرغم من أنه توفي وهو في التاسعة عشرة من عمره**!!** فمن كان وراءه؟ لقد كان وراءه والده الزاهد عمر بن عبدالعزيز، وأمه **فاطمة بنت عبدالملك بن مروان**»[2].

فليس من المبالغ فيه ما قاله (سيمور) «إن تربية الطفل يجب أن تبدأ قبل ولادته بعشرين عامًا، وذلك بتربية أمه». ما دام أن لها كل هذا التأثير العظيم، الذي عبر عنه أجمل تعبير الكاتب القدير: (محمد كرد علي) حين قال: «**فضائل الأمهات تسري في أرواح أولادهن سريان الرائحة الطيبة في الثوب النظيف**».

ولذلك تستحق (الأم) أن تكون الكلمة الأولى التي يزمُّ الطفل فيها شفتيه؛ لينطقها، بل ليرسل إليها قبلة كلما أراد أن يناديها؛ فهو لا يمكن أن يتلفظ بها دون أن يضم لها مراشفه.

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٢).
(٢) انظر: سيرة عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز، لابن رجب الحنبلي، تحقيق: عِفَّت وصال حمزة.

٣٨

الأمومة.. حين تفيض بها غير الأم

قد يسخِّرُ الله للطفل أما ليست أمه، فقد يكون يتيما، أو مهملا من قبل أهله، فتقوم امرأة موفقة بدورها معه كأنها أمه، وكم ولد لامرأة لم يخلق في رحمها، وربما كان لها أقرب مودة وبرا، وذخرا في الدنيا والآخرة.

وهو ما حدث **للإمام الحافظ المحدث ابن حجر العسقلاني** رحمه الله فقد ربّته أخته **سِتّ الرَّكب بنت علي بن محمد بن محمد بن حجر**، قال ابن حجر: «وكانت قارئة كاتبة أعجوبة في الذكاء وهي أمي بعد أمي»[(١)].

وهو ما يذكرني بأستاذي في النحو والصرف **أ.د.شعبان صلاح حسين، النحوي**، العروضي، الشاعر، المحقق، من مواليد قرية مصرية، حفظ القرآن الكريم وأتمه في الثامنة من عمره، وأتقن قواعد تجويده، ودرس في الأزهر وحصل منه على الإعدادية والثانوية، ثم نال الثانوية العامة ثم التحق بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة سنة١٩٦٨م، وتخرج فيها حيث درس العلوم العربية والإسلامية، حتى نال (الليسانس) في اللغة العربية والعلوم الإسلامية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف

---

(١) إنباء الغمر بأبناء العمر لأبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م)، ١/ ٥١٧.

سنة١٩٧٢م، ثم حصل على الماجستير والدكتوراه حتى نال الأستاذية سنة١٩٩١م، وتقلد مناصب جامعية عديدة، ويعد من أبرز علماء مجمع اللغة العربية في مصر، كل ذلك وهو بساق واحدة، بعد أن فقدها عند الساقية وهو طفل صغير.

حين سئل عن أبرز من أثر فيه، أجاب: «أول شخصية أثرت في حياتي كانت **جدتي لأمي**، تلك التي قضيت في أحضانها طفولتي، وأمضيت معها أوليات شبابي؛ فقد كانت مدرسة متنقلة في الحكم والأمثال والمواعظ والقصص، على الرغم من أنها كانت أمية، وكم لذَّ لي أن أستمع إليها وهي تتغنى ببعض المنظومات العامية التي تقدم حكمة أو تضرب مثلًا أو تبكي عزيزًا، ومن هذه السيدة بدأت محبتي للنظم وميلي للشعر وحبي للأدب على الإطلاق.

كما أنها كانت تفيض حنانا وتقطر عذوبة، بيد أنها إذا جد الجد واقتضى الموقف صرامة ظهر حينئذ حزمها وعزمها وقوة شخصيتها وقدرتها على القول الفصل، ولذا كانت شبه قاضية في بيئتها الصغيرة؛ تفصل بين المتخاصمين وتعطي كل ذي حق حقه، وكان عجب الطفل فيَّ يتضاعف حين أرى الرجال يخضعون لأحكامها».

وأما أخي الكريم وصديقي العزيز **الدكتور إبراهيم بن صالح التنم** فله قصة طريفة ومواقف لطيفة مع تعلم القرآن الكريم، بين والده الذي كان يحتاجه في صنعة الخط ولوحات المحلات التجارية، وبين والدته وجدته التي كانت مصرة على التحاقه بحلقة تعليم القرآن الكريم، وقد كتب لي تلك القصة الجميلة فقال:

«من نعمة الله تعالى علي أن نشأت وترعرعت في حي(الثليثية)، ذاك الحي الهادئ والجميل، ذو العوائل الكريمة المتعلمة، ذات الدين والخلق والأدب.

من هذا الحي الوضاء انطلقت رحلتي مع كتاب الله تعالى تلاوة وحفظًا وتجويدًا، وكان ذلك في السنة الرابعة الابتدائية عام ١٤٠٠هـ، في جامع أبي بكر الصديق ﷺ، حيث كان إمامه فضيلة الشيخ حمد العمر السبيعي رحمه الله تعالى، كان الجامع يبعد عن منزلنا حوالي كيلين، كنت أذهب إليه يوميًا ماشيًا بعد صلاة العصر، وقد يسر الله تعالى لي حفظ نصف جزء عم، ولكنني مع الأسف لم أستطع الاستمرار تلك الفترة في الحلقة لأجل ما أُصبتُ به من رمد في عيني، أدى إلى انقطاعي عن الحلقة.

وبعد مضي ثلاث سنوات كنت وقتها انتقلت إلى الصف الأول المتوسط، عام: ١٤٠٣هـ، وقد يسر لي المولى تعالى بمنه وكرمه وفضله، الرجوع مرة أخرى إلى الحلقة نفسها، والاستمرار فيها حتى أتممت حفظ القرآن الكريم كاملًا، في ٢١/ ١٠/ ١٤٠٦هـ على يد شيخي الكريم المفضال المبجل وليد سلمو صعب الحلبي.

وفي عام ١٤٠٩هـ شاركت في المسابقة الدولية للقرآن الكريم في مكة المكرمة، في الفرع الأول (حفظ القرآن الكريم كاملًا مع تفسير التاسع)، وقد أخذت الأول على مستوى المملكة العربية السعودية والثالث على مستوى العالم.

كان وراء هذا النتاج المثمر أبوان كريمان رحيمان، اعتنيا بتعليمي وتأديبي عناية فائقة، فقد كان الوالد الكريم رحمه الله أستاذ جيل في التعليم

فقد أمضى واحدًا وأربعين عامًا في بذل العلم وتعليمه، وتولى بعض المناصب الإدارية في وزارة التربية والتعليم آنذاك، وكذا كانت الوالدة العزيزة- متعها الله بموفور الصحة والعافية -معلمة لسنوات عدة، ثم لما رزقها الله ثلاثة من الولد استعفت من التعليم للتفرغ لمسؤولية البيت والقيام على شؤونه بكل محبة ومودة.

من لطيف خبر الوالدة الكريمة، وأنا في مرحلة المتوسطة أنها كانت حريصة في فترة الظهيرة أن أكون في مجلس البيت لمتابعة حفظ القرآن الكريم ومراجعته، وكانت تدخل علي في بعض الأيام بكأس العصير بعد مضي نصف ساعة من الحفظ تسألني عما حفظته وراجعته وتدعو لي بالتوفيق والثبات.

كان في بيتنا نور كبير وشمس وهاجة جدتي لأبي هياء السليمان رحمها الله تعالى، كانت امرأة صالحة عابدة خاشعة، لا يكاد غطاء رأسها (ملفعها) يسقط عن رأسها أبدًا، لا زلت أتذكر سجداتها وركعاتها في الضحى وفي الليل قبل المنام، كم كان يؤثر فيَّ كثيرًا مناظر خشوعها ورفع أكف الضراعة لربها تدعو مولاها كثيرًا.

لقد أمضيت بصحبتها ردحًا من الزمن، ولا أنام إلا معها في غرفتها الخاصة، وأنا ابن العشر سنوات.

كانت تحيطني برعاية كبيرة واهتمام منقطع النظير، فقد توفي لها مدة حياتها سبعة من الذكور وهم صغار، ولم يبق لها إلا الوالد وعمتي لطيفة رحمهما الله تعالى.

لا يكاد ينقطع سؤالها عني، تأدبت على عينها وتعلمت منها كثيرا،

فكانت توصيني كثيرًا بالصلاة والمحافظة عليها، وكانت تتمنى أن أتعلم القرآن وأن أرزق حفظه كاملًا، وفعلًا هي ممن دفعني وشجعني للالتحاق بحلقة القرآن وتعلمه في جامع أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

كان الوالد رحمه الله تعالى يعمل في مهنة الخط مساء، وكان يصطحبني معه يوميًّا إلى المحل إلى الساعة العاشرة من الليل.

كان من حرصه علي أن يذهب بي بين العشاءين لحلقة القرآن، ثم يرجع لأخذي بعد صلاة العشاء لإكمال العمل في المحل، وإذا ما رجعنا إلى البيت كانت الجدة رحمها الله في انتظارنا، تسألني عما فعلته في الحلقة وماذا حفظت من القرآن، ولا أتذكر يومًا أنها سألتني عن لوحات الخط وماذا فعلنا فيها، إنما كان سؤالها الدائم عن الصلاة وعن القرآن.

ومن مواقفها اللطيفة الظريفة الجميلة التي لا أكاد أنساها أبدًا هذان الموقفان:

أولاهما: في يوم من الأيام طلبت مني رحمها الله أن أقرأ عليها آية (أخرج شطأه)، فقلت يا أماه، لم أصل إليها بعد، فقد كنتُ ساعتها لا أزال أحفظ في جزء تبارك، فقالت لي على الفور: ستصل إليها بإذن الله وأدعو ربي أن يرزقك حفظ كتابه كاملًا وأن يثبته في قلبك، فشد حيلك وواظب على حضور الحلقة.

كم كان لسماعي دعاءها الأثر الكبير على نفسي والتحفيز لحفظ كتاب ربي.

وثاني الموقفين: موقف لا يغيب عني أبدًا، وهو يدل دلالة واضحة على حرصها رحمها الله واهتمامها الكبير لحفظ كتاب الله تعالى، وأنا وقتها ابن الثلاثة عشر عامًا في السنة الأولى في المتوسطة، كان الوالد رحمه الله، ذات يوم مشغول جدًا بتسليم لوحة من لوحات أحد المحلات التجارية:

فقال لي: اليوم لا أستطيع أن أذهب بك إلى حلقة القرآن.

فقلت له: لا، فجدتي مؤكدة علي عدم الغياب عن الحلقة أبدًا.

فقال: لكنني اليوم مشغول جدًا لا أستطيع أن أذهب بك.

فقلت: جدتي أخذت العهد عليك ألا تفرط في حضوري للحلقة.

فقال رحمه الله: سأخبرها لاحقًا.

فقلت: لن أعمل الليلة في المحل.

فقال: بكيفك.

فتركني داخل المحل، وأكمل عمله في إعداد اللوحة، وأنا أكاد أتقطع من الغيظ لعدم ذهابي للحلقة، وكتمت وقتها بكائي حتى لا أظهر ضعفي، ولما أغلقنا المحل وركبت السيارة، ما كاد الوالد رحمه الله يصل إلى البيت حتى نزلت مسرعًا للجدة منفجرًا من البكاء..

فقالت: مالك؟!

قلت: لم أذهب اليوم للحلقة.

فقالت: نادِ والدَك.

فلما وقف أمامها، وكان رحمه الله بارًا بها برًا عظيمًا - عاتبته كثيرًا، وقالت له كلمة لا أكاد أنساها، قالت له: **ماذا تريد أكثر من أن يحفظ ولدك القرآن، وما زالت تعتبه وتعظه؛ حتى قال** رحمه الله: **لك علي عهد أن لا يغيب عن الحلقة مرة أخرى مهما كانت الظروف**.

هذه ذكرى طيبة قبل أكثر من خمسة وثلاثين عامًا حول حفظي لكتاب الله تعالى. أسأل الله عز وجل أن يغفر لوالدي وأن يرحمهما كما ربياني صغيرًا وأن يغفر لأجدادي وجداتي وللمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، إنه سميع قريب مجيب، والحمد لله رب العالمين»[1].

لو كان والده يعلم بأن ابنه سيأخذ الأول على مستوى المملكة العربية السعودية، والثالث على مستوى العالم في حفظ كتاب الله تعالى، هل كان سيفرط في يوم واحد من أيام تعلمه لكتاب الله تعالى!!

وكان العالم الأحسائي الكبير **أحمد بن سعد المهيني**، كفيفا رآه العالم الشيخ عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن آل الشيخ مبارك، يلعب في الشارع، وكان الطفل العبقري بذكائه يحمي نفسه من الأطفال، تقدم الشيخ فأبعد عنه الأطفال، ثم طلب منه أن يذهب به إلى بيت والده فإذا به يدله بكل دقة من خلال المنعطفات؛ فعرف أنه أمام مشروع عالم يحتاج إلى بيئة علمية تحوطه برعايتها، دق الباب ففتحه أبوه، وقال له: هل تسمحون بأن تعطونا هذا الطفل كي نقوم بتوجيهه، فأخذه الشيخ المباركي إلى جدته؛ (**مريم بنت عبد العزيز العلجي**)؛ وهي من بيت

(١) كتبها لي الدكتور إبراهيم بن صالح التنم في الأحساء في: ١٤٣٩/١٢/١٩هـ.

علم وفضل، فاعتنت به عناية فائقة، وكأنه ولد من أولادها، ووجهته إلى علماء آل الشيخ مبارك في حلق العلم ومدارسه؛ التي كانت منتشرة في الأحساء، حتى تضلع في العلوم الشرعية واللغوية، وأصبح الطفل أحمد المهيني بعد ذلك شيخا لبعض أبناء أسرة آل الشيخ مبارك بعد ذلك، ومنهم شيخي الكريم الشيخ أحمد بن علي آل الشيخ مبارك رحمه الله رحمة واسعة.

وهي قصة تستحضر صورة رائعة من تاريخ عظمائنا الأمجاد حيث ولد الإمام **أبو زكريا يحيى بن شرف النووي** رحمه الله تعالى - في المحرم ٦٣١ هـ في قرية نوى من أبوين صالحين، ولما بلغ العاشرة من عمره بدأ في حفظ القرآن وقراءة الفقه على بعض أهل العلم هناك، وصادف أن مرَّ بتلك القرية الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي، فرأى الصبيانَ يُكرِهونه على اللعب وهو يهربُ منهم ويبكي لإِكراههم ويقرأ القرآن، فذهب إلى والده ونصحَه أن يفرّغه لطلب العلم، فاستجاب له؛ فأصبح الإمام العظيم المبارك صاحب رياض الصالحين، والأربعين النووية، والأذكار، وشرح صحيح مسلم وغير ذلك.

بلغت لعشر مضت من سنيـ
ـك ما يبلغ السيد الأشيب

فهمك فيها جسام الأمو
ر وهم لِداتِك أن يلعبوا[(١)]

(١) الحماسمة البصرية لعليبن بن أبي الفرج البصري، تحقيق مختار الدين أحمد، عالم الكتب - بيروت، ١/ ١٣٣.

وكأن ابن الجوزي يصف هؤلاء في قوله الذي يصف فيه الذين يختارهم الله لولايته: «فذاك الذي يربيه من صغره، فتراه في الطفولة معتزلا عن الصبيان، كأنه في الصبا شيخ، ينبو عن الرذائل، ويفزع من النقائص، ثم لا تزال شجرة همته تنمو حتى يرى ثمرها متهدلا على أغصان الشباب، فهو حريص على العلم، منكمش على العمل، حافظ للزمان، مراع للأوقات، ساع في طلب الفضائل، خائف من النقائص. ولو رأيت التوفيق والإلهام الرباني يحوطه، لرأيت كيف يأخذ بيده إن عثر، ويمنعه من الخطأ إن همَّ، ويستخدمه في الفضائل»[1].

فاللهم هب لنا من ذرياتنا من اصطفيتهم منذ طفولتهم، وربِّهم لنا، إنك نعم المولى ونعم النصير.

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي: ٤٤١.

٣٩

هي عنده: أعظم امرأة تطأ على الأرض الآن!!

حين تحفر الأم شخصيتها في كيان أولادها نقوشًا من الهدى والجمال الإنساني والحب الذي لا نظير له، فإن البرَّ سيكون أول ما تجنيه من الثمرات الدانية، هذا ما تملَّكني وأنا أقرأ كتاب (أفول شمس- أربعون عاما في صحبة والدتي) **للأستاذ الدكتور الشيخ عبد الله بن محمد الطيار**، أستاذ الفقه المعروف، والباحث الشرعي الكبير، وأحد القيادات الإدارية المبدعة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية قبل بضع عقود.

«كل ذلك تذكرته حينما وافاها الأجل، ولو كان العمر يُعطى لأعطيتُها -والذي فطر السماوات والأرض- عمري كله»[(١)].

هذا ما قاله أستاذي أبو محمد عن أمه، ثم توجه إلى قارئه فقال: «هل لكم أم على قيد الحياة؟ إن كان الجواب بنعم، فأسألكم بالله أن تبروا أمهاتكم ما دام في العمر إمكان، فالعزُّ والشَّرف، والتوفيق والسعادة، واللذة والحياة الكريمة، والمجد والسؤدد في برها والقيام بحقها»[(٢)].

---

(١) أفول شمس أربعون يوما في صحبة والدتي أم سعود منيرة بنت سابح الطيار، أ أ.د.عبدالله بن محمد الطيار، دار التدمرية، ١٤٣٢ هـ (٢٠١١ م)، . ص: ١٦.
(٢) أفول شمس للدكتور عبدالله الطيار: ١٦.

تأملي أيتها الأم في هذه الكلمات: (العزّ، الشرف، المجد، السؤدد)، وأديريها في مخيلتك مصحوبة بصورة حبيبك حفظه الله لك وللناس أجمعين، عيشيها وأنت ترعين هذه النبتة ورقة ورقة، وزهرة زهرة، وثمرة ثمرة.. اجعليها أهدافا لتربيتك، ورؤى زاهية تنتظرين أن تتمثل أمامك في عالم الشهود، وسوف تكون بإذن من هو عند ظن عبده به، جل وعلا.

ولكن ما سمات (**أم سعود**) **منيرة بنت سابح بن صالح الطيار**، والدة البروفسور عبد الله الطيار، تلك التي أحاطت بهذا العالم فأنشأته بما عرف عنه من علم وفضل وخلق وإبداع، يقول: «هي الصابرة الوفية، العابدة التقية، الصائمة المصلية، العطوفة الحفية، الصادقة الأبية، عفيفة اللسان، القريبة من الرحمن، المتحببة للجيران، هي الباذلة للمال، المرضية لجميع من حولها، المربية للأيتام، صبرت على محن الزمان ونوائب الدهر، وتنوعت المصائب التي حلت بها وهي كالجبل الأشم، تنظر إلى ما عند الله فتتحطم هذه المصائب على جدارها الصلب، وكأني بها ترجو أن تكون من أهل هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]. كم من صغير أفرحته، وكم من كبير قدرته، وكم من مبتلى صبَّرته، وكم من عليل واسته.

تميزت بالشكر وإكرام النعمة لأنها تعرف قدرها، فلله درُّها، ما أطيب قلبها الذي تحمله، وما أرجح عقلها، وما أسخى يدها منذ عرفت الدنيا، وأنا لم أسمع كلمة لا تُرضِي فيها، بل كل من عرفها أحبها ودعا لها.

لا أعرف امرأة في زماننا اجتمع عليها الناس محبة ووفاء وحمدًا وذكرًا حسنًا مثلها، هذه هي أمِّي صاحبة المحامد التي كانت في حياتها لا ترضى

أن يمدحها أحد أو أن يثني عليها، ولا نسمع منها صباح مساء إلا الدعاء لنا وذرياتنا بالتوفيق والصلاح، ولله درُّها، كم من إساءة تحملتها وصبرت عليها وردت عليها بالحسنة، وكأنها تتمثل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت:٣٤].

لله درُّها، كم قومت معوجًا من الأخلاق، وأصلحت كسرًا في البيوت، وردت شاردًا من الشباب، دون تهويلٍ أو تشويشٍ أو مبالغات.

هذه هي أمي، فهل يجود الزمان بمثلها؟ وهل تستطيع أرحام النساء أن يلدن مثلها في هذا الزمن؟ وليس عليّ في ذلك لوم، فـ(كل فتاة بأبيها معجبة)، رحمكِ الله يا والدتي وغفر لكِ، وجمعني وإياكِ ووالدي وذرياتنا في جنات النعيم»[1].

ومن يلومك شيخنا الفاضل، وقد جمعت أمُّك كل هذه الفضائل، بل أصبحتُ موقنا بأن أكثر العظماء العلماء كانت أمهاتهم كذلك، لين في الجانب، وحزم في النُّوَب، وصبر على المصائب، وكرم نفس ويد، واهتمام موزع على القريب والبعيد بلا توقف حتى الموت.. ولذا تكون شخصية محبوبة من الجميع، وهو ما لاحظته في سير أمهات الأعلام أنهن كما قال الدكتور محمد السلومي عن أمه نورة العضيب الشارخ: «كانت مدرسة في الترابط الاجتماعي والأسري للعائلة الكبيرة والصغيرة، وللأقارب والجيران ... كانت مرجعا اجتماعيا لصغير العائلة وكبيرها»[2]. بل إنها لتشترك مع مثيلاتها من أمهات الأعلام

(١) أقول شمس: ٣١-٣٢.

(٢) أمي مدرستي للدكتور محمد السلومي، ص: ٢٧.

الأيتام، بأنها كانت تحمل هم لقمة العيش، في كرم نفس، وتربي أولادها على الخير والفضيلة[1].

وتعدُّ أمُّ سعود أنموذجا للأم التي تجد نفسها أمام دور مزدوج، عبر عنه ابنها البارُّ فقال: «عاشت والدتي فترة عصيبة بعد وفاة والدي رحمه الله والكبير من أولادها عمره لا يتجاوز الثانية عشرة، والصغير -أنا- كان عمري شهرين فقط، وكانت تقوم بدور الأم والأب من حيث التربية والنفقة والرعاية والأحوال ميسورة، ولكن الله -جل وعلا- إذا أخذ شيئا أعطى أشياء، قامت على أمورنا تكد وتكدح، وتنقل الماء على رأسها؛ القدر بريال.

تقول لي -رحمها الله-: إني أذهب قبل الفجر وآتي بقدرين قبل صلاة الفجر، ثم آتي بالثالث بعد الفجر، ثم أتفرغ لإخوانك ليذهبوا إلى المدرسة، وبعد نقل الماء على رأسها قامت بالعمل مع بعض النساء تحصد الزرع وغيره عند بعض أصحاب المزارع، كل ذلك بحثًا عن لقمة العيش لصبيتها اليتامى الذين أصبحت هي الأم والأب لهم، ثم أخذت تحصد الحشيش وتلقط التمر من بعض المزارع القريبة، وهي تعمل بجد واجتهاد ونشاط دائب سعيًا وراء لقمة العيش».

ترى أيتها الأم الكريمة، ماذا تتوقعين من أبناء يتذكرون كل هذا العطاء، وكل هذه التضحيات من أمهم، إنهم سيجدون أمامهم: قدوة في الكفاح والاجتهاد والعزة والكرامة، ويعرفون قيمة العمل تطبيقا لا تنظيرا، وسيضمرون في أنفسهم كثيرا من الحب والتقدير؛ ليعبروا

---

(١) أفوال شمس : ٣٤.

عنه بالبر الذي لا ساحل لبحره، ولا منتهى له حتى تفيض الأرواح إلى بارئها لتلتقي في جناته.

وتذكرني أم سعود أم الأستاذ **الدكتور عبد الله الغذامي** التي أدمنت العطاء إلى أن تهاوى صرح جسدها على فراش الموت، فها هي ذي أم سعود يقول عنها ولدها أ.د.عبدالله الطيار: «كم من المحامد دفعتنا إليها وربَّتنا عليها وجعلتها جزءًا من حياتنا، ولعل من أهم ذلك عندها الاجتماع والتآلف وتجاوز ما قد يقع بين الأقارب مما لا بد منه أحيانًا، وكذلك غرس فضل الصدقة والبذل في نفوسنا منذ أن كُنَّا صغارًا غير مكتسبين، بل إنها منعت إخوتي من بيع ناتج المزرعة من الخضار وغيرها وأمرتهم بتوزيعها مجانًا هدية للقريب والجار وصدقة على المحتاج.

وكم كانت تستمتع ضحى كل يوم وهي تتولى توزيع ما يحضره أخي علي رحمه الله من المزرعة، ثم بعده أخي سعود الذي تحمل مسؤولية المزرعة كاملة وكفانا هذه المهمة وهيأ لي الجو العلمي فجزاه الله عني خيرًا.

وفي بعض الأيام إذا جئت إلى جناحها في البيت ورأيت على وجهها علامات الغضب وسألتها وحاولت معها من هنا وهنا أفصحت لي أن نصيب فلان أو فلانة من الخضرة لم يصلهم إلى الآن، فأقول لها: أنا أوصله الآن إن شاء الله، فيسر خاطرها وتظهر عليها علامات البشر والفرح، كل ذلك محبة للصدقة وبذلًا لها.

ولذا كم تعلمنا منها هذه المعاني العظيمة، وكانت تقول لي كثيرًا يا ولدي: إذا أنفقت من هنا عوضني الله من هنا، بل تقول لي: إذا أعطيت الصغار من الموجود عندي من الحلوى والعلوك وغيرها يعوضني الله

من أحدكم مباشرة، وهذا ما رأيناه رأي العين في مسائل الإنفاق على الأهل والأقارب، وصدق رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقـًا خلفـًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفـًا» [رواه البخاري ومسلم]»[1].

لا تظني أختي أن هذه المعاني تغيب عن حسِّ الأولاد لحظة من الحياة، وقد تربوا عليها، وأنبنت في أرواحهم منذ تشكلها؛ حتى أصبحت جزءا لا يتجزأ منها.

والأم العظيمة خيمة ظليلة، تجمع شمل أولادها، وتسعى إلى أُلفتهم، ولا تسمح بأي طارئ يمكن أن يفرقهم، بل إنها لتخطط لتجمعهم في حي واحد، وقد فعلت ذلك أمُّ سعود، يقول الدكتور عبد الله الطيار عن أمه -رحمها الله-: «اشترطت على إخوتي أن تكون البيوت متجاورة، وأن يكون لها سكن في وسط البيوت، وهكذا اجتمعت مساكننا ولله الحمد في سور واحد لجميع أبنائها»[2].

والطِّيبةُ التي تنعم بها أروقة ذلك القلب الكبير، جعلتْها تتخذ موقفًا من أولادها حين يشتكون من أبناء الجيران، يقول الدكتور عبد الله: «إذا جاء واحد منا يشكو أحد أبناء الجيران عنَّفت عليه وقالت: أنت المخطئ ولا تتركُ له فرصة أبدًا»[3].

إنها التربية على لين الجانب، وتقبل الآخر ولو كان مخطئا، والصبر على

---

(١) أفول شمس: ٥٦.
(٢) أفول شمس: ٧٧.
(٣) أفول شمس: ٧٩.

القريب والجار، لما له من حقوق، بل إنه يعلم الأولاد أن شكواهم لأمهم لن تغير من الموقف الصحيح شيئا، ولن تنصرهم أمُّهم على غيرهم ما داموا مخطئين، بل ولو كانوا مظلومين، فإن من المروءة العفو عن الأقربين.

وإن بعض الأمهات ليورثن من الأحقاد والثارات فيما بين أبنائها وبناتها، وفيما بين أسرتها وأقاربها ما يجعل امتداد حياتها عواصف نتنة، من المشكلات المتوالدة بعضها من بعض، حتى لتتلاحق الأجيال ولا تدري لماذا هي متخاصمة!!

وهو ما نتذكر به عددا من أمهات الناجحين، ومنهم أم الدكتور محمد السلومي حيث يقول عنها: «والدتنا -بحمد الله- لم تترك لنا إرثا ماليا، لكنها تركت إرثا ضخما من الذكر الحسن، والمعاني الجميلة، وقيم التسامح والتجاوز والعطاء والصبر والحلم والإيثار وحب الآخرين وعدم الغضب (الزعل) على أحد، إرثا يستوجب الوفاء والعطاء والدعاء بحجمه»[1].

وعودة لأم الدكتور الطيار في آخر كتابه أفول شمس:

«من له أم كأمي؟!

الأم عظيمة في نفسها، صابرة على محنتها، قائمة بما أنيط بها.

أرق الناس قلبًا على أولادها، وأكثرهم حنوًّا عليهم.

لكن أمي ليست كالأمهات،وقديمًا قيل: كل فتاة بأبيها معجبة وكل يغني على ليلاه.

(١) أمي مدرستي للدكتور محمد السلومي: ٥٠.

أمي نادرة الوجود، عجيبة في حياتها، وإني معها كقول القائل:

أثنـي عليـك بـما اسـتطعت وربما
يُـعْيِي البليــغ جـلالة الممـدوح

أمي امرأة صاحبة همة علية، وقلب قطَّعهُ الأسى والحسرات، لكن زيَّنه الصبر، وجمَّله الرضا، وثبَّته التعلق بالله؛ فلا تراها إلا حامدة شاكرة، مصلية صائمة، داعية واعظة.

مجلسها يعمر بالخير، ولا مكان فيه لأصحاب الغيبة والنميمة، حتى إنها إذا جاءت بعض النساء وتحدثت بما لا ترغبه أمي رفعت صوت المذياع على إذاعة القرآن، أو رفعت صوت التسجيل إلى حد التشويش على المتحدث أو المتحدثة لتقطع الحديث وتصرفه إلى الخير.

أمي صاحبة رأي نادر ولاسيما في حل مشكلات النساء، ولذا أحيانًا تسألني عن أمر فأقول لها وأنت ماذا ترين، فتذكر العلاج الدقيق، وكم تولت بعض المشكلات دون أن يعلم عنها بعض الأطراف، وحسمتها في مهدها.

أمي صاحبة صدر واسع يتسع لكثير من الخلاف والخصام، ولذا اليوم الذي لا يكون عندها أطفال ترتفع أصواتهم لا ترتاح على عكس كثير من النساء اللواتي يطردن الأطفال ولا يرضين بعبث الأطفال ولعبهم»[1].

«هذه هي أمي، فيا لائمي دعني أغالي بها فأنا الذي أعرف قدرها ومكانتها.

---

(١) أفول شمس للدكتور عبد الله الطيار: ١٨٧ – ١٨٨.

قلت ذات يوم لسماحة الشيخ الوالد صالح اللحيدان -في مكانه في الحرم-: معي أعظم امرأة تطأ على الأرض الآن. فقال: قل أعظم امرأة عندي ولا تلام في ذلك».

هذه هي أمي مربية ومعلمة وصاحبة عقل راشد ورأي سديد وتقدير للعواقب، تحب القريب، وتكرم الجار، وتصل الرحم، وتواصل العبادة، ضربت المثل بالصبر والتحمل كلما ضاقت عليها الأمور عظم لجوؤها إلى الله، فيفرج كربها ويزيل همها، فرحمها الله رحمة واسعة وأسكنها الفردوس الأعلى من الجنة»[1].

ومثل هذه المرأة العظيمة ما كان لها إلا أن تنتج عظيما، أخذ من خصائصها، وناله من شرف صحبتها ما جعله مثلا في الكرم والنبل والأخلاق العالية والهمة التي لا تعرف غير القمة.

(١) المصدر السابق: ١٨٩.

٤٠

الأم سر التفوق الدراسي في اليابان وسنغافورة .. وربما في....

أثبتت دراسة استمرت عشرين سنة أن السر وراء تفوق التعليم في اليابان يكمن في مساعدة الأمهات لأولادهن على المذاكرة وكتابة الواجبات المدرسية. (الإسلام اليوم).

وهو ما كان في سنغافورة التي يعيش فيها حوالي ٥,٥ مليون نسمة؛ حيث تحتل المراتب العليا بنحوٍ رتيب متكرر في المقارنات العالمية في الرياضيات، وتضم أحد أكثر النظم التعليمية تميُّزًا في العالم، وفي جدول دوري مبني على نتائج الاختبارات من ٧٦ بلدًا التي نشرتها منظمة التعاون والتنمية في شهر آيار من عام ٢٠١٦م، جاءت فيه سنغافورة في المركز الأول.

كان من أبرز الأسباب في هذا التفوق (الأسرة السنغافورية) التي جعلت ابنها مشروعها الأهم في الحياة، فانداح الهدف الخاص على تقدم البلاد كلها وتطورها تطورا أذهل العالم المتقدم؛ حتى أرغمه على دراسة هذا التغير، وأسبابه:

«ابتسم سي يو جوا حينما سُئِل عن كيفية ردة فعل والديه إذا ما حصل على نتيجة اختبار متدنية، وقال: «أهلي ليسوا صارمين ولكن لديهم توقعات عالية مني، لا بد لي من التفوق بنحوٍ جيّد في دراستي،

هذا ما يتوقعونه مني». يبلغ سي يو جوا من العمر ١٣ عامًا وهو تلميذ في المدرسة الأميرالية، وهي مدرسة ثانوية حكومية في الضواحي الشمالية لسنغافورة وافتتحت في عام ٢٠٠٢م»[١].

تشاركنا ـ بإشارات تربوية قيمة ـ أم من أمهات اليوم، وهي تتحدث عن تجاربها الناجحة في صناعة متميزين مبدعين؛ تقول: «إني لا أحمل شهادة الدكتوراه في التربية،أو علم النفس، أو غيرها، ولا أنقل لكم كلامي هذا من مجلة، أو كتاب،بل ستتحدث إليكم (أم) قضت سنين طويلة بين أطفالها، فهي تعطيكم كلمات صاغتها التجربة الواقعية، وصقلتها المعايشة الطويلة، وجنت ثمراتها واقعا ملموسا مؤكدا.

«**أولا**: (كوني صالحة في نفسك، يصلح لك أطفالك) [وماذا تعنين بهذه الكلمة؟] أعني كوني القدوة الصالحة لهم، فيرون فيك كل ما ترغبين رؤيته فيهم، فالقدوة أسهل وأنجح طريقة في تعليم الطفل وتهذيبه، كوني قرآنا يمشي على الأرض، وصورة طيبة للأم الحنون القريبة من أولادها. كان أحد السلف يقول: «إني لأعمل الذنب فأرى شؤمه في خلق امرأتي ودابتي»، فأنا أحاول قدر جهدي إصلاح نفسي أولا، وملازمة الاستغفار والتوبة؛ حتى لا أرى أثر ذنوبي على سلوك ذريتي.

ثانيا: القرب الجسدي والعاطفي: فأنا أضمُّهم، وأقبلهم كل صباح ومساء، وقبل الذهاب إلى المدرسة وبعد عودتهم منها، وقبل النوم، وفي كل حين حتى باتت قبلتي هدية غالية لكل من يصنع

---

(١) موقع مركز البيان للدراسات والتخطيط على الشابكة.

معروفا منهم، بل وحتى المخطئ منهم فلا أحدثه إلا بعد أن أجلسه بجانبي وأمسح على رأسه وأضمه وأثني عليه.

ثالثا: الحرص على الاستقرار النفسي فأنا أخاطب أبنائي بكل احترام، ولو كان أحدهم مخطئا أو مؤذيا، ولا أُحَقِّر من شأنهم، ولا أفرق بينهم في معاملة وتلطف، أو أقارن بين أحدهم وبين الآخرين. والشيء المهم جدا هو زرع الثقة في نفوسهم وإشعارهم بذلك.

رابعا: دائما ما ألفت انتباههم إلى الجوانب الحسنة في شخصيتهم وتصرفاتهم، وأثني عليهم كثيرا، وأشجعهم دائما، وأدعو لهم وهم يسمعون.

خامسا: المكافآت دائمة في منزلي بلا انقطاع، بل حتى إن واجهت من أحدهم مشكلة، أو أردت نصحه، فلا بد أن أبدأ حديثي بمدحه، وإبراز الجوانب المضيئة في حياته، يا بني أنت مؤمن بالله بار بوالديك، فيك كذا وفيك وكذا، أنا على ثقة بأنك ستتخلص مما سأخبرك به؛ لأنه لا يليق بصحيفتك البيضاء......إلخ.

سادسا: أنا لا أحب أسلوب العنف في التعامل مع الطفل، ولا أذكر أني ضربتُ أحدا من أطفالي إلا نادرا. الضرب يجعل الطفل يكره والديه، ويولد لديه العناد وعدم الاستجابة للوالدين، وعدم احترام رأي والديه يولد لديه العدوانية. ستقول أي أم: ما البديل؟ أقول: البديل هو الإقناع، والحزم في الأمر، وعدم التراجع عنه، والتأديب بأساليب أخرى؛ كالحرمان من شيء يحبه وغير ذلك.

سابعا: ألزم الهدوء عند الحديث مع طفلي، والابتعاد عن الصراخ الذي لا يجدي شيئا، بل يساهم في صدِّ قلب ابني عني، وعن نصائحي، والانفعال الغضبي الدائم يورث سلوك الغضب في نفس الطفل، ويسيء إلى أخلاقه.

ثامنا: أحاول دائما أن أغرس في أبنائي منذ الصغر الخوف من الله والحرص على رضاه، وأربط كل قول معهم وتوجيه بمسألة العقاب والثواب، والجنة والنار. وإن كان صغيرا لا يفهم هذه المسألة. فأبدأ معه بمكافأته بالحلوى واللعب، كلما فعل طيبا، أو ترك سيئا.

تاسعا: دائما أؤكد لأطفالي مسألة حبي لهم، وحرصي عليهم، فأنا ما نهيتكم عن هذا إلا لحبي لكم، وما أمرتكم بهذا إلا لحبي لكم. فالطفل يحب أن يسمع كلمات الحب من والديه؛ فهي تزيد علاقته بهما، وتدفعه لاحترام قولهما.

عاشرا: حرصت حرصا شديدا على إلحاق أبنائي بحلقات تحفيظ القران الكريم، وجدتها ـ والله ـ خير معين لي ـ بعد الله ـ على تربية أبنائي.

الحادي عشر: أما ما أظنه السبب الأول والرئيس في صلاح ذريتي، وطيب علاقتي بهم: فهو الدعاء الدائم؛ فقد اعتدت أن أدعو لهم يوميا في صلاة الفجر والمغرب؛ عدا غيرها من الأوقات. وقد أخذت هذه العادة من أمي التي كانت تحثنا دائما على الدعاء لأبنائنا وتذكرنا به كثيرا وتدعو لنا أيضا في كل حين».

٤١

والأم تعدي أيضا ..

تأكيدا لمسألة انتقال عادات الأمهات إلى الأبناء، هذه قصة البروفسور محمد يونس أستاذ الاقتصاد السابق في جامعة (**شيتاجونج**) المركز التجاري لمنطقة البنغال الشرقي في شمال شرق الهند، ومؤسس بنك جرامين Grameen Bank، الحاصل على جائزة نوبل العالمية عام ٢٠٠٦م، كان والده يعمل صائغًا في المدينة، وهو ما جعله يعيش في سعة من أمره، فدفع أبناءه دفعًا إلى بلوغ أعلى المستويات التعليمية، غير أن الأثر الأكبر في حياة يونس كان **لأمِّه (صفية خاتون)** التي ما كانت ترد سائلًا فقيرًا يقف ببابهم، والتي تعلّم منها أن الإنسان لا بد أن تكون له رسالة في الحياة.

كان ضمن الحركة الطلابية البنغالية المؤيدة للاستقلال، التي كان لها دور بارز في تحقيق ذلك في النهاية. وبعد مشاركته في تلك الحركة عاد إلى بنجلاديش المستقلة حديثا في عام ١٩٧٢ ليصبح رئيسًا لقسم الاقتصاد في الجامعة نفسها، وكان أهالي بنجلاديش يعانون ظروفًا معيشية صعبة، وجاء عام ١٩٧٤ لتتفاقم معاناة الناس بحدوث مجاعة مات فيها ما يقرب من مليون ونصف المليون من البشر.

وبسبب تفاقم أوضاع الفقراء في بلاده، مضى يحاول إقناع البنك المركزي أو البنوك التجارية بوضع نظام لإقراض الفقراء بدون ضمانات، وهو ما دعا رجال البنوك للسخرية منه ومن أفكاره، زاعمين أن الفقراء ليسوا أهلا للإقراض.

لكنه صمم على أن الفقراء جديرون بالاقتراض، واستطاع بعد ذلك إنشاء بنك جرامين في عام ١٩٧٩م في بنغلاديش، لإقراض الفقراء بنظام القروض متناهية الصغر التي تساعدهم على القيام بأعمال بسيطة تدر عليهم دخلا معقولا، في ٢٤ يونيو ٢٠٠٨م.

احتل (محمد يونس) **المرتبة الثانية** ضمن أبرز المفكرين على مستوى العالم في قائمة عشرين شخصية أكثر تأثيرا على مستوى العالم الإسلامي لعام ٢٠٠٨م، في استطلاع دولي أجرته مجلتا «فورين بولسي» و«بروسبكت» الأمريكية والبريطانية على التوالي.

وقد لقيت هذا الرجل في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، فأدهشني بقوة شخصيته، وامتلائه بهدفه، وكيف استطاع أن يمدَّ أثره في أكثر من ستين مدينة في العالم.

صورة أمه وهي تعطي الفقراء وتهتم بشأنهم أصبحت جزءا من مخيلة ابنها محمد بل أصبحت رسالته التي وهب لها حياته، عناصر الجمال لدى الأم تنتقل، وعناصر القبح كذلك، وكلُّ أم تختار نوع ما تريد أن تترك أثره في نفوس أولادها.

وحين تنهض الأم بالتربية الأصيلة الصحيحة وتتعب وتنصب في سبيل ذلك، فلن تكون النتائج ـ بإذن الله تعالى وهدايته ـ سوى البر والنجاح والتفوق، ثم حفظ ذلك كله في سجلات قلوب أولادها.

٤٢

لا بديل عن رعاية الأم إلا بأم

في تقرير لهيئة الصحة العالمية أكد أن كل طفل مولود يحتاج إلى رعاية أمه المتواصلة لمدة ثلاث سنوات على الأقل، وإنَّ فقدانَ هذه الرعاية يؤدي إلى اختلال الشخصية لدى الطفل، كما يؤدي إلى انتشار جرائم العنف الذي انتشر بصورة مريعة في المجتمعات الغربية(١).

وفي دراسة في جامعة هارفارد على الأطفال الذين تلقوا رعاية الأسرة، والأطفال الذين حرموا منها، وعاشوا في ملاجئ، سجلت الدراسة مشاهدات مثيرة منها: أن معدل الذكاء لدى الأطفال الناشئين في أسر طبيعية بلغ ١٠٠ درجة، وقد تزيد، بينما كان عند من نشأ في دور الرعاية بين ٦٠-٧٠ درجة فقط، ويصنف هذا المعدل على أنه إعاقة طفيفة، وقد نبهت الدراسة إلى الدور الكبير الذي تقوم به الأسرة وخاصة (الأم) في تنشئة طفل سليم بدنيا ونفسيا؛ خاصة في السنوات الخمس الأولى وأن هذا الدور يصعب تعويضه من قبل المؤسسات والمربيات المستأجرات(٢).

إذن ما تقوم به الأم من تربية ورعاية لا يمكن أن يُفوَّض لأحد من الناس مهما كانوا قريبين ومحبين، وأن التربية الوالدية من الأم بالذات

---

(١) د.محمد علي البار.

(٢) حساب عبدالله البسام، ٢٠١٨/ ١٢/ ١٧م.

هي أمان بشري، وليس فقط مخرجا ذاتيا لها، وأنها ضرورة إنسانية، وليست مجرد عمل رتيب تضطر إليه.

ومن أجل ذلك فإنا لن نعدم النماذج المثلى التي تحقق هذا الهدف السامي الكبير، ولذلك أيضا «لا ينقطع عطاء أمهاتنا المثاليات عن التضحية، ولا ينضب صبرهن الطويل المفعم بعواطف الأمومة الصادقة، فعطاؤهن نهر خالد، وقصص كفاحهن سجلها التاريخ بأحرف من نور، تحدَّينَ الصعاب، ودحرن الظروف القاهرة من أجل الارتقاء بأبنائهن إلى سلم المجد»[1].

وإذا يسر الله لأحد الذين تربوا في حضن أمٍّ عظيمة قلما سيالا، وكتب عنها، كما فعل **الأستاذ الدكتور بشير الرشيدي، والأستاذ الدكتور طارق الحبيب، والأستاذ الدكتور عبد الله الطيار**، فسنجد جنبات الجوهرة تتقاذف الأنوار والألوان والظلال.

لقد أعجبتني كثيرا عددٌ من الوقائع الجميلة في المجتمع، حين يختار كاتب سعودي مثل **الدكتور عزام بن محمد الدخيل** أن تكون أمه على منصة التوقيع في معرض الكتاب بالرياض؛ لتوقيع أحد كتبه، وما هي إلا فترة قصيرة؛ حتى أصبح وزيرا للتعليم في المملكة العربية السعودية.

وفي محافظة البرك بمنطقة عسير جاء **المواطن عبدالله الهلالي** بأمه؛ لتتولى قص شريط افتتاح مشروعه الجديد فكسر بذلك المعتاد في

---

(١) ملف خاص نشرته جريدة المستقبل العراقي بعددها الصادر ببغداد في ٢٠١٢/ ٧/ ٨، كاظم فنجان الحمامي.

الافتتاحات الرسمية؛ ليردَّ لوالدته جزءًا يسيرا من جميلها بأن وضعها في صدارة حاضري حفل إطلاق مشروعه التجاري.

ورفعت والدة (الهلالي) أكفَّ الضراعة قبل قص الشريط تدعو لابنها بالقبول والنجاح، كما عبّرت عن سعادتها بالخطوة التي اتخذها ابنها وتمنت له النجاح، وقالت: «إنني فرحة جدًا بنجاح ابني وأنا أشاهده كل يوم يكبر أمام عيني، فجزى الله ابني خير الجزاء الذي غمرني بالفرحة وجعلني أعيش معه هذا النجاح».

من جانبه قال (الهلالي): «إنني فخور بما فعلته اليوم، وأنتم لا تعلمون حجم السعادة التي غمرتني وأنا أشاهد والدتي تشاركني الفرحة في افتتاح مشروعي، ويجب على كل شخص أن لا ينسى من قاموا بتربيته صغيرًا، ولهم الفضل بعد الله في وصوله لمركزه الاجتماعي الذي هو فيه، فلولا دعواتهم ورضاهم لما تمكن من وصول ما هو فيه الآن، وحان الوقت ليرد جزءًا صغيرًا من أفضالهم عليه»[1].

(١) صحيفة البندر الإلكترونية، السبت٢٧/ ٠٦/ ٢٠١٥-١١ : ٤ ص.

٤٣

الأم العظيمة .. زوجة عظيمة

ومما لاحظته في أمهات العظماء أنهن كن زوجات عظيمات أيضا، تحب زوجها وتضحي من أجله، وتسانده في كفاحه في الحياة، وتفِي له بعد موته إذا سبقها إلى مولاه.

وقد مر بي غير قليل من هؤلاء النساء من كُنَّ نماذج مضيئة في هذا الشأن.

وممن ذُكروا في التاريخ العراقي الحديث: (**أم مؤيد**)، التي كرست حياتها كلها لخدمة عائلة كبيرة احترفت الملاحة في شط العرب منذ عام ١٩٣٦م حتى يومنا هذا.

كانت لزوجها رفيقة درب، تعينه على النوائب، وتزيح عنه الأعباء الثقيلة، وهي أيضا صديقة مخلصة له، وزوجة فاضلة، شاركته أفراحه، ساندته في أحزانه، ناضلت معه عثرات الزمان وصعابه، أنجبت له كوكبة من الرجال...، كرست عمرها كله في تربيتهم وتنشئتهم على أسس تربوية، أضفت على حياتهم سرورا وبهجة، وجعلت في قلوبهم سلاما وخضوعا لكلمة الله، هي في شخصها معلمهم الأول، وهي سبيلهم إلى الاستقامة، أسست نخبة من الضباط والمهندسين والأساتذة والملاحين، غزلت لهم بيدها أجمل ما كانوا يرتدون من ملابس وقبعات ووسائد وأغطية، أعدت لهم أشهى الأطعمة، سهرت على راحتهم،

هونت لهم الصعاب في الأزمات التي كانت تداهمهم بين الفينة والفينة، أعطتهم الأولوية، وفضلتهم على نفسها.

ومما ظهر لي من أمهات العظماء أنهن كادحات، فهذه تنقل قدور الماء على رأسها، وتلك تخدم الأثرياء من أجل توفير الغذاء لأطفالها، وربما كان كدحها داخل أسوار بيتها، كما كانت أم مؤيد، حيث كانت تجيد الخياطة المنزلية، فنانة في التطريز، بارعة في الحياكة بكل أنواعها، ماهرة في المطبخ، تحلب أبقارها في الصباح الباكر، لتجهز المائدة بالزبد والحليب واللبن والقيمر (القشطة)،... تعجن وتخبز في تنورها الطيني خلف الدار، تقطف الخضروات من حديقتها المنزلية، تنتقي أجود أنواع التين والزيتون والبمبر من الشجيرات المحيطة بسياج حديقتها، لتعد الفطائر والمربى والمخللات المنزلية (الطرشي)،...لم تكن (أم مؤيد) بحاجة للتبضع من سوق (خمسين حوش)، لكنها كانت تفضل السير على الأقدام في ذهابها وإيابها كلما دعتها الحاجة للتسوق، فتعود مسرعة إلى قلعتها لتشرف على عناصر ثكنتها الصغيرة، تراقب الجميع، تشرف على تدريس الصغار، وتوفر الأجواء المريحة لزوجها الكابتن البحري بعد عودته مجهدا من نوبات الإرشاد المرهقة، كان زوجها يحترم الوقت، ويؤدي واجباته الوظيفية على الوجه الأكمل،... يميل إلى تطبيق قواعد الانضباط المنزلي، في اللياقة والكياسة، بيد أن إدارة المنزل، وما يتعلق بشؤون الأولاد والأحفاد كانت حكرا على الحاجة (أم مؤيد).

اعتادت أن تقرأ القرآن، تختمه مرة واحدة في الأسبوع، تتابع برامج الأسرة التي تعرضها الفضائيات،... تمتلك ذاكرة فولاذية، حتى

تكاد تكون أرشيفا حيا في التاريخ الملاحي لشط العرب، بل كانت (أم مؤيد) -وهو الأهم- هي الحاضنة التي وفرت الرعاية والعناية لسبعة من الملاحين الكبار، الذين عملوا في شط العرب، ودافعوا عن حياض المياه الإقليمية العراقية، وهي التي رصدت كل شاردة وواردة ببصيرتها الثاقبة، ولسنا مغالين إذا قلنا إنها تعد مرجعا نادرا في سرد بعض الأحداث البحرية التي واكبت حياة زوجها وحياة أبنائها وأحفادها،... تخرج في مدرستها المهندس المتفوق على أقرانه في وزارة الصناعة (داغر)، والمهندس البارع في شركة نفط الجنوب (الشهيد المظفر)، والتدريسي المتميز الدكتور (منقذ)، ورئيس مركز دراسات الخليج العربي الأسبق، الأستاذ الدكتور (محمود)، والمرشد البحري الأقدم (مؤيد)، والإداري اللامع (موفق)، والضابط البحري المتميز (المنتصر)، والتربوية الناجحة (سناء)، وحفيدها العميد البحري الركن (مهند)، وربما كانت هي التي شجعت أبناء شقيقها في ولوج العوالم البحرية من أوسع أبوابها، فكان (علي) ابن شقيقها حازم من دفعة الضباط البحريين الذين تخرجوا في أكاديمية الخليج العربي عام ١٩٨٣، وتخصص مؤخرا في القطاع البحري الخاص بتأسيسه لمكتب (التوفيق) للخدمات البحرية، ثم تبعه شقيقه (محمد) فتخرج في الأكاديمية عام ١٩٨٦هـ، أما شقيقهم (ليث) فسجل اسمه مديرا متميزا في خطوط الشحن البحري من خلال شركة (رمال البحر)، إحدى الشركات الفاعلة في الموانئ العراقية.

وفي الاتجاه الآخر كان يختلف إلى بيتها عدد من شعراء العراق ومبدعيه، أمثال بدر شاكر السياب، الذي ارتبط بعائلتها بروابط قرابة

بعيدة، ولطالما لجأ إلى بيتها في الساعات العصيبة، وفي أوقات الشدة، والأستاذ داود الفرحان، الذي ارتبط بعلاقات وثيقة مع هذه الأسرة.

وعرفت أم مؤيد بأنها كانت مجتهدة في طاعة ربها، صوامة في نهارها، قوامة في ليلها، ناطقة بالحق، شاكرة في يسرها، صابرة على ضراءها، عفيفة نزيهة قانعة خاشعة متواضعة، أفنت جهدها وطاقتها لتصنع من أبنائها شيئا تسعد به الأمة، وتسعد به الوطن، وتسعد به الأجيال القادمة[1].

(١) ملف خاص نشرته جريدة المستقبل العراقي بعددها الصادر ببغداد في ٢٠١٢/ ٧/ ٨، كاظم فنجان الحمامي.

٤٤

لا تقبض شيئا على فعل الخير.. دعه ينمو

فجأة، وجد (هوارد كيلي) -الطفل الفقير الذي يبيع السلع بين البيوت؛ من أجل أن يوفر قيمة فاتورة دراسته، أنه لا يملك سوى عشرة سنتات لا تكفي لسد جوعه، لذا قرر أن يطلب شيئا من الطعام من أول منزل يمر به، ولكنه لم يتمالك نفسه حين فتحت له الباب شابة صغيرة وجميلة، فكأنه أحس بالإحراج، وبدلا من أن يطلب وجبة طعام، طلب أن يشرب الماء.

وعندما شعرت الفتاة بأنه جائع، أحضرت له كأسا من اللبن، فشربه ببطء، وقد كان ذا طعم لا يُنسى؛ بسبب الجوع القارس، الذي أطفأه ذلك الكوب.

ثم سألها: بكم أدين لك؟

فأجابته: لا تدين لي بشيء.. لقد علمتنا أمنا ألا نقبل ثمنا لفعل الخير.

فقال: أشكرك إذا من أعماق قلبي.

وعندما غادر المنزل، لم يكن يشعر بأنه بصحة جيدة فقط، بل أن إيمانه بالله وبوجود أُناس طيبين قد ازداد، بعد أن كان يائسا ومحبطًا.

أما أنا فدار في أفلاك خلدي كواكب مبهرة من الضياء والأضواء

والجمال، وأنا أسمع كلمة الفتاة: «لا تدين لي بشيء.. لقد علمتنا أمنا ألا نقبل ثمنا لفعل الخير».

غرسة أنبتت الآن، وستنبت غدا، لتؤتي كلها كل حين بإذن ربها، فهل علمت الأم -وهي تغرس القيم في نفوس أولادها- كم تنسج لهم من أبراد السعادة في الدنيا والآخرة، بل وترسم لهم مستقبلا رائعا وجميلا!!

لم تنته القصة بعد، فبعد سنوات، تعرضت تلك الشابة لمرض خطير، مما أربك الأطباء المحليين، فأرسلوها لمستشفى المدينة، حيث تم استدعاء الأطباء المتخصصين لفحص مرضها النادر.

وقد استدعي الدكتور هوارد كيلي للاستشارة الطبية، وعندما سمع اسم المدينة التي قدمت منها تلك المرأة، لمعت عيناه بشكل غريب وانتفض في الحال عابرًا المبنى إلى الأسفل حيث غرفتها، وقد ارتدى زيه الطبي، لرؤية تلك المريضة وعرفها بمجرد أن رآها، فقفل عائدا إلى غرفة الأطباء، عاقدا العزم على عمل كل ما بوسعه لإنقاذ حياتها، ومنذ ذلك اليوم أبدى اهتماما خاصا بحالتها.

وبعد صراع طويل، تمت المهمة على أكمل وجه، وطلب الدكتور كيلي الفاتورة إلى مكتبه كي يعتمدها، فنظر إليها وكتب شيئا في حاشيتها وأرسلها لغرفة المريضة.

كانت خائفة من فتحها؛ لأنها كانت تعلم أنها ستمضي بقية حياتها تسدد ثمن هذه الفاتورة، أخيرًا.. نظرت إليها، وأثار انتباهها سطران قد كُتبا في الحاشية، فقرأت تلك الكلمات: «مدفوعة بالكامل مقابل كأس من اللبن». التوقيع: د.هوارد كيلي

اغرورقت عيناها بدموع الفرح، ورددت متمتمة بسرور هذه الكلمات: «شكرا لك يا إلهي، شكرا لك على فيض حبك ولطفك الغامر».

وأقول في إثر كلماتها..: بعد شكر الله تعالى شكرا لوالدتك التي علمتك ألا تقبضي ثمن فعل الخير، وأن تدعيه ينمو حتى يصبح بستانا من النخيل والأعناب تجري من تحته الأنهار.. وهناك ستخوض فيه خيراته قدماك، ويتنهل من جماله عيناك.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

لن يذهب هباء كل ما تقدمينه لأولادك، حتى وإن بدا لك ذلك أحيانا، بسبب تفريط من أحدهم، أو تقصير، أو حتى عقوق، فأنت تزرعين لله تعالى، فالقطاف عنده إذن، وما تقطفينه في الدنيا فهو قليل جدا إزاء ما يذخره الله لك في الآخرة، وما تفقدينه في الدنيا لا شيء أمام ما عند الله تعالى، ولذلك فأنت لا تفقدين شيئا أبدا.

حين يكبر الولد سيعلم يقينا من تكونين له، وإذا كان الأدباء والشعراء قد تسابقوا في الثناء عليك، وتذكر مآثرك أيتها الأم الكريمة، فقد وجدتُ كثيرا من مشاعرهم في هذه المقالة الجميلة التي تسلسلت كالنمير العذب من قلم سيال، عرف بالعلم والدعوة، قلم الشيخ **الدكتور عائض بن عبد الله القرني**، يقول:

«أكبرُ وأنا عند أمي صغير، وأشيب وأنا لديها طفل، هي الوحيدة التي نزفت من أجلي دموعها ولبنها ودمها، نسيني الناس إلا أمي، عقّني الكل إلا أمي، تغيّر عليّ العالم إلا أمي، الله يا أمي: كم غسلت خدودك

بالدموع حينما سافرت! وكم عفت المنام يوم غبت! وكم ودّعت الرّقاد يوم مرضت! الله يا أمي.

إذا جئتُ من السفر وقفتِ بالباب تنظرين والعيون تدمع فرحا، وإذا خرجتُ من البيت وقفتِ تودعينني بقلب يقطر أسى. أنا قضيّتك الكبرى وقصتك الجميلة، وأمنيتك العذبة تحسنين إليّ وتعتذرين من التقصير وتذوبين عليّ شوقا وتريدين المزيد.

يا أمي: ليتني أغسل بدموع الوفاء قدميك، وأحمل في مهرجان الحياة نعليك، يا أمي ليت الموت يتخطاك إليّ وليت البأس إذا قصدك يقع عليّ.

يا أمي كيف أردّ الجميل لك بعدما جعلت بطنك لي وعاء، وثديك لي سقاء، وحضنك لي غطاء؟ كيف أقابل إحسانك وقد شاب رأسك في سبيل إسعادي، ورقّ عظمك من أجل راحتي، واحدودب ظهرك لأنعم بحياتي!

كيف أكافئ دموعك الصادقة التي سالت سخيّة على خدّيك مرة حزنا عليّ ومرة فرحا بي لأنك تبكين في سرّائي وضرّائي؟ يا أمي أنظر إلى وجهك وكأنه ورقة مصحف وقد كتب فيه الدهر قصة المعاناة من أجلي، ورواية الجهد والمشقة بسببي.

يا أمي أنا كلي خجل وحياء إذا نظرت إليك وأنت في سلّم الشيخوخة وأنا في عنفوان الشباب تدبين على الأرض دبيبا وأنا أثب وثبا.

أعضائي صنعت من لبنك، ولحمي نسج من لحمك، وخدّي غسل بدموعك، ورأسي نبت بقبلاتك، ونجاحي تم بدعائك، أرى جميلك

يطوّقني فأجلس أمامك خادما صغيرا، لا أذكر انتصاراتي ولا تفوقي ولا إبداعي ولا موهبتي عندك؛ لأنها من بعض عطاياك لي، أشعر بمكانتي بين الناس وبمنزلتي عند الأصدقاء وبقيمتي لدى غيرك.

ولكن إذا جثوت عند أقدامك فأنا طفلك الصغير وابنك المدلّل؛ فأصبح صفرا يملأني الخجل، ويعتريني الوجل، فألغي الألقاب، وأحذف الشهرة، وأشطب على المال، وأنسى المدائح؛ لأنك (أم) وأنا (ابن)، ولأنك (سيّدة) وأنا (خادم)، ولأنك (مدرسة) وأنا (تلميذ)، ولأنك (شجرة) وأنا (ثمرة)، ولأنك كل شيء في حياتي؛ فائذني لي بتقبيل قدميك، والفضل لك يوم تواضعت وسمحت لشفتي أن تمسح التراب عن أقدامك».

﴿ربّ اغفر لوالدي وارحمهما كما ربّياني صغيرا﴾.

٤٥

لماذا تكذب بعض الأمهات؟

إن حديث الأعلام والعظماء والناجحين عن أمهاتهم بعد أن يتسنموا أعلى المراتب، ويحققوا أعظم المطالب، يكون متسما بالاعتراف بالجميل، والحرص على رد ذلك الجميل، وتحليل بعض الأعمال التي كانت الأم تقوم بها بدافع من حبها الكبير وفطرتها القويمة، وحين تبصر أمهات اليوم هذه الصور الجميلة العذبة، فإنهن -حتما- سيجدن أنفسهن أمام مشروع قد درست جدواه، وجربت حلاوته وفحواه، وانهمر خيره انهمار الغيث على الأرض الخصبة.

فلا غرو أن يكتب الدكتور مصطفى العقاد عن أمه فيقول في مقالة سارت بها الركبان، وسمها بقوله: (ليس دائمًا: تقول أمي الحقيقة !!..):

«**ثماني مرات**: كذبت أمي عليّ!! تبدأ القصة عند ولادتي، فكنت الابن الوحيد في أسرة شديدة الفقر، فلم يكن لدينا من الطعام ما يكفينا، وإذا وجدنا في يوم من الأيام بعضًا من الأرز لنأكله ويسد جوعنا: كانت أمي تعطيني نصيبها، وبينما كانت تحوِّل الأرز من طبقها إلى طبقي كانت تقول: يا ولدي تناول هذا الأرز، فأنا لست جائعة.. **وكانت هذه كذبتها الأولى.**

وعندما كبرتُ أنا شيئا قليلا كانت أمي تنتهي من شئون المنزل وتذهب للصيد في نهر صغير بجوار منزلنا، وكان عندها أمل أن أتناول

سمكة قد تساعدني على أن أتغذى وأنمو، وفي مرة من المرات استطاعت ـ بفضل الله ـ أن تصطاد سمكتين، أسرعتْ إلى البيت وأعدت الغذاء ووضعت السمكتين أمامي فبدأت أنا أتناول السمكة الأولى شيئا فشيئا، وكانت أمي تتناول ما يتبقى من اللحم حول العظام والشوك، فاهتز قلبي لذلك، وضعت السمكة الأخرى أمامها لتأكلها، فأعادتها أمامي فورا وقالت: يا ولدي تناول هذه السمكة أيضا، ألا تعرف أني لا أحب السمك.. **وكانت هذه كذبتها الثانية.**

وعندما كبرتُ أنا كان لابد أن ألتحق بالمدرسة، ولم يكن معنا من المال.

ما يكفي مصروفات الدراسة، ذهبت أمي إلى السوق واتفقت مع موظف بأحد محال الملابس أن تقوم هي بتسويق البضاعة بأن تدور على المنازل، وتعرض الملابس على السيدات، وفي ليلة شتاء ممطرة، تأخرت أمي في العمل وكنت أنتظرها بالمنزل، فخرجت أبحث عنها في الشوارع المجاورة، ووجدتها تحمل البضائع وتطرق أبواب البيوت، فناديتها: أمي، هيا نعود إلى المنزل فالوقت متأخر والبرد شديد وبإمكانك أن تواصلي العمل في الصباح، فابتسمت أمي وقالت لي: يا ولدي.. أنا لست مرهقة.. **وكانت هذه كذبتها الثالثة.**

وفي يوم كان اختبار آخر العام بالمدرسة، أصرت أمي على الذهاب معي، ودخلت أنا ووقفت هي تنتظر خروجي في حرارة الشمس المحرقة، وعندما دق الجرس وانتهى الامتحان خرجتُ لها فاحتضنتني بقوة ودفء، وبشرتني بالتوفيق من الله تعالى، ووجدت معها كوبا فيه مشروب كانت قد اشترته لي كي أتناوله عند خروجي، فشربته من

شدة العطش حتى ارتويت، بالرغم من أن احتضان أمي لي: كان أكثر بردا وسلاما، وفجأة نظرت إلى وجهها فوجدت العرق يتصبب منه، فأعطيتها الكوب على الفور وقلت لها: اشربي يا أمي، فردت: يا ولدي اشرب أنت، أنا لست عطشانة.. **وكانت هذه كذبتها الرابعة.**

وبعد وفاة أبي كان على أمي أن تعيش حياة الأم الأرملة الوحيدة، وأصبحت مسئولية البيت تقع عليها وحدها، ويجب عليها أن توفر جميع الاحتياجات، فأصبحت الحياة أكثر تعقيدا وصرنا نعاني الجوع، كان عمي رجلا طيبا، وكان يسكن بجانبنا ويرسل لنا ما نسد به جوعنا، وعندما رأى الجيران حالتنا تتدهور من سيء إلى أسوأ، نصحوا أمي بأن تتزوج رجلا ينفق علينا فهي لازالت صغيرة، ولكن أمي رفضت الزواج قائلة: أنا لست بحاجة إلى الحب.. **وكانت هذه كذبتها الخامسة.**

وبعدما انتهيت من دراستي وتخرجت في الجامعة، حصلت على وظيفة.

إلى حد ما جيدة، واعتقدت أن هذا هو الوقت المناسب لكي تستريح أمي، وتترك لي مسؤولية الإنفاق على المنزل، وكانت في ذلك الوقت لم يعد لديها من الصحة ما يعينها على أن تطوف بالمنازل، فكانت تفرش فرشا في السوق وتبيع الخضروات كل صباح، فلما رَفَضَتْ أن تترك العمل، خصصت لها جزءا من راتبي، فرفضت أن تأخذه قائلة: يا ولدي احتفظ بمالك، إن معي من المال ما يكفيني.. **وكانت هذه كذبتها السادسة.**

وبجانب عملي واصلت دراستي كي أحصل على درجة الماجستير، وبالفعل نجحت وارتفع راتبي، ومنحتني الشركة الألمانية التي أعمل بها الفرصة للعمل بالفرع الرئيس لها بألمانيا، فشعرت بسعادة بالغة،

وبدأت أحلم ببداية جديدة وحياة سعيدة، وبعدما سافرت وهيأت الظروف، اتصلت بأمي أدعوها لكي تأتي للإقامة معي، ولكنها لم تحب أن تضايقني، وقالت: يا ولدي.. أنا لست معتادة على المعيشة المترفة.. **وكانت هذه كذبتها السابعة.**

كبرت أمي وأصبحت في سن الشيخوخة، وأصابها مرض السرطان اللعين، وكان يجب أن يكون بجانبها من يمرضها، ولكن ماذا أفعل فبيني وبين أمي الحبيبة بلاد، تركت كل شيء وذهبت لزيارتها في منزلنا، فوجدتها طريحة الفراش بعد إجراء العملية، عندما رأتني حاولت أمي أن تبتسم لي، ولكن قلبي كان يحترق؛ لأنها كانت هزيلة جدا وضعيفة، ليست أمي التي أعرفها، انهمرت الدموع من عيني ولكن أمي حاولت أن تواسيني، فقالت: لا تبكِ يا ولدي فأنا لا أشعر بالألم.. **وكانت هذه كذبتها الثامنة.**

وبعدما قالت لي ذلك، أغلقت عينيها، فلم تفتحهما بعدها أبدا..».

إلى كل من ينعم بوجود أمه في حياته: حافظ على هذه النعمة قبل أن تحزن على فقدانها، وإلى كل من فقد أمه الحبيبة: تذكر دائما كم تعبت من أجلك، وادع الله تعالى لها بالرحمة والمغفرة.

أحبك يا أمـي.

٤٦

في ضيافة أم الرجال

(أم الرجال) **الدكتورة سهير عبد الحفيظ**، كما تحب أن تُنادى.. امرأة ليست عادية، فهي أديبة وشاعرة وصحفية..

والدها من ذوى الاحتياجات الخاصة من ضعاف السمع، وولداها أحمد وكريم كذلك، فرأت أن عليها واجبا ليس تجاه والدها وابنيها فقط، بل تجاه كل أسرة وكل عائلة لديها أطفال ضعاف السمع، فكتبت ونشطت في مجال الخدمة الإنسانية، وتأهلت في مجال إعاقة السمع، وأصبحت عضوا متطوعا في الجمعيات التي ترعاهم.

اختارت لقب: **(أم الرجال)** في بداية دخولها عالم الكتابة الإلكترونية اسما مستعارا، ثم اكتشفت مدى تغلغله في ذاتها؛ حيث ظلَّ حُلُمًا يراودها، تقول: «يقيني أنه بقدر توفيقي في رسالتي (أمًّا للرجال) الذين يصنعون حياة أمتهم ونهضتها، يكون شعوري بالرضا والسعادة والنجاح، أضف إلى ذلك أنني أم لخمسة من الذكور، أسأل الله أن يصيروا رجالا يُرضون الله بخدمة أنفسهم وأمتهم».

تنتمي (الدكتوره سهير حافظ) إلى أسرة يمكن وصفها بالمتدينة، فجدها لأبيها إمام مسجد القرية، وجدها لأمها أحد أئمة المحلة الكبرى، تقول: «عرفتها في طفولتي رسوخا في الحق مهما كلفها الثبات، كما عرفتُها سلاما وقوة ورضا، ورغم مرور السنوات لا زالت مناقشات

وأفعال وعيتها أثناء النشأة الأولى تمنحني كثيرا من الثبات، ويظل الدين خير عاصم من كل زلازل الحياة، ويظل يقيني بأن صلاح الأبناء بتقوى الآباء.. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ...﴾، فحفظتُ كثيرا من القرآن والأحاديث، وشاركت في طفولتي المبكرة جدا بخطب وأحاديث في احتفالات ومناسبات، مما عزز من قدرتي اللغوية وثقتي بنفسي أثناء مواجهة الجمهور، واستمرت تلك الأنشطة في المدرسة الابتدائية وما تلاها حيث بدأتُ محاولات كتابة الشعر، واستشعرتُ فخر أبي وأمي وتشجيعهما، وزادني ذلك ثقة عالية بنفسي وقدراتي ولعله دعم قدرتي على اتخاذ كثير من القرارات، واكتشفت أخيرا قدرتي اللغوية الارتجالية وبخاصة في الدفاع عن قناعاتي الفكرية.

(أم الرجال) أنموذج متفرد للأم الناجحة حين يكون في أولادها من هو معاق في حاسة من حواسه، وتبدأ رحلة النجاح حين تكون نظرتها للإعاقة أنها: «ليست إعاقة الحواس، بل هي إعاقة الروح؛ التي تعجز عن معرفة أو أداء رسالة الإنسان؛ فلقد استخلف الله الإنسان في الأرض لعبادته وحده لا شريك له، وعمارة الأرض وإصلاحها، وعليه فالمعاق عقليا من عجز عن إدراك معنى ومضمون وجوده، والأعمى من ضلت بصيرته دروب الخير، والأصم من لا ينصت لصوت الضمير..، وهكذا أما من شاع إطلاقنا عليهم (معاقين) فكثير منهم يشرق بالأمل رغم الألم صلاحا وإصلاحا».

وحين سئلت: كيف يعزز الأهل طفلهم المعوق ويطورون ذاته؟ أجابت فورا: «بالتركيز على جوانب القوة في شخصيته وتنمية قدراته، والبعد عن مواطن الضعف والسلبيات؛ فمثلا قدرة ابني كريم (فاقد

السمع الشديد) على الإدراك البصري المكاني متميزة جدا، فكنا نتيح له الفرصة لإظهار مهاراته أمام أصدقاء العائلة وأمام أقرانه من خلال فك وتركيب الألعاب (البازل)، ونعلن فخرنا بقدراته، كنا نستشعر أن ذلك يعزز ثقته بنفسه.

وحين كان ابني أحمد (فاقد السمع العميق) يخلع سماعته على الشاطيء كانت صلته تنتهي بعالم السامعين، وكان يجلس وحيدا يشكل فى الرمال، فكانت تشكيلاته متميزة ورائعة، وبدأ والده يشاركه، وبمرور الوقت تحولت دهشة أقرانه الممتزجة بإعجاب إلى رغبة في المشاركة، ونشأت بينه وبين أقرانه لغة خاصة، هي مزيج من قراءة الشفاه والكلام والإيماءات، كما كان إعجاب الأصدقاء برسوماته المتميزة في طفولته يمنحه وضعا خاصا مميزا، ولقد دعمنا ذلك في مراحل لاحقة بدراسته الفنية.

كفاح مستمر من أجل نقل الطفلين من عالم الإعاقة الجسدية، إلى الانطلاقة العلمية والعملية، باللجوء إلى عدد من الوسائل والفرص، كما أن استخدام الكمبيوتر منذ الصغر أتاح لأحمد تطوير ذاته بصورة تبهرنا جميعا، وهاهو ذا يبدأ بممارسة دور إبداعي قد يفوق أقرانه - بشهادة أساتذته ووفق تقديراته الدراسية - بما يسهم في تعزيز مفهومه عن ذاته وقدراته الخاصة؛ ليتمكن بعد ذلك من التفاعل مع واقعه، والإسهام في صنع نهضة أمته بأفضل الصور».

ومن أبرز ملامح خارطة النجاح في تربية المعاق، (الأنموذج والقدوة الناجحة) تقول أم الرجال: «من أجل ذلك قرأنا قصة حياة

(هيلن كيلر) و(مصطفى صادق الرافعي)، وتعرفنا على (المهندس تامر أنيس) الأصم العربي الأول، الحاصل على بكالوريوس الفنون التطبيقية، وهكذا يتيح تعرف المعوق على نجاحات تنتمى إلى ذات الإعاقة شعورا بالقدرة على التميز وتحقيق التفوق».

وكما قاد الطموح أم الرجال إلى الحصول على درجة الدكتوراه، فقد قادها كذلك إلى الطمع في حصول ولديها الأصمين على درجة البكالوريس، ومع ضيق المجالات المتاحة أو انعدامها أمام المعاق سمعا في بيئتها، إلا أن عبورها ليس مستحيلا عند أم الرجال؛ تقول: «أذكر أن ابنى عُمَرا -وهو الأوسط بين أخوين فاقدي سمع- لامني في طفولته باكيًا لأنه استشعر اهتماما زائدا بأخويه.. نبهني عمر حينها لكتابة رسالة لنفسي ولكل أم بعنوان: «هيا ندعم العاديين من أبنائنا»؛ فلكل طفل حاجاته، وقد يحتاج الابن العادي - وبخاصة في طفولته - إلى اهتمام يفوق أحيانا أخاه ذا الاحتياج الخاص، وذلك للمحافظة على توازنه وسلامه النفسي، وتبقى الأمومة ظل الجميع. الأمر الذى جعلنا كأسرة نضطر لإلحاق ابني أحمد (فاقد السمع العميق) بمعهد خاص بمصروفات لدراسة الفنون التطبيقية إيمانًا منا بأنه الأنسب لتميزه وتمكينه من العمل بفعالية وإبداع..، وذلك بعد اجتيازه الثانوية العامة وعدم وفاء مجموعه (٦٨٪) - في ظل سباق مع العاديين في الثانوية العامة - بالالتحاق بالكلية الحكومية.

وقد أعجبني سؤال الصحفي لها: كيف يمكن للأم أن تربي في ولدها الرقابة الذاتية، ولا سيما نحن في زمن ليس أمامنا لحماية أولادنا غير ذلك، فقالت: «الأم هي الأقدر على ذلك من خلال **ثلاث خطوات**: **الأولى**:

بغرس القيم والمفاهيم؛ فيدرك الطفل منذ صغره مفهوم التقوى، وأن الله يعلم سره وعلانيته، والثانية: القدوة ولنفترض أن الأم أمينة على مجموعة هدايا ستسلم في مناسبة ما.. ورغم كونها المتصرف الوحيد ولا رقيب عليها سوى ذاتها، ترفض منح طفلها واحدة من تلك الهدايا.. إن ما تغرسه الأم هنا من قيمة فضلى بممارستها لرقابتها الذاتية يظل الأرسخ والأكثر تأثيرا.. **والثالثة**: بمنحه قدرا من الثقة والحرية ليثق بنفسه وضميره وتقواه».

وقد تواجه أم ذوي الاحتياجات الخاصة صعوبات ومواقف خاصة، تحتاج معها إلى تصرف منطقي مقبول، وقد تعرضت أم الرجال إلى مثل ذلك، حين جاءها ابنها (أحمد) باكيًا وهو على أعتاب مراهقته يتساءل لماذا لا أسمع؟ لماذا أنا..؟ ويومها أجهشت الأم بالبكاء، لكنها احتوت وجهها بين كفيها وهي تجيبه بتساؤلات، مثل: ألم يمنحك الله عينين فيجيب: الحمد لله، ألم يمنحك عقلا فيجيب: الحمد لله، وهكذا، حتى سألْته أنت أفضل أم «هيلن كيلر»؟ وكان قد قرأ قصتها، فردد: (الحمد لله)، تقول: «ومع تكرار حمدنا لربنا استشعرت السكينة تتسلل إلينا معًا، ورغم اختلاط دموعنا إلا أن عباراته التى كررها كثيرًا كانت: (الحمد لله.. وأرجو أن أحصل على الدكتوراه وأنا أصم؛ لأحقق تميزا يذكر..) لكنه أضاف: وبعدها أسأل الله أن أسمع. وحين تكرر الموقف مع ابني الثاني كريم كنا أقدر على تجاوزه فلم نبكِ وهكذا خففت الخبرة من ألمنا جميعا.

وتضيف الدكتورة سهير أم الرجال: «بصفة عامة.. قد نكون أكثر ألمـًا في بعض المواقف لكننا كأسرة ـ بفضل الله ـ أشد تماسكا وأقوى ترابطا، فالوالد برغم عمله كطبيب إلا أنه يمارس دورًا حيويًّا في تعليم

ومتابعة الأبناء جميعًا، والإخوة -بفضل الله وتوفيقه- يدعمون إخوتهم ويفخرون بهم وفق ما تسمح به مداركهم وأعمارهم.. أما ما تعلمته فهو كثير ويحضرني الآن الرضا وعدم اليأس واليقين بعدل الله ورحمته وحسن ثوابه بإذن الله.

لازلت أذكر استقبالًا رسميًّا ـ وهو أول تكريم لي ـ في إحدى الدول العربية.. يومها بكيت كثيرًا، وكان سببَ البكاء خاطرٌ أتاني.. هو أنه إذا كان البشر وفق محدودية قدراتهم يفعلون ما يفعلون؛ لأني أم أحمد وكريم، فماذا أعدَّ لنا ربُّ البشر إن أخلصنا النية وأدينا رسالتنا؟

إن هذا الأمر يمنحني شعورًا بالرضا والتسليم لأمر الله، والقدرة على استمرار التجديف مهما اشتدت العواصف..إن وجود أحمد وكريم فى حياتي جعل لها طعمًا ومعنىً وهدفًا خاصًّا، صرت أفخر وأعتز به وأسعى إليه، وإن كان من كلمة فهي لأسر ذوي الاحتياجات الخاصة أذكرهم بما قاله لي أحدهم: «للصمِّ سقف لن يتجاوزوه ولن يصل أحمد للجامعة!».. لكن واقعنا بفضل الله وواقع أسر كثيرة أثبت عكس مقولته، وتميز أحمد على أقرانه في دراسته الجامعية وكريم يدرس حاليًّا بالثانوي العام مناهج العاديين، فثقوا بقدرات أبنائكم.. والله لا يضيع أجر من أحسن عملا"[1].

---

(١) اللقاء بأكمله في موقع المستشار، مع الصحفي عبدالرحمن هاشم.

٤٧

تخطيط الأمومة يسبق الولادة

حنة بنت فاقوذا، أخت زوجة زكريا عليه السلام، وأم مريم عليها السلام، تزوجها عمران، ولم تحمل منه وأسنَّت، ولم يكن لها ولد فأبصرت يومًا طائرًا يطعم أفراخه، فتحركت لذلك نفسها، واشتاقت للولد؛ حتى تحن عليه مثل هذا الطائر، فدعت الله تعالى أن يهب لها ولدًا، ونذرت أن تهبه ليكون خادما لبيت المقدس، ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥]، فحملت من زوجها عمران، فوضعتها أنثى، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾؛ أي أن هذه المولودة لن تستطيع أن تعمل بما نذرت به أمها، وهي أنثى.

آيات مليئات بالدروس التربوية في التعامل مع الأولاد، فقد بدأت تربيتها قبل أن تلد بوضع هدف عظيم للمولود، وبعد أن ولدت، عوذت مولودتها وذريتها التي لم تأت بعد من العدو الحقيقي للإنسان، وهو الشيطان الرجيم، أي أن الدعاء للأولاد يبدأ قبل أن يتخلقوا، ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]، فهذا الدعاء يتضمن الدعاء لابنها عيسى عليه السلام، وهي لم تزل مولودة في لفائفها، ثم كان اللطف الرباني بها، بتهيئة البيئة الكريمة المربية، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ

﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]. بيئة حسنة، وكفالة مسؤولة، ومتابعة دقيقة للمتربي.

يقول أبو **هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي** رضي الله عنه: «نشأت يتيما، وهاجرت مسكينا، وكنت أجيرا لبُسرة بنت غزوان بطعام بطني، كنت أخدمهم اذا نزلوا، وأحدو لهم اذا ركبوا، وها أنا ذا وقد زوجنيها الله، فالحمد لله الذي جعل الدين قواما، وجعل أبا هريرة إماما»[١].

هذا اليتم الذي يجعل صاحبه يرتبط ارتباطا نفسيا بأمه، حتى نجد أبا هريرة ينتسب لأمه (**أميمة أو ميمونة بنت صبيح بن الحارث الدوسية**) حين دعاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليوليه، فرفض، فقال: «أتكرهُ العمل وقد طلبه من كان خيرًا منك!» قال: من؟ قال: يوسف بن يعقوب عليهما السلام. فقال أبو هريرة: يوسف نبيّ ابن نبي، وأنا أبو هريرة بن أميمة»[٢].

وقد كان سببا في إسلامها في قصة شهيرة أخرجها الإمام مسلم في صحيحه؛ قال: حدثنا عمرو الناقد، حدثنا عمر بن يونس اليمامي، حدثنا عكرمة بن عمار، عن أبي كثير يزيد بن عبد الرحمن، حدثني أبو هريرة، قال: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يومًا فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قلت: يا رسول الله، إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي، فدعوتها اليوم

(١) تذكرة الحفاظ وتبصرة الأيقاظ للإمام يوسف بن عبدالهادي المقدسي الحنبلي، دار النوادر، دمشق، ١٤٣٢ هـ (٢٠١١ م)، ١ / ٣٢.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٤٤١ / ٢ سندُه ضعيف جدًا، ولكن أخرجه عبد الرزاق، عن معمر؛ عن أيوب، فقوي، وكان عمر استعمل أبا هريرة على البحرين.

فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة. فقال رسول الله ﷺ : «اللهم اهدِ أمَّ أبي هريرة»[1]. فخرجتُ مستبشّرا بدعوة نبي الله ﷺ ، فلما جئتُ فصرتُ إلى الباب، فإذا هو مجافٍ، فسمعتْ أمي خشف قدمي، فقالت: مكانَك يا أبا هريرة. وسمعت خضخضة الماء، قال: فاغتسلتْ ولبستْ درعها وعجلتْ عن خمارها، ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. قال: فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ، فأتيته وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله، أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة. فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرًا، قال: قلت: يا رسول الله، ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين، ويحببهم إلينا. قال: فقال رسول الله ﷺ: «اللهم حبب عبيدك هذا -يعني أبا هريرة- وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين». فما خُلقَ مؤمنٌ يسمع بي ولا يراني إلا أحبني.

وقد عُرف أبو هريرة بخدمته لأمه، وارتباطه النفسي بها، وتبادل الدعاء المعبر عن جميل العلاقة الوالدية بينهما.

سأل الشيخ ناصر القطامي (جهادا) طفلا ألمعيا (كفيفا) في الحاديةَ عشرةَ من عمره، يحفظ كتاب الله منذ أن كان في السابعة بأرقام الآيات: لو ردَّ الله إليك البصر، ما أول شيء تتمنى رؤيته؟ فأخذ نفسا عميقا ثم قال: لو ردَّ الله إلي البصر فأول شيء أتمنى رؤيته والديّ!

يقول شكسبير: «أمي بصحة جيدة.. من هو العالم كي أحزن لأجله؟»

---

(١) رواه مسلم (٤/ ١٩٣٨) ح (٢٤٩١).

هكذا قال شكسبير أديب الإنجليز الأول، وهو يشير إلى تلك المكانة العظيمة لأمه التي لا تضارعها مكانة في العالم أبدا، وترفد قولَه آلاف المقولات..

الأم صانعة الرجال، والأبطال، والقادة، ومؤسسة الإنسانية بل والإيمان في قلوب أولادها منذ طفولتهم المبكرة.

يقول علي عزت بيغوفيتش بطل البوسنة والهرسك رحمه الله: «لقد كانت المرحومة والدتي امرأة ورعة، ويعود الفضل في التزامي الديني إليها إلى حد ما، فلقد كانت تستيقظ دوما وقت صلاة الفجر، وتوقظني كي أذهب إلى المسجد المحلي، وهو مسجد (هجيسكا) بالقرب من البلدية، ولقد كنت أتثاقل عند الاستيقاظ في ذلك الوقت؛ لكوني ما زلت ابن اثني عشر إلى أربعة عشر عاما، ولكني كنت دائما مسرورا عند عودتي بعد الصلاة». «وكأي طفل كنت أحب والدتي، وكنت لا أستطيع النوم عندما كانت تذهب مع والدي لزيارة ما حتى يعودان»[1].

هكذا كانت أمهات ا[illegible]ولا، لكنها تربية محفوفة بالحب والحنان.

(١) عزت بيغوفتش سيرة ذاتية وأسئلة لا مفر منها، ترجمة د.عبدالله الشناق، د.رامي جرادات، ط: ٣، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥ م، دار الفكر بيروت: ص: ٢٧.

٤٨

الأم الحــرة

عائشة الحرة والدة آخر ملوك غرناطة **أبي عبد الله الصغير** الذي اشتهر بكونه آخر ملك مسلم في بلاد الأندلس.

لعبت هذه المرأة دورا مهما في إنقاذ عرش غرناطة من مؤامرات ضرتها ثريا الرومية وثبات الغرناطيين أمام النصارى وخاصة في بعث روح المقاومة لدى ابنها الملك أبي عبد الله الصغير. احتفظ الإسبان إلى يومنا هذا باحترام وتقدير لهذه المرأة وألَّفوا حولها القصص والأساطير وحافظوا على منزلها في حي البيازين الشهير بغرناطة المعروف اليوم بدار الحرة، يقول مؤرخ الأندلس المعاصر الأستاذ عبد الله عنان:

«وتحتل شخصية عائشة الحرة في حوادث سقوط غرناطة مكانة بارزة. وليس ثمة في تاريخ تلك الفترة الأخيرة من المأساة الأندلسية شخصية تثير من الإعجاب والاحترام، ومن الأسى والشجن، قدر ما يثير ذكر هذه الأميرة النبيلة الساحرة، التي تذكرنا خلالها البديعة، ومواقفها الباهرة، وشجاعتها المثلى إبان الخطوب المدلهمة، بما تقرأه في أساطير البطولة القديمة من روائع السير والمواقف.

والواقع أن حياة السلطانة (الحرة)، تبدو لنا خلال الحوادث والخطوب، كأنها صفحة من القصص المُشْجيَة، أكثر مما تبدو كصفحة من التاريخ الحق، وهذا اللون القصصي لا يرجع فقط إلى كونها أميرة

أو امرأة، تشترك في تدبير الملك، وتدبير الشؤون والحوادث، ولكن يرجع بالأخص إلى شخصيتها القوية، وإلى سمو روحها ورفيع مثلها، وإلى جنانها الجريء يواجه كل خطر، ويسمو فوق كل خطب ومصاب. والرواية القشتالية ذاتها -وهي تسميها عائشة حسبما قدمنا- لا تضن عليها بالتنويه والتقدير، وهي التي تسبغ على شخصيتها وحياتها كثيرا من هذا اللون القصصي المشجي.

كانت عائشة «الحرة» ملكة غرناطة في ظل مُلْكٍ يُحتضَر، ومجد يشع بضوئه الأخير ليخبو ويغيض. وقد رزقت من زوجها الأمير أبي الحسن بولدين هما: أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف، وكانت روح العزم والتفاؤل، التي سرت في بداية هذا العهد إلى غرناطة، تذكي بقية من الأمل في إنقاذ هذا المُلْك التالد. وكانت عائشة ترى من الطبيعي أن يؤول الملك إلى ولدها.

ولكن حدث بعد ذلك ما يهدد هذا الأمل المشروع. ذلك أن الأمير أبا الحسن ركن في أواخر أيامه إلى حياة الدعة، واسترسل في أهوائه وملاذه، واقترن للمرة الثانية بفتاة نصرانية رائعة الحسن، تعرفها الرواية الإسلامية باسم (الثريا) الرومية. وتقول الرواية الإسبانية إن ثريا هذه واسمها النصراني إيسابيلا، وتعرفها الرواية أيضا باسم (زريدة)، كانت ابنة عظيم من عظماء إسبانيا وهو القائد (سانشو خمني سدي سوليس)، وأنها أُخِذَت أسيرة في بعض المعارك، وهي صبية فتية، وألحقت وصيفة بقصر الحمراء، فاعتنقت الإسلام، وتسمت باسم ثريا أو كوكب الصباح، فهام بها الأمير أبو الحسن ولم يلبث أن تزوجها،

واصطفاها على زوجه الأميرة عائشة، التي عرفت عندئذ (بالحرة) تمييزا لها من الجارية الرومية، أو إشادة بطهرها ورفيع خلالها. ويقول لنا المؤرخ المعاصر هرناندو دي بياثا، إن السلطان أبا الحسن كان يقيم يومئذ مع زوجه الفتية الحسناء في جناح الحمراء الكبير أو قصر قمارش، وذلك بينما كانت تقيم الحرة وأولادها في جناح بهو السباع».

«وكان الأمير أبو الحسن قد شاخ يومئذ وأثقلته السنون، وغدا أداة سهلة في يد زوجته الفتية الحسناء. وكانت ثريا فضلا عن حسنها الرائع فتاة كثيرة الدهاء والأطماع، وكان وجود هذه الأميرة الأجنبية في قصر غرناطة، واستئثارها بالسلطان والنفوذ في هذه الظروف العصيبة التي تجوزها المملكة الإسلامية، عاملا جديدا في إذكاء عوامل الخصومة والتنافس الخطرة. وكانت ثريا في الواقع تتطلع إلى أبعد من السيطرة على الملك الشيخ، ذلك أنها أنجبت من الأمير أبي الحسن كغريمتها عائشة ولدين، هما سعد ونصر وكانت ترجو أن يكون الملك لأحدهما. وقد بذلت كل ما استطاعت من صنوف الدس والإغراء لإبعاد خصيمتها الأميرة عائشة عن كل نفوذ وحظوة، وحرمان ولديها محمد ويوسف من كل حق في الملك، وكان أكبرهما محمد أبو عبد الله ولي العهد المرشح للعرش، وكان أشراف غرناطة يؤثرون ترشيح سليل بيت الملك، على عقب الجارية النصرانية. ولكن ثريا لم تيأس ولم تفتر همتها، فما زالت بأبي الحسن حتى نزل عند تحريضها ورغبتها. وأقصى عائشة وولديها عن كل عطف ورعاية، ثم ضاعفت ثريا سعيها ودسها حتى أمر السلطان باعتقالها، وزُجَّت عائشة مع ولديها إلى برج قمارش،

أمنع أبراج الحمراء، وشدد في الحجر عليهم، وعوملوا بمنتهى الشدة والقسوة، وذهبت ثريا في طغيانها إلى أبعد حد فحرضت الملك الشيخ على إزهاق ولده أبي عبد الله عثرة آمالها.

«وكانت الأميرة عائشة امرأة وافرة العزم والشجاعة، فلم تستسلم، بل عمدت إلى الاتصال بعصبتها وأنصارها، وفي مقدمتهم بنو سراج أقوى أسر غرناطة، وأخذت تدبر معهم وسائل الفرار والمقاومة. ولما وقفت الأميرة عائشة من أصدقائها على نية أبي الحسن قررت أن تبادر بالعمل، وأن تغادر قصر الحمراء مع ولديها بأية وسيلة. وفي ليلة من ليالي جمادى الثانية سنة ٨٨٧هـ، استطاعت الأميرة أن تفر مع ولديها محمد ويوسف بمعاونة بعض الأصدقاء المخلصين، والرواية الإسلامية تشير إلى فرار الأميرين فقط دون أمهما».

وهكذا ظهر ابن عائشة أبو عبد الله الصغير في (وادي أش) وثار على أبيه وخلعه عن الحكم، وقامت حرب أهلية بين الابن والأب الذي التجأ إلى أخيه أبي عبدالله محمد الزغل حاكم (مالقة).

وبعد وفاة أبي الحسن اشتدت الحرب بين أبي عبد الله الصغير وعمه الزغل وقسموا المملكة المسلمة إلى شطرين. وقد استغل العدو النصراني الفرصة وانقض أولا على ما بيد الزغل من أراضي فاستسلم هذا الأخير ودخل تحت لواء (فرناندو الثاني) ملك (أرغوان) وزوجته (إيزابيلا الأولى) ملكة (قشتالة)، وبقي ما بيد أبي عبد الله الصغير وقد اعتقد النصارى أنه سيسلم لهم مفاتيح البلاد دون مقاومة. لكن هنا ظهر

الدور الكبير لعائشة الحرة التي حرّضت ابنها على المقاومة وساعدها على إذكاء روح المقاومة رجل قلّما ذكره التاريخ وهو: (موسى بن أبي الغسان) الذي أسكت كل الأصوات الداعية إلى الاستسلام.

وفعلا استجاب **أبو عبد الله الصغير** للتحريض وظهرت منه بطولات محترمة في جهاد الإسبان لكن هذا لم يمنع من الاستسلام أخيرا للقوة الإسبانية. بعد هذا الاستسلام وخروج أبي عبد الله متحسرا باكيا من غرناطة وحمرائها.

حسب الأسطورة والرواية الشعبية فالمكان الذي ألقى منه نظرته الأخيرة على غرناطة ما زال معروفًا باسم: زفرة العربي الأخيرة؛ بالإسبانية: (el último suspiro del Moro) وبكى فقالت له أمه (عائشة الحرة) قولتها المشهورة التي عبرت القرون، وأضحت معلقة في عيون الملوك: «**ابكِ مثل النساء مُلكًا مُضَاعًا لم تُحافِظْ عليه مثلَ الرجال**»[1].

(١) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، لمحمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: ٤، : ص ١٨٤-١٨٦.

٤٩

من وراء هذا العالِم البحر؟!

القاسم بن محمد بن أبي بكر، عالم وقته في المدينة، الإمام الورع، الذي لم يكن يقدم عليه أحد من العلماء في زمن يموج بقامات عالية من الأئمة المحققين؛ حتى قال عنه يحيى بن سعيد رحمه الله: «ما رأينا أحدا بالمدينة نفضله على القاسم بن محمد»[١]. قُتل أبوه عنه سنة ست وثلاثين بعد عثمان رضي الله عنه، وبقي القاسم يتيما في حجر **عائشة بنت أبي بكر** رضي الله عنها[٢]، ثم تفقه منها، وأكثر الرواية عنها؛ حتى كان من «أعلم الناس بحديث عائشة»[٣].

هنا لن نحتاج إلى أن نبحث عن اليد التي استطاعت أن تحول اليتم إلى عظمة، والانكسار إلى شموخ، وكيف نجحت في أن تصنع من الصبي اليتيم عالم أمَّة.

هو الطريق ذاته الذي سلكته أمهاتُ العظماء؛ حين رأين في أولادهن نجابة لا يصحُّ أن تراق في ميادين هامدة لا حياة فيها إلا بقدر ما تضطرب السمكة إذا أخرجت من البحر، وبمجرد أن يمرَّ بها الزمن تتلاشى روحها وتنتهي..

العلم هو الوقود الذي لا ينفد بإذن الله تعالى، ولذلك تحركت أم

---

(١) طبقات ابن سعد: ٥/ ١٨٨، وسير أعلام النبلاء: ٥/ ٥٣.
(٢) تاريخ ابن عساكر: ٤٩/ ١٦٤.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٥/ ٥٥.

حجاج بن يوسف بن حجاج الثقفي، المعروف بابن الشاعر، أحد أئمة الحديث الثقات[1]، ويكفي أن نعلم أن مسلما وأبا دود وهما من أشهر أعلام الحديث قد رووا عنه، وكان صاحبا للإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى-.

مَن وراء هذا العالم البحر؟ إنها أمه ـ رحمها الله ـ التي كانت تدفعه للرحلة في طلب العلم، وتصبره على مشقاته، حتى قال: «جمعت لي أمي مئة رغيف، وجعلتُها في جراب، وانحدرتُ إلى (شَيَابة) [يعني شيابة بن سوار المحدث الثقة]، بالمدائن، فأقمتُ ببابه مئة يوم كل يوم أجيء برغيف فأغمسه في دجلة فآكله، فلما نفذت خرجت»[2].

«وهكذا تظهر اليد الدافعة لهذا العالم الثقة الإمام، إنها الأم التي تعينه بالزاد القليل ليطلب العلم النافع الذي سيكون زاده في سفره الطويل، وهكذا كانت أم حجاج من العوامل المساعدة له، بل من الصانعات له، فلقد صحب زوجها الشعراء، فأحبت هي أن يصحب ابنها العلماء، وشتان بين الصحبتين»[3].

(١) سير أعلام النبلاء: ١٢/ ٢٩٩.
(٢) تاريخ بغداد: ٨/ ٢٤٠.
(٣) نساء صنعن علماء لأم إسراء بنت عرفة بيومي، دار المعرفة ببيروت، ١٤٢٥هـ(٢٠٠٤م): ٧٥.

٥٠

ماذا ستختار الأمُّ: المال أم المجد العلمي؟

من أعجب القصص التي أوردها ابن عساكر في تاريخه، وابن الجوزي في صفة الصفوة قصةٌ إمامٌ في بابها، فـقد «رُويَ عن مشيخة أهل المدينة، أن فروخا **أبا عبد الرحمن أبا ربيعة الرأي** [كما كان يلقب لجلالة رأيه عند العلماء] خرج في البعوث إلى خراسان أيام بني أمية غازيا، وربيعة حَمْلٌ في بطن أمه، وخلَّف عند زوجته **أم ربيعة** ثلاثين ألف دينار؛ فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة وهو راكب فرسا، في يده رمح، فنزل عن فرسه ثم دفع الباب برمحه فخرج ربيعة فقال له: يا عدو الله! أتهجم على منزلي؟ فقال: لا، وقال فروخ: يا عدو الله! أنت رجل دخلت على حرمتي! فتواثبا وتلبب كل واحد منهما بصاحبه؛ حتى اجتمع الجيران، فبلغ مالكَ بنَ أنس والمشيخةَ فأتوا يعينون ربيعة، فجعل ربيعة يقول: والله لا فارقتك إلا عند السلطان وجعل فروخ يقول: والله لا فارقتك إلا بالسلطان، وأنت مع امرأتي، وكثر الضجيج.

فلما بصروا بمالك سكت الناس كلهم، فقال مالك: أيها الشيخ! لك سعة في غير هذه الدار، فقال الشيخ: هذه داري وأنا فروخ مولى بني فلان، فسمعت امرأته كلامه فخرجت فقالت: هذا زوجي وهذا ابني الذي خلفتَه وأنا حامل به، فاعتنقا جميعا وبكيا.

فدخل فروخ المنزل وقال: هذا ابني؟! قالت: نعم. قال: فأخرجي المال الذي لي عندك، وهذه معي أربعة آلاف دينار.

فقالت: المال قد دفنته وأنا أخرجه بعد أيام.

فخرج ربيعة إلى المسجد وجلس في حلقته وأتاه مالك بن أنس والحسن بن زيد وابن أبي علي اللهبي والمساحقي وأشراف أهل المدينة وأحدق الناس به. فقالت امرأته: اخرج صلِّ في مسجد الرسول ﷺ فخرج فصلى، فنظر إلى حلقة وافرة، فأتاه فوقف عليه، ففرجوا له قليلا، ونكس ربيعةُ رأسه يوهمه أنه لم يره، وعليه عمامة طويلة، فشك فيه أبو عبد الرحمن فقال: من هذا الرجل؟

فقالوا: هذا ربيعة بن أبي عبد الرحمن.

فقال أبو عبد الرحمن: لقد رفع الله ابني؛ فرجع إلى منزله فقال لوالدته: لقد رأيت ولدك في حالة ما رأيت أحدا من أهل العلم والفقه عليها، فقالت أمه: فأيهما أحب إليك ثلاثون ألف دينار أو هذا الذي هو فيه من الجاه؟ قال: لا والله إلا هذا، قالت: فإني قد أنفقت المال كله عليه قال: فوالله ما ضيعتِه».

إنه ربيعة الرأي أستاذ إمام دار الهجرة ومفتيها الأكبر الإمام مالك بن أنس رحمهما الله تعالى، الذي قال عنه حين وفاته: «ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة بن أبي عبد الرحمن»[1].

وكم أهدرت من أموال لمجرد تمشيات وسفرات وتسليات، بينما يبخل بعض الناس في تخصيص جزء من تلك الأموال في بناء أولادهم العلمي والثقافي والمهاري.

---

(١) صفة الصفوة: ٢/ ١٠٥، وسير أعلام البنلاء: ٧/ ١٠٧-١٣٤.

٥١

في حجـر أمـــه..

لا تخطئ هذه العبارة الرائعة في سير العظماء الذين نشأوا أيتاما، بل هي السر وراء تلك العظمة، كلما ترعرع الطفل في حجر أمٍّ تعي دورها، وتصنع منه مشروعها، كلما أمَّلت البشرية في إضافة نجم في سجل المؤثرين في تقدمها ورقيها.

ومن هذه السلسلة الفريدة من الأعلام الذين بنتهم أمهاتهم الإمام الحافظ إمام **بيروت وسائر الشَّام والمغرب والأندلُس أبو عمرو عبدُ الرحمٰن بن عمرو بن يُحمد الأوزاعي**، فقيه ومحدث، وأحد تابعي التابعين، وإمام أهل الشام في زمانه.

الأوزاعي، الذي ولد في بعلبك، ونشأ في البقاع، ونقلته أمه إلى بيروت؛ فعاش بها، وقد كان عالما فقيها، «قال العباس بن الوليد: ما رأيت أبي يتعجب من شيء في الدنيا تعجبَه من الأوزاعي، فكان يقول: سبحانك تفعل ما تشاء، كان الأوزاعي يتيما فقيرا في حِجر أمه، تنقله من بلد إلى بلد، وقد جرى حكمك فيه أن بلغته حيث رأيتُه، يا بني عجزت الملوك أن تؤدب نفسها وأولادها، أُدب الأوزاعي في نفسه، ما سمعت منه كلمة قطُّ فاضلة إلا احتاج مستمعها إلى إثباتها عنه، ولا رأيته ضاحكا قط؛ حتى يقهقه، ولقد كان إذا أخذ في ذكر المعاد أقول في

نفسي: أترى في المجلس قلب لم يبك»[1]؟

أمهات.. كانت لهم الريادة في التربية، لو أنهن بيننا لاستحقت كل واحدة منهن جائزة عالمية في التربية، كيف وهي لم تدرس حرفا في التربية أو علم النفس أو علم الاجتماع، ولا عرفت شيئا من نظريات التعلم!!

خلفتِ جيلا من العلماء سيرتهم

تضوع بين الورى رَوحا وريحانا

كانت علومهمُ برا ومرحمة

كانت سياستهم عدلًا وإحسانا

(١) سير أعلام النبلاء: ٧ / ١١٠.

٥٢

متى يتآكل الحب بين الأم و ولدها؟

أيتها الأم المربية.. تلفتي من حولك، والتقطي تلك الصور الجميلة، أُسَرًا عرفت أهمية التربية، وحقيقة العلاقة بين الآباء والأولاد، وأنها إنما تبنى على الحب الشفاف، والاستمتاع بالتربية، جعلت أهم مشروعاتها في الحياة تنشئة بنين وبنات صالحين وصالحات، ناجحين وناجحات، مبدعين ومبدعات، فلم تقنع من الوقت بالفتات، بل منحتهم أهم الأوقات، وأروع اللحظات، وبذلت أموالها في توفير كل ما ينمي ملكاتهم ويرفع قدراتهم، فلا غرو ـ بعد ذلك ـ أن يكون نتاج تربيتهم قرة العيون، وشامات البلاد، وحراس العقيدة، ومطامح المجد.

ولكن لا بد أن نعلم -أيضا- أن هناك أُسَرًا اقتصر دور الأمِّ فيها -في الغالب الأعمِّ- على إعداد الطعام والشراب، والاهتمام بتلقين الطفل الدروس كلمة كلمة كأنه ببغاء في حضن طفل مشدوه، بينما انحصر دور الأب في الركض خلف لقمة العيش ليل نهار؛ لتوفير الاحتياجات الماديَّة المتزايدة (الضروريَّة والكماليَّة) للأسرة، واختفت من قاموس حياة هؤلاء رقة الأجداد مع الأحفاد، وحكايات الجدَّات في صدر الليل الطري، وفطرتهم النقية، التي كانت توجِّههم للتعامل الأمثل مع فلذات الأكباد.

نعم إن بعض الآباء والأمهات يعيشون مع أولادهم صغارا ومراهقين معركة يومية، لا تبرح تشتعل في كل لحظة من ليل أو نهار، ومن خلال ما يردني من استشارات أو ما أقرؤه في الصحف، وجدت أن المشكلة قبل أن

يكون سببها الأولاد، فإنها تضرمت بسبب معاملة الآباء والأمهات لهم، فإن كثيرا من الأولاد اليوم يقعون بين معاملتين خاطئتين؛ هما التدليل المفرط والعنف في التأديب، في حين يغيب الحزم والتربية بالحب.

إنني لا أنادي بالدلال الذي يمسخ رجولة الذكر، ويفسد شخصية الأنثى، ولكني أنادي بالحب الذي يعني إشعار الأولاد عموما بالمودة الخالصة من شوائب ترقب المنفعة، والخصوصية في المعاملة.

ولا أنادي بالقسوة التي تصل إلى حد تبغيض الحياة في عيني الأولاد حتى سمعنا أطفالا يتمنون الموت، ويكرهون رؤية آبائهم، ويتمنون أن يسافروا فلا يعودوا، ولكن بالحزم اللطيف الذي يمكنك أن تسميه قسوة مقننة تعلم الأولاد وتربيهم على أن الحياة لا تدوم نعمها، ولا يوثق بابتسامتها. على حد تعبير الشاعر:

فقسـا ليزدجـروا ومن يك حازمـا

فليقـس أحيـانـا عـلى مـن يرحـم

والفاروق عمر رضي الله عنه يقول: اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم. ويقول أحد السلف لطلابه: «لا تهربوا من خشونة كلامي فإنه لم يربني إلا الخشن في دين الله».

إن الوسطية هي ديننا وحسب، فبين الدلال المفرط والظلم المرهق روضة تأديبية ريحها طيب وطعمها طيب، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، تلك هي التي أتمنى أن أعيشها مع أولادي، وأتمنى لك أن تعيشيها مع أولادك.

يقول أحد المختصين العالميين في تربية الأولاد وهو الدكتور سبوك: «إن الذي يسبب تآكل الحب بين الآباء [ويقصد الأمهات في هذا المصطلح الأبوي] والأبناء هو ذلك الإفراط في التسيب وخوف الآباء الشديد على حرية أبنائهم، وخوف الآباء الشديد من أبنائهم من ممارسة قيادة الأبناء، وتكون النتيجة في الغالب حالة من الإحباط المشترك، سببها أن الابن أخذ مساحة من الحرية لا يعرف كيف يتصرف فيها، ولم يتدرب على التعامل معها، وأن الأب والأم أحس كل منهما أنه لا يستطيع أن يسيطر على الابن. إن علينا نحن الآباء والأمهات أن نقدم بشجاعة وهدوء على ممارسة مهماتنا الطبيعية وهي: أن يكون الواحد منا صارما دون قسوة، وأن يكون حازما دون جفاف، وأن يكون حنونا دون انهزام أمام الطفل، وإذا سألنا أين نتعلم كل ذلك، فإننا نقول: نحن نتعلم ذلك بالتدريب، والانتباه، والقدرة واليقظة على تعديل السلوك الخاطيء، إلى سلوك مناسب»[1].

قد يطلب منك طفلك أيتها الأم نوعا من الدلال، فتخشين أن تفسديه بذلك، ولكن الحقيقة أن عليك أن تفرقي بين الدلال والحب، فكل ولد يحتاج منك إلى مقدار كبير من الحنان، كما يحتاج للهواء والماء والطعام، إنه في أشد الحاجة إلى حبك، إلى احتضانك مهما كبر، فتلبية حاجاته النفسية لا يعني تدليله الدلال المخرب أبدا.

يقول أنس رضي الله عنه: «ما رأيتُ أحدًا كان أرحمَ بالعيالِ من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم».

(١) تربية الأبناء في الزمن الصعب للدكتور بينجامين سبوك، تحرير منير عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، ٢٠١٠م، ص: ٨٦-٨٧.

قال: كان إبراهيمُ مُسترضَعًا له في عوالي المدينةِ، فكان ينطلقُ ونحن معه. فيدخلُ البيتَ وإنه لَيُدَّخنُ. وكان ظِئرُه قَيْنًا. فيأخذُه فيقبِّلُه. ثم يرجع. قال عمرو: فلما تُوفِّيَ إبراهيمُ قال رسولُ الله ﷺ«إنَّ إبراهيمَ ابني. وإنه مات في الثَّدي. وإنَّ له لَظِئرَينِ تُكملانِ رضَاعَه في الجنةِ»[1].

أطعمي طفلك بيدك، ولبسيه الملابس بيدك، وامسحي صدره وخده ورأسه بيدك، إن ذلك يمثل طريقة غير مباشرة للتعبير عن حبك له، حتى ولو كان في وسط يوم مليء بالمشاحنات كما يقول الباحثون النفسيون.

وهذا جابر بن سمرة رضي الله عنه يقول: «صليتُ مع رسولِ الله ﷺ صلاةَ الأولى. ثم خرج إلى أهلِه وخرجتُ معَه. فاستقبلَه ولدَانٌ. فجعل يمسحُ خدَّيْ أحدهم واحدًا واحدًا. قال: وأما أنا فمسح خدِّي. قال فوجدتُ لِيَدِه بردًا أو ريحًا كأنما أخرجها من جؤنةِ عطارٍ»[2].

عند استيقاظه من النوم: خذي صغيرك في حِضنك واحكي له ما ستقومان بعمله في هذا اليوم الجديد. وعند تناوله الطعام: لا تنسي مداعبته عن طريق التمثيل البسيط والحكاية الحلوة. وعند النوم: تحدّثا سويًا عما حدث في ذلك اليوم وعن الأحداث المنتظرة في اليوم التالي بإذن الله، غطيه بيديك، واطبعي قبلة حنونة على جبينه وودعيه الله، ولقنيه دعاء النوم حتى يحفظه.

وهذا رسول الله ﷺ يصل إلى فراش علي وفاطمة في حادثة موحية أوردها البخاري رحمه الله: «أنَّ فاطمةَ عليها السلام شكت ما تلقى في يدِها من

(١) رواه مسلم (٤/ ١٨٠٨) ح (٢٣١٦).
(٢) رواه مسلم (٤/ ١٨١٤) ح (٢٣٢٩).

الرَّحى، فأتت النبيَّ ﷺ تسأله خادمًا فلم تجدْه، فذكرت ذلك لعائشةَ، فلما جاء أخبرته، قال: فجاءنا وقد أخذنا مضاجعَنا، فذهبتُ أقومُ، فقال: (مكانَك). فجلس بيننا حتى وجدت بردَ قدمَيه على صدري، فقال: (ألا أدلُّكما على ما هو خيرٌ لكما من خادم؟ إذا أويتُما إلى فراشِكما، أو أخذتما مضاجعَكما، فكبِّرا ثلاثًا وثلاثين، وسبِّحا ثلاثًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين، فهذا خيرٌ لكما من خادم»[1]. وعن شعبةَ عن خالدٍ عن ابنِ سيرينَ قال: التسبيحُ أربعُ وثلاثونَ.

وبعد أن يأخذ طفلك حمامه الدافئ: جففي جسمه بلطف وقولي له: كم أنت جميل. عندما يستعد للخروج معك وعند ارتداء ملابسه: حدثيه عن المكان المتوجه إليه وعما سيتم فعله هناك.. وإذا كنت تخرجين بشكل يومي للعمل فلا تحرصي على إيقاظ طفلك ما قبل المدرسة مادمت قد عزمت على تركه في المنزل مع من يرعاه، ولكن إذا استيقظ باكرا فلا تفجعيه فيك بالخروج المفاجيء الخشن، بأن تدفعيه، أو تصرخي في وجهه بحجة أنك في عجلة من أمرك، بل أعطيه -من الحنان- ما يكفيه فترة غيابك عنه، وذلك بمنحه حِضنًا دافئًا، وقبلة حارة، مع توفير كل سبل الأمن والراحة له من أكل شهي، ولعب يرغب فيها..، وإني والله لأعزيه في فقدك كل هذه الساعات، فقدا لا يعوض أبدا، ولا أريد أن أفتح ملف بعض الخادمات والمربيات، المليء بالجرائم والفضائح خلال غياب الأم عن المنزل، فذلك مما سارت به الركبان. والله المستعان.

حمى الله أولادنا من كل مكروه..

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٧٠) ح (٦٣١٨).

٥٣

أوقدي قناديل التحفيز؛ لتضيئي العالم

قال رافع بن هُرَيم[١]:

فلو كنتم لمُكيسَــةٍ لكاســت
وكَيْسُ الأمِّ يُـعرفُ في الـبنين

ما أشعرَه!! يقول: لو كنتم أبناء امرأةٍ كيسة فطنة عاقلة متعقلة، لظهر ذلك على أخلاقكم وسلوككم؛ لأن عناصر الكِياسة في الأمهات تظهر في أبنائها، وهو مصداق ما أوردته سابقا من المقولة العالمية: إن الرجال يرثون عناصر عظمتهم من أمهاتهم.

ولعل البيت الشعري السابق في معرض الهجاء، الذي تُظلم فيه الأم ويظلم فيه الأب، وكم سمعنا ممن يلقون الكلام على عواهنه: «أنت ما تربيت!!»، لأنهم وجدوا تصرفا سيئا عارضا، لا يمثل حتى المتربي، لأنه قد يكون مستفزًّا، أو متوترا!! لكنه يشير أيضا إلى أن التربية العميقة تظهر آثارها وثمراتها في سلوك الأولاد.

هل تعرفين **شعبة بن الحجاج**؟

(١) شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم، وله ديوان صغير (خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبدالقادر البغدادي، تحقيق عبدالسلام هارون، ط: ٢ مكتبة الخانجي، مصر، ١٤٠٢، ١٩٨١م، ٤/ ٤٨١.

أنا أزيدك به معرفة..

الإمام الحافظ، أمير المؤمنين في الحديث، عالم أهل البصرة وشيخها أبو بسطام.

قال عنه الإمام الشافعي: «لولا شعبةُ لما عُرف الحديثُ بالعراق»[1].

وقال عنه الإمام أحمد: «كان شعبة أمة وحده في هذا الشأن»[2]. يعني في الرجال وبصره بالحديث وتثبته وتنقيته للرجال.

وقال عنه الإمام الذهبي: «كان أبو بسطام إماما ثبتا حجة، ناقدا جهبذا، زاهدا، قانعا بالقوت، رأسا في العلم والعمل، منقطع القرين، وهو أول من جرّح وعدَّل»[3].

واشتهر بالعبادة، والسخاء، والصدقة، حتى سُمِّيَ أبا المساكين وأمَّهم، حتى ليقترض من أصحابه ليتصدق، ومن أثنى عليه الأئمة الأعلام كل هذا الثناء وأكثر، فإنه ليستحق أن يرفع قدوة أمام الأجيال؛ ليقتفوا أثره في طريقته وأسلوب حياته، وأخذه للعلم.

ولكن من وراء هذا الإمام العلم؟

إنها (أمُّه) رحمها الله، التي تميزت بأنها صاحبة علم في المنحى الذي اختاره ولدها لحياته العلمية، وربما اختارته معه، وكل من الأسلوبين في التربية

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٢٠٦.
(٢) العلل لابن حنبل: ١/ ١١١.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٢٠٦.

مقبول، أعني أن يختار الولد بميوله وقدراته المسلك العلمي والتخصص الدقيق الذي يستثمر فيه حياته، أو يكون من الوالدين استكشاف له، وإعانة على الاختيار، فيتقبل ذلك وينطلق فيه، والمسلك الثالث وهو الخطر على مستقبله: أن يختاروا له، ويجبروه على مسلك لا يرغبه.

نعم، لقد كان لأمه إلمام بالحديث فهو القائل عنها: «قالت أمي لهشام بن حسان: «عن من يحدث محمد بن سيرين من أصحاب النبي ﷺ؟ قال: عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم، قالت وسمع منهم؟ قال: نعم»[1].

وقد روي عنه أنه قال: «قَالَتْ لِي أُمِّي: هَاهُنَا امْرَأَةٌ تُحَدِّثُ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، فَاذْهَبْ فَاسْمَعْ مِنْهَا، قَالَ: فَذَهَبْتُ إِلَيْهَا فَسَمِعْتُ مِنْهَا، ثُمَّ قُلْتُ لَهَا: قَدْ سَمِعْتُ مِنْهَا، قَالَتْ: لا يَسْأَلُكَ الله»[2]، والتي روى عنها: شُميسة بنت عزيز العتكية؛ ووثقها يحيى بن معين[3].

لسنا بصدد جرح وتعديل، ولكننا بصدد تربية إيمانية علمية ممتزجة، أدتها هذه الأم العظيمة بطريقة عالية الجودة، وإذا كان النجاح لابد من أن يقاس، فإن من أهم مؤشرات الإنجاز، وأعظم الشواهد على الإطلاق، هو المنتج، والمنتج هنا هو أن أضحى الغلام عالما من أكبر علماء الأمة، حظي بقبول عظيم، وشهادات من أئمة الدين الذين تلقتهم أمة محمد ﷺ بالقبول.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٧/ ١٥٣.
(٢) تاريخ واسط لجشل: ١٢١، وأخرج هذا الأثر ابنُ سعد في «الطبقات» (٧/ ٢٨١).
(٣) أورده الدارقطني في المؤتلف والمختلف (١٧٥٧/ ٤).

بربك.. -أيتها الأم العظيمة- ألا تحبين أن يكون لك ولد مثله؟!

بلى ورب السماوات والأرض ومن فيهن..

إذن اصنعي ما صنعت أم شعبة بن الحجاج.. حددي الهدف، وأوقدي قناديل التحفيز، وأريه الطريق، ودليه على الثقات الذين يأخذ عنهم، وتابعيه، وادعي له.

٥٤

كيف كانت أم الإمام البخاري؟!

هل لي أن أتحدث عن إمام الدنيا في الحديث، **الإمام محمد بن إسماعيل البخاري**، وهو الذي حظي بأن كان كتابه في الحديث أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، أتعلمين -أيضا- بأنه ولد يتيما في حجر أمه -رحمه الله تعالى وجزاها عن الإسلام والمسلمين خيرا- فقد كانت محضنا إيمانيا متكاملا، كانت عابدة صالحة صاحبة كرامات، فقد مات إسماعيل وابنه محمد صغير، فنشأ في حجر أمه، ثم حج مع أمه وأخيه أحمد وكان أسن منه، فأقام هو بمكة مجاورًا يطلب العلم.

روى اللالكائي في شرح السنة في باب كرمات الأولياء منه: أن محمد بن إسماعيل ذهبت عيناه في صغره، فرأت والدته الخليل إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- في المنام فقال لها: «يا هذه، قد رد الله على ابنك بصره بكثرة دعائك»، قال: فأصبح وقد رد الله عليه بصره».

وقال محمد بن أبي حاتم وراق البخاري: سمعت البخاري يقول: «أُلهمت حفظ الحديث وأنا في الكتاب»، قلت: وكم أتى عليك إذ ذاك؟ فقال: «عشر سنين أو أقل، فلما طعنت في ست عشرة سنة حفظت كتب ابن المبارك ووكيع وعرفت كلام هؤلاء - يعني أصحاب الرأي. فلما طعنت في ثماني عشرة جعلتُ أُصنِّفُ في قضايا الصحابة والتابعين وأقوالهم»[1].

---

(١) تاريخ بغداد: ٧/ ٢.

وسأله محمد بن أبي حاتم: كيف كان بدء أمرك؟

قال: أُلهمتُ حفظَ الحديث وأنا في الكُـتّاب .

فقلت: كم كان سنُّك؟

فقال: عشر سنين أو أقل، ثم خرجتُ من الكتاب بعد العشر، فجعلتُ أختلف إلى الداخليّ[1] وغيره، فقال يوما فيما كان يقرأ للناس: «سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم»، فقلت له: إن أبا الزبير لم يروِ عن إبراهيم! فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى الأصل، فدخل فنظر فيه ثم خرج فقال لي: كيف هو يا غلام؟ قلت: هو الزبير بن عدي عن إبراهيم، فأخذ القلمَ مِنِّي وأحكم كتابه، وقال: صدقت!

فقيل للبخاري: ابنَ كم كنتَ حين رددتَ عليه؟ قال: ابن إحدى عشرة سنة.

قال الإمام البخاري: «فلما طعنتُ في ستَّ عشرةَ سنة!! كنتُ قد حفظتُ كتبَ ابنِ المبارك ووكيع، وعرفت كلام هؤلاء، ثم خرجت مع أمي وأخي أحمد إلى مكة، فلما حججت رجع أخي بها، وتخلفت في طلب الحديث»[2].

لقد وُلِد البخاري رحمه الله في شوال سنةَ أربع وتسعين ومائة، ومات أبوه وهو صغير، فنشأ في حجر أمه؛ التي بخلت علينا المصادر باسمها،

(١) حرص عدد من المحدثين أن يجدوا ترجمة لهذا العالم فلم يجدوا، رحمه الله، جهله الناس والله تعالى يعرفه.
(٢) القاضي على تعليقات البخاري، لابن مقصد العبدلي، دار نور اليقين، مصر، ١٤٣٣ هـ (٢٠١١ م)، ١/ ٣٣.

ولكنها أكَّدت أنها كانت تقية ورعة، كانت أحد أهم الأسباب التي ساعدت على بناء شخصية ابنها؛ حين دفعته للعلم، وشجعته وهو لا يزال طفلا، قيل إنه كان يحفظ وهو صبي سبعين ألف حديث سردًا.

أَنْشَدَ الْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللهِ، لِبَعْضِهِمْ:

خَـيْرُ مَا وَرَّثَ الرِّجَـالُ بَنِيهِـمْ
أَدَبـًا صَالِحًـا وَطِـيبَ ثَـنَاءِ

خَـيْرٌ مِـنَ الدَّنَانِـيرِ وَالأَوْرَا
قِ فِي يَـوْمِ شِـدَّةٍ وَرَجَـاءِ

تِلْكَ تَفْنَى وَالـدِّينُ والأَدَبُ الصَّـ
ـالِحُ لا يَفْـنَيَانِ حَتَّـى اللِّقَـاء

إِنْ تَـأَدَّبْتَ يَـا بُـنَيَّ صَغِـيرًا
صِـرْتَ يَـوْمًا تُعَـدُّ فِي النُّبَـلاءِ

وَإِذَا مَـا أَضَـعْتَ نَفْسَـكَ أُلْفَيْـ
ـتَ وَضِيعـًا فِي زُمْـرَةِ الْغَـوْغَاءِ

لَيْسَ عَطْفُ الْقَضِيبِ إِنْ كَانَ غَضًّا
وَإِذَا كَـانَ يَـابِسـًا بِسَـوَاءِ

وقد كان الإمام البخاري - في أول أمره - يحاول تعلم الفقه والتبحر فيه، فقال له محمد بن الحسن رحمه الله: «اذهب واشتغل بعلم الحديث»

عندما رآه أقربَ لقدراته فاستجاب الشاب البخاري، حتى صار على رأس المحدثين بل وإمامهم.

منهج علمي يمكن أن تتبعيه مع ابنك؛ ليصبح عالما فذا، وإن اختلف الزمان، ولكن الوسائل والكتب والأدوات أصبحت أسهل، لقد بدأ البخاري الطلب في السن الذي يدخل أولادنا فيها الروضة، وبدأ التأليف في السن الذي يدرس فيه أولادنا في الثالثة الثانوية!! في هذه السن التي نسميها المراهقة، وربما تعاملنا مع أبنائها على أنهم لا يؤاخذون في تصرفاتهم، ولا في أخطائهم، ولا...

سن المراهقة هي السن التي يُصنع فيها الإنسان، ويقوَّمُ خُلُقا وسلوكا، ويُعلَّقُ بالعبادات التي لا يستطيعها الصغير، ويُربطُ بالأهداف العليا؛ حتى تتحول إلى هدف حياة، يعيش يتعبد الله تعالى بها.

في سن المراهقة كان الشباب بين يدي الرسول ﷺ، وعلى مر التاريخ علماء ومجاهدين، ومستشارين، وفاتحين، ومخترعين، وقادة، ومبدعين.

٥٥

أبو (أمّي) .. هل سمعتم بلقب كهذا؟!

أحكي هنا قصة منقولة تستحق القراءة والتمعن وأخذ العِبرة والدروس، وأحلى ما فيها اسم ابنته الذي ليس له مثيل في الكون، سأدع الحديث للراوي يقص هذه القصة العجيبة، يقول:

داخل أروقة المؤسسة الإعلامية التي أعمل بها في لندن، سأله مُراجع وقال: من لطفك، هل باستطاعتي أداء الصلاة هنا؟ «طبعًا باللغة الإنجليزية كان السؤال».

فكرت مليًّا .. وأخذت أُفكر هل هذا مسلم أم مسيحي أم يهودي أم..

- قلت له: وهل أنتَ موظف هنا؟

- قال: لا أنا صاحب شركة، وأتيت لكي أنهي حسابات عام ٢٠١٥م مع هذه الدائرة، والمحاسب قال: بعد ساعة نلتقي، وحان الآن موعد صلاة الظهر وأرغب بالصلاة.

- قلت له: أهلًا أخي تفضل لأداء الصلاة في مكتبي، وأثناء المسير عرفت أنه عراقي، وقلت له: «عفوًا لم أعرفك في البداية ومازحته فضحك، وأنا كذلك، وبعد الصلاة شرح لي قصته وطلبت منه أن أنشرها لأصدقائي ووافق الرجل مشكورا.

مستهل الحديث قلت له: أنا فلان من حضرتك؟

- قال: «أبو أمِّي».

- ماذا؟

- قال: بنتي اسمها «أمِّي» وأنا أبو أمي.

- قلت له: أول مرة أسمع بهذا الاسم في حياتي؟

- قال: مِن ظُلمي لأمي وحُبي لها في الوقت نفسه أسميت ابنتي بـ (أمي) حتى أتذكر أمي دائمًا.

- وتابع في حديثه قائلًا: كان أبي تاجر أقمشة في مدينة الكاظمية، وأنا الوحيد له، وكنت (المدلل)، يشترون لي ما أريد وأشتهي، وأطلب ولم يرفضوا لي طلبًا في حياتي.

- لكن الدلال الزائد أفسدني، وجعلني عاقا لوالدتي، بعد وفاة أبي، أمي زوجتني ولم أبلغ الربيع السابع عشر، وأقامت لي حفلة كبيرة، وبعد الزواج أصبحت في خِصام مع أمي، واستوليت على المحل وعلى الأموال والبيت، وسلمت إدارة البيت والخزينة لزوجتي؛ التي كانت تحشو سمعي بكلام باطل ضد أمي، حتى كرهت أمي، وضربتُها وقطعت عنها الأموال، رغم أنها شريكة لأبي في المحل التجاري للأقمشة.

- زوجتي أصبحت تأمر وتنهى في البيت، وأمِّي خادمة، حتى بلغ الأمر بأن تقوم زوجتي بقفل باب المطبخ على أمي؛ حتى لا تأكل من الطعام وأنا أعلم لكن لا أستطيع الكلام حينها! بعد أن كانت أمي تُطعم كل بيوت المحلة من كرمها وطيبة قلبها وإيمانها وتقواها..

أصبحت في دارها غريبة جائعة سَجينة مُهانة لا حول ولا قوة.

أرى كل هذا أمامي لكن لا أُحرك ساكنا .. لماذا .. لا أعلم!

في يوم من الأيام قال لي ولدي الصغير: «بابا تنطيني درهم وأتفل على ساهرة الساحرة»؟

- قلت: له لماذا؟

- قال: «مو أمي تنطيني درهم من أتفل على ساهرة».

- ولدي الآخر قال: بابا أنطيني درهم أضربها دفره..

(ساهرة) هي أمي المؤمنة الحاجة العابدة، التي لم تؤذِ نملة في حياتها، وتقول لمن يقتل نملة أو حشرة: (حرام)، جعلتني زوجتي أراها خنزيرة أمامي وليس من ولدتني وربتني حتى كبرت.

جاري من عائلة فقيرة يتيم يعمل عاملا معي في المحل، عندما يخرج أو يعود إلى بيته المستأجر الذي يسكنه يُقبل يد أمه ورأسها!!

- قلت له: عادل، لماذا تُقبل يد أمك ورأسها وهي لم تعطك أيَّ شيء؟

- قال: كانت سببا في حياتي عندما ولدتني لهذه الدنيا، وهل أعز وأكبر من هذه العطية!

واعترف لي بأنه يقوم بشراء ربع كيلو لحم؛ لكي تطبخه أمه لكي تُطعم أمي، بعد أن كانت أمي تتصدق عليهم.

بكيت.. بكيت.. بكيت.. على المذلة التي ذاقتها أمي بسببي والحرمان والجوع!!

عرفت من عادل كيف تُعذب وتُهين زوجتي (أمي) يوميًا وتسبها وتغلط عليها، حتى تضربها وتبصق عليها، وكانت تكذب وتقول لي: أمك فعلت كذا وكذا وكذا.. ومن حماقتي وسذاجتي كنت أُصدق زوجتي بكل ما تقول من كلام باطل!!

عاقبني الله فخسرت تجارتي، وبعت البضاعة التي في المحل، وصرفت زوجتي ثمنها على الذهب، والحفلات والمطاعم والبذخ والتبذير والسحر والشعوذة وغيرها.

قررت أن أعاقب زوجتي على كل أعمالها السيئة القبيحة وتضليلي باتجاه أمي، قلت لها: سوف أشتري بيتا بالمنصور، وأبيع بيت أمي بالكاظمية، وأسجل البيت باسمكِ، وأُطرد أمي لدار العجزة، فَرحت ووافقت، قلت لها: نحتاج ندفع الفرق.. أقنعتها ببيع الذهب ودفع ما تخزن من أموال، وبعد أن بعت بيت الكاظمية فعلًا، قلت لها سوف آخذ أمي إلى (زاخو) وأرميها هناك وأعود. فَرحت كثيرًا وقالت: اذهب!

ذهبت فعلًا وأخذت أمي معي، وأخذت الأموال معنا، وقبل أن أذهب طلقت زوجتي أمام الذي زوجنا، وقلت له: بعد عشرة أيام أرسل لها ورقة الطلاق.

وعن طريق تاجر أقمشة كردي من (زاخو)، وهو صديق للوالد عبرنا الحدود إلى تركيا حتى وصلنا إلى لندن، وبعد وصولنا دخل صدام الكويت واحتلها.

قدمت اعتذاري لأمي الحنون، التي قبلت اعتذاري، وأصبحت أقبل يدها ورأسها يوميا كما يفعل عادل مع أمه، الذي قال لي: من

يرغب أن يرضى الله عليه .. فعليه أن يكسب رضا أمه أولا.

وأخذت أقبل أقدام أمي وأعوضها عن سنوات الجفاء والعقوق ..

وصلنا لندن ولم يبق لدينا حتى باوند واحد، أخذت أبحث عن عمل، وعن طريق جار لنا عملت في غسل وتنظيف الزجاج والشبابيك معه، وقالت لي أمي: اترك العمل معه واعمل لحسابك الخاص؛ حتى تكون (أسطة مو عامل) وسيرزقك الله.

عملتُ بما أمرتني به أمي، وأخذتُ أنظفُ الزجاج والشبابيك للبيوت وواجهات المحلات، حتى أصبح لدي عامل وأكثر من عشرة خلال شهر، والطلبات تزداد يوميا، ففتحت مكتبا مسجلا رسميا، ثم أصبح المكتب شركة، والشركة لها فروع في كل لندن، وتوسع الرزق بفضل دعاء أمي، وفتحت فروعا للشركة في كافة مدن بريطانيا، وأصبحت المتعهد الأول للوزارات والمؤسسات والشركات والفنادق الكبيرة والصحف والمجلات وغيرها. واشتريت أول بيت، وسجلته باسم أمي، وتزوجت من شابة إنكليزية، ورزقني الله بنتا أسميتها (أمي) وذهبت أمي وزوجتي وبنتي لحج بيت الله وأنا كذلك.

واشتريت بيتا أكبر، وعمارة وفندقا ومزرعة، واليوم، وبعد ٢٥ سنة على وصولي إلى بريطانيا «من فضل الله ودعاء أمي أمتلك أكثر من ١٠٠ بيت جميعها مؤجرةً ونقبض منها إيجارات، والشركة توسعت وفيها أكثر من ١٥ ألف عامل وعاملة. حتى اختارتني مجلة (رجال الأعمال) البريطانية أغنى عراقي في بريطانيا.

قلت له: قصة مؤثرة لكن ما الهدف من نشرها؟

قال: من عنده مال كثير وهو عاق لوالدته قد يُذهِبُ الله ماله هباءً منثورا، وربما نال عقابه يوم القيامة، وخسر الدنيا والآخرة، إلا أن يلطف الله -تبارك وتعالى- به.

ومن شَحَ عليه الرزق وهو عاق لوالدته، فعليه الإسراع بالاعتذار منها ومصالحتها وكسب مرضاتها لينال رزق الدنيا والآخرة.

هذا درس الأولاد، أما درس الأمهات فهو ما قاله الولد عن طريقة تربية والديه له: «وأنا الوحيد لهما، وكنت (المدلل)، يشترون لي ما أريد وأشتهي، وأطلب ولم يرفضوا لي طلبًا في حياتي».

التدليل شر من الإهمال، وكلاهما شر، فالمدلل تسوء نفسه، ويصبح أنانيا شرها لا يشبع، ويرى أن كل ما حوله ملك له، وأول من يتضرر به من دللـه، ولكن لا يعني ذلك أني أدعو إلى القسوة، بل أدعو إلى التربية بالحب والحزم، وهو ما صنعته أمه معه متأخرا فأثمر كل هذه الثمرات.

٥٦

حين تغيب شمس الأم، ويفشل الأب في تعويضها

يقول الشاب: أنا الابن الأصغر في أسرتي المكونة من ابنين وابنة وأمي وأبي. وبعد ولادتي بفترة قصيرة مرضت أمي فاهتمت برعايتي أختي الكبرى. فكانت أمًا ثانية وهي في سن المراهقة.. وبعدما شفيت أمي أغدقت علي من حنانها ورعايتها الشيء الكثير لإحساسها بما سأعانيه من مرارة اليتم وإحساسها بأن عمرها لن يطول لرعايتي. وكان والدي يعارضها على عطفها.. ولذا حاول تعويض ذلك بتشديده علي حتى لا يفسدني التدليل. وتزوجت أختي وسافرت للخارج مع زوجها وهي في سن الثالثة والعشرين ولم يحقق رغبة أبي إلا الأخ الذي يلي أختي الكبرى في الالتحاق بالكلية التي تخرج فيها أبي ليواصل رحلة الكفاح والنجاح.

توفيت أمي بعد سفر أختي للخارج وأنا في الثانية عشرة من عمري. فتجرعت مرارة اليتم، ومرضتُ وتعثرتُ في الدراسة، وخشي أبي أن أفشل في الدراسة، فضغط علي لكي أتفوق كبقية إخواني، وبذلت كل جهدي لكن ذلك لم يسفر إلا عن النجاح بصعوبة، وبدأ أبي يضربني ويراقبني ويتهم شقيقي بالتستر على عدم مذاكرتي، وخاصمني ولم أسلم من تهكمه اللاذع، وكنت أتألم كثيرًا وأضاعف من جهدي ولكن النتيجة دائمًا على حافة السقوط، أو نجاح بالكاد، ولا يرحمني من اللوم والسخرية!!

وتزوج أبي وأنا في الصف الثاني من المرحلة الثانوية وكانت زوجته معي طيبة وأكثر رفقًا بي من أبي. وعندما رسبت في الثانوية العامة كاد أبي أن يقتلني، ولم يصدق أني بذلت كل ما أستطيع وزاد الطين بلة حينما رسبت ثلاث مرات متتالية.. وازدادت الحالة سوءًا، فقاطعني أبي نهائيًّا وحرمني من المصروف ومن الملابس ومن كل شيء وعشت على مساعدة شقيقي وشقيقتي التي في الخارج دون علم أبي، وأديت الخدمة العسكرية ولم يتوسط أبي لنقلي لمكان قريب أو مريح لأنه لا يشرفه أن ابنه بدون مؤهلات.

وسافر أخي للحصول على درجة الدكتوراه، وعدَّني والدي (عار الأسرة)، وأمرني بعدم زيارته في البيت أو العمل أو الذهاب إلى النادي، وذهبت وعملت في محل أحذية بأجر معقول، وعندما علم والدي نزل علي سبًّا وشتمًا، وأمرني بعدم العمل في هذا المحل؛ لأنهم علموا أني ابن فلان المشهور!! وأمرني أن أعمل في مكتبه بمبلغ بسيط ولكني آثرت عدم الاحتكاك به.. لأنه يسخر مني باستمرار، وأنا دائما أشعر بالنقص عن الآخرين، فصفعني بشدة وخيرني بين عدم بقائي في البيت وبين قبولي لعرضه!

ولأول مرة أرفع عيني في عينه.. وخرجت من المنزل لأعيش في فندق متواضع، ساعدني شقيقي الحنون في دفع حساب أسبوع مقدمًا، على أمل أن أهدأ وأعود للبيت.. وعدت للمحل التجاري، إلا أنه بعد فترة استغنى عني لتهديد والدي له. وطاردني والدي من محل لآخر وكان شقيقي يساعدني ويقف بجانبي. وقد طرت من الفرح حينما علمت بحصول أخي على الدكتوراه من إحدى الدول الأوروبية. وساعدني

أخي في الحصول على مبلغ من والدي بعد أخذٍ ورد لأدفع خلو شقة في منطقة شعبية واشتري ما يلزم من أثاث لأتزوج، ورفض أبي أن أتزوج من إنسانة بسيطة متدينة وتسبب في قطع رزقي من المحل لكي يمنعني من الزواج.. ورغم التهديد والوعيد تزوجت وهنأني إخوتي ووقفوا جانبي ماديًا ومعنويًا.

واشتريت محلًا صغيرًا بمساعدة زوجتي وأهلها، وتفرغت له، ووهبني الله طفلًا جميلًا.

وعلى الرغم من اعتراف الجميع لي بالخلق الطيب، وبالتدين والأمانة، والنفس النقية التي لا تُكِنُّ أَيَّةَ ضغينةٍ لمخلوق، ومع أني كونت أسرتي وأصبحت مسئولًا عنها بدخلي البسيط، ووجدت كل ما افتقدته من حنان ورعاية مع هذه الزوجة الحنونة.

إلا أن جريمتي الوحيدة هي أنني لم أحصل على شهادة دراسية، ولم يستطع والدي بعد مرور ثلاث سنوات على زواجي أن يغفر لي جريمتي هذه ويعاملني كما يعامل الأب ابنه، رغم عدم حاجتي إليه في شيء مادي أو في أية مصلحة سوى إحساس الأبوة والمعاملة الطيبة، ورغم أنني أقسمت له بأنني على استعداد للتنازل بصفة رسمية عن نصيبي في الإرث بعد عمر مديد، مع أنني أصله وأزوره كل شهر، ولكنه يقابلني بعبوس وتجهم ولا يستقبلني بابتسامة أبدًا، وكل ما أريده أن يغفر لي.. وأن أشعر أني ابنه رغم فشلي الدراسي.. وأنني (بني آدم) له إحساس وشعور وكرامة.. ولست (عارًا) على العائلة».

قصة تتكرر، حين يغيب دور الأم بحنانها وظلالها بسبب مرض أو

وفاة، فلا يقوم الأب بتقمص دورها، بل يصر على أن يتجاهله تماما، فيتخذ من الشدة والقسوة والإجبار عصيًّا غليظة يسوق بها ولده في الاتجاه الذي يريده هو، وليس ما يطيقه ابنه، ولا ما يتسق مع قدراته ومواهبه وميولاته، ومن الطبيعي أن تكون النتائج كارثية، وإذا كانت هذه القصة انتهت بنهاية طيبة، بتوفيق الله تعالى لإخوة هذا الشاب للوقوف معه، فإن قصصا أخرى تشير إلى أن النهاية وصلت إلى تحول الشاب إلى مروج مخدرات أو لص أو فاشل يتسكع في دروب الضياع بلا هدف ولا قيمة!

إن مثل هذه النهايات الأليمة هي نتيجة طبيعية لإهمال بطيء بدأ بالجفوة التي تكون بين الآباء والأولاد، وإهمال النواحي العاطفية، وتنمية الحب بينهم، إذ تنقطع حبال المحبة الخالصة والولاء للأسرة بين الأولاد ذكورا أو إناثا وبين آبائهم وأمهاتهم؛ فتتفتح أسماع الأولاد لأية كلمة حب أو حتى مجرد اهتمام مفتعل من الخارج، فيلتفت بروحه وقلبه إليها، ويستجيب لداعي الهوى، فيضيع، ويفقد حتى تقديره لذاته!!

٥٧

الكتابة عن الأم .. أصعب أنواع الكتابة!!

إجماع من كل الذين طلبت منهم أن يكتبوا لي عن أمهاتهم، أو من عبروا عن مشاعرهم تجاه تجربة الكتابة عن أمهاتهم، ما لخصته **الأستاذة الدكتورة هدى بنت دليجان الدليجان**، أستاذة الدراسات القرآنية في جامعة الملك فيصل، في قولها: «كتبت كثيرا وبحثت كثيرا.. لكن أصعب الكتابة عن حبيبة افتقدتها.. وطيفها يسري في خلجاتي، وكلماتها تجري في دمي، وحبها يزيد في شجون قلبي مهما غابت عني».

فمن أمُّ (هدى الدليجان) أحد أعلام العلم والثقافة في بلادنا؟ سأترك الحديث لها، ولتتخيل كل أم أنها أمُّها فتسمع هذا الحديث الندي الهامس بنشيج الفقد والإكبار معا..

«أمي.. ومن مثل أمي!! فهي ليست كالأمهات .. أمي: أمينة بنت عبد العزيز العويصي رحمها الله تعالى.

وسيحدثكم قلمي قبل قلبي بخبرها قليلا؛ لعلكم تعرفون أمي مع حرارة عبراتي وغزير دمعي..

فاسمحوا لقلمي أن يقف وينتقل ويقطف لكم من مهجة قلبي حرفا عسى أن يليق بأمي قدرا ومكانة ودعاء وأجرًا .!!

استيقظت على صوتها كالنهر الجاري.. وعلى بياض قلبها ورقي أملها بي وبأخواني وأخواتي هدىً ونورا للناس.. فنحن ثروتها الأصيلة.. فنشأتُ بين يديها طفلة لكن كبيرة.. وسليلة مجد وعز لكن ذليلة قلب ولينة طبع.. علمتني ماهية بناء الأسرة وروعتها! عودتني المسؤولية وحقها! علمتني صناعة النجاح والوصول إلى القمة في القلوب! أهدتني باقات الأمل والتفاؤل، وأعشاب الصبر، وصناديق حسن التدبير، مع أريج الشيم وعنفوان القيم، والمبادئ وخمائل الجمال والرقة وعذوبة الكلام.. لا أذكر يوما أمرتني أو نهتني عن أمر .. إنما نظراتها كانت تكفيني رضا وسعادة» وهذا أصعب ما في التربية، فإن كثيرا من الأمهات تفهم التربية أوامر ونواهي مصحوبة بالعقوبات، ولكن أم الدكتورة هدى قد أُلهمت أحسن ما يمكن أن تصنعه أم بابنتها، توجيه عملي، ومراقبة ودية.

ومما تواتر في أمهات معظم الشخصيات الناجحة التي مرت بي في هذه الرحلة الوالدية، أنهن مقبولات محبوبات من الوسط الذي يعشن فيه، وكذلك كانت أم الدكتورة هدى، فقد «كانت محل الاحترام والتقدير.. أنزل الله لها مهابة وحبا في القلوب.. من رأها فقد تسللت إلى قلبه سكنا ومستقرا.. ومن تحدث إليها وجد لديها لباب الحكمة ودرر الحياة..».

وخلافا لكثير من نظريات التربية التي تشير إلى أهمية كون الأم متعلمة، **فإن عددا من أمهات العظماء كأم بطلتنا كما تقول عنها:** «لم تكن متعلمة كثيرا بحساباتنا التقليدية.. لكن علمتني الكثير برؤيتها الثاقبة.. وبحرصها على قراءة جريدتها الصباحية.. وتقليب قنوات تلفازها.. كانت تنفرد بتقييمها لكل مايدور حولها من الأحداث في السياسة في الاجتماع في الاقتصاد وفي الدعوة.. ولابد أن تنصت

إليها.. ومع ذلك كانت تحب الدروس والمحاضرات..

كنت أحرص في عافيتها على أن أكون في صحبتها في **دروسي ومحاضراتي** أو لغيري، كانت تنقد الدرس نقدا بناء أخجل منه، فأتوارى عن هذا الخطأ في الدرس الذي يليه.. كانت لديها ثقافة عالية بأساليب الدعوة النبوية وتنقد على جيل الدعاة ما الذي ألمَّ بهم من ضعف وتقصير بما تسمع وترى..!».

وقد آمنت من خلال تتبعي لكثير من الكتب المختصة في التربية وأبحاثها المتجددة، بأن حزم الآباء العبق بالحب هو الذي ينتج -بإذن الله تعالى- الناجحين والمبدعين، وهو ما ألمحت إليه الدكتورة هدى حين قالت عن أمها: «كانت تخصص الدرس للاستماع والإنصات ولا تحبُّ الحديث والحوار والنكت بعد الدرس كبقية النساء.. فالاجتماع للعلم في الدرس وليس لأحاديث المزاح والعرس. كانت كوكبة من الحزم والمعرفة اللائقة والذائقة للهمة العالية..».

الشخصية القوية هي التي تستطيع أن تؤثر وتبني في غيرها القوة، ولذلك فإني أرثي لحال الأمهات الضعيفات المغلوبات على أمرهن، حيث الانطفاء، فلا إضاءة، ولا إشعاع، ولا موجات من هالات الجاذبية، فكيف يمكن أن تضيء الكواكب المصمتة التي تسير في فلكها؟! إلا أن يأتيها النور من خارج مدارها..

أدركت أم هدى الدليجان زمنا لم تكن المرأة فيه تأخذ نصيبها وحقوقها، فنصبت نفسها «ناشطة في حقوق المرأة كما علمنا ديننا.. كانت تحرص على هذه المرأة التي ستغدو مصنعا للأجيال.. لا ترضى

بالظلم أن يقع على من تعرف ومن لا تعرف.. بل كانت تسخر من المرأة الضعيفة الجانب التي تستحقر نفسها وتعظم من حولها.. كانت هينة لينة فإذا انتهكت الحقوق تحولت لمحام منافح في مواجهة من استلبها ..!! كانت نعم المثال للمرأة القوية الصَّبور ..»، وهكذا تكون الأم المثال، حيث يتخرج في مدرستها الأبطال، والقادة، وأصحاب القرار، والحازمون، وكلما قلبوا نظرهم في شخصيتها وجدوا فيها مرجعية معطاءً لا تنفد.

ولذلك فإن الدكتورة هدى في كل مقطع من مقاطع حديثها تهتف بفخر واعتزاز: «هي أمي ..!!».

أما الدرس اللافت فيأتي هنا: تقول الدكتورة هدى عن أمها:

«زارت مدرستي الثانوية مرة وسمعت ثناء معلماتي ومديرتي على تفوقي وحسن أدائي، فردت عليهن جميعا:

«لم أحضر لأتعرف على مستوى ابنتي وأرسم مستقبلها، وإنما حضرت تلبية لدعوتكن بحضور الأمهات ولأزجي لكن شكرًا. فأنا أعلم أن ابنتي (هدى) ليست كبقية البنات». تلك كلماتها كانت درسا عظيما لي ولمعلماتي.. كانوا يتناقلون ذلك السور العالي من الثقة والجلال والوقار.. **إنها أمي**..

عندما تخرجت في الثانوية وحللت بين المتفوقات الرائدات.. حزمت حقائبي للتسجيل في كلية الطب.. لم تقف ممانعة.. ولم تعارض قراري.. وقالت لي كلمة بقيت **محفورة في ذاكرتي! قالت: الطب لا يصلح لك!!** ادرسي أي تخصص علمي وكوني معيدة ودكتورة فيه.. كانت الدراسات العليا في وقتي حلما بعيدًا، وجبلا عاليا وبئرا عميقا لا

قرار لها. مرت السنوات الأولى وأنا أصارع نفسي بين الحلم والواقع..

وفي كل مرة تلتقي عيناي بها وأشم رائحة يدها كنت أرى قراري البعيد قد اقترب. تركت كلية الطب ولم تفرح أمي بذلك.. لكن كانت لديها قناعة بنجاحي في أي تخصص سأتوجه إليه بتوفيق الله تعالى..

تخرجت وتعينت معيدة، وبدأت الرؤية تقترب للدكتورة الباحثة والأكاديمية التي تقرع سطور العلم وجنبات المكتبات ..

كانت توصيني بأسرتي الصغيرة خيرًا.. كانت تذكرني بأن الأولاد لايريدون إلا أمًا تحنو عليهم.. كان الالتزام بالوقت ومعرفة أهميته ومقدار تنظيمه كجدولة دقيقة لا تخطئ عند أمي..».

وتلك -أيتها الأم الناضجة- سمات أمهات الناجحات.. استشراف للمستقبل، ودعم مستمر، وإبداء الثقة في المتربي، ودقة وحرص على استثمار الأوقات، بل ولا يبعد أن يكون لهن نتاج، ليس مهما أن يكون علميا، المهم أنه نتاج.

وهو ما التقطته الدكتورة هدى حتى صرحت: «كانت أمِّي داعمًا للنجاح والالتزام بالمهمات، وتلك دروس في الأوليَّات والتخطيط بكل ما تحمله الكلمة من علوم في فنون الإدارة والتخطيط والاقتصاد».

ومما لاحظته عند أمهات الناجحين -كذلك- أنهن لا يفطمن أولادهن ذكورا وإناثا من التواصل الوالدي حتى الفراق النهائي، فهم أولادها وإن تزوجوا وتزوجن، وأنجبوا وأنجبن، وشابوا وشبن، هذا التواصل هو الذي يحافظ على البناء، ويقيه من التصدع، ومن غوائل الأحداث، وعوامل التعرية.

تقول الدكتورة هدى:

«كان ذلك حدثا بارزا في حياتي ومؤثرا في نجاحاتي، زياراتي اليومية لها كانت دورات تدريبية! اجتماعنا الأسبوعي بين ضفاف حنانها وكرمها كان منظما ومجدولا يبتديء في ساعة المغرب وينتهي مبكرا قبل الحادية عشرة.

كانت تنظر لوجودنا أنا وأخواتي وإخواني وأحفادها حولها كالأزهار، لا تملُّ من النظر إليها، وتظل تشتاق إليها مع كامل العناية والرعاية بها سقيًا ودلالا وجمالًا.. حتى إذا تأخرنا عندها ليلا صوَّبت فينا النظر أن هلمُّوا إلى بيوتكم وأصلحوا أحوالكم..

كان تأثير ذلك الموقف بالغا ودقيقا في مراحل حياتنا المختلفة وتنظيمها بالشكل المناسب.. كانت فضفضة الأخوات والبنات فيما بينهن من شكاوى وتدابير للحياة تستمع إليها دون تعليق منها.. وتكتفي بالصمت جوابا.. لم تسمح لأحد منا أن يأتي إلى بيتها يوما غضبى على حظها أو متذمرة من قدرها، أو نادبة سوء حال في بيتها، كانت تغير الموضوع مباشرة كأنها لم تر أو تسمع.. وكان له أكبر الأثر في التزامنا ببيوتنا وهدوء نفوسنا..

كانت تولينا جل اهتمامها وحبها بصمت ومن بعيد.. لا ترغب في سماع شكوى على زوج أو لوم على ابن أوبنت..

علمتنا أن بيت **الأهل** حاضنة للسعادة وجدار للعز والوئام فلن يستقبلك وأنت الزعول أو الغضوب. فقد كانت ترى خروج المرأة من بيتها مهما كان الموقف حماقة وتهورا وجهلا..!!

ولو طُبقتْ نظرتها لصلح حال بيوت كثيرة واستقر قرارها.. فأمي تعتز ببقية رائحة السلف في تعاملهن مع البنات بعد الزواج والسكن.. فكانت تشفق علينا في بيوتنا دون أن تبدي لنا مشاعر خوف أو قلق.

يأتي اتصالها هاتفيا كالغيث المنهمر يوميا بالسؤال عن الزوج وأفراد البيت الصغار قبل الكبار. وهذا درس نافع في الاحتواء وتبادل الحوار..

ومع ذلك استقبلنا البيت الصغير في حال الضراء، فقد فتحت لنا أمي جميع نواحيه لما ألمت بنا حادثة حريق بيتنا الصغير.. ولأول مرة انتقلت وزوجي وأفراد أسرتي لبيت أهلي في ساعة ضيق، وفي ليلة حالكة من الفجيعة والهروب من النار.. لنجد المأوى المفروش بالحب والأنس والسرور، فالأبناء اليوم هم **الضيوف الكرام الذين حلُّوا في ربيع القلوب قبل المنازل**.. مما أنسانا الهم وعاد علينا بالفضل.. وعافانا من الغم والألم سريعا.. **إنها أمِّي**..

من حقك هدى بنت دليجان الدليجان.. أيتها الأستاذ الدكتورة، والباحثة المحاضرة، والمسهمة في تنمية بلادها، الحاملة همَّ أمتها، والمربية الأم الناجحة، وقد تخرج في منزلك المبدعون والمتفوقون، وأنت ثمرة من ثمرات تلك الأم العظيمة.. من حقك أن تفخري بها.

وبين أيديكن أيتها الأمهات هذا الأنموذج المعاصر الرائع .. وفقكن الله وأسعدكن بأولادكم..

«عاشت بوقار السيدات النبيلات.. وكرم المحسنات، فكانت تجود على أبنائنا (أحفادها) بكل الكرم والجود، في حلها وترحالها.. في عافيتها ومرضها، .. إنها أمي» هكذا قالت الأستاذة الدكتورة هدى الدليجان،

وهي تتحدث عن أمها، قائدة لمنزلها، مربية لأولادها، ملهمة بسلوكها قبل توجيهاتها، ومع ذلك كله، فهي -أيضا- مبدعة في الإدارة الاقتصادية لميزانية الأسرة، فالأطفال عاشوا يرفلون في حلل الغنى والرفاهية، تقول ابنتها: «كانت تلبي احتياجاتنا، وتسعى فيها لو استدعى أن تبيع ما تملكه.. وكانت لديها نظرية في الاقتصاد الأسري وترتيب ميزانية الأسرة؛ عندما كنت صغيرة كانت توصيني بإحضار النقود من الصندوق الأخضر؟؟ وإذا تحدثت مع أبي في شأن أو مناسبة كانت تفتح الحقيبة السوداء وتستخرج منها بعض النقود، كنا نختبئ وراء الأبواب لنعلم أسرار تلك الخزانات المحفوظة والصناديق الملونة، علمت لما كبرت أن الصندوق الأخضر للمصاريف اليومية، أما الحقيبة السوداء ذات الجيوب الظاهرة والخفية فكانت للادخار والمناسبات الكبيرة.

كانت لديها سياسة عجيبة في تعليمنا الاحتفال بكل مناسبة، وتدليل قلوبنا بما نحب مع التوازن وعدم الإسراف، فيما كانت تهتم كثيرا بهندامها، فقد نشأنا نراها دومًا في كامل الزينة والأناقة والجمال في البيت وخارجه.

وعندما فتحت عيني على المشكلات الأسرية؛ رأيت نساء فاضلات يهملن أنفسهن بسبب تعب أو مرض أو روتين القرار في البيت، فلا يتزينَّ إلا لمناسبة خارج بيوتهن، أما أمي!!! فكانت دوما في حلة من الجمال والأناقة، تهيئ لنفسها أغلى أنواع العطور والملابس. حتى في غيبوبتها الأخيرة لم نشتم منها إلا رائحة عطرة وعبقا زكيا جميلا..».

إن تذوق الجمال، يخضع -كغيره من مكتسبات الحياة- إلى تدرب وممارسة، ولذلك ـ كما يقول الأستاذ «أنور السيد شريف: «لابد أن يجد

الطفل الجمال في منزله منذ صغره، ويُعوَّد تذوقه، حتى يتكون فيه حبُّه والإقبال عليه، فالطفل إذا فتح عينيه على منزل وإن كان غالي الأثاث، ولكنه مبعثر في غير تنظيم، هنا وهناك، لثارت أعصابه، وتأثرت نفسه، وانصرف عن حب الجمال، حيث يصبح القبح عادة متأصلة في نفسه، وتمتزج بها روحه»[(1)]. والعكس صحيح، فإن الطفل الذي فطر على الجمال إذا عاش في أسرة تعنى بتنسيق مفردات الجمال من حوله في حديثها معه، أو فيما وفرته من أدوات وأثاث وعطور وحدائق، فإنه سينتعش للكلمة الحلوة، ويبحث عن الصورة الجميلة، وينمو ذوقه، ويرتفع مستوى معياره الذي يقيس به الجمال عموما في حياته.

وفي لمحة أخرى من لمحات الشخصية المنفتحة، المحبوبة، الجاذبة، تصف الدكتورة هدى أمها فتقول: «لم تكن أمًا عادية ترضع أبناءها الحليب واللبن، كما يفعل الأمهات ويعتقدن أن هذه هي مهمة الأم، بل كانت أمي تفطمنا على حب الآخرين وخدمة الحق مهما كان ثمنه وعنوانه ولا تخاف في ذلك لومة لائم، فأمامها تخجل مفاهيم القيادة الحديثة من القيام والحضور، بل تنصت إليها بفخر؛ فهي مستشارة لوالدها الكريم صاحب اللواء العسكري، وأحد رجالات الأحساء الكرام، وكانت أمي ظلًا ظليلًا لزوجها وإخوانها وأولادها ولمن عرفها، فهي صاحبة رؤية حكيمة وسداد في الرأي ولو لم يظهر لك ذلك في أول الأمر.

تمتلك أحافير من ركاز القيم والمكارم العربية الأصيلة، فهي أميرة الحكمة والفضيلة بدون إمارة ولا بواب.

---

(1) أنور السيد الشريف، التذوق الجمالي وتربيته عند الأطفال، المجلة العربية، الرياض، العدد: ١٢٥، السنة: ١٢ ، جمادى الآخرة ١٤٠٨ هـ، ص: ٩٢.

نشأت عزيزة وعاشت نبيلة ورحلت عظيمة في ليلة مشهودة وأجر غير ممنون».

وإنك -أختي الأم الكريمة- لتدهشين من إصرار الدكتورة هدى على التعبير عن تأثرها بأمها، فتقول: «لقد تأثرت كثيرا بحسن قيادتها وصرامة آرائها، ووظفت ذلك تأسيسا وتعليما لمن حولي، وكان لذلك أكبر الأثر في إدارتي وقيادتي وحب من حولي..».

فمن نظر إليَّ وعرف أمي سيعلم يقينا من أنا؟

هي أمي قيادة وتنظيما وقرارا وتحملا وأداء للمسؤولية».

أعلم -أيتها الأم الفاضلة- أنك تتمتعين بعدد من هذه القيم والمثاليات الرائعة، ولكن لا بأس فليس هناك كمال مطلق إلا لله تعالى، ومن الجميل جدا الاطلاع على النماذج الأخرى؛ لمراجعة النفس، وسد ثغراتها، والاطمئنان على سلوكها الحسن، وتعزيزه.

إن الأم التي تعيش خيمة ظليلة على أولادها، وغديرا ثرا حين يظمؤون، ونخلة مثمرة حين يحتاجون، لن تغيب عن حياتهم وإن غابت عن أنظارهم، ولذلك كانت كانت آخر ليلة جمعة في اجتماع (**أمينة بنت عبد العزيز العويصي**) الأسبوعي مع أولادها وبناتها وأحفادها ذكرى تقطر حبا وألما، تقول ابنتها الدكتورة هدى: «احتفلنا بتخرج ابنتي من المدرسة الابتدائية.. كان احتفالا بهيجا ضحكت فيه أمي ضحكاتها الأخيرة بيننا، وأغدقت على ابنتي بهداياها الجميلة التي حفظتها ابنتي تذكارا منها، كانت تشتكي تغير العاملات لديها مع تغير مشاكل الاستقدام، بينما كانت كل عاملة تخرج من بيتها محملة بالهدايا والملابس والذهب دون أن نعلم، بل

كانت تجود ببعض ممتلكاتها الشخصية لغيرها دون كلل أو ملل، ودون من أو أذى، وهذا حقيقة العطاء وأثمنه، كانت رائحة القهوة الأصيلة تملأ المكان، لكن أمي رحلت.. وتركتني وراءها كالطفل الذي يبحث عن أمه في وجوه الحاضرات.. مرضت وتألمت وغابت روحها العذبة.. لم يبق غير جسد أنهكه المرض.. وبقايا أمل في عافية..

كان خبرا كالصاعقة.. انتقلت أمي إلى جوار ربي.. رسالة كتبها أخي الأكبر قبيل المغرب في يوم ٢٤ رمضان ١٤٣٦هـ! حروف مملوءة بالإيمان لكن القلوب لا تحتمل الفراق والأنين..

افتقدت الحنان الدافئ.. والقلب الرؤوم.. ورائحة أمي الزكية.. منذ تلك اللحظة الصعبة!!

لقد خيمت علي سحابة برد صاخبة بالدمع والألم والعبرات.. كل لحظة من عمري كان لأمي موقف وقرار ومشهد وجمال.. كنت أستروح منها القوة والتحمل.. فكنت أرنو إليها كل يوم مع كثرة الواجبات لأجد حولها واحات السكينة والطمأنينة تملأ قلبي.. إنها أمي !!

جاءت اللحظة الأليمة.. والموعد الحزين.. وتهيأت غرف البيت وجدرانه لاستقبال من أتى ليعزي نفسه في منظر وداع لا يتكرر.. لم أحسب حساب تلك اللحظة ولم أستعد لها استعدادا.. وقد علمتني أمي أن أستعد لكل لحظة.. لكن لم تخبرني كيف أكون في عزائها صبرا وتجلدا.!

كانت مواقف العزاء فيها حكايات الأناقة والجود والإحسان عن أمي..

حضر إلينا القريب والبعيد.. اشتعلت الأنوار بالدموع.. ولهجت القلوب بالدعاء مع رائحة ليال العشر الأخيرة الفضيلة -كما كانت

تسميها أمي- بكى هاتفي كثيرا بما لا يطيق من عبارات المواساة ورسائل الأحزان.. غابت أمي في قبرها ..

كانت على سرير الموت بعد تغسيلها كالعروس الصامتة تودع أحبابها بحسن عملها ودوام عطائها..

كنت أتخيل أمي ترفع رأسها تقبلنا وتلوح لنا بيدها البيضاء الطاهرة..

لكن رأيت اليتم ماثلا أمامي في دمع أبي الحبيب الباكي.. وفي كلمات زوجي الغالي.. وفي وجوه إخواني وأخوالي.. وفي قلوب أخواتي وخالاتي وأحبابها من القريبات والمعارف..

لقد انجرحت القلوب بالفراق.. وسالت العبرات في مواقف أحفادها الأجواد كما كانت تحبهم في حياتها كراما أشداء.. وفي كلمات أهدتها حفيداتها (نظر عيونها) كما كانت تسميهن حبا وسموا وروعة..

لقد أصبحتُ أمًّا حقيقة قالَبًا، لكن منذ تلك اللحظة شعرت أني طفلة يتيمة قلبا.. كانت كالحلم تأتي إلينا لتهدي لنا كلماتها وروائعها لتفيض علينا من الصبر والحكمة والثبات.. كل يوم كانت تأتي لزيارتنا سيدات لا نعرفهن لكن كانوا يعرفون أمي وإحسانها أكثر منا.. كانت تحب الهدايا وتهديها لأحبابها أو تتصدق بها لمن تعرف ومن لا تعرف.!

هي غنية وتحب الهدية فإذا حدثتها عن الصدقة هبَّت كالريح المرسلة عطاء بلا حدود!!

تلك أمي التي أحسنت في حياتها فأحسن إليها ربي الكريم الرحيم في مماتها..

كانت تنتقي كلامها ونبضاتها.. وتبادر في اتصالها وفي تواصلها، تعليماً لدروس الرحمة والألفة الجميلة.. وكذا في هداياها.. وفي كرم دعوتها لكل من تحب في بيتها وخارجه.. قالوا عنها الكثير.. ونحن لم نعرف الكثير..

وهذا هو التقي الغني الخفي الذي يحبه الله ورسوله.. اللهم ارحم أمي. اللهم اغفر لأمي.. اللهم أسكنها في الروح والريحان.. وأعالي الجنان».

٥٨

لا يكتبن عليك حافظاك شيئا تستحي منه غدا!!

لا أزال أوالي عليك الأعلام الذين كانت أمهاتهم محاضنَهم التي تربت فيها أرواحهم وعقولهم ونفوسهم العلية، وليس أجسادُهم فقط، كما تفعل بعض الأمهات.. ليس لأضيف اسما جديدًا إلى قائمة عظماء اليتم، وعظماء التربية النسائية الفريدة، ولكن لأضيف إلى قائمة المحفزات النفسية مشعلا جديدا، وربما أضفت إلى قائمة الوسائل والوسائط آلية جديدة، وإجراءً مناسبا لحالة تختلف عن حالة بسبب اختلاف الناس في البيئة وطبيعة الحياة، وخصائص العصر، والفروق الفردية.

قال عنه أحد معاصريه الخشاب: «كان مَرضيا عند الخاص والعام، والموافق والمخالف، والسلطان والرعية، في بلده وفي سائر بلاد المسلمين، ومضى إلى الله كذلك، وحُبِّبت تصانيفُه إلى الناس، وبيعت بأغلى الأثمان»[1].

إنه يتحدث في زمن كانت الكتب ترقم بالأيدي، وبعضها سيء الخط كما قال أحد الذين كانوا ينسخون كتبه ويسترزقون منها، يعني أننا نتحدث عن أكثر الكتب مبيعا على حدِّ شعار التسويق الذي تتخذه دور النشر الحديثة، من أين جاء هذا القبول؟ ومن كانت وراء هذا النجاح؟

(١) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي: (١٧/ ٢٤٨).

إنه العالم الكبير، محمد بن الحسين بن محمد بن موسى، الأزدي، السلمي، الإمام الحافظ المحدث، شيخ خراسان، أبو عبد الرحمن النيسابوري، صاحب التصانيف الشائعة الذكر والتداول منذ عصره حتى الآن.

دعونا نتركه يجيب عن نشأته، لنتلمس اليد التي ربَّتَتْ على كتفه، وسقت جذور فسيلته؛ حتى صار نخلة باسقة طلعها نضيد.

يقول: «ولما توفي جدي أبو عمرو، خلَّف ثلاثة أسهم في قرية، قيمتها ثلاثة آلاف دينار، وكانوا يتوارثون ذلك عن جده أحمد بن يوسف السلمي، وكذلك خلَّف أيضا ضِياعا ومتاعا، ولم يكن له وارث غير والدتي، وكان على التركات رجل متسلط، فكان من صُنع الله أنه لم يأخذ من ذلك شيئا، وسلم إليَّ الكل، فلما تهيأ أبو القاسم النصراباذي للحج، استأذنت أمي في الحج، فبعت سهما بألف دينار، وخرجت سنة ٣٦٦هـ، **فقالت أمي: «توجهتَ إلى بيت الله، فلا يكتبن عليك حافظاك شيئا تستحي منه غدًا»**[١].

تضحيةٌ بالمال في سبيل تربية إيمانية، وجهتُها مكة، وسُداها التقوى والخوف من الله تعالى والحياء منه، وإذا تربَّى الولدُ على مراقبة الله تعالى، فقد أخذ بزمام نفسه وبصره وسمعه عن كل ما يسفح هذه النعم على قارعة طريق من طرق المعصية، وليس أمامه إلا أن يعلي من شأنها، ويتسامى بها عن كل ما يشينها، ويستثمرها فيما يزيد من علمه وفضله وقربه من الله جل في علاه.

(١) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي: (١٧/ ٢٤٩).

إن عددا من الأعلام الكبار نشأوا أيتاما في حجور أمهاتهم فلم ينقصهم ذلك بل ربما كان حافزا لأمهاتهم أن يحفظن الأمانة، ويرعينها، ويقدمن كل ما يملكنه في تعليمهم وتنصيبهم على منابر الاستقامة والتعليم والإبداع؛ ولنقرأ سير أمثال: **الإمام العلامة الصالح وجيه الدين عبدالرحمن بن عمر الحبيشي**، الذي نشأ يتيما في حجر أمه، كان دوحة علم وذكاء، بدأ شاعرا أديبا منطيقا منذ صغره، وانتهى عالما في الفقه والتفسير واللغة[1]، **وعبد القادر الفاسي الحنبلي**؛ الذي كانت أمه مستولدة لأبيه، حبشية اسمها تفاحة، وقد حفظ القرآن صغيرا، ومعه عدد كبير من المتون العلمية كالشاطبية والكافية لابن الحاجب. ومثله: الشيخ **منصور بن علي بن زين العابدين**[2]، وغيرهم كثير، ستجدين (الأم) بين السطور ترفُّ كالحمامة في عشها، تبني وتحمي وتطعم وتدرب صغارها على الطيران، فإذا شبوا وأصبحوا قادرين على الطيران تركتهم ليخوضوا حياتهم بنجاح، وتظل تراقبهم من بعيد؛ لتسعد وتقر عينها ولا تحزن.

---

(١) طبقات صلحاء اليمن المعروف بتاريخ البريهي، لعبد الوهاب السكسكي اليمني، تحقيق عبدالله الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط: ٢، ١٤١٤هـ (١٩٩٤م)، ص: ١٢٧ - ٢٩.

(١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار، لعبد الرحمن بن حسن الجبرتي ت: ١٢٤٠ هـ، تحقيق، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، طبعة بولاق، دار الكتب المصرية، ط:١، ١٩٩٨م، ١/ ١٢٩.

٥٩

الأم الأرملة حين تتسامى.. تصنع علما

وتستوقفني سيرة علم من أبرز علماء القرن الرابع عشر الهجري، **العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي**، صاحب كتاب: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن». الذي شهد له كبار العلماء في عصره أمثال الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ ناصر الدين الألباني، شهدوا له بورعه وتثبته وأخلاقه وسعة علمه في الفقه والتفسير واللغة العربية، فقد كان لوالدته أثر مباشر في العناية به، يقول: «توفي والدي وأنا صغير أقرأ في جزء عم، وترك لي ثروة من الحيوان والمال، وكانت سكناي في بيت أخوالي، وأمي بنت عم أبي، وحفظت القرآن على خالي عبد الله بن محمد المختار بن إبراهيم آب أحمد نوح، ولما حفظت القرآن وأخذت الرسم العثماني وتفوقت على أقراني عُنيت بي والدتي وأخوالي أشدَّ عناية، وعزموا على توجيهي للدراسة في بقية الفنون، فجهزتني والدتي بجملين؛ أحدهما عليه مركبي وكتبي، والآخر عليه نفقتي وزادي، وصحبني خادم ومعه عدة بقرات، وقد هيأت لي مركبي كأحسن ما يكون من مركب وملابسي كأحسن ما تكون، فرحًا بي وترغيبًا لي في طلب العلم، وهكذا سلكت سبيل طلب العلم والتحصيل[1]».

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، ت: ١٣٩٣ هـ، ١٤٠٣ هـ(١٩٨٣ م)، طبع على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن عبدالعزيز آل سعود: ١/ ٢٨-٢٩.

إن الأم حين يموت الأب، تقع في (أزمة) الترمل، حيث تنهض الزوجة/ الأرملة بدوره، «فهي بعد فقد عائلها تواجه ـ منفردة في غالب الأحيان ـ مسئولياتها والكفاح من أجل إعالة أولادها، فضلا عن معاناتها من نظرة بعض المجتمعات لها كونها بلا زوج. فتراهم يحسبون عليها حركاتها وسكناتها، بل وأنفاسها» «فقد يحدث لها مرحلة من (عدم الاتزان)، و(الانعزالية).. فإما أن تتماسك؛ لتقوم بتحمل مسئولياتها، والنهوض بأعباء إعالة أولادها لامتلاكها قوة الإرادة والعزم والمثابرة، والمقدرة على تحمل وتجاوز الصدمات، فتقوم بدور الأم والأب معًا. وإما أن تنهار.. استسلاما للعديد من الآلام»(١).

أمهات العظماء، هن اللاتي اخترن الخيار الأول، فقد قرن منذ الوهلة الأولى الصبر على المصاب، امتثالا لتوجيه النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام البخاري نجل أمه العظيمة التي ربته، بسنده عن الصحابي الجليل أنس بن مالك نجل أمه العظيمة التي أتت به إلى الرسول ﷺ وأخدمته إياه، فنال الشرف العظيم والدعوات المستجابة والبركة في الولد والمال، ولكن ما الحديث: يقول أنس: «يقولُ لامرأةٍ من أهلِه: تعرفين فلانةَ؟ قالت: نعم، قال: فإن النبيَّ ﷺ مرَّ بها وهي تبكي عند قبرٍ، فقال: «اتقي اللهَ واصبري»، فقالت: إليك عني، فإنك خِلْوٌ من مصيبتي. قال: فجاوزها ومضى، فمر بها رجلٌ فقال: ما قال

---

(١) سيكولوجية التَرَمّل: كيف يواصل الأرامل حياتهم بنجاح؟، أ.د. ناصر أحمد سنه كاتب وأكاديمي من مصر، موقع صيد الفوائد.

لك رسولُ الله ﷺ؟ قالت: ما عرفتُه، قال: إنه لرسولُ الله ﷺ ، قال: فجاءت إلى بابِه فلم تجد عليه بوابًا، فقالت: يا رسولَ اللهِ، واللهِ ما عرفتُك، فقال النبيُّ ﷺ: «إن الصبرَ عند أولِ صدمة»[1].

تخرج من هول الصدمة بالصبر، ثم تبدأ فورا مشوار المسؤولية العظيمة مع أولادها؛ لتخرجهم إلى العالم ناضجين، منتجين، مبدعين، قادرين على صناعة النجاح بمفردهم، بل قادرين على تحفيز الآخرين على النجاح.

(١) رواه البخاري (٩/ ٦٥) ح (٧١٥٤)، ومسلم (٢/ ٦٣٧) ح (٩٢٦).

٦٠

أعجبتني هذه الجارية .. ورضيتها عروسا لولدي ..

في هذا الزمن الذي تموج فيه الفتن، وما تتعرض له البلاد المسلمة من حروب وقتال ومدافعة عظيمة بين معسكر الشر ومعسكر الخير، بين السلام والأمان والحب والبناء من جانب، والعداء والحقد والكراهية والهدم؛ يأتي واجب المسلم دفاعا عن دينه وأرضه وعرضه، بأمر ولي الأمر الشرعي لا بأمر غيره، وتحت راية معقودة ببيعة شرعية اجتمع عليها المسلمون في بلد واحدة، وهنا لا بد أن تنهض الأم الشجاعة بدورها في الذب عن الأمة التي تنتمي إليها، والوطن الذي تعيش في ظله، وبقدر الحنان الذي ترضعه إياه منذ طفولته، فإنها ستحتاج إلى أن تضخ في قلبه البأس والشجاعة والإقدام، وحب التضحية بنفسه لله تعالى، دفاعا عن الدين والوطن والعرض.

رُوِيَ أنه كان في البصرة نساء عابدات، وكانت منهن أم إبراهيم الهاشمية، فأغار العدو على ثغر من ثغور المسلمين، فانتُدب الناس للجهاد، أي أعلن ولي أمر المسلمين جهاد الدفع عن بلاد الإسلام، فقام عبد الواحد بن زيد البصري خطيبًا في الناس.. فحثهم على الجهاد، ورغبهم فيه، وكانت أم إبراهيم هذه حاضرة في مجلسه، وتمادى عبد الواحد في كلامه، ثم وصف الجنة، وما فيها من الحور العين، وما قيل فيهن، وأنشد في صفة حوراء:

غـــــادةٌ ذاتُ دلالٍ ومـــــرحْ

زانَـــها اللهُ بـــــوجـهٍ جُمــعت

وبعـــينٍ كـــحلُها مــن غنجهـا

نـــاعـمٍ تجــري عــلى صفحتِــهِ

يجــدُ الـنـاعتُ فيـها مـا اقــترح

فيــه أوصـافٌ غريباتُ المـُـلَح

وبــخدٍّ مســكهُ فيـــــه رَشَـــحْ

نضــرةُ المـُـلك ولآلاءُ الفَــرح

فسمع الناس الأبيات، وشوقهم إلى الحور العين، واضطرب المجلس، فوثبت أم إبراهيم من وسط الناس، وقالت لعبد الواحد: يا أبا عبيد، ألست تعرف ولدي إبراهيم، ورؤساء أهل البصرة يخطبونه لبناتهم، وأنا أبخل به عليهم، فقد -والله- أعجبتني هذه الجارية، وأنا أرضاها عروسًا لولدي.. فكرِّر ما ذكرت من حسنها وجمالها..

فأخذ عبد الواحد في وصفها من جديد، وهيج الناس وشوقهم أيما تشويق، فوثبت أم إبراهيم، وقالت: يا أبا عبيد، قد -والله- أعجبتني هذه الجارية، وأنا أرضاها عروسًا لولدي، فهل لك أن تزوجه منها، وتأخذ مني مهرها عشرة آلاف دينار، ويخرج معك في هذه الغزوة، فلعل الله يرزقه الشهادة، فيكون شفيعًا لي ولأبيه في القيامة؟! .

فقال عبد الواحد: لئن فعلتِ؛ لتفوزِنَّ أنتِ وولدُك وأبو ولدك فوزًا

عظيمًا.. فقامت أم إبراهيم فنادت ولدها: يا إبراهيم!.

فوثب من وسط الناس، وقال لها: لبيك يا أماه! قالت: يا بني، أرضيتَ بهذه الجارية زوجة لك، ببذل مهجتك في سبيل الله، وترك الذنوب؟

فقال الفتى: إي والله يا أماه.. رضيت أيَّ رضى فقالت: اللهم إني أشهدك أني زوجتُ ولدي هذا من هذه الجارية، ببذل مهجته في سبيلك، وترك الذنوب.. فتقبله مني يا أرحم الراحمين.

ثم انصرفت، فجاءت بعشرة آلاف دينار، وقالت: يا أبا عبيد، هذا مهر الجارية، تجهز به، وجهز به الغزاة في سبيل الله.

وانصرفت، فاشترت لولدها فرسًا جيدًا وسلاحًا، فلما خرج عبد الواحد، خرج إبراهيم معه، والقراء يقرؤون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

ثم وقفت أم إبراهيم أمام ولدها وقفة الوداع الأخير.. ودفعت إليه كفنًا وحنوطًا. وقالت له: يا بني، إذا أردت لقاء العدو، فتكفن بهذا الكفن، وتحنط بهذا الحنوط، وإياك أن يراك الله مقصرًا في سبيله، ثم ضمته إلى صدرها، وقبلته بين عينيه، وقالت: يا بني، لا جمع الله بيني وبينك إلا بين يديه في عرصات القيامة!!

قال عبد الواحد: فلما بلغنا بلاد العدو، وبرز الناس للقتال، برز إبراهيم في المقدمة، فقاتل قتالًا شديدًا، وقتل من العدو خلقًا كثيرًا، ثم اجتمعوا عليه، فقتلوه.

فلما أردنا الرجوع إلى البصرة، قلت لأصحابي: لا تخبروا أمَّ إبراهيم

حتى أكون أنا الذي يخبرها، فألقاها بحسن العزاء؛ لئلا تجزع فيذهب أجرُها.. قال: فلما وصلنا البصرة، خرج الناس يتلقوننا، وخرجت أم إبراهيم فيمن خرج، فلما أبصرتني قالت: يا أبا عبيد، هل قبلت مني هديتي فأهنأ، أم ردت علي فأعزى؟!

فقلت لها: قد قبلت –والله– هديتك، وإن إبراهيم حيٌّ مع الشهداء –إن شاء الله– فخرت ساجدة لله شكرًا .. وقالت: الحمد لله الذي لم يخيب ظني، وتقبل نسكي مني .. ثم انصرفت.

فلما كان من الغد أتت إلى المسجد، فقالت: السلام عليك يا أبا عبيد، بشراك .. بشراك!

فقلت لها: لا زلت مبشرة بالخير.

فقالت: رأيت البارحة ولدي إبراهيم في روضة حسناء، وعليه قبة خضراء، وهو على سرير من اللؤلؤ، وعلى رأسه تاج وإكليل، وهو يقول لي: يا أماه.. أبشري، فقد قُبل المهر، وزُفَّت العروس"[1].

التربية على التسامح مع الخلق أصل من أصول التربية الإسلامية، حتى يكون الولد قادرًا على التعايش مع كل من يخالفه، ولكن يجب ـ –أيضا– أن يكون قادرًا على الدفاع عن نفسه وأهله وماله، وعن دينه ووطنه إذا دعا الداعي لذلك:

(١) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، ومثير الغرام إلى دار السلام، لأبي زكريا أحمد بن إبراهيم بن محمد، المشهور بابن النحاس، ت: ٨١٤ ، دار البشائر الإسلامية، ط: ٣، ١٤٢٣ ه، (٢٠٠٢ م)، ص: ٢١٥-٢١٨.

أنا إنْ سألت القوم عني من أنا

أنا مؤمنٌ سأعيش دومًا مؤمنًا

أنا مسلم هل تعرفون المسلما

أنا نور هذا الكون إنْ هو أظلما

أنا في الخليقة ريٌّ من يشكو الظما

وإذا دعا الداعي أنا حامي الحمى

وهذه «امْرَأَةٌ، دَفَعَتْ إِلَى ابْنِهَا يَوْمَ أُحُدٍ السَّيْفَ، فَلَمْ يُطِقْ حَمْلَهُ فَشَدَّتْهُ عَلَى سَاعِدِهِ بِنِسْعَةٍ، ثُمَّ أَتَتْ بِهِ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا ابْنِي يُقَاتِلُ عَنْكَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أَيْ بُنَيَّ، احْمِلْ هَاهُنَا، أَيْ بُنَيَّ احْمِلْ هَاهُنَا فَأَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ ، فَصُرِعَ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ، لَعَلَّكَ جَزِعْتَ؟ قَالَ: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ»[(1)].

صورة ليست فريدة في ذلك الجيل الفريد، بل هي صفحة من كتاب، وورقة من شجرة، ونجمة من مجرة، رضي الله عنهم وأرضاهم.

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٣٧٠) ح (٣٦٧٨٢).

٦١

هل تمنيتِ أن تعيدي دور الأمومة؟

(كيوكوماما) كلمة يابانية (يقال) إنها تعني: الأم الحريصة على ولدها، التي تبذل قصارى جهدها لتصل به إلى مراتب عليا، كلمة بمقالة، بخطبة، بل هو شهادة فخرية، ودرعٌ تكريمية، وقد أثبتت الأبحاث بأن الأم اليابانية كانت ولا تزال سرَّ التقدم التكنلوجي الذي تشهده اليابان.

وقفت على مقالة للكاتبة السعودية سارة بنت صالح الشايع، بعنوان: (الأمومة رسالة وأمانة عظيمة)، تقول فيه: «كم أتمنى أن أعيد دور الأمومة في حياتي، فقد مر سريعا.. وهو دور رغم صعوبته لكنه من أجمل فترات العمر لم أكن -وقتها- أعلم أنها فترة ذهبية في حياتي، وأن أجمل دور نمارسه في الحياة أن نساهم في تكوين إنسان.. لا أدري لماذا لا نعرف قيمة الزمن حتى يصبح ماضيا..».

أقول: أيتها الأم الكريمة .. لا تزالين في فرصة متاحة لتستفيدي من تجربة الكاتبة سارة حين تقول: «تثقفت عندما حَمَلت أول مرة بكل شيء: كيف أجهز اللباس .. الغذاء .. السرير .. الضيافة، وجميع المظاهر التي تخصني وتخص المولود، وتركت الأهم وهو الثقافة التربوية والاستعداد نفسًا لتنشئة هذا القادم، لم أكن وقتها أعلم أن تربية الطفل تبدأ قبل أن يوجد؛ وذلك بالدعاء: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وطوال مدة الحمل: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، وغيرها من الأدعية.

لم أكترث لتغذيتي، ولو كنت في نضجي الآن لتغذيت أغذية صحية؛ لكي أرضعَ أبنائي سنتين، فلا يوجد أجمل ولا أغنى من حليب الأم الذي يحوي نكهة لا يوفرها أي منتج وهي نَكهة (الحنان).

لو كنت في نضجي الآن لأدركت أن الأمومة رسالة وأمانة **عظيمة**، ولجعلتها في **قائمة** أَوَّلياتي، **ولقضيت** مع أبنائي **أوقاتٍ** أكبر، ولما خرجت من بيتي إلا للضرورات، ولعرفت أن التعليم المبكر يبدأ من أول يوم يرى فيه المولود النور، وأن التعلم بالقدوة العملية هو أقصر الطرق؛ فالأطفال لا يحسنون الاستماع لكن لديهم براعة في التقليد.

ولو عادت تلك الفترة لاهتممت بتوجيه أبنائي والحوار معهم أكثر من اهتمامي بملابسهم وأحذيتهم، (صحيح أن المظهر مطلوب ولكن ليس على حساب الجوهر)، ولأعطيتهم حرية التعبير والاكتشاف، ولما استصغرت عقولهم، ولاهتممت بأسئلتهم ومناقشتهم بهدوء، بدون صراخ؛ حتى أعلمهم ما هو أهم وهو (الحِلم).

ولما أغدقتُ عليهم الألعاب والهدايا، فكثرتها تفقد قيمتَها، وينشأ الطفلُ على الإسراف واحتقار الأشياء، تعلمت أن أجمل هدية تقدمها لطفلك هو وجودك وتفاعلك معه، ولكنت ربيتهم بعيدا عن الألعاب الإلكترونية ووفرت لهم بيئة ألعاب تعليمية تحترم عقولهم وتنميها، ولابتسمت دائما في وجوههم فالطفل لا يطلب أكثر من التفاتة وابتسامة».

نصائح في ثوب عتاب ذاتي، تصبه الكاتبة **سارة الشايع** في آذان الأمهات من حولها، أكثر من أن توجهه إلى نفسها، فقد غادرت هذه المرحلة كما تقول هي، وبقي أن تستفيدي أنت أيتها الأم الكريمة منها، فهي تقول: «كم أتمنى أن تعود مرحلة طفولة أبنائي الجميلة لأشاركهم

ألعابهم ولأعطيهم من وقتي الكثير، ولكنت فرَّغت رأسي من الهموم الخارجية التي تبدو لي اليوم تافهة، وقد كنت في وقتها أعطيها أكبر من حجمها؛ لأعيش معهم طفولتهم البريئة.

ولو عادت طفولة أبنائي: لعاملتهم كالكبار، وخففت من تدليلهم، ولعلمتهم كيف يعتمدون على أنفسهم في كل شئ ويثقون بقدراتهم، وكيف يهتم كل واحد منهم بشئونه الخاصة، يرتب سريره ويجمع ملابسه المتسخة بل يغسلها بنفسه ويكويها، ويغسل صحنه، وعندما يدخل المدرسة يتعلم كيف يحل واجباته بنفسه ويرتب أغراضه، كل ذلك بإشراف مني ولكن عن بعد.. إن أهم ما تقدمه لأبنائك هو أن تدفعهم للعمل. ولعلمتهم استغلال الوقت بما يفيد فلا يسافر أحدهم إلا ومعه كتاب يحوي ألعابا تعليمية عن الكلمات والحروف والأرقام والألوان، ولعظمت من نجاحاتهم ولو كانت يسيرة، ولأكثرت من مدحهم وتشجيعهم بشكل يدفعهم لحب التعلم والعمل؛ فالطفل لديه قدرات وطاقات تخرج لمن يعرف كيف يستثمرها ويحولها إلى إبداع، بشرط أن يكون الاستثمار في وقت مبكر جدا وبدون محاولة سيطرة وتحكم.

ولو عاد الزمن لتحدثت معهم باحترام؛ حتى ينشأوا محترمين لأنفسهم بشكل يدفع الآخرين لاحترامهم، ولينشئوا أقوياء محبين للضعفاء ومحبين لفعل الخير والحلال، ومترفعين عن فعل الحرام والكذب والخيانة بالفطرة، ولكنت تجنبت الاستهزاء بتصرف أحدهم، أو مقارنتهم بغيرهم، أو نقل أخبارهم للآخرين، ولحافظت على أسرارهم الصغيرة، ولأخفيت ما أستطيع إخفاءه من أخطائهم حتى عن والدهم، ولا التمست لهم الأعذار دائمًا».

ثم تلمس الأستاذة سارة الشايع الجرح الأكثر نزفا في مجتمعنا فتقول: «للأسف أننا نعيش في مجتمع متصحر عاطفيا، كل الأمهات من حولي كن يمارسن نفس الأسلوب، إن لم يكن بعضهن أسوأ، فترى من تصرخ على ابنها وتؤدبه في مجلس يمتلئ بالنساء؛ ليشعر الطفل بحرج شديد ومع الوقت يتبلد حسيًّا وينشأ عدوانيًا، وهناك من تتشكى منهم، أو تخرج أسرارهم أمام الناس، كنت ألاحظ نظرات أبنائها البريئة وخجَلهم الواضح من حديثها الذي يعدونه فضيحة كبرى وهي مسترسلة في الحديث، لا تعي ما تسببه من تدمير وأضرار نفسية تهز أعماقه. وهناك من تنعت ابنها بصفات سيئة ليصدق الابن أمه، فهي أعرف منه، ويتوقف عن إصلاح نفسه، ويعتقد أنه لا فائدة ترجى منه، فهو كما وصفته أمه، كنت لا أعلم أن أكثر الأبناء عنادا هو من يستحق المزيد من الحبّ، وليس كما كنا نعتقد [المزيد من الضرب].

لم يكن لدينا طموح: أتذكر أني حضرت دورة تربوية فسألتنا المدربة ماذا نتمنى أن يكون أبناؤنا في المستقبل؟ فكانت إجابتي تقليدية قنوعة كإجابة غيري، وهي أنه ما يهمنا فقط أن يكونوا صالحين، عندها صدمتنا المدربة عندما قالت: لماذا لم تقلن أن يكونوا صالحين ومصلحين في نفس الوقت؟ لماذا لا يوجد لديكن طموح لتربيتهم زعماء.. قادة.. مفكرين... مخترعين ؟؟؟

اكتشفت بعدها أن تربيتنا لأبنائنا قاصرة وأن لدينا قناعة في غير محلها وتذكرت حديث الرسول الكريم: «فإذا ما سألتم اللهَ فسلوهُ الفردوسَ»(١).

(١) رواه ابن ماجه (٢/ ١٤٤٨) ح (٤٣٣١)، وصححه الألباني.

لو عاد بي الزمن لاتفقت مع والدهم على التعامل الراقي بيننا أمامهم، ولتخلصنا من التصحر العاطفي الجاف، ولأكثرنا من كلمات الود والشكر والاعتذار أمامهم ولو تصنُّعًا؛ حتى نكون قدوة عملية لهم، ولاحتويتكِ أكثر يا ابنتي، وتعاملت معكِ برقة أكثر، ولتحملت فترة مراهقتِك وقدَّرتُ التغييرات التي تمرين بها، ولاستخدمت الحوار الهادئ معكِ، ولما وضعت رأسي برأسك في مواقف كثيرة ودفعتك للصراخ وإغلاق باب غرفتك والبكاء بمرارة. ولكنت وفرتُ لأطفالي الحيوانات الأليفة التي كانوا يتمنونها وكنت أرفضها من أجل نظافة المنزل فهي من أجمل العلاقات الثنائية والذكريات للطفل، صحيح أنني سمحت لهم باقتنائها لفترات، لكني اكتشفت الآن أن أجمل ذكرياتهم عندما قضوا شهرا كاملا في بيت جدتهم القديم في الطائف مع ثلاثة أرانب وثلاث بطات ومجموعة كتاكيت وما أن يستيقظ أحدهم حتى يصعد إلى السطح ليتفقد حيواناته، وينادي كلًا منها باسمه، وإذا خرجنا للنزهة البرية قضوا وقتهم في صيد الحشرات وجمعها، والعودة بها كهدية لحيواناتهم وطيورهم، كانت شغلهم الشاغل وحديثهم كله يدور حولها.. وكانت لحظات وداعهم لها صعبة للغاية فلا يزالون يحتفظون بعلبة فيها ريشة من كل طائر. إن أجمل ما تقدمه لأبنائك هو أن تربطهم بالطبيعة والحيوانات الأليفة.

ولو عادت تلك الفترة لأعدت ترتيب أولياتي في الحياة، ولم أنسَ نفسي، ولفرَّغتُ أوقاتا لنفسي ولهواياتي وما يُمتعني، ولن أكون أما مستهلَكة، ولن أكون شمعة تحترق لتضيء للآخرين. ولاستقطعت أوقاتًا للاسترخاء والصمت والتأمل؛ فالانسحاب إلى الملاذ الداخلي

يمنحك قوة تدفعك إلى الأمام، والانفراد بالنفس والبعد عن الصخب هو سياحة داخلية غير مكلفة، تعيد لك صفاءك الذهني، ومن لا يحب نفسه يعجز عن حب للآخرين.

هذا ما تعلمته من تجربتي التي استنتجت منها أن الأم هي ينبوع الأمان والحنان والعلم، وأن بناء الإنسان يكون بتثقيف هذه الأم وتوعيتها، وهي إن صلحت صلح المجتمع كله، وأن السعادة موجودة مثل الهدية في صندوق تخرج لمن يفتحه، وأن من يبحث عن السعادة والبهجة خارج أسرته مثل من يبحث عن كنز تحت قدميه، وأن الأسرة هي مزرعتك التي تخرج أطيب الثمار إذا وجدت منك العناية والاهتمام، لكنها الحياة تعاكسنا فعندما تصبح لدينا عقول وخبرات ومخططات يكون قد انتهى دورنا في التربية؛ لذلك أتمنى أن تصل خواطري هذه إلى كل امرأة مقدمة على أهم وأجمل أدوارها (دور الامومة).

وها أنا ذا يا أ.سارة بنت صالح الشايع أحاول أن أوصل صوت خواطرك القيمة هذه إلى كل أم من خلال كتاب، يرى -مثلك- أن (الأم) مصنع الحياة.

٦٢

ماذا لو غلبت عاطفة الأمومة شغف المجد لدى ولدها؟!

حضرت مؤتمرا أقيم في موسكو حضره عدد من ممثلي الديانات السماوية، وقد أبدى أحد القساوسة إعجابه الشديد، بل دهشته من حديث الرسول ﷺ: «جاء رجلٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فاستأذنهُ في الجهاد، فقال: «أحَيٌّ والِداكَ»؟ قال: نعم، قال: «فَفِيهِما فَجاهِدْ»»[1].

لو كان هذا هو الحديث الوحيد في هذا المعنى لكفى، كيف وقد تعددت الأحاديث، ومواقف السلف بعد نبيهم ﷺ على تقديم رضا الوالدة على العلم والجهاد وإكرام النفس بما ترغب؛ طلبا لرضاها، ولا ألوم هذا القسيس وهو يعيش في مجتمع لا يقدس حق الوالدين، ولم يطعم لذته، كيف لو سمع ووعى كيف شرفهما الله تعالى بأن عطف شكرهما على شكره -عز وجل- فقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان:١٤].

أيتها الأم الكريمة، لقد حدثتُك كثيرا كيف تصنعين العظماء، فهل تأذنين أن أسمعك ماذا صنع العظماء مع أمهاتهم؟

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٥٩) ح (٣٠٠٤).

أولهم الرسول ﷺ الذي رآه أبو الطفيل عمرو بن واثلة فروى لنا ما رأى، فقال: «رأيتُ النَّبيَّ ﷺ يَقسِمُ لحمًا بالجِعرانةِ إذ أقبلتِ امرأةٌ حتَّى دنَت إلى النَّبيِّ ﷺ فبسَطَ إليها رداءَه، فجلسَت إليهِ، فقلتُ مَن هيَ؟ فقالوا هذه أمُّهُ الَّتي أرضعَتْهُ»[1].

وأما مع أمه فالأمر أعظم وأجل، فقد ماتت كافرة وهو طفل؛ فقد «زار النبيُّ ﷺ قبرَ أُمِّه، فبكى وأبكى مَن حولَه، فقال: استأذنتُ ربِّي في أن أستغفرَ لها فلم يُؤذَنْ لي، واستأذنتُه في أن أزورَ قبرَها فأَذِنَ لي. فزوروا القبورَ؛ فإنها تُذَكِّرُ الموتَ»[2].

وكلما ازدادت عظمة الإنسان ازداد وفاؤه وبره لمن رباه وعلمه وكان سببا فيما بلغه من خير ومجد، فكيف بأمه.

ومن الصحابة الكرام اشتهر كثيرون ببرهم لأمهاتهم، ومنهم أبو هريرة ﷺ فقد روى الشيخان عنه قال: «للعبدِ المملوكِ المُصْلِحِ أجرانِ»[3]. والذي نفسُ أبي هريرةَ بيدِهِ! لولا الجهادُ في سبيلِ الله، والحجُّ، وبِرُّ أُمِّي، لأحببتُ أن أموتَ وأنا مملوكٌ. قال: وبلغنا؛ أَنَّ أَبَا هريرةَ لم يكن يَحُجُّ حتى ماتت أُمُّهُ، لصُحْبَتِهَا». ومثله عدد من الأعلام، الذين لم يكرروا الحج إلا بعد وفاة أمهاتهم؛ طاعة لهن.

وقد ورد عن عدد من العلماء الأجلاء الحفاظ الكبار أنهم تركوا

(١) رواه أبو داود (٧/ ٤٥٧) ح (٥١٤٤) وحسّنه الشيخ شعيب الأرناؤوط بشواهده.
(٢) رواه مسلم (٢/ ٦٧١) ح (٩٧٦).
(٣) أخرجه البخاري (٣/ ١٤٩) ح (٢٥٤٨) ومسلم (٣/ ١٢٨٤) ح (١٦٦٥).

الرحلة في طلب العلم مع أهميتها البالغة لهم، والحصول على أعلى الأسانيد، من أجل رضا آبائهم وأمهاتهم؛ أمثال الإمام الحافظ الذهبي، والإمام الحافظ أبي القاسم بن عساكر، الذي قال: «استأذنت أمي في الرحلة إليها [أي إلى أصبهان] فما أذنت» فأطاعها. وكان هؤلاء الأعلام يعدون فوتَ شيءٍ من العلم من أعظم المصاب، ولكنهم قدموا رضا أمَّهاتهم وحقَّها على ذلك، وعَدُّوه من ثمرات العلم.

وهذا أبو منصور بن زُريق سمع التاريخ من ابن الخطيب سوى الجزء الثالث والثلاثين، أتعلم لماذا اخترم عليه هذا الجزء؟ «**قال: تُوُفِّيت والدتي، واشتغلت بدفنها والصّلاة عليها، ففاتني هذا الجزء، وما أُعيد لي؛ لأنّ الخطيب كان قد اشترط في الابتداء أَلَا يُعاد فَوْتٌ لأحد**».

وقال عبدالله بن جعفر بن خاقان المروزي (بندان) هو محمد بن باشر بن عثمان يقول: أردت الخروج (بعد أن جمع حديث البصرة) فمنعتني أمي، فأطعتها، فبورك لي فيه».

وقال الإمام الذهبي رحمه الله في ترجمة محمد بن بشار الملقَّب (بندار): «وجمع حديث البصرة، ولم يرحل برًّا بأمِّه، ثم رحل بعدها»[1].

وقال في ترجمة البصري النساج: «كان عالـمًا بحديث البصرة متقنًا مجوِّدًا، لم يرحل برًّا بأمه ثم ارتحل بعدها»[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي: (١٢/ ١٤٤).
(٢) تذكرة الحفاظ: (٢/ ٧٣).

وقال جعفر الخلدي: كان الأَبَّار -وهو أحمد بن علي بن مسلم من علماء الأثر ببغداد- من أزهد الناس، استأذن أمه في الرحلة إلى قتيبة، فلم تأذن له، ثم ماتت، فخرج إلى خراسان، ثم وصل إلى بلخ وقد مات قتيبة، فكانوا يعزونه على هذا، فقال: هذا ثمرة العلم، أني اخترت رضا الوالدة»[(١)].

وعن محمد بن سيرين: بلغتِ النخلة في عهد عثمان بن عفان ألف درهم، فعمد أسامةُ إلى نخلةٍ فعقرها فأخرج جُمَّارها، فأطعمه أمه، فقالوا له: «ما يحملك على هذا، وأنت ترى النخلة قد بلغت ألف درهم؟ قال: إن أمِّي سألتنيه، ولا تسألني شيئًا أقدر عليه إلا أعطيتها».

والبر عمل صالح، والعلماء أكثر الناس رغبة فيه وحسن أداء، ولذلك لا عجب من كل هذه القصص التي تركتُ بعضَها حتى لا يقالَ إنَّها مبالغات.

كان أبو الحسن عليُّ بن الحسين زينُ العابدين رحمه الله من سادات التابعين، وكان كثيرَ البرِّ بأمِّه حتى قيل له: إنَّك من أبرِّ الناس بأمك، ولسنا نراك تأكلُ معها في صَحْفة، فقال: «أخاف أن تسبق يدي إلى ما سبقت إليه عينُها، فأكون قد عققتها»[(٢)].

(١) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي: (١٣/ ٤٤٣).
(٢) البر والصلة للإمام ابن الجوزي، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤١٣ هـ (١٩٩٣ م)، ص: (١/ ٨٦).

وقال محمد بن المنكدر: «بات أخي عمر يصلي وبتُ أغمزُ رِجلَ أمي وما أحب أن ليلتي بليلته»[1].

وعن محمد بن بشر الأسلمي أنه قال: لم يكن أحد بالكوفة أبرَّ بأمه من منصور بن المعتمر وأبي حنيفة، وكان منصور بن المعتمر يفلي رأس أمه[2].

وعن بكر بن عياش، يقول: «ربما كنت مع منصور في منزله جالسا فتصيح به أمه، وكانت فظة غليظة، فتقول: يا منصور، يريدك ابن هبيرة على القضاء فتأبى، وهو واضع لحيته على صدره ما يرفع طرفه إليها»[3].

وهذا الإمام حيوة بن شريح، وهو أحد أئمة المسلمين والعلماء المشهورين، يقعد في حلقته يعلم الناس ويأتيه الطلاب من كل مكان ليسمعوا عنه، فتقول له أمه وهو بين طلابه: «قم يا حيوة فاعلف الدجاج، فيقوم ويترك التعليم».

وكان لـمسعر بن كدام أمٌ عابدة، كان يحمل لها اللَّبد (أي قطعة الصوف) إلى المسجد، فيدخله، ويبسطه، لعلها تصلي عليه، ثم يتقدم هو لمقدمة المسجد يصلي، ثم يقعد ويجتمع الناس فيحدثهم، وهو شيخ عالم معروف، ثم بعد ذلك ينتهي مجلس الحديث، فيقوم فيطوي لبدة أمه ويرافقها إلى البيت.

---

(١) سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي: (٥/ ٣٥٩).
(٢) البر والصلة لابن الجوزي: (١/ ٨٤).
(٣) البر والصلة لابن الجوزي: (١/ ٨٩).

وجاء عن **أبي حنيفة** ﷀ في بره بأمه حيث كانت تأمره أن يذهب بها إلى حلقة عمر بن ذر حتى تسأله عما أشكل عليها مع أن ابنها فقيه زمانه، ومع ذلك قال أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة: «رأيت أبا حنيفة يحمل أمه على حمار إلى مجلس عمر بن ذر كراهية أن يرد على أمه أمرها».

وقال أبو إسحاق الرقي الحنبلي في ترجمة عبدالله بن عون: «ونادته أمه فأجابها، فعلا صوته صوتها، فأعتق رقبتين».

قال المؤرخ البديري الحلاق في حوادث دمشق اليومية: «توفيت والدتي في الثلث الأول من الليل، رحمها الله وعفا عنها وبرّد مضجعها، وقد فارقت الدنيا وأنا بين رجليها نائم، وكانت من القانتات العابدات تصلّي نوافل الليل، ولها أوراد».

في مثل هذه المحاضن الدافئة تربى هؤلاء الأعلام، وأول من جنى ثمرات تلك التربية الطيبة أمهاتهن.

٦٣

رؤيا مبشرة بولد صالح

ما أجمل أن تُبشر الأم بولد صالح قبل أن يولد، كما حدث مع الإمام العلامة الحافظ الكبير المجود، محدث الشام، **ثقة الدين أبي القاسم (ابن عساكر) الدمشقي الشافعي**، صاحب (تاريخ دمشق)، قال لي: «لما حملت بي أمي، رأت في منامها قائلا يقول: تلدين غلاما يكون له شأن. وحدثني أن أباه رأى رؤيا معناها: يولد لك ولد يحيي الله به السنة، ولما عزم على الرحلة قال له أبو الحسن بن قبيس أرجو أن يحيي الله بك هذا الشأن»[١].

وأجد أن مثل هذه الرؤى مبشرات، وأن لها أثرا كبيرا في إلهام الوالدين الاهتمام الكبير بأولادهم، ووضع الغايات النبيلة، والأهداف الكبرى، وإعلاء النظرة إلى هذا الطفل، والعمل على الوصول به إلى تلك المنزلة التي رؤيت له.

على أننا لا ننتظر الرؤى والمنامات، ولا حتى حدس النجباء الذين تمر أعينهم بوجوه أطفالنا ليقولوا كلمة تستقرئ قدرات الولد، وتتنبأ له بمستقبل كبير، بل علينا أن نصنع هذا المستقبل بخطوات واثقة، تبدأ بالنية الحسنة، وتنتهي بعالم أو مبدع أو نبيل من النبلاء، وبينهما هدف كبير، وأم عظيمة، وتحدٍّ لكل العقبات.

ولعل في هذه القصة التي **رواها لي الدكتور سمير بن سليمان العمران**

---

(١) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي: ٢/ ٥٦٢- ٥٦٣.

بنفسه، وهو مدير عام تعليم البنات في المنطقة الشرقية سابقا، وله نشاط دعوي مبارك في شرق أوربا، وقدم عددا من البرامج الإذاعية.

تضمنت هذه القصة رحلته بين محطتين أكثر الشباب يطمح في الوصول إلى واحدة منهما، الهندسة والشريعة، سأتركه يتحدث عن نقطة التحول، وأبرز عنصر مؤثر في هذا النجاح المزدوج، يقول: «عندما كنت طالبا في السنة الثالثة في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالمنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية، في تخصص (هندسة التعدين)، عام ١٤٠١ للهجرة النبوية المباركة، بدا لي أن أنتقل إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، في تخصص السنة وعلومها؛ لحاجة المنطقة لهذا التخصص، وعندما استأذنت الوالدة -حفظها الله تعالى-، -وهي أمية- سألتني سؤالين الأول: هل لديك مشكلة دراسية في تخصص هندسة التعدين ولذلك تريد تغيير التخصص والبدء من جديد؟ فأجبتها بالنفي، بل كنت أحصل على معدل دراسي مرتفع ولله الحمد والمنة، والسؤال الثاني كان غريبا وهو: هل تريد أن تخدم الدين أو تضره؟ فكان جوابي: لا شك أنني أريد أخدم الدين!

قالت: إن تركت الجامعة الآن وتوجهت للدراسة الشرعية سيقول الناس ذهب للشريعة لأنه فشل في الهندسة، وبذا تكون الرسالة التي تصل إلى الناس أن من يذهب للشريعة هم الفاشلون، لكن إذا أكملت الهندسة وتخرجت، ثم ذهبت للشريعة ستكون الرسالة التي تصل للناس أن الذي يذهب للشريعة هم الناجحون، فاستجبتُ لطلب الوالدة.

وبفضل الله تخرجت في الهندسة، ثم توجهت للدراسة الشرعية فأكملت البكالوريوس ثم الماجستير، ولما قدمت للدكتوراه أُبلغت أن قبول الطلبة موقوف بسبب قلة المشرفين، فما كان مني إلا أن

توجهت لعميد كلية أصول الدين، وقدمت أوراقي، وكنت مستعدا لمناقشته حول حاجة المنطقة لخريجي الماجستير والدكتوراه، لكنه لم يسألني، ولم يقل لي شيئا إنما شرح على الورقة شرحًا لا أعرف معناه، ولما ذهبت إلى رئيس قسم السنة وعلومها سألني: كيف أقنعتَ العميدَ قلت: والله لم أنبس ببنت شفة، قال فضيلة رئيس قسم السنة مقولة لن أنساها ماحييت: (أشهد أن وراءك عجوزا تدعو لك)، وهذا كان من أثر البر بالوالدة».

أمٌّ تحفز، وتدفع، وتدعو؛ حتى يصل ابنها إلى أعلى المراتب، ويظل ابنُها، يستظل بظلها، ويتشرف بتقبيل جبينها وكفيها ولو سمحت قدميها.

٦٤

هل يمكن أن أتبرع لها بعيني؟!

بينما أنا في طريقي إلى مدرسة ابنتي صباحا؛ لأوصلها، رأيت امرأة مستورة، تمشي وراء طفلها في اتجاه الروضة، تحمل له حقيبته، وهو يسير كأنه ضابط، بخطوات تمثيلية، وبين الفينة والفينة يلتفت إلى أمه وكأنه يقودها، وهو في حقيقة الأمر يطمئن بأنها خلفه ليشعر بالأمان، وحين وصلا للروضة إذا بها تقف وتعطيه حقيبته، وكأني بها تتمتم وتقول: أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه، ثم تنتظر حتى تحتويه الروضة بين جنباتها، ثم تعود بلا قلب، هكذا الأم التي تستمتع بتضحياتها من أجل أولادها، منذ الطفولة إلى أن يفرقهم يوم لا بد منه، تحمله أو يحملها.

هذه التضحية تذكرني **بشفاء الفتاة الكفيفة** التي فاجأتني على الهواء في برنامجي الفضائي: بوح البنات، «والدتي حفظها الله تعالى حينما كنتُ صغيرة، وأُصبت بمرض في العينين، وفي المشفى، قال طبيب العيون: لا يوجد علاج لحالة شفاء حتى الآن، [ومعنى ذلك أنها سوف تبقى بلا ضياء في عينيها، ولن ترى حياتها كلها]، فبادرت والدتي وقالت للطبيب: هل بالإمكان أن أتبرع لها بعيني، ربما نسيت أمي هذا الحدث، ولكنه لا يزال يرنُّ في أذني إلى الآن، هذا الحدث جعل مني شخصا آخر، فأنا لا أكتفي بالنجاح فقط، بل إنني أريد أن أكون في القمة بين قلة من الناجحين، لترى أمي بأنني أرى، بالرغم من أنني لا أبصر، قد لا تعلم بأني أرى الدنيا من خلال عينيها».

لم أمتلك عيني ولا مشاعري ولا عواطفي، طوفان اجتاحني وأنا بين أعمدة الكاميرات، وددت لو أُوقف البث حتى أبكي بحجم هذا العطاء.. هذا الإيثار.. هذا الكرم الذي لا تستطيعه غير الأم.

وانظري كيف تحولت هذه الكلمة الصادقة إلى وقود لا ينفد ما بقيت هذه الفتاة، بل جعلها لا تفكر في النجاح العادي، ولكن في تسنم أعلى الدرجات ما استطاعت.

خرجت من الأستديو فلقيني أحد المصورين؛ ليقص عليَّ حدثا آخر مثله، إنه قصة أمه التي كانت تنتظر طفلا منذ أمد، وقد أسقطت عدة مرات، ومرضت عينُها، وكان العلاج يقتضي أن يسقط الجنين، ولم يبق أمامهم إلا أن ينزعوا عينها أو يموت الطفل، فاختارت حياة جنينها على نور عينها وجمال محياها.

تهزني هذه المواقف المتوقدة بالجمال الذي لا نلمس ملامحه بالأنظار، ولكن بالبصيرة النافذة.

ويلتفت الشاعر الفرنسي (لامرتين) إلى لمحة مدهشة حين يقول: «**إن الأم تكون عاجزة عن العناية بالعائلة، لكنها ـ مع ذلك ـ تبقى ملجأً نرى فيه الحبَّ وآلافًا من صفحات الحنان**».

وصدق، فقليل الأم كثير، ونظرة منها تكفي لإشاعة الدفء في حياة ولدها، وفي الأمثال الفنلندية: «**قميص من قماش تخيطه الأم يبعث الدفء، وقميص من الصوف تخيطه امرأة غريبة لا يدفئ**». والعرب تقول: «**ليست النائحة الثكلى كالنائحة المُستأجرة**».

ما تقوم به الأم تربية وتعليما وتقويما وشحذا وحبا وحنانا وتضحية وصدقا لا حدود له، ولذلك فإن نتائج ما تقوم به يفوق ـ بكثير ـ نتائج ما يقوم به غيرها للشخص نفسه، ولذلك قال ويليام دلس: «**إن اليد التي تهز السرير هي اليد التي تحكم العالم**». فما الذين يحكمون العالم اليوم إلا أطفال الأمس، وكانوا في حجور أمهاتهم يرضعون العزة والمجد، وهذا عَمْرو بْنُ سَلِمَةَ حين أراد قومه أن يختاروا لهم إماما فنظروا كما يقول: «فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ قُرْآنًا مِنِّي لِمَا كُنْتُ أَتَلَقَّى مِنَ الرُّكْبَانِ فَقَدَّمُونِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَنَا ابْنُ سِتٍّ أَوْ سَبْعِ سِنِينَ وَكَانَتْ عَلَيَّ بُرْدَةٌ كُنْتُ إِذَا سَجَدْتُ تَقَلَّصَتْ عَنِّي فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْحَيِّ أَلَا تُغَطُّوا عَنَّا اسْتَ قَارِئِكُمْ فَاشْتَرَوْا فَقَطَعُوا لِي قَمِيصًا فَمَا فَرِحْتُ بِشَيْءٍ فَرَحِي بِذَلِكَ الْقَمِيصِ»(١).

صغير عمره، ولكنه كبير القدر، حين فاق الكبار بما حمله من القرآن الكريم.

وقد اتصلت بي امرأة عظيمة النية ولا أزكيها على الله، تمتلئ همة وتعتلي غاية، وكل هدفها في هذه الحياة أن تربي رجلا صالحا ينفع الله به الإسلام والمسلمين، في حديثي معها قالت إن ولدها في الثاني الابتدائي وحفظ جزءين، فبرَّكتُ وهنأتُ، فردت: قليل هذا قليل جدا!! فعلمت أنها ستربي عالما بإذن الله تعالى.

أنت تستطيعين أن تصنعي ذلك فشمري واستعيني بالله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ١٥٠) ح (٤٣٠٢).

٦٥

«لا يجني والدٌ على ولده»(١)

جُبِلت الأم على محبة ولدها، حتى سجل الله تعالى ذلك في كتابه في مواقف يهتزُّ لها الوجدان هزًّ عنيفا، فحين يقول الله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ١٠].

فراغ لا يملؤه سوى رؤية ولدها، وضمه وشمه، هذا الحب ينبغي أن يكون متوازنا موزعا بعدالة بين الأولاد، حتى ولو في ظاهر الأمر، إذ لا يوغر الصدور مثل إظهار حبك لأحد أولادك أكثر من بقية إخوانه وأخواته، وربما جلبت له البلاء، ألم تسمعي قول الله تعالى: يحكي قصة يوسف وإخوته: ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ٨-٩].

هذا النُّعْمَانُ بْنَ بَشِيرٍ رضي الله عنهما وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً فَقَالَتْ: عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللهَّ ﷺ فَأَتَى رَسُولَ اللهَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً فَأَمَرَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ يَا رَسُولَ اللهَّ قَالَ: أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا قَالَ: لَا، قَالَ: فَاتَّقُوا اللهَّ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ، قَالَ: فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ»

(١) رواه بن ماجه (٢/ ٨٩٠) واسناده صحيح كما قال الألباني.

رواه البخاري. وفي رواية مسلم: «أَكُلَّ بَنِيكَ قَدْ نَحَلْتَ مِثْلَ مَا نَحَلْتَ النُّعْمَانَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي، ثُمَّ قَالَ: أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْكَ فِي الْبِرِّ سَوَاءً؟! قَالَ بَلَى قَالَ فَلَا إِذًا»[1].

إن الأم حين تُظهر حبها وتفضيلها لأحد أولادها على غيره إنما تزرع بغضه في قلوبهم، وتزرع من وجه آخر بذرة العقوق في نفسه في المستقبل؛ لأنه سوف يشعر بعد أن يكبر أنها كانت سبب بُعدِ قلبِه عن قلوب إخوانه، بل سوف يكتشف أن أسلوبها التربوي كان يبني فيه الأنانية وحب الذات واحتقار الآخرين، وتظل هذه الصفات الدنيئة مؤذية له ولمن يتعاملون معه طوال حياته إلا إذا نجاه الله منها بفضل منه سبحانه.

وهنا أود التفصيل في قضية مهمة، وهي المشكلة الاعتيادية والخطيرة في الوقت نفسه، والتي تتمثل في الشعور بالغيرة حين قدوم الوليد الجديد، فالوالدان إما أن ينجحا في وقف هذا الشعور أو في زيادته مع كبر السن وتداعي الأحداث في حياة الأطفال، وأول ما يزرع الغيرة في نفوس الأطفال هو الشعور بعدم المساواة، حينما ينتقل اهتمام الوالدين إلى الوافد الجديد، ويجد الطفل نفسه وقد انسحبت الأضواء من حوله، وتحول كل الاهتمام من أجل إطعام وتنظيف ولبس هذا الجديد الصغير، والأم تقول لا أستطيع رعاية الطفلين معًا. والأب يقول وكيف أقوم برعاية لم أفعلها من قبل، وربما يظل الشعور بعدم المساواة إذا لم يعالج منذ البداية يتصاعد بين الأشقاء ويزرع الغيرة بينهم[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٥٨) ح (٢٥٨٧) ومسلم (٣/ ١٢٤٣) ح (١٦٢٣).

(٢) من استشارة قدمها عمرو أبو خليل من موقع أون إسلام.

وكان الأولى أن تمهد الأم للإخوة السابقين لقدوم الرضيع الجديد بما يفهمونه من أساليب إلى استقباله بحفاوة ومحبة؛ بصفته سميرا سوف يؤنسه، وشقيقا يعينه ويلعب معه، ويكن له المحبة والمودة. وينبغي ألا تندفع الأم في تدليل الصغير وإبداء الشغف به أمام إخوته؛ حتى لا تشعل نار الغيرة في قلوبهم، وتوغر صدورهم بالحسد منذ سن مبكرة. وأن تفهم الإخوة أن عنايتها الزائدة بالطفل الصغير لأنه في حاجة إلى ذلك، وقد نالوا من العناية مثل ذلك حين كانوا مثله. كما يمكن أن يعمد الأهل لدفع الولد الكبير للمشاركة بقرارات الإعداد لاستقبال الصغير. وترك الفرصة له للمساعدة في العناية به بإمساكه، أو إمساك الزجاجة لإطعامه. وطمأنته بأن دُماه وممتلكاته الخاصة لن تعطى للوليد الجديد وهذا ما يرسخ إحساس ابن ما قبل المدرسة بالأهمية وبأن له مكانًا مأمونًا في الأسرة، الأمر الذي يجعله أميل للتكيف مع الوضع الجديد[1].

أيتها الأم الكريمة .. إنك بهذا تبنين مستقبلا آمنا لطفلك بإذن الله تعالى، يتعلم فيه كيف يعيش بسلام مع الآخرين، وكيف يتماهى مع احتياجات الناس واحتياجاته دون تعارض، وتصوغين له الجمل الأولى في قاموس تعامله مع أطراف قريبين منه مثل إخوته، ليكون جاهزا للتعامل مع أطراف أبعدَ منه في المدرسة والسوق وغيرها.

كلُّ ذلك من أجل بناء شخصية مستقلة، قادرة على أن تنهض على

(١) مشكلات الطفولة والمراهقة لميخائيل إبراهيم أسعد، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، ط: ٢.

قدميها دون اعتماد على عكازات الآخرين المحيطين به، أو من يستغلونه مستقبلا أو يبتزونه، والبدء هنا، تحت قدميك المتوضئتين، فعندما يلزم طفلك الأدب ويلعب معتمدًا على نفسه دون إزعاج: أظهري له إعجابك وفخرك بسلوكه، وتذكري أن تعززي سلوكه الحسن بالقبلة الحانية، والكلمة الرقيقة، لعظم تأثيرها على نفسية صغيرك الحبيب، كل ذلك سوف يكسبك محبته وتقديره.

وكلما كبر، كلما كان من الضروريِّ أن يكون للوالدين مع أولادهما جلساتٌ لمناقشة سلوكاتهم، في إطارٍ من الحبِّ وباستخدام الحكاية في السنِّ الصغيرة، أو باستخدام أسلوب المناقشة والحوار والصراحة غير المحرجة وتجنُّب فرض الرأي للأكبر سنّا، ويفضَّل أن يكون لكلِّ ابنٍ وقتٌ خاصٌّ به يُسمَح له بالحديث في أي أمرٍ يشغله، إلى جانب الحوار المشترك بين الإخوة في حضرتك، لتراقبي طريقتهم في الحوار وتعلميهم أصوله وأدبه، فإن الدراسات تؤكد بأن ٩٨٪ من المشكلات تتفاقم ولا تجد لها طريقًا للحل بسبب الفشل في الحوار.

وإنَّ مما يحيلُ حياةَ الأسرة جحيمًا أن يطلب الوالدان من أولادهم ولاسيما الصغار والمراهقين أن يكونوا دائما هادئين، إن هذا لا يمكن أن يكون مع أولاد أسوياء أذكياء، بل الطبيعي أن يحدثوا ضجيجا فيسمعه الآباء تغريدا، وشجارا فيحسبه الآباء لعبا بريئا، وربما أتلفوا وخربوا فيحسبه الآباء محاولات للاكتشاف والتنقيب عن أسرار الحياة.. إني لأهديكما أيها الوالدان هذه الدرة الشعرية لوالد خرج منه أولاده التسعة إلى بلدتهم حلب وتركوه وحده في مصيف قرنايل بلبنان حين عادت الدراسة وأحب هو أن يرتاح من مشاغباتهم قليلا من الوقت.. فماذا

حدث؟ إنه راح يفتش المكان والزمان فلما لم يجدهم فيه إذا بمشاعره تفيض فينادي وحيدا فريدا في غربته:

أينَ الضَّجيجُ العذبُ والشَّغَبُ
أينَ التَّـــدارسُ شـابَهُ اللعِـــبُ
أيـــنَ الطُّفولـــةُ في تَوقُّدِهــــا
أينَ الدُّمى في الأرضِ والكُتُبُ
أيـــن التَّشـاكسُ دونما غـرضٍ
أيــنَ التشــاكي ما لـه سـببُ
أيـــن التَّبـاكي والتَّضاحـكُ في
وقتٍ معًا، والحـزنُ والطـربُ

ويسترسل في تصويره الحي؛ فيرسم «لوحات فنية شاخصة، ترى فيها الطفولة اللاهية العابثة المرحة في اندفاعها واسترسالها وعفويتها وبراءتها، خطت خطوطها ريشة الفنان الوصاف، فلم تغادر شيئا في ساحة الطفولة وعرامها إلا رسمته...»[1].

ثم يلتفت إلى ما يلامس علاقته بهم ملامسة مباشرة، وهو شأن كل إنسان يفقد حبيبا كان ملء قلبه وعينيه، فإنه يظل يتذكر منه ما كان سبب محبة أحدهم للآخر، أو أجمل المواقف بينهما، لأن ذاك هو ما فقده منه؛ يقول:

(١) عمر بهاء الدين الأميري شاعر الأبوة الحانية، والبنوة البارة، والفن الأصيل للدكتور محمد علي الهاشمي، دار البشائر الإسلامية ببيروت، ١٤٠٦هـ (١٩٦٦م)، ص: ٣٤.

أيــنَ التَّســابـقُ فـي مُجــاورتي
شــغَفًا إذا أكـلوا وإن شَرِبــوا
يتزاحمــونَ عــلى مُجالســتي
والــقربِ مـنِّي حيثُـما انقلبـوا

يتوجهــونَ بِسَــوقِ فِطـرَتِهِم
نحــوي إذا رهبُـوا وإن رغبـوا
فنشـيدُهم (بـابـا) إذا فَرحــوا
ووعيدُهم (بـابـا) إذا غضبـوا

وهتافُهــم (بـابـا) إذا ابتعـدوا
ونجيُّهــم (بـابـا) إذا اقتربــوا

بالأمــسِ كانـوا مـلءَ منزِلِنــا
واليــومَ ويـحَ اليـومِ قـد ذهبـوا

وكأنــما الصـمتُ الـذي هبطـت
أثــقالُـهُ في الــدارِ إذ غَـــربُوا

إغفـــاءةُ المحمـــومِ؛ هـــدأتُها
فيهـا يشـيعُ الهـمُّ والتَّعـــب

إنــي أراهـــم أينــما الــتفـتَتْ
نفسـي، وقـد سـكنوا وقد وثبوا

وأُحـسُّ في خَــلَدي تــلاعبَهم
في الــدَّارِ، ليــس ينالُهـم نصَــبُ

وبريـــقَ أعينِهـــم إذا ظفـــرُوا
ودمـــوعَ حرقتِـــهم إذا غَلبـــوا
في كـــلِّ رُكـــنٍ منـــهم أثـــرٌ
وبـــكلِّ زاويـــةٍ لهـــم صَـــخَبُ

في النـافذاتِ زجـاجَها حطمـوا
في الحائـطِ المدهـونِ قـد ثقبوا
في البـابِ قـد كسروا مـزالِجَـه
وعليـه قـد رسموا وقـد كتبوا

ويختم (عمر بهاء الدين الأميري) القصيدة بالموقف العاطفي الذي تعرض له في لحظة الوداع، وهو دائما أصعب المواقف على المتحابين، لأنه يهدم سبب اللذة الحاصلة في اللقاء:

دمعـــي الـــذي كتَّمـــتُه جلـــدًا
لـمـا تبـاكوا عندمـــا ركبـــوا
حتـى إذا سـاروا وقـد نزعُـــوا
مـــن أضلعـــي قلبًا بهـم يَجِبُ
ألفيتُنـــي كالطفـــلِ عاطـــفةً
فـإذا بـه كالغـــيثِ ينسـكبُ
قـــد يَعجـبُ العُـذَّالُ مـن رجـلٍ
يبكـي، ولـو لم أبـكِ فـالعَجَبُ
هيـهاتَ، مـا كـلُّ البكا خـورٌ
إنـي وبـي عـزمُ الرجـالِ، أَبُ

٦٦

أمٌّ .. وعالمة، وداعية، ومحدِّثة، وقائدة، ومفتية

التربية ـ كغيرها من فنون الحياة ـ مهارة تحتاج إلى تعلم وتدرب، فتزيد القدرات الفطرية قوة ورسوخا، وتكتسب الأمُّ ما لم تفطر عليه من المهارات، وبخاصة في زمن أصبح فيه الأولاد في مهبِّ تيارات وأهواء ومغريات وصوارف ومؤثرات تأتي من خارج المنزل، وتتسم بقوة الجاذبية وعمق التأثير، فكان من الضروري جدا للأم أن تتعلم وتتدرب وتستعد لكل هذه المؤثرات؛ لتوظيف الجيد، وصد الرديء.

ومنذ العصر النبوي الشريف، والمرأة/ الأم تتصدر الصفوف الأولى في تلقي الوحي، والسؤال عما أشكل، ونشر العلم، وهذه كتب السيرة سجلت لنا اللحظات الأولى من تلقي الوحي، وكيف اهتزَّ له بيت النبوة، فكانت المؤمنة الأولى، والمستمعة والتالية الأولى لوحي السماء، الباذلة الأولى في سبيل الدعوة الإسلامية من نفسها ومالها، الزوجة المصدقة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ثم يتوالى الوحي في حجرات أمهات المؤمنين، وكان للسيدة عائشة رضي الله عنها القدْح المعلى في شرف الاهتمام بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصبحت مفتية ومعلمة وموجهة لأبواب الخير[1].

---

(١) انظر دور المرأة في خدمة الحديث في القرون الثلاثة الأولى، لآمال قرداش بنت الحسين، ١٤٢٠ هـ، ص: ٢٩.

كيف وقد طالبت المرأة ـ في زمن النبوة ـ بحقها في التعلم منفردة عن الرجال، فقالت النساء للنبي ﷺ : «غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك فوعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن» [رواه البخاري][١].

فلا عجب أن يتخرج في هذه الجامعة النبوية أمثال: أم الدرداء، كانت تحدث وتُعلم، وكانت فقيهة يجتمع عندها طلبة العلم ينهلون من علمها، وقد قال أحدهم: «جلسنا إلى أم الدرداء فقلنا لها: أمْللناكِ، فقالت: أمللتموني؟! لقد طلبتُ العبادة في كل شيء فما أصبت لنفسي شيئا أشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم»، وكانت تقول: «أفضل العلم المعرفة»[٢].

«وكان للمرأة المسلمة حضور بارز في المجتمع العلمي الإسلامي، فكانت تتعلم وتُعلم، وترحل لطلب العلم، ويقصدها الطلاب لأخذ العلم عنها، وتصنف الكتب، وتفتي، وتستشار في الأمور العامة»[٣]. وقد كان من اهتمام النساء بالعلم في زمن من الأزمان، أن البكر ما كانت تزف إلا وفي جهازها كتاب: (مختصر المزني)، وهو من كتب الشافعية الشهيرة[٤].

قال ابن حجر: «وفي الحديث ما كان عليه نساء الصحابة من الحرص على تعليم أمور الدين»[٥]. وتخصيص النساء بمجلس علمي خاص

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٢) ح (١٠١).

(٢) تهذيب الكمال في أسماء الرجال لجمال الدين يوسف المزي ، ،بيروت ط ١ ،مؤسسة الرسالة ، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨ م ، ٨/ ٥٩٣.

(٣) المرأة العالمة في عهد النبوة، تأصيل وتميُّز، بحث ، د.أميرة بنت علي الصاعدي.

(٤) انظر: عناية النساء بالحديث النبوي، لمشهور بن حسن آل سلمان، المملكة العربية السعودية، ط ١، دار ابن عفان، ١٤١٤هـ، ص ٧.

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ١٤٠٧ هـ (١٩٨٦ م)، ١/ ٢٣٧.

بهن، بعيدًا عن مجالس الرجال، ويتكرر هذا المجلس بقدر الحاجة. قال ابن بطَّال: «وفيه سؤال النساء عن أمور دينهن، وجواز كلامهن مع الرجال في ذلك فيما لهن الحاجة إليه، وقد أُخذ العلم عن أزواج النبي ﷺ وعن غيرهن من نساء السلف»(١).

وأما عائشة فهي أشهر من أن تذكر، وهي مرجع من مراجع الفتيا حتى توفيت رضي الله عنها، وفي ذلك يقول محقق كتاب الإجابة للزركشي عن عائشة رضي الله عنها: «كانت كثيرةَ السؤال للعلم، ولا يهدأ لها بال؛ حتى ترضي طُمأنينتها، وتجلو لنفسها كل خفي مما يحيط بها، فقد طرحت على رسول الله ﷺ أسئلة حول كل ما يمر من موضوعات في الفقه والقرآن الكريم والأخبار والمغيَّبات، وفيما يعرض من أحداث وخطوب.. وهذا شأن المرء ذي الطبيعة العلمية كلما عظم حظه من المعرفة كثر تطلعه إلى ما فوقه، أما الجاهل فليس بمعنيٍّ أن يَسأل، فإذا أصاب من المعرفة حظًّا ما بطريق العرض، كان أبعدَ الناس أن تطلب نفسه مزيدًا من العلم»(٢).

وكانت أم سلمة بنت أبي أمية رضي الله عنها تعدُّ من فقيهات الصحابة وممن كان يفتي، إذ عدها ابن حزم من متوسطي الفتوى من الدرجة الثانية(٣). وقد تأخرت وفاتها بعد رسول الله ﷺ مما جعل الناس يقصدونها للتعلم والسؤال عن أمور الدين، وخاصة بعد وفاة أم المؤمنين عائشة

---

(١) ابن بطال، شرح صحيح البخاري، ١/ ١٧٨.

(٢) الإجابة لما استدركته عائشة على الصحابة، محمد بن بن بهادر الزركشي، تحقيق :د رفعت فوزي ،القاهرة ،ط ١، مكتبة الخانجي، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، ص ٤.

(٣) أصحاب الفتيا من الصحابة والتابعين ومن بعدهم على مراتبهم في الفتيا، للإمام ابن حزم الظاهري، ت: ٤٥٦ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ص: ٣٢٠.

ﷺ، وكانت آخرَ من تبقى من أمهات المؤمنين[1].

«إن التربية الإيمانية التي حظيت بها المرأة المسلمة على عهد النبي ﷺ، والإعداد العلمي الذي خُصت به، والجهد الكبير الذي بذلته في طلب العلم، خرّج لنا نساء عالمات متميزات، تفوقن على [بعض] الرجال في سعة الإطلاع وجمع العلم ودقة الفهم»[2].

العالمة المحدثة الفقيهة: أسماء بنت يزيد، ثالث امرأة راوية للحديث بعد أم المؤمنين عائشة وأم سلمة ﷺ، حيث بلغ عدد أحاديثها (٨١) رواية، وهي من ذوات العقل الراجح والدين السليم، عُرفت بحسن المنطق وقوة البيان، كانت حريصة على تعلّم أمور دينها والسُّؤال عنها، وكانت تسمى بخطيبة النساء[3].

ومن النساء العالمات في زمن النبوة: الشفاء بنت عبد الله العدوية ﷺ (أول معلمة في الإسلام): صاحبة الرقية ومعلمة الكتابة والطبيبة، كانت من عقلاء النساء وفضلائهن، وكان ﷺ يبر بها يزورها ويَقيلُ عندها، وكان عمر بن الخطاب يقدمها بالرأي ويفضلها[4].

وكانت تُعلم الناس الكتابة والقراءة مبتغية بذلك الأجر والثواب

---

(١) دور أمهات المؤمنين في مجتمع المدينة المنورة في عصر الراشدين، لندى النخيلان، دار كنوز إشبيليا، الرياض، ط: ١، ١٤٣٢هـ (٢٠١١م)، ص: ٣٥٤.
(٢) المرأة العالمة في عهد النبوة، تأصيل وتميُّز، بحث، د.أميرة بنت علي الصاعدي: ٢٦.
(٣) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة للإمام أحمد بن علي بن حجر، ط ١/ ١٣٢٨هـ، ٤/ ٢٣٤.
(٤) انظر: علي بن محمد بن عبد الكريم ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٥/ ٤٦٨-٤٨٧، وابن حجر، الإصابة، ٤/ ٣٤١.

من الله، فكانت حفصة من بين من عَلَّمت من النساء، حيث طلب منها النبي ﷺ أن تعلم حفصة رضي الله عنها الكتابة ورقية النملة[1]، روى الإمام أحمد عَنِ الشِّفَاءِ بِنْتِ عَبْدِ اللهَّ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا عِنْدَ حَفْصَةَ فَقَالَ لِي: «أَلا تُعَلِّمِينَ هَذِهِ رُقْيَةَ النَّمْلَةِ كَمَا عَلَّمْتِيهَا الْكِتَابَةَ»[2].

(١) النَّمْلَةُ: قُرُوحٌ تَخْرُجُ فِي الجَنْبِ ،ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث ، ٥/ ١٢٠.
(٢) أحمد بن حنبل ، المسند، ٦/ ٣٧٢، وأبو داوود ، السنن، كتاب الطب، باب ما جاء في الرقى ، ٤/ ٢١٥ح ٣٨٨٧، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٧٨).

٦٧

تسع وسائل لصناعة العلماء

يرى الأستاذ محمد الرطيان أن (الأمومة): إحساس يُولد مع المرأة، بينما (الأبوة)، شيء يتعلمه الرجل مع مرور الوقت، ولذلك فهو يرى أن «كل النساء أمهات، حتى العاقر!»[١].

وأَمَةُ الواحد بنت المحاملي ابنة القاضي أبي عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي، [ت:٣٧٧هـ] مفتية النساء في بغداد. «حفِظَتْ القرآن والفقه والنحو والفرائض والعلوم، وبرعت في مذهب الشافعي، ، وكانت تفتي مع أبي علي بن أبي هريرة»[٢]، فاضلة في نفسها كثيرة الصدقة، مسارعة في الخيرات.

أخذ عنها كثير من العلماء، ولكن الأهم أنها صنعت في بيتها عَلَمًا من أعلام الشريعة، هو ابنها: **القاضي محمد بن أحمد بن القاسم المحاملي**، فلم تُورِّث النارُ الرماد كما يُقال، بل ورَّثت مشعلا وضَّاء يزيد من حسناتها، ويكون امتدادا لها.

فاطمة بنت الحسن بن علي الدقاق[٣] [ت:٤٨٠هـ] أم البنين بنت

---

(١) (alrotayyan@) غرد في ٧:٢٤ م on الأربعاء، ابريل ١٣، ٢٠١٦م.
(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لعبدالحي بن أحمد العكري، تحقيق عبدالقادر ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦ م)، ص: ٤/ ٤٠٧.
(٣) شذرات الذهب: ٥/ ٣٤٨.

الأستاذ الزاهد أبي علي الحسن بن علي الدقاق الشيخة العابدة العالمة، كانت كبيرة القدر عالية الإسناد، من عوابد زمانها، أم البنين النيسابورية أهل الأستاذ أبي القاسم القشيري وأم أولاده، ومن أولاده؟

أما الأول: فهو أبو سعد عبدالله، كان إماما فارعا، أجله أبوه وأنزله منزلة الأقران.

وأما الثاني: فهو أبو سعيد عبدالواحد، بدأ سماع الحديث في الرابعة من عمره، ثم صار صالحا فاضلا راوية للحديث.

والثالث: هو أبو نصر عبدالرحيم، أشبه أباه في علومه ومجلسه، وأطبق علماء بغداد على تفضيله، وقال فيه إمام الحرمين الجويني:

معـــاني النجــابــة مجمـــوعــة
بعبد الرحيم بـن عبـد الكريم

والرابع: أبو المظفر عبدالمنعم، حدَّث عن البيهقي والكبار[1]. رحمهم الله جميعا، ورحم أمًّا صنعتهم، وأبا كان قدوة لهم، ولذا امتد الخير حتى في الأحفاد بتوفيق من الله تعالى.

تقول أم إسراء بنت عرفة بيومي في كتابها (نساء صنعن علماء): «إن صناعة العلماء الربانيين صناعة عالية القدر، تحتاج إليها الأمة الإسلامية ـ هذه الأيام ـ حاجة شديدة؛ حيث تكاثرت الفتن وتحدث الرويبضة في أمر الدين، ورُزِئت الأمةُ في خير علمائها... رحمهم الله

(١) شذرات الذهب: ٣/ ٣٥٤، ٤/ ٤٠١، ٤/ ٤٥، ٤/ ٩٩.

رحمة واسعة، في هذه الأيام تحتاج الأمة لمن يخلف هؤلاء العلماء الأفذاذ الربانيين الذين عمروا الدنيا بعلمهم وعبادتهم»[1].

وقد وضعت مجموعة من الوسائل لصناعة العلماء الربانيين:

الوسيلة الأولى: الدعاء؛ لأنه سنة الأنبياء، وجالبُ كل خير، وحكت لها إحدى الثقات أنها لاحظت على إحدى النساء واسمها عائشة، أنها موفقة في كل شيء، وبخاصة في تربية أولادها، الذين بلغوا ثلاثة عشر، وسألتُها عن سر هذا التوفيق، فقالت: «إني أدعو الله لهم بصالح أعمالي»[2].

الوسيلة الثانية: غرس حب العلم في نفس الطفل وتعلميه في الصغر. وقد حرص الصحابة والتابعون وأصحاب الحديث على تعليم الصغار، فهذا الحسن يقول: «قدموا إلينا أحداثكم؛ فإنهم أفرغ قلوبا، وأحفظ لما سمعوا»، وهذا سعيد بن رحمة الأصبحي يقول: «كنت أسبقُ إلى مجلس عبدالله بن المبارك بليل مع أقراني، لا يسبقني أحد، ويجيء هو مع الأشياخ، فقيل له: قد غلبنا عليك هؤلاء الصبيان، فقال: هؤلاء أرجى عندي منكم أنتم، كم تعيشون؟! وهؤلاء عسى الله أن يبلغ بهم»[3].

قال أحمد شوقي[4]:

فـرب صغـير قـوم علمـوه
سـما وحمـى المسـوَّمةَ العرابـا

(١) نساء صنعن علماء: ٢٣٦.

(٢) نساء صنعن علماء: ٢٣٧.

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق محمد رأفت سعيد، جامعة القاهرة، دار العلوم، ١٤٠٠هـ (١٩٨٠ م)، ١/ ٢٤٥.

(٤) الشوقيات، أحمد شوقي، دار الكتاب العربي – بيروت، ١/ ٧٠.

وكان لقومه نفعا وفخـرا ولو تركوه كان أذى وعابا

فعلم ما استطعت لعل جيلا
سيأتي يُحدثُ العجب العجابا

الوسيلة الثالثة: تعليم الطفل القرآن والسنة منذ بواكير حياته، وقد أشرت إلى ذلك في عدد من مواقف بعض الأعلام الذين مروا في هذا السفر.

الوسيلة الرابعة: العمل على الاكتشاف المبكر لمواهب الطفل وتوجيهها، بحسب ما يظهر عليه من التفوق في مجال يحبه ويستطيعه، وقد ذُكر بأن الإمام البخاري رحمه الله تعالى حاول تعلم الفقه والتبحر فيه، فقال له محمد بن الحسن رحمه الله تعالى: «اذهب واشتغل بعلم الحديث» عندما رآه مناسبا لقدراته، فصار رأس المحدثين، وبقي فقهه رحمه الله في عناوين أبواب كتابه الجامع.

الوسيلة الخامسة: اختيار المعلم الصالح والمدرسة الصالحة، والمنهج الـمُحكم فقد روي أنه: «أُدْخِلَ الشَّافِعِيُّ يَوْمًا إِلَى بَعْضِ حُجَرِ هَارُونَ الرَّشِيدِ لِيَسْتَأْذِنَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَعَهُ سِرَاجٌ الْخَادِمُ، فَأَقْعَدَهُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ الصَّمَدِ مُؤَدِّبِ أَوْلادِ الرَّشِيدِ، فَقَالَ سِرَاجٌ لِلشَّافِعِيِّ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ! هَؤُلاءِ أَوْلادُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ مُؤَدِّبُهُمْ، فَلَوْ أَوْصَيْتَهُ بِهِمْ، فَأَقْبَلَ الشَّافِعِيُّ عَلَى أَبِي عَبْدِ الصَّمَدِ، فَقَالَ لَهُ: «لِيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَبْدَأُ بِهِ مِنْ إِصْلاحِ أَوْلادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِصْلاحُ نَفْسِكَ، فَإِنَّ أَعْيُنَهُمْ مَعْقُودَةٌ بِعَيْنِكَ، فَالْحَسَنُ عِنْدَهُمْ مَا تَسْتَحْسِنُهُ وَالْقَبِيحُ عِنْدَهُمْ مَا تَرَكْتَهُ، عَلِّمْهُمْ كِتَابَ اللَّهِ، وَلا تُكْرِهْهُمْ عَلَيْهِ فَيَمَلُّوهُ، وَلا تَتْرُكْهُمْ مِنْهُ فَيَهْجُرُوهُ، ثُمَّ

رَوِّهِمْ مِنَ الشِّعْرِ أَعَفَّهُ، وَمِنَ الْحَدِيثِ أَشْرَفَهُ، وَلا تُخْرِجَنَّهُمْ مِنْ عِلْمٍ إِلَى غَيْرِهِ حَتَّى يُحْكِمُوهُ، فَإِنَّ ازْدِحَامَ الْكَلامِ فِي السَّمْعِ مَضِلَّةٌ لِلْفَهْمِ»[(١)].

الوسيلة السادسة: إتقان الطفل اللغة العربية؛ لأنها مفتاح العلوم؛ قال أبو الحسن الماوردي: «فإذا بلغ مبلغ التأديب والتعليم فالوجه أن يبدأ -في هذه الملة خاصة- بتعليم العربية القرآن مع اللغة العربية، لأنها اللغة التي أنزل الله بها كتابه وخاطب بها في شرائع دينه وفرائض ملته، وبها بلغ رسول الله ﷺ سنته، وبها أُلفت الكتب الدينية والحكمية والجدية والهزلية، وبها تكتب رسائلهم والصكوك التي جعلها الله وثائق بينهم فلابد للناشيء فيه هذه الملة من تعلمها وإلا كان جاهلا بالدين منقوصا في الملل»[(٢)].

الوسيلة السابعة: ربط الطفل بالمسجد ودروس العلم فيه، يقول الشيخ أنور الكشميري: «قلنا إن المسجد الذي خرَّج أطفال الصحابة والسلف الصالح قادر على أن يخرج أمثالهم إذا وجَّه الآباء والأمهات أطفالهم نحو المسجد ترغيبا لا تنفيرا، وتحبيبا لا تقبيحا، وتشجيعا لا تخذيلا»[(٣)].

الوسيلة الثامنة: المكتبة المنزلية الصوتية والمقروءة في المنزل: وقد رأيت من هذه الوسيلة أثرا عظيما في تربية أولادي ذكورا وإناثا، سواء

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأحمد بن عبدالله الأصفهاني، دار الفكر، مصر، ١٤١٦هـ (١٩٩٦م)، ص: ٩/ ١٤٧.

(٢) نصيحة الملوك لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، ت: ٤٥٠ هـ، مكتبة الفلاح، الكويت، ، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م)، ١٦٩.

(٣) فيض الباري على شرح صحيح البخاري للشيخ أنور الكشميري: ١/ ٢٣٠.

أكان ذلك في الشغف بالقراءة من بعضهم، أم من حب اقتناء الكتب والإقبال على القراءة، والانتفاع بها في سلوكهم.

الوسيلة التاسعة: ثم أنهت المؤلفة هذه الوسائل بأن نحكي على أطفالنا قصص من سبقهم من الأطفال الذين أصبحوا علماء ومخترعين وأعلاما في شتى الميادين، وهو ما امتلأت فيه صفحات هذا الكتاب، وللأم أن تختار منها ما تشاء، وتحكيها على أطفالها بأسلوب سهل ميسر وشيق"[1].

---

(١) انظر تفصيل هذه الوسائل التسع في كتاب: نساء صنعن علماء لأم إسراء بنت عرفة بيومي: ٢٣٦- ٢٥٤.

٦٨

لمسات أمّ توقظ قلبا وتصنع مستقبلا

قال أحدهم: زرتُ رجلا في السبعين من عمره، في إحدى الدول العربية، رزقه الله جمال الطلة، وحسن الحديث، وعمق التجربة، وديانة وسمتا.

سألته ما سر صفاء روحك وسرعة دمعتك؟

قال: كنت في شبابي أقرب للضياع، لا صلاة ولا عبادة، ولا طاعة، وأكبر همي الشهوات والملذات!! وظللت على ذلك سنين عدة.

ثم مرضت أمِّي فزرتها في بيتها، وأنا في كامل زينتي، أشمخ بأنفي، رافعا رأسي، وسيجارتي بيدي، ودلفتُ غرفتها فاقتربتُ منها وقبلتُها واعتذرتُ من تقصيري في زيارتها، وأنا أجلس بجانبها وكلي غرور وكبرياء.

لم تلتفت إلى وجهي ولا إلى كلماتي.. هدَّها الإعياء والمرض، سقطت دمعات حارة من عينيها..

ولكنها أخذت تلمس يدي وتتحسسها! وظلت على هذا فترة من الوقت وأنا في حيرة من تصرفها هذا!! ثم قالت لي بعدها كلمة كانت سببا في هدايتي وتحطيم صنم الشهوات في نفسي، حتى لكأني أشعر به يتهاوى من داخل جسدي الذي أنهكته الأهواء والشهوات!

قلتُ له: وماذا قالت الوالدة الغالية؟

قال: قالت لي: مش حرام أن تحرق النار هذه اليد الحلوة الناعمة، متى ترجع لربنا وتتوب؟

فانهرت فجأة، وفقدت أعصابي، وجثوت على ركبتي..

وانخرطت في نوبة من البكاء والصياح وأنا بين يدي أمي، أبكي كالطفل، ذهب الغرور والكبرياء الذي تلبسني الشيطان به، وأنا ـ حينها ـ في الأربعين من عمري، وعاهدت ربي على الرجوع إلى بابه ومحرابه.

ومن ذلك الوقت وتلك التوبة وأنا في سعادة وعافية ومال وقصور، يزيد يوما بعد يوم، أبذله على نفسي وأهلي وأصدقائي، وللفقراء وأصحاب الحاجات منه نصيب كبير..

كل ذلك بفضل الله ثم بكلمة قالتها والدتي: مش حرام أن تحرق النار هذه اليد الحلوة الناعمة؟

كم كلمة حبسناها في خواطرنا عن أحبابنا؛ تحسسا زائدا أن تجرح مشاعرهم، كان يمكن أن تكون الكلمة التي تغير مجرى حياتهم، وتنهض بهممهم إلى معالي الأمور.

٦٩

ماتت الأم العظيمة، وبقيت حية في ابنها

كانت أم سعيد[١] امرأة متميزة في مجتمعها، قبل أن تكون أم فنان وإعلامي مشهور، فقد كانت امرأة مثقفة، منهومة بقراءة الكتب، ولها مكتبة كبيرة في بيتها، كانت تقرأ مثلا لـ: سلامة موسى، وبرناردشو، ونجيب محفوظ، وغيرهم، وكانت تداوم على قراءة مجلة (العربي) الكويتية، ومجلة (اللسان العربي) التي كانت تصدر شهريا في شكل كتاب عن (مكتب) التعريب في المغرب، لدرجة أنها كانت تجمع الأعداد وتضعها في الرفوف حسب الترتيب، ثم تجلدها مجموعات لكي تثري بها مكتبتها.

وعلى ذكر (اللسان العربي) فقد كان ابناها الصغيران محمد وسعيد يلعبان أحيانا بهذه الكتب والمجلات فتجد بعض الأعداد ناقصة وليست في مكانها فتأتي إلى محمد قائلة بغضب: أين اللسان العربي؟ فلا يجد جوابا يحتجُّ به فتضربه، ثم تذهب إلى سعيد فتسأله نفس السؤال وبنفس الغضب: أين اللسان العربي؟ فيُخرِجُ لسانه ثم يقول لها: هذا هو، فتقول له بغضب غَلَبَ عليه الضحك: ليس عن هذا أسألك، فيرد

---

(١) مقالة كتبها سلمان بن الداعية سعيد الزياني صاحب القصة وبمراجعة منه، موقع صيد الفوائد.

عليها قائلا: والله إنه لعربي وليس بأعجمي، فتضحك من قوله ولا تضربه، فيحتج محمد: لماذا ضربتني ولم تضربيه؟ فتقول: هو يعرف كيف يرد ويضحكني ويُذهب غضبي، وأنت لا تعرف كيف ترد.

كذلك مما كان يميز أم سعيد، أنها كانت تُجيد رياضة (الكاراتيه) حتى وصلت إلى الحزام البُنِّي والذي بعده مباشرة الحزام الأسود. ومرت الأيام والسنون، وأصبح ابنها سعيد من مشاهير الإعلام، ثم استقام ابنها محمد وتاب إلى الله وأثَّر في والدته التي التزمت بدين الله، وحوَّلت اهتمامها بالقراءة إلى دراسة الكتب الإسلامية والتفقه في دين الله تعالى، فحفظت نصيبا من كتاب الله تعالى لدرجة أنها كانت أحيانا تقرأ في قيام الليل بسورة البقرة في ركعة واحدة عن ظهر قلب. ثم أصبحت داعية إلى الله فهدى الله على يديها العشرات من النساء إذا لم أقل المئات، فكانت لها حلقة أسبوعية في بيتها تحدث فيها النساء وتعلمهن مما علمها الله، وكان دائما لديها في بيتها الفائض من لباس الحشمة (الجلباب الفضفاض والحجاب)، فكلما دخلت بيتَها امرأة (متبرجة) خرجت متحجبة تائبة إلى الله. ولكن الهمَّ الذي لازمها وجعلها متواصلةَ الأحزان لا تفتر عن الدعاء والبكاء، هو ابنها سعيد الذي لم يكن قد تاب بعدُ إلى الله. فبعد محاولات منها لإقناعه بالتوبة دون جدوى، سافرت هي وابنها محمد مع رفقة صالحة إلى البقاع المقدسة، لتأدية فريضة الحج، فكانت في جميع المواطن في الذهاب والعودة وأثناء تأدية المناسك وبالأخص في عرفات تدعو بحُرقة وحزن وبكاء: يا رب: ابني سعيد، يا رب ابني سعيد، اللهم اهده واجعله داعيا إلى دينك. كانت تدعو بإلحاح وباستمرار، حتى تأثر النساء اللواتي كُنَّ معها في الرفقة.

كانت تسأل الله أن يكون ابنها داعيا إلى الله في الوقت الذي كان فيه متهاونا في الصلاة بل تاركا لها، وهكذا ينبغي للأمهات أن يسألن الله لأولادهم أعلى الدرجات والتوفيقَ لصالح الأعمالِ والأقوالِ وأحسنِها، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

مباشرة بعد عودة أم سعيد من الحج، بدأت تتغير أحوال ابنها سعيد، إلى أن تاب إلى الله، وتفرغ لطلب العلم والدعوة إلى الله، استجابة لدعوة والدته، بعد أن كان تاركا للصلاة، ولم يكن يحفظ شيئا من كتاب الله، ففتح الله عليه بحفظ نصيب من القرآن والتفقه في دين الله تعالى، وجعل الله الأثر في دعوته.

وبعد أن أقر الله عين أم سعيد بهداية أبنائها، واستجاب لدعائها، ابتلاها بمرض السرطان في الثدي، فامتنعت أن تذهب إلى الطبيب، بحجة أنها لا تقبل أن يكشف عليها رجل، إلى أن تفاحل المرض وأُدخلت المستشفى، وأُجريت لها عمليةُ بَتْرِ الثدي.

عَادَ سعيد والدتَه الصابرةَ المُحتسبة، والتي أثَّرت بِصبْرِها واحتسابها في كثير من الأطباء والممرضات، وكذلك بدعوتها إلى الله حيث تحجبت كثير من الممرضات اللواتي قُمْنَ بتمريضها، وهذا يذكرنا أيضا بأم الدكتور محمد السلوم التي شهدت لها إحدى الممرضات الأوربيات بأنه: «لم تأت مريضة بخلق أفضل منها طوال خدمتها»[1].

(١) أمي مدرستي للدكتور محمد السلومي: ٣٢.

التقى سعيد بالطبيب الذي أجرى لوالدته العملية، وكان طبيبا ملتزما بدين الله وصديقا لسعيد، فسأله عن حال أمه، فقال له الطبيب: لقد تأخرت والدتك كثيرا قبل أن تأتينا، مما جعل الداء يتسرب إلى الجسم كلِّه، ونحن فعلنا ما نستطيع، لقد تتبعت الداء عند تقطيع الثدي إلى أن وصلت إلى ظهرها، هذا الذي استطعت فعله [والله المستعان]. فسأله سعيد عن نسبة الأمل في أن تعيش؟ فقال له الطبيب: لا أُخفيك -وأنت مؤمن بقضاء الله وقدره- أن الأمل قليل جدا وهو بنسبة اثنين في المائة، ولكن الأمل في الله كبير.

أم سعيد التي كانت تحمد الله على كل حال، راضية بقضاء الله، كان لها أمل في الشفاء، فقالت لابنها سعيد: خذني إلى مكة حتى أسأل الله هناك الشفاء، وأشرَبَ من زمزم وأدعوَ ربي وأسألَه الشفاء، فإن رسول الله ﷺ قال: (ماء زمزم لِمَا شُرِبَ لَهُ)[1]. أخذ سعيد أمه إلى مكة مع زوجته وابنته وابنه وكانت زوجته حاملا.

وَصَلُوا مكة المكرمة في أواخر شهر شعبان، قضوا رمضان كاملا في مكة، يشهدون صلاة التراويح في الحرم، وسعيد يدفع العربة التي كانت تركبها والدته، حيث إنها كانت لا تستطيع أن تقوم على رجليها، وزوجته تتعب من الحمل الذي أثر في صحتها، مما كان يُذَكِّرُ سعيد بين الفينة والأخرى -وبالأخص عندما كان يشعر بالتعب- بأمه التي حملته وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ، مما كان يزيده قوة ونشاطا في خدمة والدته، التي

(١) رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٠١٨)، وصححه الألباني.

مهما فعل لن يستطيع أن يرد لها الجميل. خلال المدة كلِّها كانت أم سعيد تدعو بالبكاء الشديد والتضرع والافتقار والانكسار بأن يشفيها الله من هذا المرض الذي عجز عنه البشر، وكانت تدعو موقنة بالاستجابة.

وبعد انقضاء شهر رمضان بدأ يظهر تحسن على صحة أم سعيد، فَجِيءَ بها إلى مكة وهي تركب العربة، ورجعت تمشي على رجليها وقد شفاها الله، لدرجة أنه لم يبق أثر للمرض، وكأنه لم يكن بها شيء، وما ذلك على الله بعزيز، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

استمرت على هذه الحال وهي في صحة جيدة قرابة إحدى عشرة سنة، وقد نذرت ما تبقَّى لها من عمرها في طاعة الله تعالى والدعوة إلى دينه. وبما أنها رأت استجابة دعائها في هداية ابنها ثم في شفائها، بدأت تطمع في أعلى درجات الجنة، فأصبح دعاؤها «اللهم إني أسألك شهادة في سبيلك وميتة في بلدِ رسولك». كانت تقول هذا الكلام وهي في مدينة الرباط بالمغرب وتبعد عن مكة بحوالي سبعة آلاف كيل!! ولكن الله على كل شيء قدير، وهو القائل في الحديث القدسي الذي يرويه عنه النبي ﷺ: «أنا عند ظن عبدي بي»[1]. وبعد مرور شهور قليلة يأتي الخبر إلى سعيد وهو في قطر، بأن والدته مريضة وستدخل إلى المستشفى كي تُجرى لها عملية جراحية، سافر إليها بمجرد سماعه للخبر، فوجدها في المستشفى وهي على فراشها تدعو إلى الله وتُذكِّر كل

(١) أخرجه البخاري (٩/ ١٤٥) ح (٧٥٠٥).

من يعودها أو يشرف على تمريضها، تذكرهم بالله، مما جعل الكثير من المرضات والمريضات يلبسن الحجاب ويَتُبْنَ إلى الله.

بعد ذلك قالت لابنها: يا بني إني أرى أن الأجل قد اقترب، خذني إلى مكة حتى أموت فيها. فقال لها ابنها: يا والدتي، مكة ليس فيها فقط الموت، بل فيها زمزم وفيها الشفاء واستجابة الدعاء. فقالت له نعم، فيها استجابة الدعاء وقد دعوت ربي كي أموت وأدفن فيها، فخذني إلى مكة. وبتوفيق الله تعالى أخذ سعيد والدته إلى مكة برفقة أخته التي كانت طول الوقت في خدمة أمها، وبقيت في مكة حتى حجَّت، واشتد مرضها فأحست بدنو الأجل، فقالت: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، سألتُ الله أن أموت في مكة فاستجاب لي، ما أحلاها من ميتة!!.

ولم تكن تعلم عندما طلبت الوقوف في ذلك المكان أنه بعد ثلاثة أيام سيوضع جثمانها لكي يُصَلَّى عليها بالضبط في نفس المكان الذي وقفت فيه، وكان آخر كلامها من الدنيا: (لا إله إلا الله).

ماتت الأم العظيمة، وبقي أثرها في ابنها، حيث كانت أول خطبة خطبها الشيخ سعيد بعد وفاة والدته، في افتتاح مسجد جديد بالشارقة، وهو مسجد (المغفرة) في شهر محرم ١٤٢٣ه، أبريل / نيسان ٢٠٠٢م، وقبل أن يرتقي المنبر للخطبة، استحضر أنه أول مرة سيخطب الجمعة ووالدته ميتة، وكان يطلب منها في مثل هذا الموضع أن يعينه الله وأن يجعل الأثر في كلامه، فقال في نفسه: ماتت التي كانت تدعو لي ثم فاضت عيناه، ثم تذكر أن الذي كان يستجيب لدعائها حيٌّ لا يموت،

وتذكر قول أبي بكر رضي الله عنه عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»، فدعا الله قائلا: اللهم إني أتوسل إليك بِبِرِّي لوالدتي أن تفتح عليَّ ما يُرضيك عني، فكانت أول خطبة يبكي فيها الشيخ سعيد من بدايتها، بل أبكى المشاهدين الذين تابعوا الخطبة عن طريق القنوات الفضائية، حيث نُقلت مباشرة على قناة الشارقة وأعادت بثها قنوات أخرى، وأبكى كل الحاضرين في المسجد بما فيهم حاكم الشارقة الشيخ الدكتور سلطان القاسمي الذي عُرف بِرِقَّةِ القلب، والذي قال ذات مرة للشيخ صالح بن حميد إمام وخطيب المسجد الحرام عندما كان في زيارة للشارقة، قال له الشيخ سلطان: الشيخ سعيد، كلما دعا أبكاني. وعلى ذكر الشيخ صالح بن حميد، فإنه كان يتابع باهتمام بالغ أخبار أم سعيد خلال فترة مرضها، وكذلك الشيخ عبد الرحمن السديس إمام وخطيب المسجد الحرام، بالإضافة إلى أن أول من عزى الشيخ سعيد في والدته، هو الشيخ سعود الشريم، حيث كان ذلك مباشرة بعد صلاة الصبح التي توفيت أم سعيد في آخرها.

٧٠

علاقة عميقة بين الأم والولد

هنا أحاول الولوج إلى ذاكرة كاتبين مبدعين أحدهما أب للآخر، هما الأستاذ أحمد المغلوث الكاتب والرسام العالمي المعروف، وابنه الدكتور عبد الله الذي عرف بإعلامياته الملهمة، فأما الأب فقد صارحني بأن استثماره في هذه الحياة كان في أولاده، فبذل لهم ما جمعه من أموال؛ لاستكمال دراستهم، وتلبية احتياجهم، وكان الأهم هو ما بثه فيهم من همة عالية، وتشجيع لا حدود له لرسم المستقبل الوضيء بمهارة دقيقة، وتخطيط سليم. لكن الأستاذ أحمد توقف فجأة وأخذ في منحى آخر، هو الثناء المتدفق على زوجته التي يرى أنها هي التي تستحق الثناء والتخليد، لما صنعته مع أولاده، فخرَّجت له فيصلا وماجدا وقد نالا الماجستير، وأسماء وهي محررة في جريدة الرياض، وحصلت على درجة الماجستير من جامعة بلومسبرغ ببنسلفانيا الأمريكية في تخصص (تقنية التعليم) بدرجة امتياز. وأما الدكتور عبدالله فهو علم من أعلام الكتابة الرشيقة المؤثرة، وإعلاميات التواصل الاجتماعي، وخلال كتابة هذه السطور أصبح المتحدث الإعلامي لوزارة الثقافة والإعلام السعودية (١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م)، هذا هو النتاج الحقيقي الذي يفخر به الإنسان دنيا وأخرى، إذا حسنت النية وصح العمل.

إن السر وراء كثير من النجاح في التأثير الوالدي تلك العلاقة الرقيقة الجميلة التي تربط بين الأم والولد، التي عبر عنها الدكتور عبد

الله المغلوث في مقالته الجميلة: (يا حبيبتي) التي حشد فيها عددا من المواقف التي استمع إليها من زملائه، ثم توجه بقوله: «في أحيان كثيرة، لا تحتاج أمي وأمك إلى أشياء كبيرة. تحتاج إلى كلمة صغيرة نودعها في آذانهن وصدورهن لتضيء ببهجة مثل: أحبك، أو تناديها: يا حياتي ويا عمري. لا تخدعك التجاعيد، التي تطفو على يد أمك. ففي داخلها طفل صغير يستيقظ إذا دللتها ودلعتها»[1].

لكنه في الحقيقة طبقها في موقف غاية في الرقة والنجاح والتأثير، وبثه في مقالة تستحق أن نقرأها بجدارة، بعنوان: (فستان أمي) قال فيه: «نسيتُ قبل نحو عامين، وأنا أقل والدتي إلى حفل زواج ابن عمي أن أعبر لها عن إعجابي بفستانها، الذي راق لي تصميمه وألوانه. حزنت لأنني لم أفشِ مشاعري تجاه فستانها الجميل. لكن في اليوم التالي حاولت التكفير عن ذنبي، وإخماد وخزات تأنيب الضمير برسالة نصية موجزة، بعثتها إلى هاتفها. قلت فيها:

«أمي، نسيتُ أمس أن أقول لكِ إن فستانك كان جميلا تصميما وألوانا. دمتِ لامعة كجوهرة».

شعرتُ بسعادة كبيرة جدا عندما بعثت الرسالة. أحسست أنني ظفرت بنبأ سعيد. لكن في الواقع إن السعادة الحقيقية لم تأت بعد. لقد أمطرتني أمي **جوهرة** بعدة رسائل نصية جوابية. شكرتني كثيرا على الرسالة، والأجمل أنها روت لي قصة هذا الفستان بمتعة: من أين حصلت على قماشه؟ ومن أين قطفت تصميمه؟ وكيف فاوضت

---

(١) مقالة، يا حبيبتي، جريدة الاقتصادية، د.عبدالله المغلوث.

الخياط ليقوم بتطريزه؟ عشت معها رحلة هذا الفستان منذ أن كان بذرة حتى أصبح ثمرة.

آمنت حقا بعد ردة فعل أمي على انطباعي المتأخر، ألا أقلل من أهمية أثر أي انطباع أسكبه، وألا أستهين بأي فعل حتى لو كان صغيرا، فربما كان خلفه عمل كبير، والدليل فستان أمي. لقد كنت أعتقد أنها عثرت عليه أثناء جولة تسويقية تقليدية، لكن الأمر كان مختلفا»[١].

وصدق والده الأستاذ أحمد المغلوث حين قال: «الأم، وما أروع أن نردد هذه الكلمة (أمي).. نعم، الأم التي كرمها الإسلام هذا المعين والينبوع الذي لا ينبض من الحب والحنان والاهتمام والخوف، والتي خلقها الله عز وجل لتكون زوجا وأمًا. وبها وبتربيتها تفخر الأمم، ومن خلال نجاح أبنائها ونكرانها لذاتها تتقدم الأمم وترتقي وتسمو،... ويكفي الأم كل أم شرفًا أن الله سبحانه وتعالى ذكرها في كتابه (القرآن الكريم) فيما يزيد على ٣٠ موضعا، ويكفيها شرفًا أن تتعهد بالأمومة والتربية منذ تفتح البويضة داخل أحشائها، إلى أن يولد المولود ويكبر ويصبح عضوا فاعلا في مجتمعه؛ رجلًا كان أو امرأة، وكم أم ترملت وفي أوضاع صعبة وظروف قاسية وراحت تعمل وتكد وتواصل التعب ليل نهار في سبيل الحصول على لقمة عيش شريفة من أجل أن تربي أبناءها وبناتها».

ويدلل الأستاذ أحمد المغلوث على ما يقول من خلال معارفه من الأمهات الباذلات، فيقول: «وفي ذاكرتي من الماضي صور عديدة

---

(١) فستان أمي، مقالة، د.عبدالله المغلوث، جريدة الوطن.

ومشاهد قمة في العطاء والبذل والإيثار. أعرف أمًّا فاضلة كانت على قدر كبير جدا من الجمال وترملت وهي شابة ولديها عدة أطفال وبنات، وتقدم لها عدد من الخاطبين، بعضهم في مستوى عمرها، شباب وغير متزوجين. بل بعضهم يعدُّ من الأثرياء في مدينتي، ولكنها رفضتهم جميعا للتفرغ لتربية أبنائها وبناتها، رغم ظروفها الصعبة، وبحكم أنها كانت تجيد الخياطة فكانت تواصل الليل بالنهار في خياطة فساتين النساء وفتيات المدينة، وكم واصلت العمل وهي مريضة أو تعبة جدا لتسلم فستانا... في الموعد المحدد. وكان ينطبق عليها قول من قال: «**يد تعمل ويد تطبخ وتربي**»، ونجح أولادها وبناتها وتخرج جميعهم من الجامعات والكليات بعضهم يحمل درجة الدكتوراه..! أمثال هذه الأم المثالية كثير في مجتمعنا.

آلاف الأمهات أنكرن أنفسهن في سبيل تربية الأبناء والبنات والعناية بهم ونجحن في مهماتهن.. وكم سيدة فاضلة حملت بضاعتها مما تيسر لها أن تقتنيه من بساتين ونخيل جيرانها ثم تقوم ببيعه مباشرة على البيوت، أو التجول به أمام بيتها أو في زاوية من (الطريق) وهناك من تذهب به إلى الأسواق الشعبية. مئات من النساء في المدن والقرى يعملن في أعمال يدوية وحرفية في سعف الخوص وتشكيله وتحويله إلى منتجات خوصيه تراثية وتقليدية أروع. ولو ذهب أحدنا إلى أسواق ومجمعات المدن الكبرى لوجد شقائق الرجال وهن يمارسن عملهن الشريف بكل حيوية ونشاط بهدف توفير دخل مناسب للصرف على أنفسهن وأولادهن وبناتهن.. وكم نجح من هؤلاء الأولاد والبنات، وتفوقوا في دراساتهم وحتى في وظائفهم، بل بعضهم وصل لمراكز عليا بفضل الله ثم بفضل

عطاء أمهاتهن اللواتي كنا دائما مثاليات إلى أبعد الحدود».

ثم يدعو الكاتب إلى تكريم نماذج من الأمهات المضحيات في التربية فيقول: «ولو تم اختيار سيدة من كل منطقة ومحافظة في بلادنا تميزن بأنهن قمن بتربية أولادهن وبناتهن تربية صالحة، سواء أكنَّ أرامل أم حتى متزوجات أم مطلقات، ونجحن في رسالتهن العظيمة في التربية، فسوف يكون لهذا التكريم المادي والمعنوي أثره الفاعل في نفوس كل الأمهات؛ ليواصلن نجاحهن ويحققن تميزا وحضورا كما فعلت اللواتي حظين بالتكريم والتقدير من قبل الوطن.. كم هو جميل أن نحسس كلَّ أم بأننا لا ننساها، وأننا نقدرها جميعا قيادةً ووطنا ومواطنين. ويختم بقوله: نحن هنا لم نأتِ بجديد؛ فالإسلام بل خالقنا كرم المرأة فهل نفعل ونأمل ذلك..؟!»[1]

(١) كرموا أمهاتنا المثاليات سنويا، مقالة، د.عبدالله المغلوث، الجزيرة، الخميس، العدد: ١٦١٧٧، ١٢/١/٢٠١٧م.

٧١

نصيف ومريم الصديقة

من منا لا يعرف معالي الدكتور **عبد الله بن عمر نصيف**؟! عالم الجيلوجيا، وأستاذ الجامعة، بل ومدير جامعة الملك عبد العزيز بجدة، ونائب رئيس مجلس الشورى، ونائب رئيس لجنة الحوار الوطني السعودي، وأمين عام رابطة العالم الإسلامي، ورئيس مجلس هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية، ورئيس مؤتمر العالم الإسلامي، والأمين العام للمجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة، ورئيس الاتحاد العالمي للكشاف المسلم، ورئيس مؤسسة عبد الله عمر نصيف الخيرية، الحاصل على جائزة الملك فيصل العالمية، وجائزة صانع السلام العربي.

عَلَمٌ شّامخ عرف بعزّة نفسه، وسمو طبعه، ورقّة تعامله، وأدب لسانه، وكبير جهده، وعلو همّته، مع ترفّع عمّا يخدش المروءة، وابتعاد عمّا يشين المسيرة.

فمن أين استقى هذه الفضائل؟ وفي أي منبت حسن نشأ؟

لا عجب أن تجتمع هذه الصّفات في رجل خُلقت أمشاجه من بيتين نبيلين، هما بيت آل نصيف في جدّة، وبيت شرف الدّين في بومباي، فكان من ثمرة تصاهر هاتين الأسرتين العريقتين باقتران عمر سليل البيت الأوّل، مع **مريم الصّدّيقة** درة البيت الثّاني، ميلاد هذا الإنسان الكبير ضمن أربعة أشقّاء أفذاذ، إضافة إلى شقيقة مباركة فاضلة نجيبة.

أية أم تلك التي لم تكن حبيسة دارها، ولا مربية لأولادها فقط، بل كانت شمسا منيرة، أضاء الله بها عقول وقلوب من شاء من بنات جنسها.

لقد حظي علمنا منذ طفولته المبكرة بتربية منزليّة راقية، فتح عينيه على قدوة كبرى، كان همها تبليغ رسالة ربها بكل وسيلة جميلة ولطيفة، إنها والدته مريم الصديقة، فإذا به يصبح أحد جنودها، ومن أقرب أعضاء فريق عملها، فراح يركض -معها- في خدمتها للدّعوة إلى الله تعالى، ونشر العلم، وتعليم القرآن، وافتتاح المدارس، ومقاومة البدع والخرافات، وإبطال السّحر والشعوذة، وإحياء الفضائل والمكرمات، وتعزيز شعبة الحياء.

كانت ترضعه الورد القرآني يوميا؛ حتى كان يختم -معها- القرآن شهريًا، وفيما بعد اصطحب أولاده معه كي تعلّمهم جدّتهم التّجويد وتصحّح تلاوتهم.

وكان خادمًا مطيعًا لجدّه العالم الوجيه، ووكيله في استقبال الوفود بالميناء، وصاحبه في حضور المجالس التي يعمرها أقطاب العلم والدّعوة والأدب، ومرافقه لمجالسة الملوك والزّعماء، فكأنّ ذلكم الطّفل الصّغير، والشّاب الغضّ يُصنع بفضل الله، ويهيئ لمستقبل عظيم آت بقدر الله تعالى.

يقول عنه معالي الشّيخ عبدالله بن بيّه سمات د. نصيف بقوله: تزداد انجذابًا له كلّما اقتربت منه، ويزيد حبه بكثرة مخالطته.

تبدأ قصّة (**مريم الصديقة**) تلك المرأة المؤمنة من بومباي في الهند، حين ولدت للشّيخ الكتبي شرف الدين ابنة أسماها مريم الصّديقة،

لتنضم إلى هذا البيت مع إخوانها المشايخ عبدالحكيم وخليل وعبدالصّمد، وأختيها الفاضلتين أمة الله وفاطمة، فتعيش في دار مآثر وكنوز، تحيط بها الكتب، ويحفّ بها العلم، ويغشاها الفضلاء، وتدار في جنباتها شؤون الدّعوة والوعي والارتقاء بالمجتمع.

ويشاء الله أن تنتقل من ديارها إلى الحجاز الشّريف، لتغدو فردًا ضمن بيت سامق من أكبر بيوتات جدّة، حينما اصطفاها الشّيخ الوجيه محمّد نصيف زوجة لابنه عمر، العائد للتّو من الدّراسة بمصر، فاقترن الزّوجان المباركان في شراكة مثمرة متناسقة، حيث عاشا في بيئة علم وكتب وكرم ووعي وتعليم، ولا عجب بعد ذلك من سمو الإنتاج، وروعة المسيرة.

وعندما أصبحت الصّديقة عضوًا في هذا البيت الشّامخ، شرعت من فورها بتعليم النّساء حولها القراءة والكتابة، متجاوزة جدر بيت نصيف العامر، إلى مجتمع جدّة وما حوله من قرى، فرفعت لواء الدّعوة إلى تنقية العقائد من التّعلق بالتّمائم والحرز، وربطت القلوب بالله العلي القدير، ثمّ انطلقت من تعليم العقيدة إلى نشر العلوم الدّينيّة والدّنيويّة، فافتتحت أوّل مدرسة للبنات عام ١٣٧٥هـ قبل أن يصبح تعليم المرأة نظاميًا، وغشت البيوت لتقنع الأهالي بإرسال بناتهم إلى المدرسة النّصيفيّة، واجتهدت في تصحيح المفاهيم المغلوطة عن تعليم البنات، وسعت لإطلاق أعمال قرآنية نسائية، فما أعظم بركتها، وما أسعدها بثواب خيرات جدّة الكثيرة المتعاقبة في مجتمع عقائلها الرّاقي النّافع.

ولم تهمل صدّيقة منزلها مع أنّها صنعت هذه الأعمال التي يصعب تصوّر انفراد امرأة واحدة بها، فكانت زوجًا صالحة لعمر، ووالدة ومعلّمة لعبدالله وإخوانه، وقدوة حاضرة لابنتها فاطمة حيث كانت رفيقتها منذ طفولتها، فأبصرت بعينيها دعوة والدتها، وتعليمها، وصبرها، واحتسابها، وليس غريبًا أن تصبح د.فاطمة نصيف رمزًا علميًا ودعويًا، وتجعل أطروحاتها للماجستير والدّكتوراه تدور في فلك الاحتساب والدّعوة والتّعليم، وليس **كثيرًا أن يقال بأنّ د.عبدالله نصيف وإخوانه الأفاضل عبدالرّحمن وعبدالعزيز ومحمّد هم من ثمار والدتهم تربية وتعليمًا وعملا.**

وكان لأم عبدالله برنامج غذائي منضبط، وممارسة رياضيّة منزليّة في غاية الحشمة والسّتر، ومن لطف هذه المرأة المحسنة كسبها لوداد الأطفال، فيعرفون رضاها من غضبها دون أن تخسر العلاقة معهم، ومن جهودها نشر الكتب؛ سواء بالتّأليف، أو دفع تكاليف الطّباعة، وبذلك حازت فضل استمرار العمل بإذن الله، فلديها أولاد صالحون يدعون لها، وعلم ينتفع به، وصدقات جارية، مع لسان صدق خالد، وذلك فضل الله.

وحين أراد الله قبضها إليه؛ اختار أن يكون آخر عهدها بالأعمال موافاة موسم الحج الميمون عام ١٤٠٢، وبعد قفولها إلى دار كريمتها في جدّة، فاضت روحها وهي على سجادة صلاتها بعد أدائها صلاة الفجر وأذكار الصّباح وصلاة الضّحى.

إنّ د. عبدالله بن عمر نصيف رجل من مجتمعنا، وليس عسيرًا أن

تحرص كلّ أسرة على صناعة أنجالها، وتسعى لتهيئة أجيالها، ليكون منهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، بهم يفخر العلم، والعمل، ولأجلهم يزهو الزّمان، والمكان، ومعهم تتعاظم المنافع، وتشرق الأرض، وإليهم تنتسب التّنمية والإنجاز، فهذا أقلّ واجب المجتمع والدولة على الأسر والبيوت، ليكون فينا وبيننا ألوف أمثال نصيف[1].

(١) كل الحديث عن د.عبدالله نصيف وأمه من مقالتين: نصيف، وتلك الدار الآخرة، مدونة أحمد بن عبد المحسن العسَّاف -الرِّياض، الثّلاثاء ٢٥ من من شهرِ ، شهرِ ربيع الآخر عام ١٤٤٠، ٠١ من شهر يناير عام ٢٠١٩ م. وصدّيقة من نساء عصرنا!، مدونة أحمد بن عبد المحسن العسَّاف، الأربعاء ١٣ من شهرِربيع الأوّل عام ١٤٤٠، ٢١ من شهر نوفمبر عام ٢٠١٨ م.

٧٢

أيتها الأم الحنون ..

أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض، هكذا حفظنا من الحكيم قولته، ورويناها جيلا بعد جيل، ولكن السؤال الذي يجب أن تطرحه كل أم على نفسها هو: هل حرصها على حماية أولادها يساوي حرصها على كبدها؟

كلُّ أم الآن تقول: يا بعد كبدي وروحي، نعم والله وأكثر، فإني قد أتأخر في علاج كبدي من مرض يلمُّ بها لا قدر الله، ولكني أبدا لا أتأخر عن علاج أحد من أولادي ذكرا كان أم أنثى.

فأعود أسألها: هل حرصها على علاج ولدها من الأمراض التي تصيب بدنه يساوي حرصها على علاجه من الأمراض التي تصيب روحه وأخلاقه ودينه؟

لا تجيبي.. فإني رأيت بعض الأولياء يجيبون سؤالي هذا بصراحة الواقع أن لا..

هل بكيتِ حين أخَّر ولدك الصلاة عن وقتها.. فضلا عن أن يكون قد ضيعها؟!

هل غضبت لله تعالى حين وجدتِ ولدكِ يرتكب منكرا كالنظر إلى الحرام؟

هل قلقتِ حين وجدتِ ابنتكِ تخرج إلى السوق وحدها بكثرة؟

المفترض أن يكون ذلك، ولكن بعض الأمهات لا تفعل ..

ولكنها سوف تذرف الدموع سجاما إذا أخفق ولدها في اختبار ما..

وسوف تغضب أشد الغضب إذا رأت الولد قد ضُرِبَ من أحد الناس، ولو كان الضاربُ أستاذَه يؤدبه، وسوف تقضمُ أصابع القلق حين تلم بالولد الحمى أو مرض لم تعرف أسبابه.

إن هذا الذي نطق به الواقع، وجبن عنه اللسان، من عدم التوازن في التعامل مع الأولاد ذكورا وإناثا هو الذي أورد كثيرا من الناس موارد الهلكة وسوء العاقبة في تربية أولادهم.

أيتها الأم الحنون.. ليس الحنان على ولدك أن تبذلي أسباب وقايته من أمراض الجسد فقط، ولا هو أن تحرصي على مستقبله في الدنيا وحسب، بل إن الحنان الحقيقي هو الذي يجعلكِ تبذلين كل الأسباب لوقايته من أمراض الروح والقلب، ومن نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى، أن تحرصي على مستقبله الحقيقي يوم القيامة، ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٦-١٠٨]. هناك الشقاء الحقيقي، وهناك السعادة الحقيقية، وتكتمل السعادة حين يجتمع الشمل في الجنة بعد شتات الدنيا، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور: ٢١].

اللهم اجعلنا ممن جمعت شمله بأحبابه في ظل عرشك وعلى منابر جنتك.

إن الأم الناجحة المحبة لأولادها تعرف ما يقرأون وما يكتبون، وتعرف هواياتهم التي اختاروها لأنفسهم، أو ما وجَّهتْهم هي أو أبوهم إليها، ونمَّتها فيهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون، وتعرف رفاقهم الذين يلازمونهم، أو يقضون معهم معظم الأوقات، وتعرف الأماكن التي يرتادها أولادها في أوقات الفراغ، تعرف هذا كله دون أن يتحسسوا من رقابتها عليهم، فإذا ما وجَدَتْ انحرافًا منهم في مطالعة، أو هواية، أو تعلقا برفيق سوء، أو ارتيادا لأماكن مشبوهة، أو اعتيادا لبعض العادات الضارة كالتدخين، أو العكوف على الألعاب الضارة، أو أو المحتوية على أمور محرمة، مما يقتل الوقت، ويهدر الطاقة، ويعوِّد الناشئ على الفراغ واللهو والتفاهة، إذا ما آنست الأم شيئًا من ذلك في أولادها، ردتهم إلى الجادة برفق وحكمة وحزم، وسددتهم إلى الصواب بلباقة وإقناع وجِدّ.

ذلك أن «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[(١)].

(الحبُّ) معنى عظيم، وهو في التربية أساس، إذا فُقد فُقدت كثير من فرص التربية السليمة من الاضطرابات والتداعيات المفسدة لنتائجها.

(١) رواه البخاري(٢/ ١٠٠)ح(١٣٨٥) ومسلم (٤/ ٢٠٤٧) ح(٢٦٥٨).

يقول الدكتور سبوك (خبير التربية): «غريب أمر الحب في هذه الحياة، فلا أحد يشبع منه، وكل من يحصل عليه يشع بدفئه وصفاته على من حوله، ولكنَّ هناك وجها سلبيا للحب، إنه التسلط. فعندما يكون أحد الزوجين متسلطا فهو يفرض جبروته على الطرف الآخر فيعتقد كل قرين أن الطرف الآخر يحب الأطفال أكثر منه، وكثيرا ما نسمع كلمة قاتلة للحب في نفوس الأولاد الكلمة التي تأتي على لسان المرأة -مثلًا- فتقول: إنني أعيش مع زوجي الديكتاتور من أجل الأطفال، إن الأطفال قد لا يسمعون هذه العبارة من أمهم، ولكنها تنتشر بسرعة في العلاقة بين الأولاد من جهة، وبين الأب والأم من جهة ثانية. إن الأطفال يبدون في تلك الحالة رحلة من الانتقام والضجيج والالتواء، والسلوك المزعج، وكذلك يسبب الأطفال ذلك الضجيج، وينشأ فيهم ذلك الالتواء عندما يقول الأب كلمات مثل: إني أتحمل الحياة مع هذه المرأة من أجل الأطفال!!!

إن الأبناء يحبون أن يعيش الأب و الأم معا في حالة حب وأن تستمر العلاقة بينهما قوية ومتينة كما يفضلون أن تكون علاقتهم بالكبار قوية ومتينة، ويتخوفون من أن تتحول كراهية أحد الزوجين للآخر إلى ثقل على أكتافهم، وعندما تكون العلاقة مشحونة بالتنافر بين الزوج والزوجة، فلنا أن نتوقع أطفالا غير مبالين بالصداقة مع غيرهم، وأن نتوقع كبارا ينظرون إلى العالم نظرة عدم الثقة، وأن نرى ألوانا من السلوك تثير الخصومة والتنافر، وأن نرى أشخاصا يتميزون بالبخل أو المكر، وأن نسمع في عيادات الطب النفسي عن آلام هؤلاء وعن اشتهاء كل منهم إلى حد الجنون أن يحب أحدا وأن يجد من يحبه، وهكذا

نجد أن الطفل الصغير يختبيء عمليا داخل الجسد الكبير. نعم فكل منا يحمل طفولته داخله، وهذا الطفل الصغير يسعى إلى نيل الحب، وكل طفل يجب أن يكون محبوبا ومحبا، وإلا فإن الطفل سيلجأ إلى إزعاج من حوله لتنبيههم لحاجته إلى الحب، وجرس الإنذار بضرورة الحب يدق عندما يأتي الأب المرهق من عمله، ويتجه إلى سرير الطفل ذي الستة أسابيع ليناديه فيبتسم له، وعندما يبلغ الطفل الشهر الخامس من عمره فيرى السعادة على ملامح الوليد من مجرد مخاطبته، وكلما كبر الأطفال زادت العوامل التي تؤثر على منح الحب وتلقيه»[1].

ثم أيتها الأم / الزوجة، إن الحب تضحية، وبدون تضحية يصبح الحب لا قيمة له، وأغلى الناس عندك أسرتك، وإذا كان من حقك ومن حق زوجك أن لكلٍّ منكما طموحه العلميّ والمهنيّ، فقد تقتضي مصلحة الأبناء أن تُضَحّيا ببعض الطموح من أجلهم، وهذه مسألة تقدَّر بقدرها، ويجب أن تتناقشا سويّا فيما يجب، وقد تتَّفقان على أن تترك أنت عملًا إضافيّا أو ترفضه من البداية - على ما قد يكون في هذا من خسارةٍ ماديَّة - إيثارًا لمصلحة الأولاد، وقد ترفض عرضًا للسفر للعمل أو الدراسة إن كان في هذا مصلحتهم، وقد تؤجِّلين اختباراتك حتى ينتهي الأولاد من اختباراتهم، أو ترفضين عملا خارج مدينتك من أجل راحة أولادك في مدارسهم وبالقرب من بيئتهم، وأيّ مستجدٍّ في حياتكما يجب أن يناقش من منطلق الأولويَّات ومصلحة الأولاد.

وتأكَّدي بأن أيَّكما يشعر بتضحية الآخر فسيُضحِّي هو أكثر،

---

(١) تربية الأبناء في الزمن الصعب للدكتور سبوك: ٧١- ٧٣.

وسيكون عطاؤه وإيثاره بغير حدود.

إن فجوة خطيرة بين الوالدين وأولادهم قد تحدث حين لا يراعون تلك القضية، بينما لو أنهما حاولا أن يقتربا منهم بأحسن ما يحبونه، وهو طابع الحب والمرح لقطعا معهم مراحل من القرب والامتزاج النفسي. ولجعلا أطفالها أكثر حبا لهما وتأثرا بهما.

تقول نيفين عبد الله صلاح: «إننا لو استطعنا أن نلبس الحياة من حولنا ثوبًا مرحا لاستطعنا أن نجعل الأطفال في حالة من الإقبال الإيجابي عليها؛ فالأطفال يحبون المرح والفكاهة في كل ما يتصل بهم، فهم لا يستمتعون إلا بكل ما كان المرح وجهًا له من حركة ولمحة ولفتة وكلمة وتعليق. هكذا هم الأطفال بروحهم الصافية، فعلينا أن نعرف ذلك وندركه ليسهل علينا إيصال رسائلنا الجادة إليهم، ولكن بعد صياغتها وفق ما يحبون ويعشقون». وهناك كلمة حكيمة تقول: «إنك لتَنفذُ إلى الناس بخفة الظل أسرع بكثير مما تستطيعه برجاحة العقل» فكيف بأولادك حبات قلبك؟!.

إن القلب يتعلق أول ما يتعلق بالروح المرحة المنطلقة المحبة المقبلة على الحياة، وإذا كان هذا شأن الكبار الذين يُعملون عقولهم ليزنوا الأمور، فما بالنا بالطفل الذي لم يدرك -بعدُ- سوى كل ما يتعلق بالقلب؟ ونلمح ذلك في كل موقف مع الطفل، فإنه يقبلُ على الوجه المبتسم، ويلتفت للمناغاة ويرد تحية الكبار المبتسمين بأحسن منها. بينما يخاف من المتجهمين، وينفر ممن يصرخ به ويهدده.

يجب علينا ألا نصد الأطفال عن حب الحياة بعبوسنا المستمر، بل علينا أن نضاحكهم نتفادى التصادم المستمر معهم، ونمرح ونضحك معهم، فهذه هي قاعدة الحب الأولى التي ننطلق منها لنقيم علاقة حب حية وقوية مع أطفالنا، تلك العلاقة التي نمنحها مناخًا مهيئًا ليسمع طفلنا منا ويتمثل صفاتنا وإذا كان لكل إنسان مدخل ومفتاح، فهذا هو المدخل الأساس للطفل. بل إن ذلك يمنحنا نحن شيئا من الراحة من أعباء الحياة، حتى لتجد أن طفلك يجذبك جذبًا نحو طفولته حتى لتتمنى أن تعود طفلا.

إن هذا يحتاج منا صبرا وجهدا ومعرفة ورغبة صادقة حقيقية إيجابية في إقامة علاقة حميمة مع هذا الطفل الحبيب، علاقة صداقة متكافئة ندبر لها المواقف المرحة التي تجمعنا بطفلنا ونؤلف لها الحوارات المختلفة لنصل لروحه الجميلة الغضة. فنشاركهم أحاديثهم العذبة بلغتهم ومفرداتهم، علينا أن نلعب معهم ونندمج في هذا اللعب لحد الضحك الصافي من قلوبنا، لا ضحك تمثيل ومجاملة؛ فهم على درجة عالية من الحساسية التي يستطيعون معها التمييز بين الحقيقي والمزيف من المشاعر والأفعال.

ليس المطلوب أن نبرهن على حبنا لهم بل علينا أن نعرف كيف نحبهم كيف نجعلهم يدركون عمق هذا الحب ويثقون به؛ ليقتنعوا حقًا بأننا أصدقاء. وبعد هذه الصداقة بل في طياتها وفي رحلتها تكون كل الرسائل التربوية التي نريد إرسالها فيكون استقبالها جيدًا لها.

إن المسلم الصادق لا يملك إزاء الهدي النبوي العالي في التعامل مع الأولاد أن يكون متجهمًا في وجوه أولاده، جافًا في معاملتهم، فظًا في مخاطبتهم، حتى ولو كان في طبعه جفاء، وفي خلقه جفاف وكزازة؛ ذلك أن هذا الدين بما جاء به من هدى منير، يرقق القلب، ويفجر ينابيع الحنان، ويذكي أوار الحب، كيف والأولاد قطعٌ من القلب تسعى على الأرض.

أبناؤنا في الغد هم ثمار ما نزرعه اليوم، وكلما اهتممنا بما نزرعه داخلهم اليوم وهم في أول الطريق بالتأكيد سيظل داخلهم ينمو معهم ويكوّنُ شخصياتِهم.. إذا أعطيناهم حبًا واهتمامًا حقيقيًا ووقتًا ستكون النتيجة في النهاية مبهجة.. فقط حاولي ولا تستسلمي لما يفرضه عليكِ الواقع الشخصي والظروف الخاصة التي تعيشينها، أو ما تفرضينه على نفسك من ظروف تعوق دون تحقيق ذلك التواصل بينك وبين أبنائك؛ **لأن قليلا من الوقت والحب ـ ولكن بشكل دائم ومستمر – لهما كثير من التأثير على أطفالك وأحبائك.**

يقول الله جل في علاه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

٧٣

الطفــل الــرادار

لقد ذهلت حقا حينما قرأت نتيجة إحدى الدراسات:

من الميلاد حتى سبع سنوات يكون قد تم ٩٠٪ من برمجة الإنسان، وأقصد بالبرمجة أي اكتساب اللغة والسلوك والأخلاق والدين، ومن ٧ سنوات حتى ١٨ سنة تكتمل البرمجة بمقدار ١٠٠٪.

إن معنى ذلك أن الطفل رادار يرصد كل ما يدور حوله فإن كانت الأم صادقة أمينة خلوقة،كريمة، شجاعة، عفيفة، نشأ ابنها على هذه الأخلاق الحميدة والعكس نجده إذا كانت الأم تتسم بسمات عكس السمات السابقة، كأن تكون كاذبة جبانة غير خلوقة ينشأ الطفل على الكذب والخيانة والتحلل والجبن، وكذلك الأب، وإن كان الطفل يتأثر بحوالي ٨٥٪ من سلوك أمه. لأن الطفل مهما كان استعداده طيبا ومهما كانت فطرته نقية طاهرة سليمة صافية فإنه ما لم يوجه التوجه السليم وما لم يجد القدوة والنموذج الموجِّه الصالح، فقد ينحرف إلى الجانب السلبي من جانب شخصيته، وصدق رسول الهدى عليه الصلاة والسلام الذي لا ينطق عن الهوى عندما قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[1].

وينشــأُ ناشــيءُ الفتيــانِ فينا
علـى مـا كـانَ عــوَّدَهُ أبــوه

---

(١) رواه البخاري(٢/ ١٠٠)ح(١٣٨٥) ومسلم (٤/ ٢٠٤٧) ح(٢٦٥٨).

وما دانَ الفتـى بحجًى ولـكنْ
يُعـــــوِّدُهُ التَّـديـنَ أقـربـــوه

إذا حُرم صغيرك من التعبير عن الحنان والحب في هذه المرحلة من النمو قد يتعرض لنوع من عدم الاطمئنان ويصبح أكثر عدوانية مع الآخرين.

حول الدور الخطير للأسرة في بذر بذور العدوان والعنف لدى الصغار أشارت د.إجلال حلمي -أستاذ الاجتماع بجامعة عين شمس- إلى أن «ثمة عوامل عديدة تسهم في بذر وتنمية السلوك العنيف أو العدواني لدى الصغار منها:

- الاستعداد الشخصي لدى الطفل والذي تبدو ملامحه في أسلوب التعامل مع اللعب والأقران، والطفل الذي يميل إلى العدوانية بطبعه نادر جدا.
- الأسرة ذاتها التي قد تكرس هذه الميول العدوانية نتيجة انتهاج سياسة العقاب البدني لأتفه الأسباب، والتي قد تبالغ في هذا العقاب بحيث لا يتناسب مع حجم الخطأ، ولا تترك مساحة للتسامح أو العفو أو التفاهم مع طفلها حول أسباب هذا السلوك ومبرراته.

كذلك فإن العنف بين الزوجين والذي قد يصل إلى السباب أو الضرب أو تبادل الألفاظ غير اللائقة، أو الشجار الدائم والصوت العالي ينعكس على الأولاد، فيتصورون أن هذا هو السلوك العادي، فيتخذون منه وسيلة لتحقيق أهدافهم على مستوى الأسرة والمجتمع.

إن الأولاد الأصحاء نفسيا هم الذين يعيشون في منزل عامر بالحب

والوئام، وإن أي شجار يقع بين الزوجين أو أية مشادة كلامية أو يدوية تترك أسوأ الأثر على نفوس أولادهما، فإن لكل من الأبوين مكانة خاصة في نفوسهم، فإذا اختلفا وقع الصراع في نفوسهم، وركبهم همٌّ لا تقدرُ نفوسهم الغضة على تحمله، وربما يبدأون في أخذ موقف من أحد الأبوين بأنه ظالم أو شرير بسبب ما يسمعون منه من شتائم تجاه الآخر، أو تعدٍّ باليد عليه، وهنا يبدأ البغض الخفي الذي قد تكون آثاره خطيرة كالهروب أو الحقد أو التخريب أو نشوء العدوانية في النفس، مما يجعلهم، مُسُوخًا ضعيفة مهترئة، تحمل من العقد النفسية ونقاط الضعف السلبية ما يعرقل خطاهم ويوقف مسيرتهم في المستقبل لا قدر الله.

كما أن أي تجاهل من الوالدين لأولادهم، وإشعارهم بعدم حبهم لقربهم منهم في الجلوس أو الحديث معهم أو مصاحبتهم في ذهابهم ومجيئهم، يجعلهم يحسون بأنهم هامشيون في حياة البيت، ولا قيمة لهم، فيذهبون للبحث عمن يعطيهم قيمة ولو كانت خسيسة أو حقيرة في نظر المجتمع.. المهم أن يجدوا ذواتهم في أي شيء.

أضف إلى ذلك أن حرص الأسرة على تعليم أبنائها قد يدفعها إلى عدم التسامح معهم لأي تقصير في الدراسة، مما يخلق لدى الطفل نوعًا من الحقد والكراهية ضد التعليم والمدرسة بل والمدرسين ذاتهم ويوجه عدوانه وعنفه تجاههم. وأذكر هنا أن أحد الأطفال كان يرغمه أبوه على المذاكرة بعنف، ويلوح له بالعصا الغليظة، وبالحرمان من مزايا عديدة، وبتخجيله أمام الناس، ولا يقوم بتحفيزه أبدا، فظل الطفل يحفظ دروسه ثم يفشل في إجاباته في الاختبار، وعندما ذهب به إلى المختصين أشاروا على الأب أن يغير من أسلوبه معه، فتخطى الطالب

كل سنواته الدراسية، وعندما أصبح مدرسا كان من أشرس الأساتذة في تعامله مع طلابه.

بينما «ابتسم (سي يو جوا) **الشاب السنغافوري ذو الـ١٣** ربيعا حينما سُئِل عن كيفية ردة فعل والديه إذا ما حصل على نتيجة اختبار متدنية، وقال: أهلي ليسوا صارمين ولكن لديهم توقعات عالية مني، لا بد لي من التفوق بنحوٍ جيّد في دراستي، هذا ما يتوقعونه مني»[١].

وتؤكد د. إجلال أن الشاب أو الطفل الذي ينشأ في أسرة يسودها جو التوتر والعنف في العلاقة يميل إلى سلوك العنف عند الكبر.

وتقرر د. إجلال أن على الأسرة أن تبث في صغارها القيم الدينية التي تدور حول معاني التسامح والحب بين أفراد الأسرة والرضا والقناعة بما هو متاح، وتربيتهم على قاعدة ﴿**ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٤].

أما الإعلام فمطلوب منه وضع خطة مدروسة للمواد المقدمة للطفل تراعي طفولته واحتياجاته النفسية في هذه المرحلة، وتستغل ارتفاع ملكة التقليد لديه فتقدم له المادة التي ترسخ فيه القيم التربوية الإيجابية، ولا تعتمد فقط على عنصري الإبهار والعنف كما هو حاصل مع أفلام الكرتون ومعظمها مستورد.

ويؤكد د. سعيد إسماعيل -أستاذ أصول التربية بجامعة عين

---

(١) موقع مركز البيان للدراسات والتخطيط على الشابكة.

شمس- أن بعض الأسر تنهج في تربية أطفالها نهجًا يقوم على القهر والكبت فيغلب عليهم دائمًا المنع والحرمان والإجبار، ويريدونهم كما يحب الكبار فقط بغض النظر عن استعدادات الصغار وقدراتهم وميولهم، ولا شك أن التربية بهذا الأسلوب تجعل الطفل يحاول التعويض عن ذلك الحرمان والقهر في صورة عدوان وعنف يوجهه إلى الآخرين، وحيث لا يستطيع أن يرد على أبويه أو يواجههما بشكل مباشر فإنه يوجه هذا العنف إلى مدرسته، ومدرسيه وأقرانه وزملائه وإلى كل رموز السلطة في أي مجال.

ويذكر لي الدكتور عادل السكري -أستاذ علم النفس في جامعة الإمام- أن رجلا كان يحلم كثيرا أنه يقتل أباه، فكان يفزع من هذا الحلم المتكرر، فلما جلس معه الطبيب النفسي علم بأن أباه كان يقسو عليه كثيرا في صغره، ولأنه لا يستطيع -بالطبع- أن ينتقم لنفسه بقيت في عالم اللاوعي تخرج على شكل انتقام بالقتل.

وقد يلجأ أحد الوالدين إلى تحريض أبنائهم على عدم الإصغاء لنصائح الطرف الآخر أو تشويه صورته، أو الإساءة إليه، مما يؤدي إلى عدم احترام الأبناء لهما، أو اتخاذهما نموذجًا يُحتذى به في سلوكهم. وقد نجد أبناءهما يتهربون من لقائهما، ويتسربون خارج الأسرة، ويبحثون عن بيئة أخرى، لا تسأل ما هي؟! ربما تكون بيئة مدخنين، أو مخدرات، أو عصابات سرقة، أو أي شيء آخر؟! فيكون إسهام هذه الأسرة بتخريج أحد أفرادها مجرما يقض مضاجع المجتمع ويقلق راحته الأمنية؟!

ولا شك أن طريقة التعامل مع الولد لها أهمية كبرى في استقامة الولد أو جنوحه، إن الأبوين يستطيعان عن طريق الترغيب مرة والترهيب أخرى: أن يصلا إلى ما يريدان من تقويم ما اعوج من سلوك أولادهما، فإن الضرب –ولاسيما في مرحلة المراهقة– قد يدفع إلى نشوز الولد أو فجوره في وجه والديه أو خروجه من المألوف في السلوك، وقد يعمد الشاب أو الشابة إلى هجر البيت والخروج عنه فيصبح متشردًا فتصبح القضية أشد تعقيدًا ولا سيما ونحن في زمن قد تحول بعض معاصريه إلى ثعالٍ مفترسة خبيثة، تنتظر الضحايا البريئة. فماذا لو وقع الفتى أو الفتاة في يد عصابات الجريمة أو السرقة أو الانحراف الفكري أو الدعارة إن خسارة كهذه لا توازيها خسارة على الإطلاق.

ومن جهة أخرى نجد بعض الأسر تختلف على من تقع عليه المسؤولية، فالأم تتهم الأب بالتقصير وتفضيل الأصحاب والسهر في الاستراحات والسفر للخارج على البيت، والأب يتهمها بالإهمال في بيتها والخروج الكثير للصديقات والتسوق والمكالمات والعكوف على وسائل التواصل لمدد طويلة، والضحية هم الأولاد!!

إنَّ التربية مهمَّةٌ مشتركةٌ بين الأب والأم، ولا يصحُّ ولا يجوز أن نوجِّه جُلَّ اهتمامنا للتشاحن حول من يقوم بهذه المهمَّة العظيمة، فلن يستطيع أيٌّ من الطرفين أن يقوم بها على الوجه الأكمل بمفرده، فتعاون الطرفين لازمٌ وضروريّ. وليكن لهما سويّا جلساتٌ يتَّفقان فيها على استراتيجيَّة التربية، ويمكنهما –الطرفين– الاستعانة بالكتب والدورات التربويَّة أو برأي الخبراء

٧٤

كانت أمي تقرأ لي .. وأنت؟

«قد يكون لديك ثروة واضحة غير محدودة، علب مجوهرات، وصناديق من ذهب، إلا أنك لن تكون أبدا أغنى مني، فقد كان لدي أم تقرأ لي» (**سرتكالند جيلليان**).

هذا الرجل المبدع المؤثر لم يفخر بشيء مثل (أمٍّ) كانت تقرأ له، أنت كذلك تستطيعين أن تصنعي من ابنك إنسانا عظيما:

وهذه مجموعة من بنود الخطة المثلى لهذه الصناعة:

١- حددي معه هدفا لحياته؛ يعيش من أجل تحقيقه؛ وكلما سما الهدف سمت وسائله؛ ففرق بين من يكون هدفه تزكية نفسه وإسعادها دنيا وآخرة، والرقي بها في مدارج العلم في أي اختصاص من اختصاصاته النافعة، وحمل رسالة الإسلام إلى الإنسانية جمعاء، وحماية الدين والأمة والوطن الغالي، وبين من يكون هدفه لا يتعدى أخس الغايات الدنيئة، فمن عاش لذلك عرف الطريق إليه بأجل الأعمال، ومن عاش لهذا فقد رضي بالنقيصة لنفسه، وعاش في الحضيض.

٢- ضعي معه خطة مناسبة لسنه؛ لتحقيق أهدافه العالية، وتابعي معه تنفيذها بدقة.

٣- نشطي ذكاءه العاطفي؛ فإن نجاح الإنسان وسعادته في الحياة

يتوقفان على مهارات لا علاقة لها بشهاداته وتحصيله العلمي، ولا على ذكائه العقلي فحسب، وتتمثل تلك المهارات في ضبط النفس، والحماسة، والمثابرة، والقدرة على حفز النفس، وأن تستجيب استجابة إيجابية ملائمة للحالات النفسية والمزاجية، والميول والرغبات الخاصة به وبالآخرين. ويعبر عن قدرته على التعامل مع عواطفه بحيث يحقق أكبر قدر ممكن من السعادة لنفسه وللآخرين.

٤- أثني عليه باستمرار؛ فإن حب الثناء طبيعة الإنسان، ومعزز قوي لأي سلوك؛ اجعليه بديلا عن الحديث عن أخطائه وعيوبه.

٥- لا تكثري عليه العتاب؛ لأن ذلك يهون عليه سماع الملامة، فإن كثرة التوبيخ تهتك حجاب الهيبة، وتضعف الشخصية، وتربك الثقة في النفس.

إذا تكرر منه الخطأ فكل ولد وما يصلحه: فمن أصلحته نظرة العتاب لا تصرح بعتابه. ومن أصلحه العتاب لا توبخه، ومن أصلحه التوبيخ لا تحرمه هديته، ومن أصلحه الحرمان من هدية لا تهجره، ومن أصلحه الهجر لا تضربه، ولا تلجأ للضرب غير المبرح إلا مضطرًا فآخر العلاج الكي. ولعل من أجمل الأمثلة ذلك الموقف الرائع الذي ترك أثرا دائما في نفس الكاتب المبدع: **علي الفيفي**، «إلى التي قالت لي ذات ليلة -وأنا في السابعة من عمري- هل صليت العشاء؟ فقلت لها كاذبا: نعم! فنظرت إلي نظرة شك، وقالت: قل ما شئت.. ولكنه قد رآك، فأفزعتني: (قد رآك) هذه.. وجعلتني أنهض لأصلي.. رغم ادعائي الكاذب! إلى أمي»[(١)].

(١) لأنك لله، علي الفيفي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ط: ١، ص: ٥.

نعم، قد لا تحتاج الأم أن تقول كلاما كثيرا التترك أثرا عظيما ومستمرا..

٦- أعطيه حرية الاختيار؛ لتربيه على الاستقلالية والاعتماد على النفس بعد التوكل على الله تعالى.

٧- دربيه على مهارات تأكيد الذات، والتعبير عن المشاعر والمواقف، وأساليب التعامل مع الآخرين، والتعرف عليهم، وطرق حل المشكلات، ومهارات اتخاذ القرار.

٨- ألحقيه بحلق القرآن والذكر والعلم، ولا تقبلي أن يضيع وقته فيما لا ينفع.

٩- أحيطيه برفقة صالحة؛ ألمعية الذكاء، طموحة القلوب، صالحة السريرة.

١٠- تحدثي مع ولدك -دائما- حتى تتعرفي على أفكاره؛ فقد يتسرب إليه فكر منحرف، من انحلال أو شبهة أو شهوة أو علاقة مشبوهة أو غلو، وحاوريه بكل أريحية وعلم وثقة؛ حتى يتربى على الوسطية في المنهج والتفكير والسلوك؛ فإن ترك فكرة ما دون نقاش، يتركها تنمو كما هي، ويصعب بعد ذلك زلزلة الاقتناع بها.

١١- دربي ولدك على الدعوة إلى الله، وعلميه فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالتي هي أحسن؛ حتى يحبه، ويحسن العمل به بدرجاته الثلاث (اليد واللسان والقلب)، دون تجاوز لولايات غيره؛ حتى يكون مصلحا على علم وبصيرة.

وهنا أستحضر معك قصة أم هندية عاشت مع زوجها المحب للعمل الاجتماعي والخيري واسمه: (عبد الكريم نايك)، أنجبا ابنا نجيبا ذكيا، فتربى في محضنهما الكريم، ونبت نباتا حسنا، وتخصص في الطب، ولما استوى على سوقه، كان يتساءل عن أي العملين أجدى بحياته: الطب الذي هو رأس الهرم الوظيفي الإنساني؛ حيث إنقاذ حياة الإنسان، أم الدعوة التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، ليتحول من طبيب للجسد إلى طبيب للروح؛ كما يحب أن يعبر، بينما كان هناك مثالان أنموذجان (حيان) أمامه: الأول طبيب واسمه: (كريستيان برنارد)[1] أول جراح زرع القلب في جنوب أفريقيا، والآخر الداعية الشهير: (أحمد ديدات)[2]، فقال لأمه مرة: ماذا تريدين أن أصبح؛ مثل الدكتور كريستيان برنارد أم مثل الداعية أحمد ديدات؟ فأجابته: أريدك أن تكون مثل الاثنين، كم أن إجابة أبيه لهذا السؤال بأن يمنح كلا من الاتجاهين نصف وقته، لكنه بدأ يميل بقوة إلى الدعوة إلى الله تعالى، متمنيا أن يمنحها كل وقته وصرح بذلك لوالده؛ معجبا بالداعية أحمد ديدات الذي كان يعده مجددا، ومُلهِمًا، وأنه حقق نجاحا مبهرا في دحض المزاعم التي كان النصارى يتهمون بها القرآن الكريم ورسول الإسلام محمدا ﷺ.

أعاد السؤال إلى أمه مرة أخرى بعد سنوات: ماذا تريدين أن

(١) ولد عام ١٩٢٢ م، وتوفي سنة ٢٠٠١ م (اليوكيبيديا العربية).
(٢) ولد عام ١٩١٨ م، وتوفي سنة ٢٠٠٥ م (اليوكيبيديا العربية).

أصبح؛ مثل الدكتور كريستيان برنارد أم مثل الداعية أحمد ديدات؟ فكانت الإجابة مختلفة تماما عن الإجابة الأولى؛ **قالت له: «سأضحي بألف دكتور مثل الدكتور كريستيان برنارد مقابل أن تكون مثل أحمد ديدات»**، فكان (**الدكتور ذاكر نايك**) أحد أكبر المناظرين المسلمين في تاريخ المسلمين وفي العالم أجمع، ومن أجمل دعواته التي يرددها بحرارة: **أرجو الله تعالى أن يأجر والديَّ على تشجيعهم لي على الدعوة وعلى سماحهم لي باختيار الدعوة على الطب**[1].

١٢- دعي له فرصة للعب بقدر محدود من الوقت؛ على أن تكون كل لعبة لها هدف واضح في ذهنك؛ لتسهم في تنمية ذكائه وشخصيته.

١٣- شجعيه على طرح الأسئلة، وأجيبيها بكل أريحية، فهي تكشف تطلعاته، وتنمي تفكيره، وتفتح له أبواب المعرفة والاكتشافات.

١٤- ربيه على متانة الرقابة الذاتية لله تعالى في سره وجهره؛ حتى يكون ربانيا.

١٥- قصي عليه قصص العظماء والعلماء والقادة والمخترعين؛ حتى توقدي في نفسه جذوة المنافسة مع من هم مشاعل الأرض وقممها؛ لتعف نفسه عن ملاحقة أخبار الساقطين والساقطات.

١٦- كوني أنموذجا له في الهدوء والاستقرار النفسي؛ فإن تصرفاتك تنتقل إليه، ومن ذلك الصراخ والحركة المفرطة والألفاظ.

---

(١) ذكر هذه القصة في لقائه التلفازي مع الدكتور حسن الحسيني في برنامج (سّر) على شاشة قناة المجد في رمضان عام ١٤٣٨هـ.

١٧- كوني وسطا بين التدليل والقسوة، واحذري الإهمال. وخير الأمهات المحبة الحازمة.

١٨- أشركيه في أعمال الخير العامة، وشجعي هواياته ماديا ومعنويا؛ على قدر طاقته لرفع الروح المعنوية.

١٩- امنحيه فرصا كبيرة؛ كالحديث بعد الصلاة في المسجد، أو ضيافة ضيوف كبار، أو التخطيط لرحلة عائلية، أو إدارة جلسة حوارية.

٢٠- اربطيه بالقراءة فإنها مفتاح العلوم والفنون والإبداع؛ واجعليها وجبته اليومية المميزة؛ ودربيه على الكتابة الإبداعية منذ الصغر؛ شعرا أو قصة أو مقالة أو خطبة. يقول «آلدوس هكسلي»: «إن من يعرف كيف يقرأ تصبح لديه القدرة على تحقيق ذاته، والرُّقي بنفسه ومضاعفة أساليب حياته، وإدراك أسباب وجوده، بجانب أن ذلك يجعل أيامه مليئة وثرّية وشائقة، وجديرة بأن تُعاش»(١).

٢١- احميه من أفلام الرعب والجنس، ومسلسلات السوء، وأغاني العهر والفجور، ونقِّي أجواء البيت من المعاصي والمنكرات، وربيه على بغضها.

٢٢- راعي نفسيته الخاصة؛ ولا تظني بأن أولادك سواء؛ يقول الإمام ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم وفضله: «تبقى حال الطفل ماثلة أمام المربي حين تربيته كما تتجلى حال المريض أمام الطبيب

---

(١) تنمية ثقافة الطفل،لعبد التواب يوسف، دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٢م، ط: ١، ص: ٧٠.

حين معالجته: يراعي حالته ومقدرته ومزاجه فيكون أثر التربية أتم وأعظم ثمرة».

٢٣- إذا كنت تشعرين بالخجل والارتباك الشديد عندما يخطئ طفلك أمام الآخرين أثناء تعلمه مهارة ما وتزجرينه أمامهم، فاعلمي أن ذلك بداية النهاية لقدرات طفلك ومواهبه؛ لأن الطفل غالبًا يتعلم عن طريق المحاولة والخطأ، والتوجيهات المستمرة الهادئة من والديه تنفعه كثيرًا في التقدم.

٢٤- إن أهمَّ وأكثر الهدايا قيمة تقدمينها لأولادك هي ما يمكن تسميته بـ«بوصلة العمل» أي المهارات والحقائق التي تساعدهم في النجاح في المدرسة والعمل، وفي اللعب واللهو، وفي الحب والرفقة والألفة الاجتماعية.

٧٥

كيف نعيد للحب عرشه المنزلي؟

الوالدان ذوب عاطفة، ودفقة حنان، وموجة رعاية وتضحية واحتضان. ولكن خشونة الحياة ومتاعبها الطويلة العريضة التي لا تكاد تنتهي تجعلنا نتوقف كثيرا عند كلمة الحب التي أبحرنا معها من قبل، نتفقدها في بيوتنا، ونطمئن على وجودها، ونسعى لابتكار الأساليب والطرق المناسبة لتنميتها معنى رقيقا جميلا في فم الأيام؛ لنعيش معهم طعم السعادة المفقود في كثير من الأسر اليوم.

وهذه بعض الأساليب العملية لاستعادة عرش الحب في المنزل:

أولا: أخبريهم أنك تحبينهم واحدا واحدا:

أقصد أن تقولي لكل واحد منهم أنا أحبك يا ولدي.. هكذا بكل صراحة.. أرجوكِ لا تقولي أتحتاج الأم أن تقول لأولادها (إني أحبك).. نعم يحتاجون، فهم لم يسمعوها منك من قبل.. فدعيهم يسمعوها.. وانظري ماذا سيحدث؟! ربما يتعجبون ويقولون ماذا حدث لأمنا اليوم ؟! وما الذي طرأ لها؟! أرأتْ حلما مزعجا عنا؟! هل أخبرها أحد بأمر ما ؟! ولكن لا تدعيهم يسبحون في خيال من هذا النوع.. بل قولي لهم: أحببت أن أقول لك ما يدور في داخلي منذ أن خلقتم في بطني، سوف تري واحدا من أولادك يحمر وجهه خجلا

ويسكت.. وثانيا يندهش وتتسع أحداقه ويتمتم بكلام لا تفهمينه، وثالثا يرد عليك بثقة.. وأنا أحبك يا والدتي.. !!

والإخبار بالمحبة كانت من سنة الرسول ﷺ، فالرسول ﷺ كان يعلن حبه لعائشة رضي الله عنها، حدَّث عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السُّلَاسِلِ، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَائِشَةُ، فَقُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ فَقَالَ: أَبُوهَا، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَعَدَّ رِجَالا[1].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَأَخْبَرْتَهُ قَالَ: لَا، قَالَ: فَأَخْبِرْهُ، قَالَ: فَلَقِيَهُ بَعْدُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ فِي اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ: أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ»[2].

ثانيا: قبليهم واحدا واحدا:

قالَ النَّبِيُّ ﷺ عن الحسنين: «هُمَا رَيْحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا»[3]، وكان كثيرا ما يشمهما ويقبلهما في مواضع كثيرة من أبدانهم شفقة وحبا. فلماذا لا تقبلين أنت أولادك؟ العجيب أن نسمع بعض الأمهات تقول: إنها لا تقبل أولادها؟! لا أدري أهذا ترجل مصطنع؟ أم جفاء؟ وإن الرجال الأشاوس هم من أرق الناس قلوبا إذا رأوا أولادهم، فكيف بالأمهات.!!

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٥) ح (٣٦٦٢) ومسلم (٤/ ١٨٥٦) ح (٢٣٨٤)
(٢) رواه أحمد في مسنده (١٩/ ٤٩٤) ح (١٢٥١٤) وإسناده صحيح.
(٣) رواه البخاري (٥/ ٢٧) ح(٣٧٥٣).

روى أبو هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قبل الحسن بن علي، فقال الأقرع بن حابس: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدًا، فقال رسول الله ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم»(١).

ثالثا: العبي معه:

إن اللعب للأطفال كالعمل للرجال في التخفيف من أعباء الضغوط النفسية، بل هو ضروري جدا لتنمية طاقاتهم، واكتشاف الحياة من حولهم، بل وتمكينهم من كسب مهارات التعامل مع الأشياء والآخرين.

ولا تقولي: إني اشتريت لهم ألعابا كثيرة جدا، وها هي ذي بين أيديهم، وبين آونة وأخرى أذهب بهم إلى أماكن الألعاب العامة.. ألا يكفيهم ذلك ؟ أقول لك: لا لا يكفيهم بالطبع، إنهم يريدونك أنت أن تلعبي معهم، صغارا كانوا أم شبابا مراهقين، ذكورا أم إناثا !

خصصي لهم يوما في الأسبوع للعب في المنزل أو في استراحة أو أي مكان مناسب، والعبي معهم وامرحي، رفهي عنهم وعن نفسك، وافرحي بهم، فإن الطفل كما قال الشاعر:

وهل دلـــلتْ لي الغوطتانِ لُبـــانةً
أحبَّ من النُّعمى وأحلى وأعـــذبا

وسيمًا من الأطفالِ لـولاهُ لم أخـفْ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٧) ح (٥٩٩٧).

على الشيبِ أن أنأى وأن أتغربا

وعندي كنوزٌ من حنانٍ ورحمةٍ
نعيمي أن يُغرى بهنَّ وينهبا

... يزفُّ لنا الأعيادَ عيدًا إذا خطا
وعيدا إذا ناغى، وعيدا إذا حبا

كزغبِ القطا لو أنه راحَ صاديا
سكبتُ له عيني وقلبي ليشربا

ينامُ على أشواقِ قلبي بمهده
حريرًا من الوشي اليماني مذهبا

وأُسدلُ أجفاني غطاءً يُظلُّه
ويا ليتها كانت أحنَّ عليه وأحدبا

ثم لماذا تفهمين اللعب بأنه لا بد من التفرغ له، مازحيه بالكلام العذب، كما سأل الرسول أحد أطفال الصحابة فقال له: «يا أبا عمير ما فعل النغير؟!»[(١)]، نبي الأمة يسأل الطفل عن عصفوره الذي مات. وهذا مَحْمُودُ بْن الرَّبِيع يتذكر طفولته فيقول: «عَقَلْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ مَجَّةً مَجَّهَا فِي وَجْهِي وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ مِنْ دَلْوٍ»[(٢)].

نعم لستِ أكرم من رسول الله ﷺ، الذي كان يمتطيه الحسنان وهو

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٣٠) ح (٦١٢٩) ومسلم (٣/ ١٦٩٢) ح (٢١٥٠).
(٢) رواه البخاري (١/ ٢٦) ح (٧٧) ومسلم (١/ ٤٥٧) ح (٣٣).

ساجد فلا يقيمهما، وقد تزوج ﷺ عائشة رضي الله عنها صغيرة فحملت معها لعبها إلى بيته، وكان لها أرجوحة، ودمى، وكان يترك صبيان الحبشة يلعبون في المسجد. ويحمل عائشة لكي تراهم من وراء حجاب.. بل كان رسول الله ﷺ يسابقها فتسبقه مرة ويسبقها مرة. وكان كذلك يلعب مع بعض الصبيان، حتى كان ليدلع لسانه للحسن بن علي، فيرى الصبي حمرة لسانه، فيهبش إليه، أي يعجبه ويسرع إليه[1].

وكان رسول الله ﷺ «يَصُفُّ عبد الله وعبيد الله وكثير بني العباس ويقول من سبق إلي فله كذا وكذا فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيلتزمهم ويقبلهم»[2].

فلماذا لا تقتدين أنت برسول الله ﷺ، فتجعلين لنفسك مع أولادك وقتا تلعبين فيه معهم، إنني أقترح عليك أن تُحضري الألعاب إلى منزلك حسب قدرتك، وأن تختاري الألعاب الأكثر حيوية ونشاطا وذكاء، وأن تتركي فرصة واقعية للعب، ولا تسرفي فيها، وأن تحذري من الألعاب الخطرة صحيا وفكريا، بل أن تخصصي -إذا استطعت- غرفة في المنزل للألعاب الرياضية، وأمثالها، ثم.. انزلي الميدان معهم، والعبي مع أطفالك في المنزل أو في الأماكن العامة المناسبة.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله: «وينبغي أن يؤذن له [أي للطفل] بعد

---

(١) رواه البغوي في شرح السنة وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ١٥٠).
(٢) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٣٣) ح (١٨٣٦) قال الهيثمي (رواه أحمد وإسناده حسن). مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٩/ ١٧).

الانصراف من الكتاب [أي من الحلقة أو المدرسة] أن يلعب لعبا جميلا يستريح إليه من تعب المكتب، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه بالتعلم دائما يميت قلبه، ويبطل ذكاءه، وينغص عليه العيش؛ حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه». وقال: «ويعوَّد الصبي في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل»[1].

إن كثيرا من الآباء والأمهات يظنون أنهم حينما يقضون مع أولادهم بعض الوقت خلال الطعام والتلفاز قد ألهى كل عين، وأصم كل أذن عن الآخر، أنهم قد منحوا الوقت الكافي لأطفالهم، الواقع أن شيئا من ذلك لم يتم، فليس المهم هو مجرد قضاء بعض الوقت مع الأطفال، ولكن الأهم هو كيفية قضائك لهذا الوقت معهم؟!! فقد يكون الأب مستهلكا في هذه اللحظات بسبب العمل المرهق، أو يكون مشدودا إلى برنامج، أو مشغولا بسلسلة من المكالمات الهاتفية، أو تكون الأم مشغولة بأعبائها المنزلية، وبهمومها الشخصية التي تذهب بذهنها مسافات بعيدة عن أولادها، وقد تكون امرأة عاملة لا تجد الوقت أو الطاقة لقضاء بعض الوقت مع أبنائها!

أولادك في انتظار لحظات خاصة بهم معك، فضميهم تحت جناحك.

يمكنك الاستفادة من مراكز التدريب، أو من المربي الخاص؛ ليعلو كعب ابنك في المهارات واللغات التي لا تجيدينها، ولا تبخلي عليه في هذه؛ فهي أولى من أكله وشربه ولبسه.. ألست تريدين أن يكون إنسانا عظيما؟

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد محمد الغزالي، ت: ٥٠٥ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت: ٣/ ٩١.

بل ألست تريدين أن يتذكرك بعد أن ترحلي عن هذه الحياة كما تذكر الكاتب **الدكتور أحمد الطويل** أمه حين قال: « آه يا أماه.. أهكذا ترحلين وتتركينا.. أي قلب بعدك سيحتويني.. أي عطف وحنان بعدك سيرويني.. أي بسمة صادقة مثل بسمتك سوف تحييني.. أحقًا رحلتِ عن دنيانا يا أماه!!

كنتِ لي ولأخوتي شعاع النهار الباسم.. ودفء الليل الحاني.. منك نستمد التوفيق بصادق دعائك.. ونصبر على مصائب الدنيا بصادق نصحك وحبك.. ونهرك الجاري الذي يتدفق عطاءً صادقًا لا يشبهه عطاء.. قصتي معك يا حبيبتي قصة حياة.. وفقدي لك فقد حياة..!!

كنت أخطئ فتصفحين.. وإذا أحسنتُ فأنت تشكرين.. كنت طفلًا بين يديك في كل مراحل حياتي وأنت لا تبخلين.. لقد ذقت طعم اليتم بعدك حتى لو جاوزت الأربعين.. وكيف لا أشعر باليتم وقد فقدت بفقدك أحلى أيام السنين.

عندما قالوا رحلت (سارة) تماسكت والقلب يعتصره الألم.. لكي أصبر إخوتي وهم لفراقها يبكون:

أُصَبِّرُ إخوتي في كلِّ جمعٍ
وفي الخلواتِ أُطلقُ مُقلتيَّا

وهذه نورة بنت عبد العزيز بن غنيم المانع من قبيلة العجمان، أم الدكتور إبراهيم بن عبدالله الغانم السماعيل أستاذ البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تقدم لنا

أنموذجا للتعامل الرقيق مع أولادها، يقول ابنها: «كانت أمي نورة -رحمها الله- في الغاية من العناية بأولادها الخمسة: (لولو، وغانم، وعلي، وإبراهيم، وصالح)، حتى لا تكاد تترك صغيرة وكبيرة إلا وفرتها لنا، وهيأتها لننعم بالعيش الآمن، ونتفرغ للدراسة، فمن ذلك أنني لا أذكر أن أمي -رحمها الله- أيقظت واحدا منا بصراخ أو عتاب، فضلا عن الضرب الذي لا يعرف إلى يديها سبيلا! بل كانت توقظنا بكل حنان ولطف مصحوبين بالدعاء»[1].

بارك الله في عمرك، وأحيا بولدك ذكرك، كما بقي ذكر أمهات هؤلاء الأعلام حية نابضة حين أحسن التربية، وأحسن الله لهن النتيجة.

(١) أمي نورة، د.إبراهيم بن عبدالله الغانم السماعيل، ط: ٢، الرياض، ١٤٣٦ هـ: ص: ٣١.

٧٦

بين الأمومة والطموح العلمي والوظيفي

محور حياة الرجل هو العمل، يُسعد به نفسه، ويحقق به وجوده الفاعل، وطموحه الممتد ما امتدت حياته، ويؤكد به قدره الاجتماعي، ويمثل البيت بالنسبة له الواجب الأساس والولاية الأولى، ولكنه يجد أنه مكفي في كثير من شؤونه بزوجته/ الأم.

بينما محور حياة المرأة هو البيت ما دامت زوجة وأما، مهما كانت وظيفتها، وهو ما يجب أن يكون، وإذا كان غير ذلك، واتخذت من العمل المحور الأول، وجعلت بيتها في مقام متأخر عنه، أضاعت مسؤوليتها، وقوضت سعادتها، وهدمت عشها بيدها.

والعلم والعمل من حقوق المرأة المكتسبة، وقد طالبت المرأة -في زمن النبوة- بحقها في التعلم منفردة عن الرجال، بخصوصية تامة، قالت النساء للنبي ﷺ: «غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك فوعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن»[(١)]، وبرزت في العهد النبوي عالمات ومفتيات. واستمر العلم في النساء المؤمنات، حتى يومنا هذا، وسجلت سير العلماء الكبار قوائم مضيئة من (الشيخات) اللاتي تعلموا على أيديهن في شتى الفنون.

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٢) ح (١٠١).

والمرأة إما أن تكون غير مرتبطة بزوج وأولاد، وليس لديها ظروف خاصة بها تجعلها في حاجة إلى ملازمة المنزل لأي سبب كان، فمن حقها ومن حق بنات جنسها عليها أن تتدرج في سلم الدرجات العلمية، وتسهم - ما استطاعت- في بناء مجتمعها ووطنها، ونشر العلم وخدمة المجتمع، بأية وظيفة كريمة تمكنها من تحقيق أهدافها دون أن تخل بخصوصيتها الأنثوية، أو تختلط بالرجال الأجانب عنها.

وإما أن تكون ذات زوج وولد، فهي تحمل وظيفتين إضافيتين هما أوجب عليها من أية وظيفة أخرى، الأولى: أداء الحقوق الزوجية وإدارة البيت من الداخل، **والأخرى**: الأمومة وصناعة الإنسان السوي الفعال، ثم لها بعد ذلك أن تتخذ أية وظيفة أخرى تسهم من خلالها مع أخواتها غير المتزوجات في تنمية الحياة وعمارة الأرض بما يرضي الله تعالى.

فأما بالنسبة للمهمة الأولى: فإني مؤمنٌ -من خلال ما رأيت وسمعت أكثر مما قرأت وتعلمت- أن قدرات النجاح في العلاقات الزوجية، والتربية الوالدية فطرية، وأن هناك من الزوجات والأمهات من وُهبن ملكة العشرة الحسنة وفهم نفسية الرجل، كما وهبن مهارات التنشئة كأنها تعلمنها وتدربن عليها، ولذلك نجحت زوجات وأمهات أُميات أن يكن وراء قامات عالية في شتى ضروب المعرفة والقيادة والإبداع، وفشلت أمهات متعلمات في الحدّ الأدنى من العشرة الحسنة والتربية القويمة.

ولكنَّ ذلك لا يعني أن الأفضل هي المرأة الأمية، بل إن المرأة المتعلمة تمتلك ما لا تمتلكه المرأة الأمية بلا شك، على أن تبقى وفية لمهمتيها الأوليين، ولا ينحو بها الطموح العلمي بعيدا عن وظيفتها

المزدوجة، وهي أن تبقى زوجة عظيمة، وأمًّا رؤوما.

كما أن العلاقات الزوجية والتربية الوالدية -كغيرها من فنون الحياة- مهارات تحتاج إلى تعلم وتدرب واكتساب، فتزيد القدرات الفطرية قوة ورسوخا، وتكتسب المرأةُ ما لم تُفطر عليه من المهارات، وبخاصة في زمن ازدادت فيه تيارات وأهواء ومغريات وصوارف ومؤثرات تأتي من خارج المنزل، وتتسم بقوة الجاذبية وعمق التأثير، فكان من الضروري جدا للمرأة أن تتعلم وتتدرب وتستعد لكل هذه المؤثرات؛ لتوظيف الجيد، وصد الرديء.

وقد أخذت آراء النساء اللاتي جمعن بين المهمات الثلاث، فوجدت أن هناك حالات كثيرة، طغى الطموح العلمي والوظيفي فيها على الواجبات الأسرية، وقد تحقق فيها المرأة طموحها، ولكن النتيجة فقدان زوج أو ضياع أولاد.

هذه إحداهن، كانت في انبساط مع زوجها، واستقرار في حياتها الزوجية، وهي موظفة مرموقة، طمحت في الحصول على درجة الماجستير مما تطلب السفر الدائم إلى منطقة أخرى غير المنطقة التي تعيش فيها، فكانت النتيجة في نهاية الدراسة زواج الزوج بامرأة لم تتجاوز المرحلة الابتدائية، في ردة فعل واضحة.

بينما اختارت سيدة أخرى أن تحقق طموحها العلمي وهي في بيئتها بما يتيسر لها، حفاظا على أولادها الذين يمرون بمرحلة المراهقة، **فلا خير في نجاح المرأة إذا كان الثمن إخفاق أولادها.**

نعم، من حق المرأة أن تكون مستقلة ماديًّا ووظيفيا، لكن بين الاستقلال المادي والتمرد على وظيفتها الأساس شعرة، كما تقول إحداهن. وتضيف: أنا أؤيد أن تكون المرأة عاملة في حالة أن تكون موازِنة بين مسؤولياتها وواجباتها وراحتها أيضا. والراحة والصحة مما تفقده كثير من النساء العاملات اليوم، حتى تقضي كل حياتها في كدح لا يمثل بالنسبة لها ضرورة.

والوعي الكامل لدى إحداهن جعلها تقول بكل اقتناع: **إن الأمومة في حد ذاتها وظيفة، فأنا بوصفي أما: لدي مشروع هو (التربية) أعمل عليه الآن لأحصد النتائج بعد عشرين عاما إن شاء الله.**

كل له أولياته التي يعمل عليها، والعاقل من يقدم الأهم على المهم، ويمكن طرح بعض الأسئلة لتحديد الأهم في هذه الخيارات التي كلها مهمة:

- هل في إكمال دراستي أو القبول بهذه الوظيفة وفي الموقع المحدد لها فائدة في المقام الأول لأسرتي؟؟
- هل له ضرر على أسرتي؟ ما مقدار الضرر؟؟
- هل هناك من يسدد عني بعض مسؤولياتي وقت غيابي ويكون مخلصا مأمونا على أولادي وبيتي؟
- كيف هي موافقة الزوج؟ هل هي على مضض، بمعنى موافقة بغير رضا، أو منعا من وقوع مشاكل لرفضه. أم موافقة مع إيجاد عوائق، أو تحميل الزوجة المسؤولية كاملة فِي حالة حصول مكروه لأحد

أولاده. أم موافقة مع إبداء عدم التعاون تماما. وهنا لا بد من وجود طرف ثالث معين لها. أم هو موافق باقتناع تام، ولديه الاستعداد للتعاون مع زوجته في تحقيق طموحاتها؟.

بل هناك سؤال كبير وصريح مع النفس: هل بالفعل أنا أرغب في تحقيق هذا الطموح لاقتناعي بجدواه، أم هو مجرد مسايرة وتقليد لمن هم حولي؟.

كل أسرة لها ظروفها وأوضاعها الخاصة بها، والمرأة الحكيمة من تراعي الأوليات وتراعي ظروفها وتوازن بين الأمور.

تقول إحدى السيدات المكافحات، التي حققت نجاحا على المستوى العلمي حتى بلغت التحضير للدكتوراه، كما حققت نجاحا لافتا على المستوى الأسري: «ليس هناك طعم نجاح في هذه الدنيا يعدل بسمة من ثغر طفل يشدو بماما».

وتضيف: «سأوقف كل طموحاتي إن تعارضت مع أسرتي ولكن سأبذل كل جهدي ألا يتصادما ... أوزع الأدوار أقدم التنازلات التي لا تعني لي شيئا ولدى بعض الناس أشياء، أرتب أولياتي وأتقرب كثيرا ممن بيده مقاليد السماوات والأرض، والحمد لله راضية كثيرا عن حياتي وأسأل الله أن أكون لديه مرضية».

٧٧

جماع الصفات في عظيمات الأمهات

من خلال تتبع سير أكثر من مئة شخصية حققت نجاحا في مجال ما من مجالات الحياة، وجدت أهم الصفات التي اشتركت فيها أمهات العظماء هي:

١- العلم:

وقد قال عبدالحميد بن باديس -رحمه الله تعالى-: «إذا علَّمت ولدا فقد علَّمت فردا، وإذا علَّمت بنتا فقد علمت أمة»، وليس شرطا أن تكون الأم عالمة، بل يكفي أن تكون واعية بمهمتها الأصلية: (الأمومة) كما ينبغي، وقد مر بنا قول الأستاذ عبدالعزيز العفالق: «وراحت والدتي رحمها الله تزرع فينا العلم؛ من خلال إلحاقي بالمطوع، والمدرسة النظامية، ومدرسة تحفيظ القرآن الكريم في الإجازات الصيفية، رغم أنها أمية، لكن ثقافتها واسعة، وكانت ذات نظرة ثاقبة ومستقبلية». وهو ما سجلناه سابقا مع أ.د. بشير الرشيدي في قوله عن أمه: «إن وعيي بذاتي، ومنذ بواكير حياتي؛ ليقدِّر كم كان أثرها في تشكيل شخصيتي، ونجاحها في تحقيق هدفها في بناء الذات بمعطيات ومقومات الصحة النفسية وعلم النفس الإيجابي، وهو ما لم يكن لها به علم أو دراية مما نعرفه أو نستخدمه غالبا من علومنا؛ تدريسا وبحثا.. بناء ابنها (بشير) بفطرتها وفطنتها. وفي صدق الأمومة الحقة. إنها ـ بحق ـ عالم نفس

صادق، وعلم نفس مُعاش بكل معايير ومحكات صدق الواقع»[1].

٢-الطموح، والإيمان بقدرات ولدها والفخر به:

ووقفنا وقفة إجلال لأم معاوية بن أبي سفيان هند بنت عتبة، وهي تقول عنه في صغره حين قيل لها: «ثكلته إن لم يسد إلا قومه»، حين سمعت من يقول: «إن عاش معاوية ساد قومه». فكان صدى ما قالت يتردد في وطيس المعـــارك، حين يبحث الابن عن عبارات القوة والحماسة لينتخي بها، فلا يجد مثل: «ابن هند ،أنا ابن هند!».

٣-الإصرار على النجاح، والصبر والمثابرة وتحدي العوائق بمعالجتها:

وكانت لنا تأملات في علاقة (توماس أديسون) بأمه حين لخصها بقوله: «إن أمي هي التي صنعتني، لأنها كانت تحترمني وتثق في، أشعرتني أني أهم شخص في الوجود، فأصبح وجودي ضروريا من أجلها وعاهدت نفسي ألا أخذلها كما لم تخذلني قط».

٤- الحنان والتعبير عن الحب:

وهو أمرٌ لا يحتاج إلى التمثيل عليه؛ لأننا لم نفتقده في جميع سير أمهات العظماء. وهو من أجلِّ أسرار الرباط الوثيق بين المربية والمتربي، ويبقى حيا متناميا ما دامت الحياة تنبض في القلبين.

(١) لعيون نورة للدكتور بشير الرشيدي: ١٥.

٥- قوة الإيمان بالله والتعلق به وحسن التوكل عليه:

وهو ما عبر عنه كثير من عظماء الإسلام في القديم والحديث، وتفننوا في وصف تعبد أمهاتهم، وتبتلهن لربهن عز وجل، مما ترك أثرا ظاهرا في سلوك الأولاد، ونجاحهم.

٦- التشجيع المعنوي والمساعدة على الوصول إلى الأهداف:

وهي صفة بل مهمة لن تخطئها في أية قصة من قصص النبوغ، وإذا افتقدتها فهي موجودة حتما، ولكن لم تجد من يرويها لنا، فإن الطفل كالنبتة، والتشجيع كالماء، والمساعدة والمساندة تمثل ما يقوم به المزارع الحاذق من تغذية، أو تشذيب، أو إسناد، أو تأبير، أو حماية من الآفات، أو جني للثمرات حين نضجها. وبدون تلك العمليات الكثيرة المصاحبة قد يذوي الزرع ويتلف الزهر وتضمر الثمرة.

٧- الدعم المادي المقنن:

وهو يأتي بحسب قدرة الأم المالية، فمن أم كانت تمزج الماء باللبن لتطعم أبناءها المعدمين في قصة لاعب فرنسا (لوكاكو)، وطبيب الأعصاب الأمريكي (بنيامين كارسون)، إلى أم العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، الذي كان يقول: «توفي والدي وأنا صغير أقرأ في جزء عم، وترك لي ثروة من الحيوان والمال، وكانت سكناي في بيت أخوالي، وأمي بنت عم أبي، وحفظت القرآن على خالي عبد الله بن

محمد المختار بن إبراهيم آب أحمد نوح، ولما حفظت القرآن وأخذت الرسم العثماني وتفوقت على أقراني عُنيت بي والدتي وأخوالي أشدَّ عناية، وعزموا على توجيهي للدراسة في بقية الفنون، فجهزتني والدتي بجملين؛ أحدهما عليه مركبي وكتبي، والآخر عليه نفقتي وزادي، وصحبني خادم ومعه عدة بقرات، وقد هيأت لي مركبي كأحسن ما يكون من مركب وملابسي كأحسن ما تكون، فرحا بي وترغيبا لي في طلب العلم، وهكذا سلكت سبيل طلب العلم والتحصيل».

وكلهم نجحوا، **المهم أن يكون الإنفاق مقدرا على قُدود الحاجات، دون زيادة تُدني الولد إلى الفساد، ولا نقص يغريه بالانحراف والبحث عن المال في وجوه مدمِّرة.**

٨- ضبط الانفعالات:

تناهت آلاف الدراسات إلى أن أساس النجاح هو ما يسمى (ذكاء المشاعر)، أو (الذكاء العاطفي)، أو (الذكاء الوجداني)، وله عدد كبير من المقومات، والمكونات، ومن أبرزها: ضبط الانفعالات؛ من حبٍّ أو كرهٍ أو خوف أو انكسار أو إحساس بالنجاح، وفي قصة أ.د.بشير الرشيدي سمعنا أمه وهي تقول له حين سألها عن والده المتُوفَّى: «اترك الحديث عن الأموات، وتفكر فيما هو آت، فلن يعود الماضي، ولكن المستقبل قادم». **ثم قال: «وجدت أن سر نجاح أمي هو التخلص من الخوف بكل أشكاله،** لم تكن رجلا، وإنما كانت امرأة في مجتمع قبلي له تقاليده الصارمة، ومع ذلك انطلقت وتركت كل ما يعيقها، ولم تبال بمن حولها، فأصرت على تعليمي

رغم المعارضة ممن حولها. هذا هو الدرس الذي ينطبع من سيرة أم».

كما وضع لنا الدكتور العشماوي قاعدة تربوية عميقة في قوله عن أمِّه: «**كان عطفها علينا كبيرا، ولكنه لم يتحول إلى المبالغة في التدليل، ولا إلى الغلو في الشفقة والخوف علينا من عوارض الحياة**».

٩- الاستمرار بعد النجاح في الدعم المعنوي مدى الحياة:

فإذا كانت أم أ.د.طارق الحبيب علمته: «أن الريادة أمر ممكن لا استحالة فيه، لكنه يحتاج إلى أمرين: المداومة في العطاء، والاستمرار في تذكر الهدف المنشود». فإن في سيرة الإمام الشافعي أمرًا عجبا، فبعد أن صنعته من طينة اليتم شاعرا لغويا ثم فقيها أصوليا: فلقد كان ـ خلال تتلمذه على يد الإمام مالك في المدينة، يذهب إلى مكة يزور أمه ويستنصح بنصائحها.

وهكذا تستمر صلة الأم العظيمة بابنها العظيم .. مهما تقدم أو كبر.

١٠- التضحية:

وفي نظري بأن الأم لا تستكمل أمومتها إلا بهذه الصفة، وللأنثى نصيب من الأمومة بقدر نصيبها من (التضحية)، ألم يستوقفنا قول الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله: «عاشت أمي بعد أبي سبع سنوات ما استمتعت فيها يوما بمتعة، ولا وجدت تسلية ولا راحة، كانت تعيش لأولادها، تدير أمر البيت، وتدبر النفقات، وتخيط هي الثياب».

١١- تسعى في قضاء حوائج الناس بإيثار عجيب:

كل الذين تحدثوا باستفاضة عن أمهاتهم، أثبتوا هذه الصفة، وقد لاحظت في استعراضي لحياة الجهنية أم أ.د.عبدالله الغذامي، أنها كانت تُعنى بأولاد غيرها كما تعتني بأولادها، بل أرضعت خمسة أطفال في سنتين، وهنا أجد الأمر نفسه مع أم أ.د.الرشيدي، التي «كانت رعايتها تتعدى إلى الآخرين الذين يلجأون إليها، وتتحمل تكاليف معيشتهم، وليسوا بقليل» ولكنه أمسك قلمه عن ذكر ذلك؛ لرغبتها التي أبدتها مرارا وتكرارا، كما يقول.

وفي دراسة أثر دلال السعدون في نفس ابنها أ.د.راشد بن عبدالعزيز آل الشيخ مبارك وقفنا على استقطابها لمحبة الناس لها، بما كانت تقدمه للآخرين من مساعدة ومساندة.

وهو ما أضيفه هنا للدكتور إبراهيم بن عبد الله السماعيل، الذي استرسل في ذكر عناية أمه بكل من يحتاجون العناية ممن حولها، ولعل هذه الصورة تختزل صفات كثيرة في سفره الوفي الذي خصصه لأمه: يقول: «أن امرأة من جيراننا كانت أمي نورة ـ رحمها الله ـ تتعاهدها بين الحين والحين بالهدايا وطعام من طعامنا، يغرف لها من أصل الطعام، ويصل إلى تلك المرأة قبل أن نشرع نحن في تناول طعامنا، حفاوة خاصة بتلك المرأة، ذلك أنها من ذوي الجاه واليسار، لكنها عقيم لا يولد لها، وهذا سر عناية أمي –رحمها الله– بها، حتى إنها كأنها أخت لها»[(١)].

(١) أمي نورة للدكتور إبراهيم السماعيل: ٤٤.

١٢- خلوق، محبوبة:

وهل يسوغ أن تكون أمًّا ناجحة وهي ليست ذات خلق، والخلق يجلب المحبة. قال العالم اللغوي أ.د.صالح العايد: «فهل تعرفون أحدا خرج من الدنيا وقد اتفق على حبه الأبناء والبنات، والأحفاد والأسباط، وزوجات الأبناء وأزواج البنات، وسائر الأقارب والجيران والمعارف. إنها أمي.. فهل كل له أم كأمي».

١٣- عابدة:

وهو ما عبر عنه أ.د.عبد الله الطيار، كثيرا في كتابه (أفول شمس)، ووجدته منشرا في كتابات عدد من الأعلام المسلمين، والعجيب أن تراه لدى حتى عند غير المسلمين كذلك، حيث يذكر العَلَمُ صلاة أمه ودعاءها.

يقول أ.د.بشير الرشيدي عن أمه: «كانت متدينة، ملتزمة بكتاب ربها، تتلوه كل يوم تحت نظر أولادها، وتختمه كل أسبوع، وربما بكت وخاصة عندما تتلو سورة يوسف ﷺ، عبادة لله تعالى».

١٤- قدوة في كل ما تربي ولدها عليه:

قال عبدالعزيز العفالق: «ربتني أمي على مخافة الله، والصدق، وحب الخير، والوفاء بالوعود والعهود، وعداوة البخل، ونذرَت نفسها -رحمها الله- للخير وأهله ومجالاته، متجاهلة نفسها، تدعو لنا دوما بالبركة، وكان كل واحد من إخوتي وأقاربي يسمع منها».

وهكذا يمتزج ذكر صفاتها، بما ربت عليه أولادها، حتى يتمتم

الغذامي فيقول: «ولقد تمنيت عندها أن يهبني ربي جزءا من هذا العطاء الذي تملكه فاطمة الجهنية».

١٥- صديقـة:

وإذا تحولت الأم إلى صديقة، فإن الحواجز سوف تذوب وتتلاشى، وهنا يمكن أن تنتقل الصفات الرائعة بدون عوائق، قال الروائي العالمي الشهير: (دان براون) في بطاقة شكر سجلها في صدر روايته: (شيفرة دافنشي): «إنني في رواية ترتكز بعمق على الأنثى المقدسة، قد أكون مهملا ومقصرا إذا لم أذكر المرأتين اللتين كان لهما الأثر الأكبر في حياتي، أولا: والدتي: (كوني براون)، وهي مؤلفة زميلة، ومربية عظيمة،...، وفوق كل ذلك مثلي الأعلى». ثم ذكر زوجته (بلايث).

١٦- شديدة الملاحظة:

بذكائها الفطري يمكنها أن تلاحظ المؤثرات الإيجابية التي أثرت في تربية الآخرين لأولادهم، فتنقلها إلى تجربتها التربوية بفطنة وبصيرة، وهي تعلم حقيقة الفروق الفردية، والظروف البيئية المحيطة بها وبأولادها. وهو ما لاحظناه في قصة بن كارسون الطبيب الأمريكي المبدع مدير مستشفى بالتيمور لجراحة الأعصاب للأطفال، الذي كان ابن أم معدمة من المال، غنية بالملاحظة المبهرة، التي استطاعت من خلالها استنساخ التربية الإيجابية وإعادة إنتاجها بجدارة.

١٧- تكثر الدعاء:

فالأمومة دعاء حار، ليس بينه وبين الله حجاب، يسمعه الابن والبنت، فتتفتح له أكمام روحه، ويعيش به قلبه في روضات من النعيم والطمأنينة.

وقد مرت بنا قصص الإمام ابن باز، والشاعر الأميري، والشيخ الندوي الذي كان يقول: «والواقع -كما أعتقد - أن ما قدر الله لي من خير، وما آتاني به من الفضل والزلفى لدى عباد الله الصالحين، وما منحني من عطفهم وأدعيتهم، كل ذلك يرجع إلى تلك الأدعية المضطرة التي كانت تدعو بها والدتي».

١٨- القوة الناعمة:

فالأم تحتفظ بقوتها حتى وهي مقعدة على كرسي متحرك، الكبير قبل الصغير يتشرف بالدنو منها وتقبيل رأسها وجبينها وكفها، وينتظر أن تتحرك شفتاها الذاكرتان بالدعاء، الجميع يذعن لتوجيهاتها حتى ولو لم يقتنع كثيرا بما تقول، ولقد سمعت من عدد من الأعلام مثل قول الدكتور إبراهيم الخليفي: «ما كرهناه من توجيهات والدينا رأينا حكمته فيما بعد»[١]، وهو ما ذكره الدكتور حمود القشعان في تغريدة له[٢]: «علمني زماني أن الحب للأبناء يظهر في المنع أكثر منه في العطاء المندفع، فنعمةالحرمان المتزن من النعم التي يفتقدها الأبناء في هذا الزمان».

إن الأم -في بعض الأحيان- هي التي تكون نقطة ضعف البطل، يخاف على أن تحزن على فقده فلا يُقدِم، ونقطة ضعف طالب العلم يخشى أن يكدرها ببعده فيتراجع، وقد تكون نقطة قوة إقدام، وسر نجاح وإصرار على بلوغ الأهداف كما رأينا في قصة شيخ الإسلام ابن تيمية مع أمه رحمهما الله تعالى.

(١) حسابه في تويتر في ١٨/ ٢/ ٢٠١٧م.
(٢) حسابه في تويتر في ٢٩/ ١٠/ ٢٠١٨.

١٩- التخطيط والتدرج في بناء أولادها:

وهي سمة تتميز بها أمهات الناجحين، صمود واستمرار، وخطوات محددة وثابتة، والهدف يلمع من بعيد، لا تكاد عيناها أن تكف عن مراقبته، ولا قدماها عن الركض إليه. بعضهن لا يتقنَّ التخطيط الدقيق على الورق، ولكنهن قد كتبن الخطة على صفحات القلب، وبدأن يعملن ليل نهار وفق تلك الخطة بتمهل لا يُؤخِّر، وتعجُلٍ لا يُعثِّر.

٢٠- مُلهِمة:

«الأنشودة الكامنة في صمتِ قلبِ الأم، تتردد على شفتي طفلها»، كما يقول جبران خليل جبران، و «وشوشات الأمهات في آذان الأطفال في غرف النوم، هي التي تصنع العظماء» كما يقول د.إبراهيم الخليفي. وتأثير الأم على ولدها، لا يمكن أن تعده اليد، ولا يكيله ميزان، ولا تحصره العين، بل هو إلهام وكفى، ألا ترى كيف أنها تغرس الهدف الكبير في نفس ولدها، فيعيش من أجل تحقيقه؟

جاوز **روشان** الفقر المدقع الذي كان يرزح تحت وطأته في مسقط رأسه، وظروف صعبة عاشها في بريطانيا بفضل ابتسامته التي ورثها من والدته، يقول الدكتور عبدالله بن أحمد المغلوث: لم ألتق في حياتي بشخص أكثر سعادة من السيرلانكي روشان داسن (٣٧ عاما). فهو يبتسم على الدوام. يبتسم وهو يستقبلك. ويبتسم وهو يودعك. ويبتسم بينهما. لا يملك سوى ثلاثة قمصان يكررها على مدار العام. لكنه يشعرك أنه يملك الدنيا وما عليها. درست معه مادة قبل تسعة شهور في مانشستر ببريطانيا ومازلت أقصده كلما حزنت. فهو يملك قدرة فائقة على إطفاء أي حزن بابتسامة واسعة وتفاؤل غفير.

ثم يشير إلى جديته في دراسته فيقول: «روشان لا يغادر جامعة سالفورد ببريطانيا التي يدرس فيها الدكتوراه في الهندسة؛ فإما تجده في غرفة طلاب الدكتوراه يكتب ويقرأ، أو تجده داخل دورات مياهها ينظف ويكنس، مستعدٌّ أن يقوم بأي عمل شريف يساعده على تسديد رسومه الدراسية وإيجار شقته. لم أره متذمرا قط. ولم أره يأكل طوال معرفتي به. عفوا رأيته مرة واحدة. وكان يأكل مثل العصافير، قليلا جدا. وعندما شاهدني أعاد علبة طعامه الصغيرة إلى حقيبته بسرعة فائقة وابتسم.

وتوقف الكاتب عند بحث (روشان) عن الابتسامة حتى فيما يتابع من برامج على قلتها، ويرى بأن «لدى روشان ميزة استثنائية تكمن بالاحتفال بالأشياء الصغيرة، سعادة تفيض من وجهه عندما يعثر على كتاب أو جملة جذابة في رواية».

ويعنيني هنا أن أقتبس هذه اللقطة الوضيئة من هذه المقالة الجاذبة: «يتذكر أمامي دائما كلمات أمه عندما كان صغيرا: **«لا تحزن لأنك لا تملك حذاء، بل افرح لأن لديك جوربا»**[1]، **تلك العبارة التي تشي بأم مربية، كل ما صنعته أنها وضعت مفتاح النجاح في يده، موشى بذهب التفاؤل، وفضة حب العمل، ورصعته بزمردة الصبر والمثابرة.**

٢- مصدر الأمان.

لخصه الفيلسوف اليوناني هذا المعنى في كلمات يسيرة فقال: «لم أطمئن إلا في حجر أمي». إنه الأمن النفسي الذي يشبه الحجر الكريم

(١) أسعد رجل على وجه الأرض، مقالة، د.عبدالله المغلوث، صحيفة الوطن، ١٩-٠٦-٢٠١٠.

النادر، فهو يجعل قواد الحروب والفاتحين الأبطال يجدون أنفسهم في لحظة من لحظات الضعف والخور، ينكبون في أحضان أمهاتهم، ليجدوا فيه السكينة التي لا يمكن أن يحسوا بها وهم وراء الأسوار العالية من البناء والرجال والسلاح.

٢٢- اختيار المحضن الآمن المبدع:

وخاصة في زمنٍ أصبحت فيه الصحبة موبوءة، وبعض المحاضن غير موثوقة، فأصبح على الأم بل الأسرة كلها أن تسعى سعيا حثيثا في البحث الجاد عن محضن يجمع بين الأمان العقدي والفكري والنفسي والجسدي، ومع ذلك فهو محضن مبدع قادر على استثارة أعلى السمات الكامنة في شخصية الولد.

وليـس النبـت ينبـت في جنــانٍ
كمثـل النبـت ينبـت في الفــلاة

٧٨

(ختامه مسك)

أمي (منيرة بنت زيد الحليبي آل بن زيد).. أميرة الحب والمشاعر.. ومجمع الخصال الكريمة

طوفت معكم في بيوتات العظماء، أعرض هدهدات الأمهات المفعمة بالطموح والتحفيز والأمل الكبير، مشفوعة بكلمات كبار، لأطفال صغار، أسهمت في تشكيل وعيهم، وبناء قدراتهم، وتوجيه بوصلة الأهداف في حياتهم نحو شمال لا يعرفه غير النبلاء.

ولم أرد أن أختم حديثي في هذا السفر الإنساني عن الأمهات المربيات دون أن أشير إلى طرف من نعمة الله علي بأم لا كالأمهات.. وإن كنت مؤمنا بمقولة الأستاذ فريد المحيميس: «كلما أردت أن أكتب عن أمي، أدركت بأنني (أمّيٌّ)»(١).

وقد كدت أطير فرحا وحزنا ببيتين قالهما شاعر معاصر؛ لأنهما مثلا لي مشاعري نحو أمي الحبيبة رعاها الله وأسبغ عليها تمام نعمه، يقول فيهما:

قـل لي: أيحيـا هـانئًا مَـن أمُّـــهُ

ماتتْ، وأغلقتِ الدُّروبَ إليـها

---

(١) في حسابه في تويتر يوم ١٧/ ٢/ ١٤٣٦هـ (٩/ ١٢/ ٢٠١٤م)، وأكد أنها له يوم ١٧/ ٥/ ١٤٣٩هـ (٣/ ٢/ ٢٠١٨م).

أمِّــــي وهــا هـــي حيّـــةٌ، لــكنَّني
قد كدتُ -من ولهي- أموتُ عليها

فقد نشأت بين أبوين كل منهما أب وأم، حنانا وحزما، وهذا ما لم أره عند القوم، وإذا كان الموقف اليوم لأمي دون أبي، فإني ظللتُ نحو أربعين عاما عاجزا عن الكتابة عنها سطرا واحدا، أو بيتا واحدا، فهل تراني أجرؤ الآن أن أقول إنني استطعت ذلك، لا والله الذي نفسي بيده.

لقد قرأت ما قاله الأعلام عن أمهاتهم، فوجدت أمي تجمع شمل عواطفهن المتأججة حبا وشوقا وشفقة وحنانا، وتقف كل مواقفهن حزما وتربية وتحفيزا، حتى كاد كل موقف أو شعور حكيته من قبل يكون له مثيل في حياتي وحياة إخوتي وأخواتي مع أمي حفظها الله ورعاها.

فهل ستستطيع الأوراق الرقيقة أن تحمل جمرات أحاسيسي وحبي الكبير لأمي.

في كل مرة أقرأ ما يكتبه أرباب الأقلام عن سمات الأم الناجحة، فلا أراها تعدو أمي قيد أنملة..

قال شمس الدين إسلام: «حينما أنحني لأقبل يديكِ، وأسكب دموع ضعفي فوق صدرك، و استجدي نظرات الرضا من عينيكِ حينها فقط.. أشعر باكتمال رجولتي». وصدق.. بل إنني لأشعر بظمأ عاطفي شديد؛ لا يطفئه إلا رؤيتي لها؛ لأمتحَ من عينيها الوضيئتين ما لا يمكن وصفه من المعاني والمشاعر والرؤى.

نعم «لن أسميكِ امرأة، سأسميك كل شيء»، كما قال محمود درويش،

لأنك حقا في حياتي كنت كل شيء، ولقد صدق توماس حين قال: «الأمومة هي حجر الزاوية في صرح السعادة الزوجية»، فأنت أم لزوجتي أكثر من أمها، وأخت لها أكثر من أختها، وصديقة لها أكثر من كل صديقاتها. أحبتك وأحببتها، وأحببتها لحبك لها، كيف وأنت التي قطفتيها لي من حديقة الفتيات الصالحات.

سأقول كما قال جان جاك روسو: «لو كان العالم في كفة.. وأمي في كفة أخرى.. لاخترت أمي». فالأم كما قال جبران خليل جبران: «هي كل شيء في هذه الحياة، هي التعزية في الحزن، والرجاء في اليأس، والقوة في الضعف، فالذي يفقد أمه، يفقد صدرًا يسند إليه رأسه، ويدًا تباركهُ، وعينًا تحرسه»، أدام الله خيمتك الظليلة علي وعلى إخواني، وبارك في حياتك، وجمعني بك في الفردوس الأعلى كما جمعني بك في الدنيا.

أمي ليست ككل الأمهات.. تخرَّجْنا على يديها أساتذة جامعات، وهي تجهل الحرف، وربت فينا جمال الكلمة الشاعرة، وهي لم تقرأ ديوانا، ولا تحفظ بيتا، ونمَّت فينا معاني الرجولة الحقة، وهي الأنثى الرقيقة، وبرهنت أمامنا على أنها القدوة المثلى في اكتساب رزقها من عمل يديها، وعرق جبينها، وهي التي لم تتسنم وظيفة في حياتها. كانت ولا تزال مثالا لبرها بوالديها، مثالا في خلقها مع الأقارب والناس أجمعين، مثالا في حسن تبعلها لزوجها، سكبت في قلوب أولادها بنين وبنات حب الله والتوكل عليه، وحب رسوله ﷺ، وحب نفع الناس. وصنعتنا مع أبي صناعة؛ لم تتكل على أحد سوى الله في متابعة تربيتنا، ولم تأخذ يوما إجازة من مهمتها الكبرى هذه. بل ظلت تبذل وتعطي بلا حدود؛ حتى تعلقت بها قلوبنا، وشُدَّت إليها نفوسنا؛ فلا نرتاح إلا في روضاتها. ولا نستقر

إلا على ضفاف شواطئها، ربما خبَّأنا ما لا نريد أن نزعجها به، فإذا هي تتصل فجأة لتسأل عما خبأناه، وكأنها قد علمت كل ما حدث، بأطياف رؤيا خالجتها، أو دبيب خاطر جرى بين أعراق فؤادها.

أخبـــئُ الدَّمـــعَ عـــن عينيـــكِ مُحتســـبًا
وأقـــبُرُ النـــارَ في صَـــدري بـــلا شَـــرَرِ

لكـــنَّني -وغـــامُ الـــوهـــم يســـتُرني
عن أعينِ النَّاس -مـا لي منكِ من سُـتر

رأيـتُ دمعـــيَ في عينيـــكِ مـــن خَـــبري
فمـن أراكِ الـذي خبـأتِ مـن خَـبَري

أمـوتُ حـين أرى جفنيـكِ قـدْ ذبُـلا
وفـاضَ حزنُـكِ من أجـلي فـوا كـدري

إذا بكـيتِ بكـــى قلبـــي وعافيتـــي
وثـــارَ حـــزني ومـاتتْ بســمةُ القَمَـرِ

وإن تبســـمتِ هـلَّ الصُّبـحُ وانتشـرَتْ
حـولي العناقيـدُ كالأنسامِ في السَّـحرِ

وإن تحدثـتِ فـاحَ الطِّيـبُ واحتضَـنَتْ
رؤايَ أفـــوافُ ألـــوانٍ مـــن الزَّهَـــر

وأنـتِ حـولي تـدارينَ الـدُّروبَ: ألا
رفقـــًا بوطـأتِهِ.. يـا أعـينَ الحُفَـر

نعـم كـبرتُ.. ولكن لسـتُ في كِـبَري
إلا الـــذي كـان في كفيـكِ في الـصغر

ينمـو لبـانُك بي مـا عشـتُ من عُمُـري
لله درُّكِ.. مــا أحنـــاه في كِـــبَري

وأنـــتِ حـــولي فـــؤادٌ مشـــفقٌ حَـــذِرٌ
وهمَّـــةٌ ذوَّقتنـــي نشـــوةَ الخطـــر

فعفـــتُ كُـــلَّ طريـــقٍ ذلَّ مـــوطئُها
ورحـــتُ أرتـــادُ مـا يخـلو مـن البـشر

حتـى رأيـتُ خُطَـا أمسـي تضيُء غـدي
البـــذرُ أصبـحَ غابـاتٍ مـن الشَّـــجَر

وأنـــت حـــولي.. فـؤادٌ واجـفٌ قَلِـقٌ
ودعـــوةٌ أرَّقَـتْ بـــوَّابَـةَ السَّـــحَر

أمَّـــاهُ عُـذرا فـــما أرجـوهُ مُلتَمِـسًا
إلا رضـاكِ.. فهـل ألقـاهُ يـا نظـري؟

سلام لك وعليك يا حبيبتي

يا جامعة الحب

ومدرسة الرضا

وسحابة الطهر والنقاء..

ختــــامًا

لم تنته القصة بعد .. ولن تنتهي .. بل إنها تبدأ في كل لحظة .. وتستمر في خلود أبدي ..

أيتها الأمهات الفاضلات.. طريق صناعة الرجال العظماء، والنساء الخالدات.. طويلة، وتحتاج إلى علم وصبر وتضحية.. وأنتم أهل لذلك..

سوف نستطيع أن نربي العظماء .. حين تكون تربيتنا عظيمة..

أسأل الله تعالى لي ولكم التوفيق والسداد.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان ٢٥/ ٧٤].

اللهم صل وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا

من مصادر الكتاب

أولا: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وقد آثرت عدم ذكر كتب السنة هنا، لسهولة الوصول إلى الحديث اليوم عن طريق المحركات الإلكترونية.

ثانيا: الكتب:

(١) آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد البَشِير الإِبرَاهِيمِي، جمع وتقديم نجله أحمد طالب، ١٩٩٧م، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

(٢) الإجابة لما استدركته عائشة على الصحابة، محمد بن بن بهادر الزركشي، تحقيق: د رفعت فوزي ،القاهرة، ط ١، مكتبة الخانجي، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

(٣) إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد محمد الغزالي، ت:٥٠٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤) أخبار مكة لمحمد بن عبدالله الأزرق الغساني ت:٢٤٤هـ، دار الأندلس للطباعة والنشر، ١٩٩٦م.

(٥) أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن لماوردي، ط: دار مكتبة الحياة: ١٥٨.

(٦) أسد الغابة في معرفة الصحابة للإمام علي بن محمد بن عبد الكريم ابن الأثير، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

(٧) الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر، ط١ / ١٣٢٨ هـ.

(٨) أصحاب الفتيا من الصحابة والتابعين ومن بعدهم على مراتبهم في الفتيا، للإمام ابن حزم الظاهري، ت: ٤٥٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٩) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، ت: ١٣٩٣هـ، طبع على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن عبدالعزيز آل سعود، ط:١، ١٤٠٣هـ(١٩٨٣م)،.

(١٠) أطفال أذكياء جدا لمنصور بن ناصر العواجي، دار طويق للنشر والتوزيع بالرياض.

(١١) أفول شمس ـ أربعون يوما في صحبة والدتي أم سعود منيرة بنت سابح الطيار، أ.د.عبدالله بن محمد الطيار، دار التدمرية، ١٤٣٢هـ (٢٠١١م).

(١٢) الأم في عيون الأدباء والشعراء، إعداد عماد آل عبدالله، الرياض، ١٤٣٦هـ.

(١٣) أمي علمتني، أ.د.طارق الحبيب، مركز مدار المسلم، الرياض، ١٤٢٩ (٢٠٠٨م)،

(١٤) أمي مدرستي (نورة بنت عبد الله بن صالح العضيب الشارخ) ١٣٥٢-١٤٣٠هـ، للدكتور محمد بن عبدالله السلومي، نشره مركز القطاع الثالث للاستشارات والدراسات الاجتماعية، الرسالة: ١، ط:٢، ٢٠١٣م، ١٤٣٤هـ.

(١٥) أمي نورة، د.إبراهيم بن عبدالله الغانم السماعيل، ط:٢، الرياض، ١٤٣٦ه

(١٦) إنباء الغمر بأبناء العمر لأبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م).

(١٧) أيتام غيروا مجرى التاريخ، لعبد الله صالح الجمعة، العبيكان، الرياض، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م: ١٢-١٣.

(١٨) البداية والنهاية لابن كثير، تحقيق الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية، الجيزة، ١٤١٨هـ(١٩٩٨م).

(١٩) البر والصلة لابن الجوزي، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤١٣هـ(١٩٩٣م).

(٢٠) تاريخ بغداد لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٤/ ٢٤٤.

(٢١) تاريخ دمشق لأبي القاسم علي بن الحسن، المعروف بابن عساكر ت:٥٧١هـ، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ (١٩٩٥م).

(٢٢) التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، دار سحنون.

(٢٣) تذكرة الحفاظ وتبصرة الأيقاظ للإمام يوسف بن عبدالهادي المقدسي الحنبلي، دار النوادر، دمشق، ١٤٣٢هـ (٢٠١١م).

(٢٤) تربية الأبناء في الزمن الصعب للدكتور بينجامين سبوك، تحرير منير عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، ٢٠١٠م.

(٢٥) ترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضي عياض، وزارة الأوقاف بالمغرب.

(٢٦) تلك التفاصيل، ١٤٣٢هـ، (دار كنوز أشبيليا) للنشر والتوزيع بمدينة الرياض، ١٤٣٢هـ، قصص قصيرة، د. حسن حجاب الحازمي.

(٢٧) تنمية ثقافة الطفل، لعبد التواب يوسف، دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٢م، ط:١.

(٢٨) تهذيب الكمال في أسماء الرجال لجمال الدين يوسف المزي، بيروت ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

(٢٩) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٢هـ (٢٠٠١م).

(٣٠) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر، دار ابن الجوزي، الدمام، ١٤١٤هـ (١٩٩٤م).

(٣١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع لأحمد بن علي الخطيب

البغدادي، مكتبة المعارف، الرياض، تحقيق الدكتور محمود الطحان.

(٣٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق محمد رأفت سعيد، جامعة القاهرة، دار العلوم، ١٤٠٠هـ(١٩٨٠م).

(٣٣) الجهنية في لغة النساء وحكاياتهن، د.عبدالله الغذامي، مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠١٢م.

(٣٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأحمد بن عبدالله الأصفهاني، دار الفكر، مصر، ١٤١٦هـ(١٩٩٦م).

(٣٥) الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي، تحقيق الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية الإسلامية، ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م)، القاهرة: ١٠/ ١٨٧.

(٣٦) دمعة على قبر أمي للدكتور صالح بن حسين العايد، دار كنوز إشبيليا، ط:١٢، ١٤٣٢هـ.

(٣٧) دور المرأة في خدمة الحديث في القرون الثلاثة الأولى لآمال قرداش الحسين، ١٤٢٠هـ.

(٣٨) دور أمهات المؤمنين في مجتمع المدينة المنورة في عصر الراشدين، لندى النخيلان، دار كنوز إشبيليا، الرياض، ط:١، ١٤٣٢هـ(٢٠١١م).

(٣٩) ديوان أمي لعمر بهاء الدين لأميري، دار الفتح، دمشق، ١٣٩٨هـ،ط:١.

(٤٠) ديوان علي بن أبي طالب ﵁، ترتيب: عبدالرحمن المصطاوي، دار المعرفة.

(٤١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للسيد محمود الألوسي، مكتبة دار التراث، القاهرة.

(٤٢) زاد المعاد للإمام ابن القيم الجوزية، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.

(٤٣) سوار أمي، لعلي بن جابر الفيفي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ط:٣، ١٤٣٨هـ (٢٠١٧م).

(٤٤) سوانح الفكر، للأستاذ الشيخ أحمد بن علي آل الشيخ مبارك، ١٤٢٧هـ، ط:١.

(٤٥) سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:١١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

(٤٦) سيوكلوجية المراهقة للدكتور إبراهيم قشقوش، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٩م

(٤٧) شرح صحيح البخارى لابن بطال أبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، ت: ٤٤٩هـ، تحقيق: أبي تميم ياسر بن إبراهيم، دار

النشر: مكتبة الرشد، الرياض الطبعة: ٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

(٤٨) الشوقيات، ديوان أحمد شوقي، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان.

(٤٩) شيفرة دافنشي: دان براون، ترجمة سمة محمد عبد ربه، الدار العربية للعلوم، بيروت، ١٤٢٥هـ (٢٠٠٤م).

(٥٠) صور من حياة الصحابيات، عبدالرحمن رأفت الباشا، دار الأدب الإسلامي.

(٥١) صيد الخاطر لابن الجوزي، دار القلم، سوريا، ١٤٣٣هـ (٢٠١٢م).

(٥٢) طبقات الشافعية، لعماد الدين إسماعيل بن عمر ابن كثير، ت: ٧٧٦، تحقيق عبدالحفيظ منصور، دار المداد الإسلامي، بنغازي، ليبيا، ٢٠٠٤م.

(٥٣) طبقات صلحاء اليمن المعروف بتاريخ البريهي، لعبد الوهاب السكسكي اليمني، تحقيق عبدالله الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط:٢، ١٤١٤هـ (١٩٩٤م).

(٥٤) عجائب الآثار في التراجم والأخبار، لعبد الرحمن بن حسن الجبرتي ت: ١٢٤٠هـ، تحقيق، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، طبعة بولاق، دار الكتب المصرية، ط: ١، ١٩٩٨م، ص: ١/ ١٢٩.

(٥٥) عزت بيغوفتش - سيرة ذاتية وأسئلة لا مفر منها، ترجمة د.عبدالله الشناق، د.رامي جرادات، ط: ٣، ١٤٣٦هـ ٢٠١٥م، دار الفكر - بيروت.

(٥٦) عمر بهاء الدين الأميري شاعر الأبوة الحانية، والبنوة البارة، والفن الأصيل للدكتور محمد علي الهاشمي، دار البشائر الإسلامية ببيروت، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).

(٥٧) عناية النساء بالحديث النبوي، لمشهور بن حسن آل سلمان، المملكة العربية السعودية، ط١، دار ابن عفان، ١٤١٤هـ.

(٥٨) فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ١٤٠٧هـ (١٩٨٦م).

(٥٩) الفقيه والمتفقه لأبي بكر أحمد بن علي، الخطيب البغدادي، ت/ ٤٦٣هـ، دار ابن الجوزي، السعودية، ط:٢، ١٤٢١هـ.

(٦٠) القاضي على تعليقات البخاري، لابن مقصد العبدلي، دار نور اليقين، مصر، ١٤٣٣هـ(٢٠١١م).

(٦١) لأنك الله، علي الفيفي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ط:١.

(٦٢) اللطائف والظرائف، للثعالبي، ط: دار المناهل: ١٧٥.

(٦٣) لعيون نورة للدكتور بشير الرشيدي، إنجاز للنشر والتوزيع، الكويت، ط:١، ٢٠١٣م.

(٦٤) متعة الحديث لعبد الله بن محمد الداود، الرياض، ١٤٢٩هـ(٢٠٠٨) دار الرواد للنشر، ط:٩، الجزء الثاني.

(٦٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية؛ جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، ط:١، ١٣٩٨هـ.

(٦٦) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، ومثير الغرام إلى دار السلام، لأبي زكريا أحمد بن إبراهيم بن محمد، المشهور بابن النحاس، ت: ٨١٤، دار البشائر الإسلامية، ط:٣.

(٦٧) مشكلات الطفولة والمراهقة لميخائيل إبراهيم أسعد، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، ط:٢.

(٦٨) نساء صنعن علماء لأم إسراء بنت عرفة بيومي، دار المعرفة ببيروت، ١٤٢٥هـ (٢٠٠٤م).

(٦٩) نصيحة الملوك لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، ت:٤٥٠هـ، مكتبة الفلاح، الكويت، ، ١٤٠٣هـ(١٩٨٣م).

(٧٠) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، لمحمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط:٤.

ثالثا: الاتصالات الشخصية:

(١) رسالة خاصة من الدكتور إبراهيم بن صالح التنم، وقصته مع أمه وجدته.

(٢) رسالة خاصة من الدكتور سمير العمران، وقصته مع أمه.

(٣) رسالة خاصة من الدكتور عبدالرحمن العشماوي، وقصته مع أمه.

(٤) رسالة خاصة من فتاة تحكي قصتها مع أمها، سمحت بنشرها.

(٥) مقابلة شفهية مع الدكتور أحمد البراء الأميري في منزله بالرياض، يوم الإثنين ٢٤/ ٢/ ١٤١٥هـ (١/ ٨/ ١٩٩٤م)، حول علاقة أبيه بأمه رحمهما الله تعالى.

(٦) مقابلة مع الأستاذ صلاح بن هندي في الأحساء، في عزاء أمه رحمها الله تعالى التي وافاها الأجل صباح يوم الخميس ٢٧/ ١/ ١٤٣٦هـ.

(٧) مقابلة مع الشيخ أحمد بن علي آل الشيخ مبارك، وحديث عن جد الأسرة وعلاقته بأمه رحم الله الجميع.

(٨) مهاتفة صوتية مع د.سعدون السعدون عضو مجلس الشورى يوم السبت ٢/ ٦/ ١٤٣٦هـ.

رابعا: حسابات تويتر:

(١) حساب الأستاذ فريد المحيميس.

(٢) حساب الأستاذ محمد الرطيان.

(٣) حساب الأستاذة نيرفانا.

(٤) حساب الدكتور إبراهيم الخليفي.

(٥) حساب الدكتور حمود القشعان.

(٦) حساب كرسي الأمير نايف لغرس القيم في تويتر.

خامسا: الصحف والمجلات:

(١) صحيفة الجزيرة، كرموا أمهاتنا المثاليات سنويا، مقالة، د.عبدالله المغلوث، الخميس، العدد: ١٦١٧٧، ١٢/ ١/ ٢٠١٧م.

(٢) صحيفة الجزيرة، وراق الجزيرة، فهد عبد العزيز الكليب، الأحد ٢٧ جمادى الأول ١٤٣٢هـ.

(٣) صحيفة المسلمون، (الأميري) كما عرفته، مقالة. الدكتور عبد القدوس أبو صالح، ٤/ ١٢/ ١٤١٢هـ (٥/ ٦/ ١٩٩٢م).

(٤) أسعد رجل على وجه الأرض، مقالة، د.عبدالله المغلوث، صحيفة الوطن، ٢٠١٠-٠٦-١٩.

(٥) صحيفة اليوم، مقالة بعنوان: ذاكرة وطنية، أ.معاذ المبارك، الخميس ٣٠ ربيع الثاني ١٤٣٦هـ الموافق: ١٩ فبراير ٢٠١٥، العدد: ١٥٢٢٤.

(٦) المجلة العربية، العدد: ٢٩٤، رجب ١٤٢٢هـ (أكتوبر ٢٠٠١م)، العدد ١٤٠٩هـ.

(٧) المجلة العربية، أنور السيد الشريف، التذوق الجمالي وتربيته عند الأطفال، الرياض، العدد: ١٢٥، السنة: ١٢، جمادى الآخرة ١٤٠٨هـ، ص: ٩٢.

(٨) صحيفة اليوم، تحقيق صحفي عن الأمومة، ٥/ ٩/ ١٤٢٥هـ، العدد ١٤٤٩.

(٩) مجلة أهلا وسهلا، مقابلة مع عبد الرحمن السدحان. محرم ١٤٣٠هـ يناير ٢٠٠٩م.

(١٠) مجلة جودي، العدد الأول، شوال ١٤٢٠هـ، يناير ٢٠٠٠م،

وراء كل عظيم أم ـ اصنعي من طفلك إنسانا عظيما. وصفة غنية ومتكاملة يقدمها: خالد الدحيان، ورائد الرشيد: ٢٤.

(١١) صحيفة البندر الإلكترونية، السبت ٢٠١٥/٠٦/٢٧ - ١١:٤ ص.

(١٢) صحيفة المستقبل العراقي، بغداد في ٨/ ٧/ ٢٠١٢، كاظم فنجان الحمامي.

(١٣) صحيفة الوطن.فستان أمي، مقالة، د.عبدالله المغلوث، ٢٨/ ٧/ ٢٠١٢م.

(١٤) صحيفة الاقتصادية، يا حبيبتي، د.عبد الله المغلوث، الخميس ٥ نوفمبر ٢٠١٥م.

سادسا: الشابكة والفضائيات:

(١) برنامج بوح البنات على قناة المجد الفضائية، حساب البرنامج على تويتر(#بوح_البنات @bohy١١)، موقع البرنامج bohy١١. com .

(٢) برنامج سر، حلقة الدكتور ذاكر نايك، تقديم د.حسن الحسيني على شاشة قناة المجد في رمضان عام ١٤٣٨هـ.

(٣) مقالة: بقلم/ عبد الدائم الكحيل، com.www.kaheel٧، مصدر المعلومة:/ http: / /news.bbc.co.uk /hi /arabic /news newsid_٩١٥٠٠٠/ ٩١٥٥٠٥.stm.

(٤) موقع الألوكة، الأمومة، مقالة، بدر الحسين.

(٥) موقع الألوكة، صور مشرقة لتربية السلف لأولادهم، مقالة، محمد بن إبراهيم الحمد.

(٦) موقع المستشار، التابع لجمعية التنمية الأسرية بالأحساء.

(٧) موقع المكتبة الشاملة، المرأة العالمة في عهد النبوة، تأصيل وتميُّز، بحث غير مطبوع، د.أميرة بنت علي الصاعدي.

(٨) موقع صيد الفوائد، سيكولوجية التـَرَمـّل: كيف يواصل الأرامل حياتهم بنجاح؟، أ.د. ناصر أحمد سنه، كاتب وأكاديمي من مصر.

(٩) موقع كيف تصبح تاجرا ناجحا، قصة أحمد الغامدي مع أمه.

(١٠) موقع لحواء. وراء كل عظيم امرأة صدى الماضي أم الحاضر ـ سلوى الحوماني ـ

(١١) موقع مركز البيان للدراسات والتخطيط على الشابكة.

(١٢) موقع نداء الإيمان: عظماء في الإسلام ـ الإمام عبد العزيز بن باز.

(١٣) موقع ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

(١٤) مدونة أحمد بن عبد المحسن العسَّاف، الرِّياض، مقالة: نصيف، وتلك الدار الآخرة، الثّلاثاء ٢٥ من شهرِ ربيع الآخر عام ١٤٤٠، ٠١ من شهر يناير عام ٢٠١٩م. ومقالة: صدّيقة من نساء عصرنا!، الأربعاء ١٣ من شهرِ ربيع الأوّل عام ١٤٤٠، ٢١ من شهر نوفمبر عام ٢٠١٨م.

الفهرس

إقــــــــــلاع ٥
لماذا الأمهات.. وليس الآباء.......................... ٩
﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ ١٢
نبي الله موسى عليه السلام.. وأمُّه ١٢
حكاية للأمهات فقط.......................... ١٥
نعمة الأمومة.. وحسرات المقصرات ١٨
بوح البنوة المعذبة.. .... ٢١
كيف تجني الأم متعة التربية؟ ٢٣
وراء كل عظيم أم عظيمة ٢٨
عظماء العالم يقولون: أمي هي التي صنعتني ٣٣
من اليتم إلى العظمة ٣٦
أمهات الناجحين لا يأخذن إجازة من التربية أبدًا ٣٩
ليس مهما أن تكون أم العظيم متعلمة!! ٤٥
التربية العظيمة تنتج العظماء ٥١
شجرة (البامبو) ودرس لأمهات العظماء.................. ٥٦
سرُّ السنوات الخمس الأولى ٦٢
الأم نقطة قوة .. أو نقطة ضعف في حياة العظيم ٦٨

العظماء أبناء لأمهاتهم.. .... ٧٤
سيدة الجزيرة العربية في العصر الحديث ٧٧
الأم الحازمة والهمة المقلقة ٧٩
وصية من خباء أم بدوية: ٨٢
لن يعثر (قوقل) على اسم أمي .. ولكن ٨٨
الأمُّ الثابتة المُثَبِّتة ٩٤
عالمة النفس الأمية....................................... ١٠١
ماذا تصنع وشوشات الأمهات؟......................... ١١٢
(أم) الخير والحكمة.. ١١٧
إبداع الأم في الصناعة الوالدية ١٢٤
حين تعانقك أمك.. فماذا يحدث؟..................... ١٢٨
قصة شجرة التفاح/ الأم.................................. ١٣٥
أيتها الأم .. يقول الله لك: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ ١٤٢
نجيب الزامل وأمه .. قصة حب ١٤٧
فتاة تشكو من أمها!! ١٥٤
اليتيم الذي الذي غدا كالشمس للدنيا والعافية للأبدان .. ١٦٠
أخذته لأبرك محضن .. فماذا حدث؟ ١٦٥
هداها الله على يد ابنها.. .... ١٧١
في حضنها يصبح الطفل المتخلف.. من أكبر العلماء....... ١٧٥

دعوة ..تصبح حلما .. يغدو حقيقة........................ ١٨٠
كل فتاة بأبيها معجبة ١٨٦
من الذي ربى عليًّا؟.. ١٩٢
الأمومة.. حين تفيض بها غير الأم ١٩٥
هي عنده: أعظم امرأة تطأ على الأرض الآن!! ٢٠٤
الأم سر التفوق الدراسي في اليابان ٢١٣
وسنغافورة .. وربما في.. ٢١٣
والأم تعدي أيضا ٢١٧
لا بديل عن رعاية الأم إلا بأم ٢١٩
الأم العظيمة .. زوجة عظيمة.................................. ٢٢٢
لا تقبض شيئا على فعل الخير.. دعه ينمو.................... ٢٢٦
لماذا تكذب بعض الأمهات؟ ٢٣١
في ضيافة أم الرجال ٢٣٥
تخطيط الأمومة يسبق الولادة ٢٤١
الأم الحـــرة ٢٤٥
من وراء هذا العالِم البحر؟!.................................... ٢٥٠
ماذا ستختار الأمُّ: المال أم المجد العلمي؟ ٢٥٢
في حجـــر أمـــه.. .... ٢٥٤
متى يتآكل الحب بين الأم و ولدها؟.......................... ٢٥٦

أوقدي قناديل التحفيز؛ لتضيئي العالم........... ٢٦١
كيف كانت أم الإمام البخاري؟! ٢٦٥
أبو (أمِّي) .. هل سمعتم بلقب كهذا؟! ٢٦٩
حين تغيب شمس الأم، ويفشل الأب في تعويضها ٢٧٥
الكتابة عن الأم .. أصعب أنواع الكتابة!!............. ٢٧٩
لا يكتبن عليك حافظاك شيئا تستحي منه غدا!! ٢٩٢
الأم الأرملة حين تتسامى.. تصنع علما.............. ٢٩٥
أعجبتني هذه الجارية .. ورضيتها عروسا لولدي ٢٩٨
هل تمنيتِ أن تعيدي دور الأمومة؟ ٣٠٣
ماذا لو غلبت عاطفة الأمومة شغف المجد لدى ولدها؟! ٣٠٩
رؤيا مبشرة بولد صالح............................ ٣١٥
هل يمكن أن أتبرع لها بعيني؟! ٣١٨
«لا يجني والدٌ على ولده» [حسن صحيح]............... ٣٢١
أمٌّ .. وعالمة، وداعية، ومحدِّثة، وقائدة، ومفتية ٣٢٨
تسع وسائل لصناعة العلماء ٣٣٣
لمسات أمّ توقظ قلبا وتصنع مستقبلا ٣٣٩
ماتت الأم العظيمة، وبقيت حيةً في ابنها ٣٤١
علاقة عميقة بين الأم والولد ٣٤٨
نصيف ومريم الصديقة............................. ٣٥٣

أيتها الأم الحنون ٣٥٨
الطفـــل الــــرادار ٣٦٦
كانت أمي تقرأ لي .. وأنت؟ ٣٧٢
كيف نعيد للحب عرشه المنزلي؟ ٣٧٩
بين الأمومة والطموح العلمي والوظيفي ٣٨٧
جماع الصفات في عظيمات الأمهات ٣٩٢
(ختامه مسك) ٤٠٤
ختـــــامًا ٤٠٩
من مصادر الكتاب........................ ٤١٠

أمهات أعلام (اصنعيني يا أماه)

الأسـمـاء	ص
أم أ.د. محمد السلومي، الخبير بشؤون العمل الخيري.	١٠
أم نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام.	١٢
أم الإمام أبي يوسف، صاحب أبي حنيفة.	٢٦
أم أ.علي بن جابر الفيفي، صاحب كتاب؛ لأنك الله.	٢٥
أم الإمام مالك بن أنس.	٢٨
أم الإمام أحمد بن حنبل.	٣٠
أم الدكاترة زوجة الشاعر يحيى توفيق.	٣١
أم الإمام الحسن البصري.	٣٢
أم توماس أديسون، المخترع التاريخي الشهير.	٣٣
أم الرئيس الأمريكي جون كوينسي آدامز.	٣٤
أم الرئيس الأمريكي إبراهام لينكون.	٣٤
أم نابليون بونابرت، القائد الفرنسي.	٣٤
أم د. عبد الرحمن العشماوي، الشاعر المعروف.	٣٦
أم الشيخ علي الطنطاوي.	٣٩
أم لوكاكو، لاعب منتخب بلجيكا.	٤٠
أم حكيم زياش، اللاعب المغربي.	٤٤

أم أ.د. عبد الله الغذامي، الناقد المعروف.	٤٥
أم أ. عبد الرحمن السدحان، كاتب، وأمين عام سابق لمجلس الوزراء السعودي.	٥٠
أم أ.د. صالح العايد (اللغوي وأحد رجال العمل الخيري).	٥١
أم دان براون، الروائي العالمي، صاحب شفرة ديفنشي.	٥٥
أم أ.د. بن كارسون، أول من نجح بفصل التوأم السيامي.	٥٧
أم الإمام عبد العزيز بن باز.	٦٢
أم الشيخ أ.د.عبد الرحمن السديس، إمام الحرم المكي.	٦٥
أم شيخ الإسلام ابن تيمية.	٦٩
أم الزبير بن العوام، الصحابي الجليل.	٧٤
أم الملك المؤسس عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود.	٧٧
أم أ.د. طارق الحبيب، عالم النفس الشهير.	٧٩
الأم البدوية الثعلبية.	٨٢
أم معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي.	٨٤
أم عبد الرحمن الناصر، خليفة الأندلس.	٨٥
أم أ.صلاح بن هندي، الشاعر.	٨٨
أم عبد الله بن الزبير، أسماء بنت أبي بكر.	٩٤
أم حبيب بن زيد، الصحابي الجليل.	٩٨
أم د. بشير بن صالح الرشيدي عالم النفس الكويتي	١٠١

أم الإمام سفيان الثوري.	١١٢
أم الأستاذ عبدالعزيز العفالق، رجل الأعمال الأحسائي.	١١٨
أم أحمد الغامدي، رجل الأعمال.	١٢٢
أم سدينة، الكاتبة الأردنية المبدعة.	١٢٤
أم الشيخ محمد الخضر حسين، شيخ الأزهر السابق.	١٣٣
أم د. راشد بن عبد العزيز آل الشيخ مبارك.	١٤٥
أم أ. نجيب الزامل، الكاتب المعروف.	١٤٧
أم د. عمر ود.سعيد ابني عثمان الملا.	١٤٩
أم أجاثا كريستي، الروائية الشهيرة.	١٥١
أم الإمام الشافعي.	١٦٠
أم الشيخ مبارك بن علي التميمي، جدّ أسرة آل الشيخ مبارك أسرة العلم والأدب في الأحساء.	١٦٤
أم أنس بن مالك، الصاحبي الجليل.	١٦٥
أم أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق.	١٦٨
أم عمر بهاء الدين الأميري، الشاعر المعروف.	١٧١
أم أبي الحسن الندوي، العالم والكاتب الشهير.	١٧٥
أم محمد بن عبد الرحمن الأوقص، قاضي مكة في زمانه.	١٨٠
أم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب	١٩٢
أم الخليفة عمر بن عبد العزيز.	١٩٣

أم عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز.	١٩٤
أخت الحافظ ابن حجر العسقلاني (ست الركب).	١٩٥
جدة أ.د.شعبان صلاح عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة.	١٩٥
أم د. إبراهيم بن صالح التنم، أستاذ الفقه في جامعة الإمام.	١٩٦
أم الشيخ أحمد بن سعيد المهيني، العالم الأحسائي.	٢٠١
أم أ.د الشيخ عبد الله بن محمد الطيار عالم الشريعة.	٢٠٤
أم أ.د. محمد يونس (صاحب بنك الفقراء).	٢١٧
أم د. عزام بن محمد الدخيل، وزير التعليم السابق.	٢٢٠
أم أ.عبد الله الهلالي، مواطن سعودي.	٢٢٠
أم مؤيد العراقية.	٢٢٢
أم د. الدكتور عائض القرني.	٢٢٨
أم د. مصطفى العقاد	٢٣١
أم الرجال، التي نمذجت تربية المعاقين.	٢٣٥
أم أبي هريرة، أكثر الصحابة رواية للحديث.	٢٤٢
أم جهاد، الطفل الكفيف الحافظ.	٢٤٣
أم شكسبير، الشاعر الإنجليزي الشهير.	٢٤٣
أم علي عزت بيغوفيتش، رئيس البوسنة السابق.	٢٤٤
أم أبي عبد الله الصغير، آخر ملوك غرناطة.	٢٤٥
أم الإمام القاسم بن محمد بن أبي بكر، أمام المدينة في زمانه.	٢٥٠

أم الإمام ربيعة الرأي، ربيعة بن أبي عبد الرحمن (فروخ).	٢٥٢
أم الإمام عبدالرحمن الأوزاعي، إمام الفقه والحديث.	٢٥٤
أم الإمام شعبة بن الحجاج، أمير المؤمنين في الحديث.	٢٦١
أم الإمام البخاري.	٢٦٥
أم أبي (أمي).	٢٦٩
أم أ.د. هدى بنت دليجان الدليجان	٢٧٩
أم محمد بن الحسين السلمي.	٢٩٣
أم العلامة وجيه الدين الحبيشي	٢٩٤
أم الشيخ منصور بن علي.	٢٩٤
أم عبد القادر الفاسي الحنبلي.	٢٩٤
أم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، العلامة الشرعي.	٢٩٥
أم إبراهيم الهاشمية.	٢٩٨
أم البديري الحلاق، المؤرخ.	٣١١
أم الإمام مسعر بن كدام، المحدث العدل.	٣١٤
أم ابن عساكر الدمشقي، صاحب تاريخ دمشق.	٣١٥
أم د. سمير بن سليمان العمران.	٣١٥
أم الفتاة الكفيفة.	٣١٨
أم القاضي محمد المحاملي (العالمة أمة الواحد).	٣٣٣
أم البنين، التي ربت أربعة علماء كبارا.	٣٣٣

أم إسراء بنت عرفة بيومي	٣٣٤
أم سعيد الزياني، الداعية.	٣٤١
أم د. عبد الله المغلوث، الإعلامي المعروف.	٣٤٨
أم د. عبد الله بن عمر نصيف، أمين عام رابطة العالم الإسلامي سابقا.	٣٥٣
أم ستريكلاند جيليلان، شاعر أمريكي.	٣٧٢
أم د. ذاكر نايك، الداعية الشهير.	٣٧٥
أم د. أحمد الطويل	٣٨٥
أم د. إبراهيم بن عبد الله الغانم.	٣٨٥
أم د. إبراهيم بن عبد الله السماعيل.	٣٩٧
أم د. خالد الحليبي مؤلف الكتاب.	٤٠٤

اصنعيني يا أماه..

سلسلة من القصص والنماذج العليا؛ تقربنا ممن نحب، وتضيف إلى أهدافنا في تربية أولادنا أهدافًا عليا أخرى، وتجعل ما كُنَّا نراه تاريخا، أو خيالا.. واقعا ملموسا.. يمكننا الوصول إليه بإذن الله تعالى.

كتاب يقوم على التقاط المواقف من داخل البيوتات النبيلة، تلك التي نبتت فيها طَلعةُ رجلٍ، أو مُحيًّا امرأة حقق الله بهما إرثا حضاريا، أو نجاحًا مميزًا.

ليس هذا كل الكتاب.. بل هو الورقة الأولى منه..

وأما صفحاته، فستظل تكتبها كلُّ أم طموح في العالم، تريد أولادَها أن يكونوا من أعلام عصرهم المؤثرين فيه..

دار الحضارة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض
daralhadarah@hotmail.com
الرقم الموحد : 920000908 الفاكس : 2702719 – 011
@daralhadarah 0551523173
زوروا متجر الحضارة : hadarah.store
متجر الحضارة HADARAH• STORE
SR: 35